لا أصدقاء سوى الجبال

تأليف:هارفي موريس و جون بلوج
ترجمة:راج آل محمد
مراجعة و تقديم:هادي العلوي

لا أصدقاء سوى الجبال

التاريخ المأساوي للأكراد

تأليف: هارفي موريس وجون بلوج

ترجمة: راج آل محمد

مراجعة وتقديم: هادي العلوي

صورة الغلاف بعدسة: ريكس فيتشرز

الإخراج و التنضيد:

BARAN COMPUTER

MERVAN DERKI

Lebanon - Beirut - Juniye

العنوان الأصلي للكتاب

John Bulloch and Harvy Morris

No Friends But The Mountains

The Tragic History of The Kurds

المؤلفان في سطور

ـ **جون بلوج:** كاتب ومراسل لشؤون الشرق الأوسط، وقد كتب عدداً من المؤلفات عن هذه المنطقة، عمل في بيروت كمراسل لجريدة ديلي تلغراف، ومراسلاً دبلوماسياً لهيئة الإذاعة البريطانية (B.B.C) وهو رئيس تحرير شؤون الشرق الأوسط في جريدة انديبندنت ومحرر دبلوماسي في جريدة انديبندنت أون سندى Independent on Sunday

ـ **هارفي موريس:** عمل بعد تخرجه من الجامعة في الصحف المحلية، وبعد ذلك انضم إلى وكالة رويتر للأنباء، وكان كبير المراسلين في طهران ١٩٧٩ وبيروت ١٩٨٠. بعد ذلك عمل مع صحيفة الانديبنْدنت لدى تأسيسها في عام ١٩٨٦ حيث عمل أولاً كمعاون لرئيس الشؤون الخارجية وأصبح بعد ذلك رئيس تحرير شؤون الشرق الأوسط، وهو الآن نائب رئيس تحرير الشؤون الخارجية.

وقد سبق لـ (موريس وبلوج) أن كتبا: حرب الخليج، تاريخ الصراع الإيراني العراقي، والكتاب الأكثر مبيعاً: حرب صدام، الغزو العراقي للكويت ورد الفعل الدولي.

كلمة شكر من المؤلفين

إن الكثير من الناس يستحقون الشكر لمساعدتهم في إنجاز هذا الكتاب، وبشكل خاص علي حسن، نائب رئيس مكتب (ح.د.ك) في القامشلي، سورية، الذي مكّننا من السفر إلى كردستان لرؤية ما كان يجري في تلك الأيام الموئسة في نهاية الانتفاضة الكردية في شماليّ العراق.

ونحن شاكرون كثيراً لـ (سيامند عثمان) الذي سمح لنا بالاعتماد على أطروحته (مساهمة في تاريخ الحزب الديمقراطي الكردستاني - العراق Contribution Historique a l'Etude du parti Demokrati Kurdistani) وإلى هيئة المعهد الكردي في باريس للمساعدة في استخدام مكتبته الضخمة.

وقد كان (هوشيار زيباري)، عضو اللجنة المركزية وممثل (ح.د.ك) في أوربا، كريماً بوقته وألقى الضوءَ على الأحداث الكبرى في كردستان العراق في السنوات الأخيرة اعتماداً على خبرته وذكرياته الشخصية.

وساعدنا، في وقت مبكر، الموظفون الرسميون في إيران والعراق وتركيا، حيث وجدنا القادة الأكراد دمثين ومتفهمين وواقعيين حول وضعهم.

كل هؤلاء وآخرون زودونا بمعلومات قيّمة أو ساعدونا في شرح بعض الأمور، لكننا نؤكد بأن الأحكام والتفسيرات والأخطاء هي لنا بكل ما في الكلمة من معنى

لندن و أكسفورد، ١٩٩١.

كلمة شكر من المترجم

إن الكثير من الأصدقاء يستحقون الشكر بسبب تشجيعهم وإبداء آرائهم وملاحظاتهم. وأخص بالذكر الأستاذ هادي العلوي الذي لم يتردد لحظةً عندما عرضت عليه فكرة مراجعة وتقديم الكتاب، بعد أن تأكد من أنه يتميز بالصراحة والموضوعية والأمانة التاريخية.

إنني أستطيع القول بأن الأستاذ هادي العلوي والجبال صديقان دائمان للأكراد. ولكن أهذا الحد؟ قد يتساءل البعض. فأقول بل أكثر من ذلك! فهل هناك صديق أفضل من ذلك الذي يقف معك أيام الشدة والمحن؟ فجبالنا الشماء تقف إلى جانبنا دائماً وهي ملاذنا كلما تعرضنا للتهجير والإبادة، ولكنها صماء لا تستطيع الاحتجاج مثل الأستاذ هادي العلوي الذي يشهّر قلمه دائماً لفضح الممارسات اللا إنسانية بحق الشعب الكردي.

أليس هو الذي تبّرأ من هويته العراقية حتى لا يربطه شيء مع ذلك الطيار العراقي الذي ((قصف الطفولة في كردستان)) بالأسلحة الكيميائية؟

أليس هو الذي فضح الصمت السوفيتي من ضحايا كردستان، في وقت كان الآخرون يطبلون ويزمّرون للاتحاد السوفيتي؟[1]

ثم أليس هو الذي يدعو إلى إقامة كردستان مستقلة مع أن الأكراد أنفسهم يطالبون بالحكم الذاتي أو الفيدرالية؟ وهذا ما دفعني إلى أن أقول له: أنت كرديّ في بعض مواقفك أكثر من الأكراد! فأجاب: ((لا. أنا أكثر كرديةً في مواقفي من برجوازيتكم. إن هؤلاء أكراد بالجغرافيا!)).

فشكراً أيها الصديق العزيز، وإلى مزيد من المواقف الأممية، وليتحقق - فعلاً لا قولاً - شعار الأخوة العربية - الكردية

دمشق ٢٢ - ٧ - ١٩٩٦

---

(١) حول ذلك انظر مداخلة الأستاذ هادي العلوي في العدد الخاص من مجلة النهج: البريسترويكا عربياً.

ملاحظة المترجم

عندما أعطيت مسوّدة الكتاب إلى أصدقائي لإبداء آرائهم وملاحظاتهم، اقترح عليَّ البعض حذفَ فقرات معينة لأنها قد تسيء إلى هذا الطرف أو ذاك، لكنني رفضت الفكرة من أساسها، ليس فقط لأن الأمانة الأدبية تقتضي ذلك، بل لأننا بحاجة إلى أن نسمع الرأي الآخر، ولقناعتي التامة بأن الحقيقة ليست مطلقة، فالحقيقة شيء نسبي وما هو حقيقة بالنسبة لي، ليست كذلك بالنسبة لغيري. وكما قال هنريك إبسن، الكاتب المسرحي النرويجي: ((ماتسمونه أنتم حقيقة، أسمّيه أنا حقائق!!)) What you call a truth I call truths بكلمة أخرى لا يوجد من هو صائب على طول الخط أو من هو خاطئ دائماً، فحتى الساعة المعطلة تكون مضبوطة مرتين في اليوم على حد تعبير لينين، وهذا يفرض علينا أن نسمع إلى الآخر وألا نعطي أحكام مسبقة الصنع. إن رفض اقتراح هؤلاء الأصدقاء يعني رفض الانتقائية التاريخية، أي تدوين ما هو لنا وحذف ما هو علينا، والتي يلجأ إليها مضطهِدوا شعبنا.

إن الكتاب يعبّر عن رأي المؤلفَيْن، وليس من الضروري أن أكون متفقاً مع كل ما ورد فيه، لكنني بذلت قصارى جهدي أن أكون أميناً للنص الإنكليزي وأن أحافظ على موضوعية الكتاب وأسلوبه الشيّق.

وأخيراً ألفت عناية القراء الكرام إلى أن ما بين [ ] إضافة من لدن المترجم إما للتوضيح أو لجعل الجمل أكثر ترابطاً وهذه الإضافات - وهي ليست كثيرة على أية حال - لا تُسيءُ في شيء إلى روح الكتاب ومضمونه. لقد حاولتُ إغناء الكتاب بالهوامش، وإن لم أستطع توثيق بعض الكتب، فمردّه إلى أنني اعتمدت على الملخصات التي أكتبها كلما قرأت كتاباً هاماً. فعُذراً لهذا النقص.

((القامشلي))

١٩٩٦/٤/٣٠

إني رأيت أنه لا يكتب أحدٌ كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غُيِّر هذا لكانَ أحسن، ولو زِيدَ هذا لكان يستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا لكان أجمل. وهذا من أعظم العِبَر وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر))

العماد الأصفهاني

الإهداء

إلى رزكار.....

أخاً.....

أباً.....

وصديقاً.....

Rajal

تقديم

هادي العلوي

تثير هذه الكلمة المستحدثة: كردستان فضول العديد من الناس للكلام عنها كواحدة من قضايا العصر برزت مع نهايات القرن التاسع عشر واستمرت ساخنة مع نهايات القرن العشرين. والمتحدثون عنها فئات شتى فيهم من يصدر عن وجدان إنساني وإحساس بالعدل وفيهم من يمشي مع الموجات والموضات فيردد ما يقال على المزاج إن صدقاً وإن كذباً. وفيهم من يوظفها لأمر يريد أن يبلغه مع نفسه أو مع قومه أو مع معسكره ومصالحه المشروعة والغير مشروعة. وكثرة الحديث عن كردستان دليل عافية لكردستان التي فرضت نفسها على الناس من أعداء وأصدقاء ومحايدين، إن كان قد بقي محايدين في الدنيا. وضمن هذه الموجة الصاعدة يشتد الإهتمام بكردستان في الغرب الأوربي والشمال الأمريكي اشتداداً يبدو لعين البصر كما لو أن كردستان تكافئ اسرائيل في أهميتها للغربيين. لكن الإهتمام الغربي بكردستان يدخل في عداد المثل العراقي ((مشتهي ومستحي)) وهو في الاهتمام باسرائيل قد حسم شهوته على حساب حياته منذ وطئت قدماه تراب هذا الشرق القريب من سواحل القارة الشقراء. ويرجع تعادل الشهوة والحياء بخصوص كردستان إلى اعتبارات كثيرة فصّل الكثير منها هذا الكتاب الذي نقدم لترجمته العربية. وهو عندي من الكتب المتميزة في قياس ما كتبه الغربيون عن كردستان، ومع أن مؤلفي الكتاب يعملان في نطاق امبراطورية الإعلام الأور أمريكية فإن القارئ يلمس في مجمل فصول كتابهما تعاطف صادق مع قضية شعب مظلوم. والاحساس بالعدل مهنة شرقية في الأساس وقد جعله فلاسفة الصين معيار التفرقة بين الإنسان والحيوان. لكن الحضارة عند ارتقائها في موضع ما تفرض معادلاتها الخاصة بها كمصدر للوعي والفكر. وحضارة الغربيين التي قامت على

النهب والعدوان والجريمة المنظمة عالمياً افرزت معادلات هي النقائض الجوهرية الفاصلة ما بين الامبريالية المتوحشة وخطوط التنوير الممتدة من القرن الثامن عشر إلى العصر الحاضر. وليس من المفارقة بالتالي أن نجد مقابل فرانسوا ميتران جان بول سارتر ومقابل مارغريت تاتشر برتراندرسل ومقابل هتلر غوته. وقد تلمست في هذا الكتاب الذي ترجمه المناضل[1] الكردي راج آل لوامع احساس بالعدل تحمل آثار غوته ورسل والقلة من أمثالهما في التاريخ الثقافي لأوربا. فالكاتبان هارفي موريس وجون بلوخ[2] يتخذان موقف تضامن من قضية الشعب الكردي محسوم ونظيف. محسوم: لأنه مع حقوق الأكراد ومطالبهم حتى النهاية التي يجب أن تتوج بإقامة دولة كردستان المستقلة. ونظيف لأنه غير خاضع لأية هواجس أو عقد مما تعودناه من الغربيين الذين يتطوعون لنصرة الشعب الكردي وغيره، ولكن ضمن أغراض بعيدة ونوايا قد تكون شريرة وسيئة. وأنا هنا أفكر بذلك التأييد الذي منحه للقضية الكردية أمثال أندريه ساخروف. وهذا الرجل معادي لكل ما هو عادل و شريف من قضايا الشعوب ولكل ما هو عادل وشريف من الأنظمة الاجتماعية والمبادئ الإنسانية، وهو احد الأشرار الذين ساهموا في تدمير الاتحاد السوفيتي وتوجيه الضربة القاضية إلى الشيوعية في روسيا وتسليمها من ثم إلى عصابات المافيا واقتصاديات البورصة التي حولتها إلى مزبلة بشرية وصارت تهدد كيانها السياسي والبشري بالاضمحلال ضمن خطة وضعها الغرب للتخلص من غريم خطر اقضى مضجعه على امتداد هذا القرن الحالي. مثل هذا الوغد الذي كان يدعو الولايات المتحدة إلى المزيد من العدوان على فلاحي فيتنام يتصدى للدفاع عن الشعب الكردي! أية نية شريرة يضمرها يا ترى بتأييده المشبوه لقضية ليست من مهنته ولا من همومه؟

في هذا الوسط القلق والمضطرب وعياً واحساساً وضميراً، أستطيع أن اصف كتاب موريس وبلوخ بالدراسة العادلة والمنصفة لقضية الشعب الكردي، فالحضارة الغربية المتعفنة التي انتجت امثال ساخروف وتاتشر ويلستين تتمخض بين النبضة والأخرى عن ضمير حي يتناغم مع الإنسانية ومطالبها العادلة.

---

(١) قلت للأستاذ (هادي العلوي) أن هذه الكلمة ليست على مقاسي، لكنه أصرّ على بقائها قائلاً: أن النضال لا يعني بالضرورة الانخراط في حزب سياسي أو حمل السلاح لكنني أؤكد: أنا لا أستحق شرف حمل لقب المناضل لقاء عملي المتواضع هذا.

(٢) يعتقد الأستاذ هادي العلوي أن الاسم ألماني في الأصل، وهو يلفظه على هذا الأساس. أما المترجم فيعتمد اللفظ الانكليزي.

يحتوي هذا الكتاب على تفاصيل متورخة شديدة الضبط والدقة عن القضية الكردية. ويبدوا المؤلفان على دراية كافية باسرار القضية وملابساتها وتعقيداتها. وقد أظهرا أيضاً معرفة جيدة بتاريخ الأكراد وأصلهم واستعرضا الروايات المتعلقة بذلك بمنهج نقدي محايد يتجاوز المألوف الخرافي والأخطاء الشائعة لحساب ونتائج مَرضيّة في حدود المصادر المتوفرة. وهما كصحفيين في الأصل قد لا يكون لهما من الخبرة في نقد التاريخ ما للمؤرخ المتخصص، لكن هذا لم ينال من قدرتهما على معالجة أمور تدخل في صميم عمل المؤرخ المحترف. والنتيجة التي استقر عليها الكاتبان من تلخيصهما التأريخي هي النتيجة التي ينطلق منها كاتب هذه السطور في دعوته لاقامة دولة كردستان: فهنا في هذا الجزء من العالم الشرقي المسمى كردستان تعيش أمة عريقة سبقت معظم شعوب المنطقة إلى الاستقرار فيها فهي واحدة من أقدم أمم الشرق وعلاقتها باقليمها أوثق والصق من علاقة معظم الشعوب المعاصرة ببلدانها المنسوبة إليها. ومما يفضح انسانوية الغربيين اجماعهم على اقامة دولة لشذاذ من المهاجرين على حساب شعب مطرود خارج حدوده مع استنفارهم لحماية هذه الدولة المهاجرة بكل ما عندهم من قدرات من السياسة والاقتصاد والحرب. واجماعهم في المقابل على رفض اقامة دولة في كردستان لشعب عريق. وقد تضمن كتاب:((لا أصدقاء سوى الجبال)) من فضائح السياسة الغربية في هذه المسألة ما لو كتبه كردي لاتهم بالمبالغة والتعصب!

إن الانحراف الإنساني الذي يرصده المؤلفان في معسكرهما الغربي تجاه الشعب الكردي هو نفسه الذي يجعل الغربيين يثيرون الضوضاء حول (القمع) الصيني في التيبت ويسكتون عنه في تركستان الصينية. فالمحرك لهذه الإنسانية هو الاستعمار والعقد النفسية المتوارثة وليس الإحساس بالعدل. وقد مر المؤلفان بالموقف من قضية التيبت كمسلك مسلم به جدياً، من غير أن يتساءلا عن السر في هذه الاحادية الأخلاقية! وأنا على أي حال لا أتهمهما بسوء الغرض فهما في كل الأحوال يفكران ضمن الوسط الذي انجبهما. وليس من المنطقي أن نطالبهما بفهم الدوافع التي تجعل دانيال ميتران تناصر الأكراد وليس الفلسطينين أو ندعوهما إلى التشكيك في نوايا داعية (حقوق الإنسان) اندريه ساخروف، أو التساؤل عن السبب الذي يجعل مارغريت تاتشر تهاجم خليفتها لتردده في نصرة الأكراد. على أني بهذا الاعتبار اسمح لنفسي بمناقشتهما ولكن لا على سبيل المضادة لخصوم سياسيين أو ايديولوجيين بل مناقشة من يتفقون على عدالة قضية ويختلفون في الهوامش. ومن الهوامش التي اختلفت فيها مع الكاتبين:

إن قوات الحلفاء لم تأتي إلى الكويت لصد العدوان عنها بل للدفاع عن مصالح استراتيجية لبلدان أوربا وأمريكا الشمالية وضمن نفس السياسة الامبريالية القائمة على التدخل العسكري منذ القرن التاسع عشر. واذكرهما بتساؤل بعض الكتاب الإيطاليين: ماذا لو كانت الكويت تنتج البندورة؟

والإغاثة التي جاءت إلى الأكراد في كردستان الجنوبية (المسماة كردستان العراق) لم تكن بدافع انساني أو استجابة لرغبات الرأي العام في الغرب بل هي استمرار لعملية التدخل التي بدأت في الكويت. وأنا مع ذلك لا أقول أنها كانت عملاً سيئاً. فلولا التدخل الغربي لأبيد الشعب الكردي عن آخره بقوات صدام التكريتي. إن متوحشاً من هذا الطراز لا يمكن صده إلا بمتوحشين مثله. وينبغي القبول بالنتائج الناجمة عن الإنشقاق في معسكر الأعداء فلولا انشقاق صدام عن اسياده الإمبرياليين لكان بمقدوره تحويل كردستان كلها إلى حلبجة من غير أن يصده احد. لقد كان هذا التصدع في جبهة العدو مفيداً للشعب الكردي. والمثل العراقي يقول: ((العقرب دواؤها النعل)) ـ العراقيون اعتادوا على قتل العقارب بأحذيتهم! ـ وينبغي لموريس وجون أن يضعا في حساب الرأي العام الغربي أن الحكم في الغرب يستند إلى الارادة الحرة للشعب الذي ينتخب حكامه في دورات معلومة. فالحكومات الغربية ليست طغم عسكرية أو انقلابية بل هي حكومات منتخبة، والشعوب الغربية من هنا مسئولة عن سياسة حكوماتها وهي تستطيع تغييرها إذا اختلفت معها في ذلك.

في هذا المساق يفكر المؤلفان من خلال مرجعية غربية يتعين على الأكراد أن يضعوها في حسابهم إذا ارادوا لقضيتهم أن تنتصر. أي المطلوب هنا تكييف النضال الكردي حسب مزاج الغربيين. والكتاب لذلك يمتدح الأكراد لأنهم لم ينخرطوا في اعمال إرهابية. إن مصطلح "ارهاب" يستعمله الإعلام الغربي لوصف العمليات الموجهة إلى البلدان الغربية بما فيها اسرائيل. ويشمل المصطلح ما يقوم به الأكراد في كردستان تركيا، العضو في حلف الأطلسي والتي تأتي في الأهمية بعد اسرائيل. والملحوظ هنا عدم تعاطف الكاتبين مع حزب العمال الكردستاني وسعيهما لابراز اخطائه وتضخيمها. ويأتي ذلك بتأثير الوسط الإعلامي الذي يعملان فيه وهو وسط معادي لأكراد تركيا ومتعاطف مع أكراد ايران والعراق. والتأثير غير واعي لأن الكاتبين مخلصان للقضية الكردية، لكنهما يصدران عن موقف ثقافي رخو من الثورات المسلحة، وتأييدهما للقضية الكردية محدود بالاعتبارات السياسية والدبلوماسية التي يعنى بها المثقفون. وهما يختلفان في ذلك عن برتراندرسل مثلاً، إذ كان يدعو الفيتناميين إلى قصف نيويورك إذا امتلكوا الوسائل.

إن المأزق الذي انتهت إليه الثورة الفلسطينية يكمن في تحولها من العنف المسلح إلى العمل الدبلوماسي. وهو المصير الذي تحاشته الثورة الفيتنامية بجعلها العمل المسلح هو الأساس وارغمت بذلك المعتدين الأمريكان على الانسحاب من فيتنام بعد مفاوضات شكلية لحفظ ماء الوجه. وفي اعتقادي أن التجربة التي يخوضها حزب العمال الكردستاني تضع القضية الكردية في المسار الفيتنامي أياه. وآمل أن تستمر وتتطور وإن يتحاشى قادة الحزب الدخول في مساومات الحل الوسط فقد ثبت أن المفاوضات التي تجري قبل الحاق الهزيمة العسكرية بالعدو انما تتم على حساب الأهداف النهائية للثورات. و يمكن لحزب العمال أن يكون حزب الأكراد كلهم إذا تجنب السير في خط الأحزاب الأخرى لاسيما حزبي البارزاني والطالباني. و لم أفهم سبب سخرية الكاتبين بهذا التوجه لدى حزب العمال سوى مزاجهما الثقافي.

لاحظت أيضاً انحياز من الكاتبين لعبد الرحمن قاسملو وتحامل على الملا مصطفى البارزاني. ولعل السبب راجع إلى كون قاسملو من المثقفين القلائل في القيادة الكردية. لكن قاسملو لا يملأ حيّز الملا لأنه لم يستطع التحول الى قائد شعبي على غراره. وهي مهمة صعبة في الواقع على المثقفين. والملا مصطفى قائد بمواصفات تاريخية. ونقطة الضعف فيه أنه لم يستطع خلق قيادات بنفس المستوى لتواصل مسيرته. و هذا حساب مهم في الثورات الناجحة لاسيما في الشرق. ويرجع الكثير من الانتكاسات التي عانت منها الثورات الى رحيل قائدها قبل انجاز مهامها مع شغور القيادة. و عندما نرجع إلى التاريخ نرى أدلة ملموسة على هذه السيرورة. فالنجاح الكاسح الذي حققته ثورة محمد لا يرجع حصراً الى عظمته كقائد تاريخي بل وأيضاً الى الكفاءات القيادية الضخمة التي خلقتها ثورته. ولذلك لم تواجه الثورة الإسلامية ازمة قيادة بعد رحيل المؤسس. وقد اقترن صعود الاسلام طيلة قرنين من عصره الذهبي بالعبقريات القيادية التي توالت على السلطة والمعارضة لتستكمل بوتيرة عالية ما بدأه محمد. ويصدق الحكم على الثورة السوفيتية التي استمرت بعد لينين من خلال عبقرية ستالين القيادية مع اختلاف الزعيمين في الوعي والوجدان. وقد تلمس المؤلفان حقيقة أزمة القيادة في الثورة الكردية. وأني لآمل أن تعالج هذه الأزمة على يد حزب العمال من غير أن يعني ذلك المضي في عبادة القائد على النحو الجاري فيه الآن. فقد دلت التجارب على أن القيادة تشغر بعد رحيل قائد حَمَداني معبود لأنه يكسف مَنْ حوله ويحجمهم فلا يترك فرصة لنمو مواهب قيادية بعده على نحو ما حصل في الثورة الصينية بعد رحيل ما وتسي تونغ وفي فيتنام بعد رحيل بنيها هوشي مين.

نقاط أخرى للمناقشة...

١ـ تحدث المؤلفان عن القضية الكردية في سوريا كما لو كانت بنفس العمق والإمتداد الذي تأخذه في العراق وتركيا وايران. والملحوظ أن الغربيين يركزون هذه الأيام على أكراد سوريا. ويرجع ذلك إلى محاولتهم التشويش على السياسة السورية بخصوص ما يسمى عملية السلام. يصعب الحديث في الحقيقة عن قضية كردية في سوريا بنفس ذلك الحجم والمقاس. فالأكراد في سورية لا يشكلون قومية كبيرة كما في العراق وايران وتركيا. وقضيتهم أقرب إلى أن تكون قضية حدود من ذلك النمط المتكرر والمألوف في الكثير من البلدان حيث تتداخل على جانبي الحدود جاليات ومواقع جغرافية تدخل هنا وهناك. ومن هذا القبيل ما يسميه القوميون العرب عربستان الإيرانية وهي ليست اقليم بل مواقع حدودية دخلت ضمن الأراضي الإيرانية ولا تتعدى الخطوط المتاخمة للضفة الشرقية لشط العرب. وقد أدخلوا فيها الأهواز وعربوها إلى الأحواز وهي مدينة فارسية منذ العصر الجاهلي ومعروفة بالأهواز من ذلك العصر لا الأحواز. ومن شأن القوميين في كل أمة النزوع إلى التوسع على حساب القوميات الأخرى. وينبغي التدقيق في ادعاءاتهم وعدم اخذها كمسلّمات.

٢ـ تحدث المؤلفان عن ((ولاية الموصل الكردية)) ويجب التفريق بين مدينة الموصل وولاية الموصل. فالمدينة عربية خالصة وجزء من أقليم العراق كما حدده الجغرافيون المسلمون منذ العصر الإسلامي. لكن الموصل تقع على حدود كردستان و تدخل في ادارتها قرى وبلدات بعضها سرياني وبعضها كردي. وقد فصلت عنها مدينة دهوك مؤخراً لتصبح محافظة مستقلة وهذا قرار صائب. وينبغي أن تشمل ادارتها القرى الكردية الملحقة بالموصل حتى يتم الفرز القومي على نحو صحيح وعادل.

٣ـ قال المؤلفان أن كلمة كرد تستعمل في العراق كمسبة للإشارة إلى البدائي و البدوي الغير مثقف. وهذا صحيح. ولكن الباعث عليه ليس عنصرياً وانما يجري على عادة العوام في التنكيت على غيرهم من أهل المدن الأخرى أو اتهامهم بأمور معينة بصرف النظر عن هويتهم. ومن هذا القبيل احاديث أهل بغداد عن أهل الموصل المتهمين فولكلورياً بالطمع والبخل والاحتيال. ويقول المثل البغدادي في ذلك: ((عاشر واوي ولا تعاشر مصلاوي)) والواوي هو ابن آوى !و هناك احاديث ونكات مماثلة في سوريا عن أهل حمص وهي ترجع إلى العصر الإسلامي حيث ورد في حكاية أبي القاسم البغدادي (الرسالة البغدادية) قول أبي القاسم عن نفسه:

حماقة مني. ومذ كنت لي حماقة، تَعرِضُ، حمصية

وفي الأدب الشعبي العراقي امثال عن بعض المدن المتهمة بسلوكيات معينة يرقى بعضها إلى العصر الإسلامي.

وقد تجنب المؤلفان الحديث عن المكاسب التي حصل عليها الأكراد في العراق بالقياس إلى أكراد إيران وتركيا. فقد اعتُرف بالأكراد كقومية لها خصوصيتها منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وأسست المدارس في كردستان العراق للتعليم باللغة الكردية الى جانب العربية ونشأت اجيال من أكراد العراق مثقفة بالثقافة الكردية ومتضلعة في لغتها القومية، وتبث إذاعة بغداد الرسمية برنامج باللغة الكردية يتوازى في مدة البث مع الإذاعة العربية. وتطورت الطباعة والنشر في كردستان العراق فصدر العديد من الصحف باللغة الكردية وطبع العديد من المؤلفات. وليس لهذه المكاسب ما يماثلها في ايران وتركيا. وبتأييد الحزب الشيوعي والشيعة[1] تقرر التعاطف مع الأكراد في الوسط العربي العراقي واقتصرت الشوفينية على التكتلات القومية الصغيرة.

وقد فَسَرَ المؤلفان قسوة الجيش العراقي على الأكراد بالروح القومية التي تتغلغل في صفوفه وهذا خطأ، فالجيش ينفذ أوامر حكومته. وقد قام بتوجيه ضربات مدمرة إلى مدينتي النجف وكربلاء بناء على تعليمات صدام وطالت قذائفه القبات المقدسة لدى الشيعة فخربها رغم أنه يتألف من قاعدة شيعية في الأساس. ان الجيوش النظامية حتى في البلدان المتقدمة لا تحارب بناء على مبادئ أو عقد خاصة بها بل هي خاضعة لتوجيهات القيادة السياسية ومن شأن العسكريين المحترفين تنفيذ الأوامر بصرامة دون التفات للاعتبارات الوطنية أو الأخلاقية. هذا فضلاً عن الطابع الأعتدائي للنشاط العسكري والروح الهجومية لدى العسكريين. وهذا كثيراً ما تخرج حتى على الحدود المرسومة لها من القيادة السياسية. وكان عمر بن الخطاب يتبرأ من ((معرّة الجيوش)) أي تجاوزاتها العدوانية بعد أن يكون قد زودها بتعليمات مشددة في هذا الخصوص.

٤- ربط المؤلفان بين الأبجدية اللاتينية والتقدم الاجتماعي والصناعي، واستندا إلى ذلك لوضع تركيا في مصاف الدول الأوربية. وتركيا بلد متخلف ولا يتصنف ضمن البلدان المتقدمة ولا يمكن مقارنة اسطنبول باي مدينة أوربية فهي من مدن العالم الثالث بامتياز. ونجد في المقابل أن الثورة

---

(١) قلت للأستاذ هادي العلوي أن الأحزاب الشيعية هي الأكثر معارضة لفكرة الفيدرالية، فقال: هؤلاء من الشيعة المُسيسين ويتبنون وجهة النظر الإيرانية أما الشيعة غير المسيسين فهم يتعاطفون بشدة مع الأكراد. المترجم

الصناعية حدثت في اليابان من خلال المقاطع اليابانية الـتي يتمسـك بهـا اليابـانيون ويرفضـون الأبجديـة اللاتينية. كما نهضت الصين بقيادة الشيوعيين وتحولـت الى دولـة صناعيـة كـبرى ذات قـدم راسـخ في الاقتصاد العالمي ومصدرة للمنتجات المصنعة من دون أن تتخلى عن المقاطع وتأخذ بالأبجديـة اللاتينيـة. ولا مجال للمقارنة بين تركيا وكل من اليابان والصين. أن الاتجاه إلى الأبجدية اللاتينيـة ينـدرج في عـداد الموضة السائدة. وأنا لا أقول ذلك لاعترض على توجه الأكراد نحو الأبجدية اللاتينية فالأكراد ليـس لهـم كتابة قومية يتمسكون بها كاليابانيين والصينيين فهم يستعملون الأبجدية العربية وهي اجنبية بالنسبة لهم وانتقالهم إلى اللاتينية لا يزيد ولا ينقص من وطنيتهم! لكـن الربـط بـين الأبجديـة اللاتينيـة والتقـدم هـو افتعال اورومركزي لايثبت للتجربة. ومن الجدير بالذكر أن الشعوب الـتي لها ابجديـة قوميـة لم تتحـول عنها مثـل الأرمـن والهنـود وأهـل التبـت ومنغوليـا الداخليـة الصينيـة وهـو أيضـاً حـال الكتابـة العبريـة والسريانية.

في الختام اقول أن كتاب ((لا أصدقاء سوى الجبال)) يتمتع بقيمته الخاصة به كمرجـع جديـد وطـازج في ((الكرديـات)) وهـو كتـاب يتسـم بالنزاهـة والمحبـة مـع المصارحـة والمكاشـفة بعيـداً عـن الدبلوماسية أو المجالات. ولا يملك محب الأكراد إلا أن يحب مؤلفيـه مهمـا اختلـف معهمـا. وأتمنـى أن يترجم الى اللغة الكردية ليقرأه الأكراد انفسهم مع أني أتمنى أيضاً أن تقيد الترجمـة الكرديـة بملاحظـات للمـترجم الكـردي ينبـه بهـا القـراء الأكـراد الى مـا يـراه في الكتـاب مـن أمـور تقتضـي النقـاش الحـر والموضوعي. سواء مما أوردته في هذه المقدمة مما قد يشاركني فيها أو من أمور أخـرى قـد تتعـارض مـع وجهة نظره. ولست مع الترجمة السائبة للكتب ولابد للمترجم أن يكون له رأيه فيمـا يترجمـه. ولينتهـي عهد التلمذة للغربيين مع احترامنا للمنصفين منهم، فالناس سواسية كأسنان المشط في العقـل والوعـي و الأستذة.

وسلامي لكردستان وأهلها واهنئ الفتى الكردي راج آل علـى مبادرتـه الناجحـة هـذه في ترجمة الكتاب واظهاره في لغة عربية متينة وسلسة مع أنها ليست لغته الأم.

لا أصدقاء سوى الجبال

التاريخ المأساوي للأكراد

الفصل الأول

الإنتفاضة

قبل الخامسة بقليل من عصر التاسع والعشرين من شهر آذار عام ألف وتسعمئة وواحد وتسعين خرج مسعود البرزاني ـ الابن الرابع للقائد الأسطوري ملامصطفى، القائد العام لقوات المتمردين الأكراد في شمالي العراق ـ من قصر الضيافة في صلاح الدين الذي صادره مؤخراً من صدام حسين. توقف برهةً من الوقت ليأخذ صورة تذكارية، ثم ركب سيارته البيضاء الفاخرة من نوع تويوتا، مخلفاً ورائه المصيف الجبلي من أجل عقدِ اجتماعٍ مع مجلس الحرب الذي يضم قواد الثوار التابعين لحزبه.

كركوك، كبرى مدن كردستان الجنوبية والجائزة الأثمن التي حصل عليها الأكراد بعد سبعة عقود من التمرد الشبه متواصل مع بغداد، سقطت في الليلة الماضية بيد قوات الحكومة العراقية بعد أن بقيت بيد الثوار لأكثر من إسبوع. أما مدينة أربيل، الواقعة على طرف السهل على بعد عشرة أميال من صلاح الدين، فقد كانت قوات صدام تحاصرها من الطرفين،بينما كانت الدفعات الأولى من اللاجئين ترتحل على متن سيارات الشحن الصغيرة (بيك آب) والسيارات العادية وحتى في دلاء الجرافات. وبدأوا يسدون الطرق الجبلية المؤدية إلى الحدود التركية والإيرانية الآمنة نسبياً. وبدا أن الانتفاضة الكردية، التي استطاعت في غضون ثلاثة أسابيع فقط إلحاق هزيمة منكرة بقوات الرئيس العراقي ونجحت في طرد قواته من خُمس الإقليم، كانت عملياً في نهايتها.

كان مسعود البرزاني وقواده يتأملون انهيار أكبر نصر دراماتيكي في التاريخ الكردي الحديث، بيد أنه كان قصير الأجل. ومع ذلك، عندما أُجبر الأكراد على قبول رسمي لقف إطلاق النار في الحادي عشر من نيسان، كانت قوات مسعود البرزاني لا تزال تسيطر على قسمٍ أكبر من الإقليم مما كان يفعل والده عندما كان في أوج قوته في السبعينات. أكثر من ذلك، فإن الهجرة الجماعية لثلاثة مليون كردي، خوفاً من انتقام محتمل من قِبل قوات صدام، لفتت أنظار العالم أكثر من أي وقت مضى

منذ أن خُدِع الأكراد بإنشاء دولة ملكية[1] في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

لقد عاد مسعود البرزاني من منفاه بإيران في بداية شهر آذار، بعد أسبوع من انتصار قوات الحلفاء بقيادة الولايات المتحدة على قوات صدام حسين التي احتلت الكويت، خلال أيام الانتفاضة العفوية التي قام بها الأكراد في بلدة رانية الصغيرة ضد عمليات القمع التي مكّنت حزب البعث العربي الاشتراكي من إحكام سيطرته. وفي غضون عشرة أيام امتدت الانتفاضة إلى كل المدن الكبرى، محررةً بذلك ٩٥٪ من كردستان. وفي ذاكرة معظم السكان، كانت هذه هي المرة الأولى التي يذوق فيها الأكراد طعم الحرية.وبعد سبعة أشهر من العقوبات الدولية ضد العراق، وقرابة شهرين من القصف الجوي كان هناك القليل من الطعام ومصادر الطاقة، أما خدمات الكهرباء والهاتف فلم تكن متوفرة ومصادر المياه كانت غير مؤمّنة. كان هناك جو من الغبطة والسعادة يخيم على شوارع أربيل وزاخو ودهوك وفي القرى الجبلية غذّاه شعور بأن التمرد قد أعطى ثماره هذه المرة ونجح في الاطاحة بدكتاتور بغداد، وأرسى دعائم نظام قوامه السلم والديمقراطية والحكم الذاتي في الوطن الكردي. وقد انتاب هذا الشعور حتى العناصر الأكثر ضباً للنفس في قيادة الثورة. وبدا لوهلةٍ إنهم نسوا قولهم المأثور والذي يرصد بدقة حالتهم: ((ليس للأكراد أصدقاء سوى الجبال)).

وهذا ما حصل فعلاً فقوات التحالف التي اجتمعت في الخليج لصد العدوان عن الكويت خذلت الأكراد في وقت كانوا بأمس الحاجة إليهم. وعندما وصلت الأنباء عن محنة اللاجئين الأكراد وهم يرتجفون برداً ويموتون جوعاً في منحدرات الجبال إلى العالم الخارجي حينها فقط، تحركت القوى الغربية التي كانت قد دحرت صدام حسين واستجابت للرأي العام بإقامة ملاذاتٍ آمنة للاجئين المذعورين في شمالي العراق.

كان المقاتلون الأكراد ـ وليست القوى الغربية ـ هم الذين أوقفوا سيل الهجمات المضادة للقوات العراقية في عيد الفصح.وبعد اللقاء مع قواده، أخفق البرزاني في إقناع زعماء العشائر بالوقوف معه في صلاح الدين لوقف زحف الجيش العراقي شمالاً عبر الطريق العام المؤدي إلى قلب كردستان. وبتوجه طابور الجيش العراقي نحو المنتجع الجبلي اعتقد معظم الأكراد بأنهم مقدمون على معركة خاسرة، فبعد تخلي حلفاء البرزاني عنه، لم يكن يفصل بين القوات العراقية، والمنطقة المحررة سوى

---

(١) إشارة إلى الوعد الذي قطعته بريطانية للشيخ محمود. المترجم

البرزاني نفسه، ومائة وخمسين من البيشمركة المكلفين بحراسته. تمركزت هـذه القـوة الصغـيرة في وادي (كور) شمال صلاح الدين، وفي مواجهـة بطوليـة ـ وحـدت بسـرعة طريقهـا إلى الفلكلـور الكـردي ـ استطاع الأكراد صدّ فرقة عسكرية عراقية مدعومة بالدبابات وراجمات الهيلوكوبتر. لم تسـتطع معركـة (كور) صد الهجوم العراقي فحسب، بل حمت الأراضي الكردية الواقعـة شمـالاً وكذلـك أمنّـت تراجـع اللاجئين المدنيـين وبحرمـان صـدام حسـين مـن نصـرٍ كـامل أجبرتـه علـى قبـول الجلـوس علـى طاولـة المفاوضات.

كانت انتفاضة ١٩٩١ لحظة نادرة في تاريخ القومية الكردية فلأول مرة كـان المجتمـع الـدولي بأسره معارضاً لنظام بغداد، إضافةً إلى أن التحالف الدولي بقيادة الولايات المتحدة كان يدعو وبقوة إلى اسقاطه. وبانتهاء الحرب الباردة وضعف نفـوذ السـوفييت لم يـرَ الغـرب أي عـائق في إتبـاع النصـر في الكويت بدعم للأكراد ولجميع قوى المعارضة التي تحارب مـن أجـل الخـلاص مـن نـير صـدام. وصـدّق الأكراد ما سمعوه، لقد أغرتهم الثقة بـالوعود الإيجابيـة للعواصـم الغربيـة، فشـرعوا بثـورة اعتقـدوا إنهـا ستستحوذ على دعم الغرب. ولكن هيهات، فالدعم الذي كانوا بحاجة إليه لم يأتِ أبـداً. ومـرة أخـرى أجبروا على العودة إلى سياسة الحوار مع عدوهم الأكبر.

عبر تاريخهم الطويل نادراً ما نعِم الأكراد بفترة سلام واستقرار، ولم يستطيعوا أبـداً أن يجـدوا حلفاءَ مخلصين. فقد كانوا على الدوام ضحايا انقساماتهم على أنفسهم، و أيضاً ضحايا لتنـافس القـوى الخارجية والمجاورة.حيث كان هذا التنافس على أشده في القرن العشرين. لقد كانت التجربة المُرة لآذار ١٩٩١ الأخيرة في سلسلة من الانتصارات الوشيكة والتي تحولـت فيمـا بعـد إلى كـوارث. ورغـم كـل الجهود الرامية إلى انكار وجودهـم، وسـحق هويتهـم، وشـخصيتهم المسـتقلة فقـد اسـتمر الأكـراد، في مقاومة تلك الأوضاع ويستمرون اليوم في النضال ضد الدخلاء لتحقيق مكانتهم اللائقة في العالم.

لقد عاش الأكراد، وأسـلافهم في هـذه الأرض، منـذ أربـع آلاف سـنة، ولكنهـم تمكنـوا لمـرة واحدة، فقط في العصور الحديثة من إنشاء دولة صغـيرة خاصـة بهـم. وفي عـام ١٩١٨ عـرض الرئيـس وودرو ويلسون Woodrow Wilson بيانه المؤلف من أربع عشرة نقطة على الكونغرس تحـدّث فيـه عـن مستقبل الوطن الكردي الناشئ على أنقاض الامبراطورية العثمانية. ولكن مكائد الامبرياليـة في أعقـاب الحرب العالمية الأولى، كانت كفيلة بعدم تحقيق هذه الإمكانيـة. وفي غضـون سـنتين أُلحقـت كردسـتان الجنوبية بالدولـة العربيـة العراقيـة الجديـدة المـدارة مـن بريطانيـا. و طوّقـت تركيـا الحديثـة مـن جهتهـا

الأراضي الكردية التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية وبدأت بسياسة محو ثقافي، بينما أُنزل بقية الأكراد إلى مرتبة أقلية من الدرجة الثانية.

ومع ذلك هنالك حد وهمي من سفوح جبال طوروس وزاغروس يمتد غرباً حتى الجزيرة السورية ونهر الفرات ثم شمالاً حتى البحر الأسود تقريباً. ويعيش ضمن هذه الحدود، ذات الطبيعة الجبلية، الأكرادُ الذين يشكلون أكبر أمة على وجه المعمورة ليس لهم دولة خاصة بهم.

يوجد هناك حوالي مليون كردي في أقصى شمال ـ شرقي سورية، وأكثر من أربع ملايين في العراق وخمس ملايين في إيران وأكثر من عشر ملايين في تركيا بالإضافة إلى أقلية صغيرة في الإتحاد السوفيتي[1]. أكثر من عشرين مليون يعيشون في منطقة بحجم مساحة فرنسة، تجمعهم ثقافة مشتركة ولغة مميزة عن لغات الشعوب المجاورة، ولكنهم موزعون بين حدود خمس دول.

ومنذ نهاية الحرب العالمية الأولى، كانت هناك دائماً ثورات بين الأكراد المطالبين بالحكم الذاتي والاستقلال وفي كل مناطق كردستان تقريباً. ولكن هذه الحركات كانت دائماً تُعزل وتُقمَع بشدة. خلال الحرب العراقية ـ الإيرانية كانت هناك لأول مرة ثورات كردية متزامنة ضد السلطات المركزية في العراق وإيران وتركيا وهي الدول الرئيسية التي تقتسم كردستان، معززةً بذلك الشعور القومي الذي ظهر من قبل بين الأكراد العاديين في عموم كردستان.

تختلف ظروف الأكراد من دولة إلى أخرى، رغم إن الجميع يعانون من الاضطهاد الذي يتدّرج من الإنصهار الثقافي إلى التصفية الجسدية. ومن السخرية إنه في العراق ـ حيث كان التعامل مع الأكراد اكثر وحشية ـ حصلت الأقلية الكردية، ولأسباب تاريخية، على أوسع حد ممكن من الحكم الذاتي. وربما نتيجةً لقدرتهم على الإحتفاظ بشخصية مستقلة عن بقية الدول المجاورة، كان أكراد العراق أيضاً أكثر تمرداً وعناداً. لهذا فإن تاريخ القومية الكردية المعاصر يهيمن عليه نضال أكراد العراق، فكان تأثيرهم على الحركة الكردية أكبر بكثير من حيث موقعهم العددي ضمن نطاق الأمة الكردية.

---

(١) هذه الاحصائيات أقل بكثير من تلك المعتمدة لدى الشعب الكردي في الوقت الراهن، إذ يُقدّر البعض عدد سكان كردستان بأكثر من ٣٠ مليون. كردستان تركية من ١٢ ـ ١٦ م. إيران من ٦ ـ ٨ ملايين، العراق من ٤ ـ ٥ ملايين، سورية مليون ونصف أخيراً الاتحاد السوفيتي سابقاً بضعة آلاف، انظر مثلاً (عرب وأكراد خصام أم وئام) لـ (دريّة عوني) دار الهلال ـ ١٩٩١ .المترجم

وقد تعلم أكرادِ العراق في المراحل المتأخرة من نضالهم الطويل، بأنه ليست هناك قوة خارجية يُمكن الإعتماد عليها. ففي عـام ١٩٧٥ خُدع قائد الثوار ملا مصطفى البرزاني من قبل القوتين المشتركتين لوكالة الاستخبارات المركزية [الأمريكية] (سي.آي.أ) - هنري كسينجر وشاه إيران ، حليفيه المفترضين ضد النظـام البعثي في العـراق ـ وأُبعد البرزاني عبر تسوية استراتيجية بين بغداد وطهران. وعندما تابع خلفاؤه النضال خلال فترة الحرب العراقية ـ الإيرانية، رُدَّ عليهم بعمليات التهجير الجماعية، وتدمير المدن والقرى الكردية وبسياسة الأرض المحروقة في الأرياف ، وأخيراً في عام ١٩٨٨ عانى الأكراد من الإستعمال المسرف للأسلحة الكيماوية من قبل القوات العراقية، مما أدى إلى هجرة جماعية للاجئين المدنيين، بينما كان المجتمع الدولي يتفرج بصمت مطبق. وعلى خلفية هذا الحدث، كان ينبغي على القيادة الكردية أن تغيّر استراتيجيتها عندما كان العالم يتجه نحو حرب الخليج في خريف ١٩٩٠.

وفي اوائل صيف ١٩٨٨ تنبأت القيادة الكردية في العراق بحملة الانتقام التي سيطلق عنانهاصدام حسين ضد الأكراد بعد أن أنتهت حربه مع إيران لذلك قرروا في شهر حزيران من ذلك العام وضعَ خلافاتهم الحزبية جانباً من أجل مصلحة الحركة الوطنية وتشكيل جبهة كردستان الموحدة، ومتابعة النضال من أجل مطالبهم المشتركة في الحكم الذاتي. كانت الجبهة مؤلفةً من الحزب الديمقراطي الكردستاني (ح.د.ك) بقيادة مسعود البرزاني، وحزب الإتحاد الوطني الكردستاني (أ.و.ك) بقيادة جلال الطالباني، والحزب الإشتراكي الكردستاني و حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني بقيادة سامي عبدِ الرحمن، والحزب الإشتراكي الصغير (باسوك) وكذلك الحزب الشيوعي العراقي ـ إقليم كردستان.

مثّل تشكيل الجبهة اعترافاً متأخراً بأن الإنقسامات المزمنة في الحركة الكردية، والتي شملت غالباً حروباً مفتوحة بين الأحزاب المتنافسة، لم تحقق شيئاً سوى خدمة العدو. و اعترف مؤسسو الجبهة بأن خلافاتهم الأيديولوجية لم تكن غير قابلة للوفاق، فقد اختاروا برامج سياسية معتدلة نسبياً تعتمد على حق تقرير المصير في إطار العراق. لكنهم ألزموا أنفسهم بالتعاون مع عناصر المعارضة العربية العراقية بتياراتها القومية والإسلامية و كذلك البعثيين المنشقين بهدف الإطاحة بصدام حسين، وهذا ما شجعته وحماس كل من سورية وإيران اللتين كانتا على خلافٍ مع نظام بغداد. فذهب مسعود البرزاني إلى دمشق وقضى هناك ثلاثة أشهر لإيجاد صيغة لبرنامج مشترك بين الأحزاب الكردية

والعربية، لكن الأحزاب الرئيسية الإسلامية الشيعية رفضت فكرة وضع اسمائها إلى جانب الأحزاب الديمقراطية والعلمانية في برنامج اقترحته مجموعات أخرى.

هذه الجهود الخجولة لتأسيس معارضة قادرة على الصمود في وجه صدّام مرت دون أن يلاحظها الغرب تقريباً، فقد كان الاهتمام بحقوق الإنسان في العراق يأتي في المرتبة الثانية من اهتمامات الغرب المنصبة على الأهداف التجارية ذات الفوائد الكبيرة المترتبة عن انتهاء الحرب العراقية ـ الإيرانية. وعندما وصل نشاط الغريلا[1] في كردستان إلى مرحلة من الجمود تابع العراقيون سياسة التدمير والتهجير القسري دون أية ضوابط، وبدا أن الخيار الوحيد المفتوح أمام قادة الأكراد هو مبادرة سياسية جديدة للفت أنظار العالم إلى محنة شعبهم. ومن أجل ذلك باشر مسعود البرزاني بجولة مخيبة للآمال في أوربة الغربية فزار فرنسة والسويد وبريطانيا وألمانيا الغربية وسويسرا ((لقد تولّد لديّ انطباع ـ أخبرنا البرزاني ـ بأنه كان يُنظر إلى صدام حسين في الغرب على أنه، في أسوء الأحوال، شرٌّ لابد منه واستمرار وجوده سيساعد في ضمان الاستقرار في الخليج، وفي أحسن الأحوال كانوا يعدونه إضافة مفيدة إلى جبهة العرب المعتدلين)).

لكن الزعيم الكردي، ظفر بنصر هام، عندما رفضت الحكومة البريطانية إعطاءَ ترخيصٍ رسمي، لبيع طائرات تدريب من طراز بريتش ايروسبيس هوك British Aerospace Hawk إلى العراق، بعد أن بيّن [البرزاني] أنها قد تُستخدم لأغراضٍ عدوانية ضد الأكراد. لاقت الصفقة دعماً من وزارة الدفاع و وزارة التجارة، ولكنها لاقت معارضة من وزارة الخارجية. فطُرحت القضية للنقاش في اجتماع مجلس الوزراء، حضره لأول مرة، في دوره القصير كوزيرٍ للخارجية، ورئيس وزراء المستقبل (جون ميجور). وربما نتيجة لقوة الإقناع عند البرزاني أو ربما لأن (ميجور) شعر بأن عليه ألا يعاني من هزيمة في مجلس الوزراء في بداية ولايته، فازت الأقلية في وزارة الخارجية في تلك الجلسة

في أجتماع للأكراد المنفيين بـ (لندن) تموز ١٩٨٩ قال مسعود البرزاني بأنه حاول تنبيه الغرب بعدم الثقة بصدام الذي خرج من حرب الثمانية أعوام مع إيران دون أن تُصاب قواته بأذى

---

(١) الغريلا: الداعر: المشارك في حرب العصابات. سنشير إليهم من الآن فصاعداً بـ (البيشمركة) المترجم.

كبير، وقال: أن دكتاتور العراق قد يباشر بمغامرة عسكرية جديدة، وإختار النزاع الحدودي بين بغداد والكويت كشرارة البدء لحرب محتملة. ولئن وصلت هذه المناقشات إلى آذان القادة الغربيين، فإنّها كانت آذاناً طرشة.

انعقد المؤتمر العاشر للحزب الديمقراطي الكردستاني (ح.د.ك) بقيادة مسعود البرزاني في كانون الأول ١٩٨٩ في قريةٍ نائية قرب أورمية في إيران، وكان هذا اللقاء الأول من نوعه منذ عقد من الزمن. وقد عرض البرزاني في المؤتمر استقالته كقائد للحزب بسبب هجمات الجيش العراقي بالغازات السامة على القرى الكردية، وما تبعها من هجرة جماعية قسرية، ولكنه أُقنع بعد إلحاح طويل على البقاء في منصبه. وبعد اثنا عشر يوما من مداولات مندوبي كردستان و الشتات حول كيفية إحياء الحركة الكردية بعد الهجمات العراقية الهمجية عامي ١٩٨٨ - ٨٩، قرر المؤتمر ـ رغم الرغبة في الاستسلام المشروط لصّدام ـ مواصلة النضال، ولكن بشرط عدم الإعتماد كلياً على تطوير جيش حرب العصابات. وفي خطوةٍ سيكون لها أثر بالغ على الإنتفاضة اللاحقة، قرر المؤتمر توسيع دائرة نفوذه في المدن الكردية، وإقامة إتصالات مباشرة مع وحدات الجيش الشعبي الكردي التابع للنظام بقصد تحالفٍ مستقبلي ضد صدام.

خلال عام ١٩٨٩ بدأت دوريات البيشمركة (الذين يواجهون الموت) بالتسلل إلى كردستان العراق لتنفيذ مهمات استطلاعية، فوجدوا وطناً مدمراً ومفرّغاً من سكانه كما وجدوا أن مدناً و قرىً بكاملها قد أُخذت قسراً إلى ما سُمي بـ (مدن النصر) وكانت هذه في الحقيقة معسكرات اعتقال لأولئك الذين طُردوا من أرضهم. ورغم الصعاب فقد تم اختيار مجموعة من القواد الكبار، بمن فيهم الدكتور كمال كركوكي، الذي سيتولى ـ فيما بعد ـ قيادة الانتفاضة على جبهة زاخو، لتنظيم قوات البيشمركة على الأرض بقصد الحفاظ على معنويات المدنيين الأكراد. كانت تعليماتهم تحضّ على الاستمرار في المقاومة ولكن تجنب مواجهات مباشرة مع الجيش قدر الإمكان.

والوضع كان كذلك عندما أمر صدام حسين قواته في الثاني من آب ١٩٩٠ بالزحف نحو الكويت.

لم يكن القادة الأكراد متأكدين، مثل الجميع، من أهداف أمريكا وحلفائها من إرسال حملة عسكرية للدفاع عن العربية السعودية ومواجهة العراقيين. واضعين نصب أعينهم تجاربهم الماضية من خيانة الغرب لهم، فضّل الأكراد موقفاً محايداً في النزاع، فأدانوا الغزو، رغم إنهم لم يدعموا كثيراً رد

الفعل الغربي له. ولم يرغب الأكراد، آخذين بعين الإعتبار ضعف قوتهم العسكرية نسبياً، في إعطاء صدام أية حجة لشنّ موجة جديدة من القمع في الشمال بدعوى تحيز الأكراد مع العدو. بل أُتخذ قرارٌ بتعليق كافة النشاطات العسكرية، في إشارة إلى صدام بأن الأكراد غير مستعدين لطعنه من الخلف إذا ما هُجمَ من قِبل الحلفاء.

لم يتوقع الأكراد من ازدياد نفوذ الغرب في الخليج أن يجلب أية فائدة مباشرة لهم. ففي الأشهر الأولى من الأزمة لم تكن هناك بالتأكيد أية فكرة في الغرب عن دورٍ محتمل للأكراد في استقرار عراق ما بعد الحرب، إذا كانت ثمة حرب حقاً. وكان الأكراد واعين لحقيقة إنهم إذا ما قرروا القيام بهجوم عسكري مبكر على النظام قبل أن يكون قد ضعف بما فيه الكفاية، فربما يكون رد بغداد كما كان في الماضي قصفاً بالأسلحة الكيميائية. حتى إن مبعوث صدام عزت إبراهيم ذهب إلى صلاح الدين ليحذّرهم قائلاً: ((إذا كنتم قد نسيتم حلبجة، أريد أن أذكركم بأننا مستعدون لتكرار العملية)).

لقد علموا من اتصالاتهم مع الغرب بأنه لن تكون هناك أية خطة لقَلبْ نظام صدام، واستنتجوا من ذلك بأن التحالف، الذي يجمع قواته في العربية السعودية، ليس لديه أي التزام بتغيير سياسي في العراق. لكنهم فكروا بأن صدام، وهو يواجه حرب محتملة، قد يكون مستعداً لتقديم تنازلات لضمان حياد الأكراد.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) أجرى ضباط المخابرات العراقية اتصالات غير مباشرة مع مسعود البرزاني عن طريق وسطاء أكراد. وأخبرهم البرزاني بأنه مستعد لأية مقترحات سلمية حقيقية لكنه لم يتلقَ الرد. وقد افترضت القيادة بأن الاتصالات لم تكن سوى محاولة من صدام لتقدير الحالة النفسية في المعسكر الكردي، وإن مقترحات السلام لم تكن جدية.

وبينما استمرت منفتحة على أية تنازلات قد يقدمها صدام ـ مثل حق الفلاحين الأكراد المهجّرين بالعودة إلى أراضيهم ـ وضعت القيادة خطةً لما ينبغي عمله في حالة انهيار النظام. وكان هذا يستدعي استعدادات لتشكيل إدارة للقيام مباشرة بمهام السلطة في مدن كردستان حتى يكون بالإمكان السيطرة في غضون أربع وعشرين ساعة فقط. وفي الفترة ذاتها من ازدياد النفوذ العسكري الغربي أيضاً، عقد البرزاني لقاءً سرياً مع محمد باقر الحكيم زعيم حزب الدعوة [1]، المناوئ لصدام، والذي

(١) محمد باقر الحكيم ليس زعيم حزب الدعوة بل هو رئيس المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق ولا علاقة له بهذا الحزب (هـ . ع)

يتخذ من طهران قاعدة له. وقد صرّح حزب الدعوة بأنه سيمثّل الشيعة في جنوبي العراق، مما أقلق البرزاني من سياسة التنسيق معه في حالة سقوط صدام.

وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٩٩٠ التقت كل الجماعات المعارضة في دمشق للبحث بالتفصيل عن سياسة تمكّن الجميع من المشاركة. لقد كانت المهمة شاقة، فالجماعات الشيعية كانت تريد ذكر الاشارات المعتادة إلى القرآن، بينما كان الشيوعيون والتنظيمات العلمانية الأخرى تعارض ذلك بشدة، وكان الأكراد يحاولون لعب دور الوسيط. وبعد ثلاثة أسابيع من مناقشات تميزت بالحِدَّة غالباً، تحقق موقف مشترك ببرنامج معتدل تمت صياغته للتصديق عليه في مؤتمر آخر عُقد في بيروت كانون الأول (ديسمبر). شاهد ذلك المؤتمر، في الأسبوع الأخير من عام ١٩٩٠ ولادة جبهة موحدة مؤلفة من الأكراد والأحزاب الأخرى من المعارضة العراقية يجمعهم هدفٌ واحد يتلخص ببساطة في الإطاحة بصدام وتشكيل حكومة ائتلافية للسير بالوطن نحو الديمقراطية. ومن أجل الحفاظ على سياسة عدم الإنحياز، لم يُدنْ المؤتمر غزو صدام للكويت فحسب بل أيضاً ازدياد النفوذ العسكري للغرب، الذي أعقب ذلك الغزو.

وحينما كانوا يحاولون الحفاظ على حالة الحياد العام، أراد الأكراد تقوية المعارضة العراقية وتذكير العالم بوجودهم، إذ حتى تلك الحظة، تم تجاهلهم على نطاق واسع. فمن بين خمسة أفراد من الميليشيا والقوات المسلحة العراقية كان هناك كردي والعديد منهم من المتعاطفين مع الحركة الكردية وهذا ما جعلها تمتلك دائرة استخبارات ممتازة على الاستعدادات الحربية العراقية، كما كانتْ لديهم رغبة حذرة من أن لا يُشاهدوا، وهم يساعدون مباشرةً أعداء صدام، لذلك اختار الأكراد أن يسرّبوا معلوماتهم إلى الصحافة الغربية أكثر منها إلى هذه الدول، مما ساهم إلى حد بعيد في ازدياد دورهم عندما تفاقمت الأزمة.

وتقريباً في نفس الوقت الذي باشر فيه الرئيس بوش في السابع عشر من كانون الثاني بخلق جوٍ من الحرب ضد العراق، بدأ الحلفاء يفكرون بطبيعة [النظام السياسي] في العراق الذي قد ينبثق من الأزمة. كان همهم الرئيسي هو ألا يتم تقسيم العراق، والا يقع تحت سيطرة هذه القوة المحلية (الأقليمية) أو تلك. ومع ذلك، لم تقدّم الإدارة الأمريكية أية فكرة واضحة عما تتوقعه، سوى الافتراض بأن خليفة صدام قد يكون من القوات المسلحة نفسها. آخذةً باعتبارها شروط مجلس الأمن التي تسمح باستعمال القوة في الخليج، و هشاشة الائتلاف[1] المواجه لصدام من جهة والريبة في دوافع

(١) ربما يقصدان التنافس بين أوربا و أمريكا حول السيطرة على الخليج. المترجم

وإمكانات المعارضة العراقية، من جهة أخرى، أعلنت إدارة بوش بأنه لا مجال لأي تدخل في سياسة العراق الداخلية. و لتعقيد المسألة من كل جوانبها، كانت سياسة منع الاتصال مع المعارضة العراقية لا تزال سارية المفعول منذ زيارة زعيم حزب الإتحاد الوطني الكردستاني، جلال الطالباني، إلى وزارة الخارجية عام ١٩٨٨ والتي أثارت موجة احتجاجات قوية من العراقيين والاتراك على حد سواء.

بدأ البريطانيون أكثر من الأمريكيين يدركون إمكانية الارتقاء بالمعارضة العراقية كبديل مقبول. وفجأةً وجد ممثلو الأكراد أن أبواباً كانت في السابق موصَدةً في وجوههم قد فُتحت لهم الآن. ومنذ كانون الثاني فصاعداً كان زعماء الثوار يُدْعَونْ إلى وزارة الخارجية لاجراء سلسلة من اللقاءات مع كبار الموظفين. كانت وجهة النظر البريطانية، التي طُرحت في تلك المحادثات، تقول بانه قد يكون للأكراد دور في عراق مابعد الحرب، ولكن ليس في الحرب نفسها. وفي حينه قال ديبلوماسي بريطاني كبير اشترك في تلك الاتصالات: ((إذا أُطيح بصدام، وظلوا مخلصين لبعضهم بعضاً، فقد يكون هناك فرصة للمعارضة العراقية)) لكن نفس الموظفين استنتجوا بأن لدى المعارضة فرصة ضئيلة في عملية إسقاط صدام. ولاحظوا أن الجماعات الكردية منقسمة بشكل لا يمكن معالجته.و استمر هذا الرأي حتى بعد لقاء المعارضة المشتركة من الأكراد والشيعة والقوميين في بيروت خلال شهر آذار لمناقشة استراتيجية مشتركة لمرحلة ما بعد الحرب.

لكن لقاءات لندن شجعت الأكراد للتصديق بدعم الغرب للانتفاضة. وفإذا كان البريطانيون ايجابيين إلى هذا الحد، فإن هذا يعني أنهم ينقلون بدون شك وجهات النظر الأمريكية. ألم يكن جورج بوش هو الذي دعا العراقيين في السادس عشر من شباط للإنتفاضة في وجه الديكتاتور؟ ((هنالك وسيلة أخرى لوقف إراقة الدماء)) ـ هذا ما قاله جورج بوش أمام جمعٍ من المستمعين في الأكاديمية الأمريكية لتقدم العلوم((إنها مسؤولية القوات العسكرية العراقية والشعب العراقي لأخذ القضية على عاتقهم وإجبار الديكتاتور صدام حسين للتنحي والاستجابة للأمم المتحدة لينضم العراق بعدها إلى الأمم المحبة للسلام)).

كان هذا واضحاً بما فيه الكفاية للشعب العراقي، الشيعة في الجنوب والأكراد في الشمال. فانتفضوا، كما أُوحي لهم، وأخذوا زمام المبادرة بأيديهم، ولو قدّم الغرب مساعدة ضئيلة لكانوا فعلاً

قد أجبروا صدام على التنحي جانباً ولا ستجاب خلفاؤه لكل قرارات الأمم المتحدة. ولكن ما لم يعرفُه الشيعة هو أن حليفي أمريكا (العربية السعودية والكويت) اللذين حرت الحرب باسمهما، لن يتسامحا مع دولة على حدودهما يقودها الشيعة التي قد تسلك نهج إيران. وفي الشمال استعمل الأتراك

حق النقض (الفيتو) ضد فكرة دولة كردية مستقلة. وكانت الفكرة مقيتةً، أيضاً، للإيرانيين الذين كانت أمريكا بحاجة إلى مساعيهم الحميدة للإفراج عن الرهائن في بيروت وكذلك بالنسبة للسوريين الذين لم يحبذوا أي تشجيع للأقلية الكردية الموجودة عندهم. وبدا واضحاً أن ما قصده الرئيس بوش حقاً هو أن أمريكا تحبذ نظاماً عسكرياً مذعناً يحكم بغداد. وهذا لا ينطبق على الأكراد والشيعة.

لم تكن هناك، بالطبع، أية وعود للأكراد والشيعة، ولكن ديبلوماسياً، لم يشترك في الاتصالات عبّر عن ذلك بصراحة قائلاً: ((لقد خُلق مناخ وكأنه يقول: إذا اجتمع بعض منكم أيها الشعب وانتفض ضد صدام فلن نتخلى عنكم. حسناً، وهذا ما فعلناه. وبناءً على الإشارات التي كان الغرب يعطيها، تشجع الأكراد وتخلوا عن الموقف المتحفظ الذي تبنوه طوال الأزمة وبدأوا يخططون لكشف أوراقهم الأخيرة مع صدام)).

وجاءت نقطة التحول مع الساعات الأخيرة لحرب الخليج، حيث كان وفد رسمي كردي كبير، من ضمنه جلال الطالباني، يتواجد في واشنطن لحضور مؤتمر بمجلس الشيوخ، ظاهرياً لمناقشة حقوق الإنسان في العراق. وفي الواقع كان قد تم إعداد اللقاء كفرصة للأكراد لمقابلة مسؤولي الولايات المتحدة. كان جوٌ من التفاؤل يسود بين المندوبين في هذا اليوم الأخير من الحرب حتى أن الطالباني كان يتناقش مع كبار مساعديه حول السفراء الذين قد يختارهم، إذا استلمت المعارضةُ السلطة.

ورغم أن الجانب الكردي كان تواقاً لمعرفة موقف الأمريكيين قبل اتخاذ القرار بكيفية التصرف داخل العراق، فإن مسؤولي الولايات المتحدة كانوا يرفضون اللقاء المباشر مع الأكراد. وفي محاولة لكسر هذا الجمود قام كل من الطالباني، وسامي عبد الرحمن وهو شيار زيباري، الناطق باسم (ح.د.ك) في أوربا، بحضور مأدبة غداء مع السيدة دانيال ميتران، زوجة الرئيس الفرنسي، والمؤيدة منذ حين للقضية الكردية بالإضافة إلى متعاطفين أمريكيين مع القضية الكردية أمثال كليبورن بيل Glaiborne Pell رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ ومساعده الأول بيتر كالبريث Peter Galbraith وقد تقرر أثناء مأدبة الغداء بأنه طالما كانت السيدة ميتران ستقابل السيدة بوش في وقت متأخر من ذلك اليوم فإنها ستنتهز الفرصة لتنقل من خلالها رسالة شخصية إلى الرئيس – ينبغي على الإدارة الأمريكية أن تستقبل الأكراد رسمياً تماماً كما فعلت الإدارة البريطانية والفرنسية. بيد أنها عادت من لقاء البيت الأبيض بخُفي حُنين. فالأمريكيون في ساعة نشوتهم بالنصر لم يرغبوا بتوريط أنفسهم في صراع طائفي [عِرقي] لدولة كانوا بصدد إلحاق الهزيمة بها.

ولم ينتظر الطالباني (بوش) حتى يغير رأيه. فسورية إحدى حلفاء أمريكا بالاسم في التحالف المعادي لصدام، والسعودية، الشريك الإقليمي الأول، كانتا تناوران من أجل نفوذهما في استقرار مرحلة ما بعد الحرب، وقد حُث الطالباني بالرجوع إلى الشرق الأوسط للمشاركة في تشكيل حكومة مؤقتة حيث كان الأكراد قبل الآن يطالبون بسبعة مقاعد في مجلس الوزراء. مسؤولون آخرون من الأكراد بقوا أكثر مما ينبغي، ولكن الإتصال المباشر الوحيد مع الإدارة كان عبارة عن لقاءٍ مع موظف صغير في وزارة الخارجية في إحدى المقاهي. لقد أُخبروا بأن لقاء مع موظف أكبر لم يُرخص له، ولا يمكن السماح لهم بالدخول إلى مبنى وزارة الخارجية.

ولكن الأحداث في العراق كانت تتعدى المناورات الدبلوماسية في واشنطن. ففي الثاني من آذار، وبعد ثمانية وأربعين ساعة من أمر الرئيس بوش بوقف الحرب، وجّه قائد دبابة ساخط، عايش الانسحاب من الكويت مدفعيته صوب تمثال ارتفاعه عشرون قدماً لصدام حسين في مدينة البصرة الجنوبية وكانت تلك الطلقة الأولى لتمردٍ انتشر بين الشيعة في الجنوب وشكلّ في الحال تهديداً لنظام الديكتاتور المهزوم.

إن النجاح الواضح لمتمردي الشيعة، الذين استطاعوا بسرعة الاستيلاء على معظم المدن الكبرى في الجنوب، نبهت الأمريكان الذين تخوفوا من أن لا يكون هذا مؤشراً على تقسيم العراق فحسب بل أيضاً إلى أقامة جمهورية اسلامية في الجنوب [1]. وزاد من هذه المخاوف التصريحات المبالغ فيها، لمحمد باقر الحكيم، الزعيم الشيعي المنفي الذي قابله البرزاني خلال أزمة الكويت، من أنه يسيطر على التمرد. كانت الحركة في الحقيقة عفوية في قسمها الأكبر وغير منسّقة وقد حدثت داخل القوات الموالية للدولة فكل يُبنى بسرعة ينهار بسرعة.

في الشمال كان الوضع مختلفاً. فالأمن الداخلي كان إلى حد كبير بيد الجيش الشعبي، الميليشيا الكردية التابعة للحكومة، والعديد من وحدات الجيش كانت قد انسحبت إلى الجنوب لخوض الحرب، والجبال ـ حيث قواعد البيشمركة ـ منيعةٌ على أي هجوم مضاد للحكومة.

---

(١) سبب الخوف هو اقامة جمهورية شيعية في الجنوب موالية لايران وهو مامنع المضي في تقسيم العراق الذي يخطط له الغربيون كلهم (هـ . ع)

كانت بلدة (رانية) الصغيرة التي يبلغ سكانها ستين ألفاً قد وقعت [بيد البشيمركة] أولاً في الرابع من آذار. وبعد بضعة حوادث ثانوية مع قوات الأمن البعثية، هاجم سكانُ البلدة مراكزَ قيادة حزب البعث مستخدمين نفس لأسلحة التي وزعها النظام أثناء حملة التعبئة العامة التي سببتها أزمة الكويت. كان لدى الجبهة الكردستانية في السابق قوات (بيشمركة) في المدينة كجزء من خطة زمن الحرب التي وضعتها الجبهة لاستلام السلطة في المدن في حالة سقوط صدام. كان البرزاني في بلدة (سردشت) الحدودية الإيرانية عندما بدأت الثورة فانتقل إلى العراق لقيادة الإنتفاضة.

بعد رانية سقطت بسرعة مدن وقرى أخرى في كردستان بيد قوات الثورة، أو الانتفاضة كما سمّاها الأكراد. فجاءت السليمانية بعد رانية ثم في غضون عشرة أيام تلت سقطت أربيل فدهوك و (عقرة) وفي نوروز، رأس السنة الكردية، و الذي يصادف ٢١ آذار كانت كركوك أغنى مدن الشمال بيد الثوار، وكانت الموصل تحت حصار قوات البيشمركة. وخلال اسبوعين من هزيمة صدام حسين في الجنوب، من قبل قوات التحالف، كانت كل كردستان في حالة تمرد وكانت قوات الديكتاتور في حالة تقهقر.

وفي منتصف آذار كان معظم جيش صدام قد دُمّر، فالشيعة انتفضوا ضده في الجنوب، والأكراد باتوا يسيطرون على معظم مناطق الشمال، بينما الأمريكيون وحلفاؤهم يحتلون سُدس أراضيه.أما البقية الباقية من قواته الجوية فيبدو إنها التزمت فعلياً البقاء في الأرض بعد تحذير واشنطن الفظ: ((إذا حلّقتم فإنكم ستموتون)) وبدا مستحيلاً استمرار النظام أكثر من أيام.

كانت إحدى الطرق إلى كردستان العراق تمر عبر نهر دجلة في نقطة تلتقي فيها حدود سورية وتركيا وإيران. وقد دخلنا في ذلك الطريق في السادس والعشرين من آذار ونحن راكبان في سيارة شحن تنزلق على الطريق الموحلة إلى دجلة حيث كان بإنتظارنا زورق خشبي بأربعة مقاعد لينقلنا إلى الضفة الأخرى في الجانب العراقي على بُعد مئة ياردة. كانت مجموعة من الآليات وجمعٌ من البشر واقفين في حقلٍ خلف لسانٍ ضيق من شاطئ حصوي. لقد سلمنا القائد المحلي لـ (ح.د.ك) في مدينة القامشلي السوريّة إلى ثلاثة من البيشمركة الصَمُوْتين [قليلي الكلام] أحمد وناكمادي وعكيد ـ ليرافقوننا في العشرة أميال التي تفصلنا عن زاخوأقرب المدن المحررة. وبدا كأنه قاعدة أن أحداً لا يعبر النهر فارغ اليدين، فقد كان الطعام يتناقص بسرعة شديدة على الطرف الآخر، لذلك عندما صعدنا إلى القوارب حملَ ناكمادي كيساً من الجزر ووضعه على متن القارب. وبعد أقل من ثلاثين ثانية كنا قد

عبرنا النهر، وعندما اقتربنا من الشاطئ الحصوي خاضَ نصف دزينة من البيشمركة في المياه الضحلة ليحملونا إلى اليابسة،وليرحبو بنا في "كردستان المحررة"

لقد كانت التقارير الواردة من كردستان طوال شهر آذار غير مفصلة. فالتصريحات التي صدرت في واشنطن ولندن وباريس عن ممثلي الجبهة الكردستانية والتي أكدت بأن كل القرى والمدن في شمال العراق قد وقعت عملياً بيد الثوار خلال أيام معدودة .كانت تقريباً مستحيلة التصديق. فصّدام ورغم كل شيء لا يزال لديه مئة ألف جندي متمركزين في الشمال حتى الحدود التركية بالإضافة إلى أعداد كبيرة من الأكراد الموالين للحكومة في وحدات الجيش الشعبي. وصرح المتمردون بأنهم يسيطرون حتى على كركوك، مدينة النفط الشمالية، والتي لم تقع في أيديهم أبدا منذ سبعين عام من النضال الكردي في سبيل الحكم الذاتي. وعلِمنا في زاخو والمدن الداخلية الأخرى بأن هذا الجيش الضخم قد انهار دون أي قتال. في أربيل كان مركز قيادة الجيش الخامس، الذي بواسطته تمكن النظام من بسط سيطرته على كردستان، مهجوراً. لقد كان الجنود يخرجون ببساطة رافعين أيديهم لدى أي حركة صغيرة من الثوار.لقد كانت هذه الهزيمة أكثر مذلةً حتى من تلك التي تعرض لها الجيش في الجنوب، حيث أُجبر جنود صدام على الخضوع بعد أسابيع من القصف بالقنابل من قبل الحلفاء. في كردستان كان الجنود يفرون في وجه الثورات العفوية للسكان المدعومين بمجموعة من قوات البيشمركة المدججين بأسلحة أثقل بقليل من البنادق الآلية والصواريخ اليدوية وكان دور وحدات الجيش الشعبي أساسياً في ذلك.و بحكم انتمائهم إلى عشائر كردية دعم زعماؤها صدام ضد إخوانهم الأكراد، تخلت هذه الوحدات عن عشائرها لتنضم جماعاتٍ جماعات إلى الثوار فور إعلان الانتفاضة.

لقد كان أضيق امتداد للأرض المحررة في مدينة زاخو نفسها، حيث كانت واقعة بين سلسلة من التلال المنخفضة والحدود التركية.و إلى الجنوب من الطريق الرئيسي إلى زاخو من نقطة العبور على نهر دجلة في (فيش خابور) امتدت الأرض المنبسطة على طول الطريق و حتى أقرب موقع للمدفعية العراقية على بعد عشرة أميال تقريباً.

تابعت القوات العراقية قصفها للطريق الرئيسية منذ سقوط زاخو في الرابع عشر من آذار وسيطر الأكراد على الطريق الخلفي المحاذي لمواقع الحرس والثكنات المهجورة، وقد بدأت المساعدات الدولية تُرسل إلى مركز إبراهيم الخليل حيث دمرت القوات العراقية الجسر المشيد على نهر الخابور والذي يؤدي إلى تركيا. وقريباً منه كانت النساء الكرديات قد أقمن مخيماً ونشرن غسيلهن.

في زاخو استولى (ح.د.ك) على مدرسة واتخذها مركزاً للقيادة، حيث نصب مقاتلوه على السطح مدفعين خفيفين مضادين ـ للطيران، بينما ألصقوا على واجهتها الشعارت وصورة للزعيم الراحل ملا مصطفى البرزاني. كان دخان الخشب يتصاعد أمواجاً من الكشك الذي يبيع الكباب في الجهة المقابلة. في حين كان صاحب المحل الرجل الوحيد تقريباً في الشارع بدون بندقية على كتفه أو مسدس على خاصرته. وحالما نزلنا من الشاحنة صفق الحشد الذي في الشارع. فقد كانت عدة أيام من الشعور الشديد بالفرح كافية ـ إذا كنت من الغرب ـ لأن تربطك بطريقة أو بأخرى، ببطل كردستان الجديد، الرئيس جورج بوش. لقد سمّوه الحاج بوش، مستخدمين التعبير الذي يدل على الاحترام المقتصر على أولئك الذين يزورون مكة للحج. وقد قيل إن الأولياء سموا المواليد الجدد باسمه، تقديراً لإنتصاره على الطاغية صدام حسين. كانت علاقة حبٍ تحتاج بالكاد إلى أكثر من أسبوع لتأخذ مجراها الطبيعي. وفي غضون أيام، عندما بدأ جيش صدام هجومه الذي لا يرحم باتجاه الشمال، كان الناس يتساءلون بغضب متزايد: ((أين هو بوش؟ لماذا لم يأتِ لنجدتنا؟)).

كانت كبرى غرف المدرسة مليئة بقوات البيشمركة المسلحين، رجال أقوياء البنية، متوسطي العمر ذوي شوارب كثة ويلبسون عمائم مختلفة الألوان تنّم عن أنهم ذوو مقامات عشائرية رفيعة. كانت حكومةً تعاني من عدم التخطيط وكان نظام الإدارة، الذي مكّن الثوار من إدارة الأقليم خلال الأسابيع القصيرة من الحرية، بدائياً ومتخلفاً. وكان شاب في مقتبل العمر يجلس خلف طاولةٍ يتلقى سيلاً لا ينتهي من الناس الذين يسلمونه رسائل مكتوبة باليد، وكان هو يوقعها أو يضعها جانباً. كانت هناك فواتير للطعام وللبنزين ـ وكانت هذه أندر ـ ورسائل قصيرة لإعطاء الأوامر للبيشمركة من أجل التحرك من موقع إلى آخر. وقد كان الطعام الذي يقدمه البيشمركة بعضاً من خبز الصاج، ومربى المشمش وقطعة من جبن الغنم الهش. كل هذه الأشياء منحهم إياها إخوانهم الأكراد في سورية. لقد عانى الأكراد، مثل كل العراقيين، من العقوبات التي فرضتها الأمم المتحدة على العراق في آب ١٩٩٠ بعد غزو الكويت، وكان التمرد معناه الآن عدم وصول المؤن والذخيرة من الجنوب.

من بين المتمردين كان هناك الكثير ممن فّروا من الجبهة الجنوبية عندما كانت هجمات التحالف في أوجها ومن بينهم شهاب أحمد، رجلٌ صغير الحجم، ناتئ الأذنين قال بأنه كان في مدينة البصرة الجنوبية عندما بدأت الحرب وقال: ((كنا في غرفة محصنة تحت الأرض لمدة أربع وعشرين ساعة يومياً، عندما بدأ القصف الأمريكي، وقد هرب كل من استطاع أن يهربَ، عربياً كان أم كردياً)).

لقد خدم الأكراد في الجيش العراقي غالباً في كتيبة المشاة الالزامية بالخطوط الأمامية وكانوا على الدوام وجبةً لمدفعية صدام، مغامرة العرب الكبرى. ولم يكن رفاقهم العرب في حال أفضل. لقد قابلنا بعضهم في وقت الغروب تقريباً حيث كان قسم من مجموعة مؤلفة من سبعين شخصاً مكوّمين في شاحنة برتقالية اللون، عالية الأطراف متجهة صوب سورية التي وعدت بأنها ستؤويهم. كان هؤلاء قسماً من عشرات الآلاف الذين استسلموا أو أُسروا من قِبل الأكراد في الأيام الأولى للإنتفاضة. كانوا يرتدون ثياباً ممزقة وتفوح منهم رائحة نتنة ولكنهم كانوا ينشدون بسعادة: ((فلتحيا الثورة البيضاء وليسقط صدام)) قال لنا الجندي أياد من الموصل بأنه يخدم في الجيش منذ عام ١٩٨١ وأكد ـ ربما لمصلحة الأكراد المحيطين به ـ أن صدام طاغية وظالم، لقد خيّرنا الأكراد بين البقاء هنا أو الذهاب إلى سورية فاخترنا سورية لأننا لن نستطيع الرجوع إلى عائلاتنا ما لم يسقط صدام)).

لقد علّم الضباطُ الجندينَ العرب أن يهابوا الأكراد، ولكن عندما جاءت الانتفاضة عُومِل الذين استسلموا معاملة حسنة. فَأُسكن البعض منهم في المساجد والبعض الآخر أَوَتْهم عائلات كردية. ولكن الطعام كان لا يكفي للشعب الكردي ناهيك عن الأربعين ـ خمسين ألف أسير الذين سقطوا بسهولة في أيدي الأكراد، لذلك أُخبر الأسرى العرب بأن يتصرفوا بأنفسهم لإيجاد ما يطعمهم. كان جزء من خطة الجبهة الكردستانية عدم القيام بأية أعمال انتقامية ضد الجنود أو أفراد النظام العاديين، ولا حتى ضد الجيش الشعبي الذي لعب دوراً حيوياً في إنجاح الانتفاضة. لكن عمليات الانتقام طالت البوليس السري فقد كانت جدران الفِناء، في مركز قيادة المخابرات العسكرية في أربيل، مثقوبةً وملطخةً بدماء ثمانية وعشرين موظفاً بعثياً في صفوف الأمن الداخلي الذين نُفّذ فيهم حكم الإعدام على الفور.

وقد اتخذ قائد القوات الكردية في زاخو من فندق بغداد مركزاً للقيادة. والفندق بناية متواضعة مؤلفة من طابقين، وغرفهُ ـ حيث رابطت قوات البيشمركة ـ أشبه بالزنزانات. كانوا يجلسون على الأرض وهم يتناولون حصتهم من الطعام. أما القائد المحلي لمدينة زاخو الدكتور كمال كركوكي وهو مفكر هادئ في السابعة و الثلاثين من عمره، ولهَ شعر وشوارب اشتعلا شيباً وإحدى يديه ضامرة بسبب إحدى الإصابتين اللتين تلقاهما خلال عشرين سنة تقريباً من القتال في صفوف البيشمركة. و بينما هو جالس في ضوء مصباح كيروسين في ثيابه الخاكية الفضفاضة والرمانات تتدلى على خصره ومسدس من عيار ٤٥ يبرز من تحت حزامه وبندقية الكلاشينكوف AK -47 في حضنه، لا يزال يحتفظ بسيماء طبيبٍ ريفي أو ناظر مدرسة في بلدة صغيرة. وبينما كان الأكراد لا يزالون في حالة هجوم،

تحدّث هو عن خطته بتحريك قواته من زاخو عبر السهل بإتجاه الجنوب لإقامة موقع دفاعي لتعطيل المدافع العراقية التي كانت تضرب الطريق الرئيسي.

لكن المشكلة التي واجهته في الحال كانت تأمين الطعام والمواد الطبية، فقد كانت أقرب نقطة عبور المتمثلة في الجسر المُشيَّد على طريق الحدود التركية مغلقةً. ((لقد ذهبت إلى الحدود ـ يقول الدكتور كمال كركوكي ـ في بداية الإنتفاضة، إلى نقطة إبراهيم الخليل و قابلت هناك عدداً من الضباط الأتراك الذين جاؤوا من ديار بكر وطلبوا منا أن نأخذ جرحانا إلى هناك لكن الجسر لم يكن قد رُمم بعد. وقالوا بأنهم سوف يثيرون القضية مع أنقرة ولكن لم نتلقَ أي جواب .... ونحن لا نتوقع شيئاً من الحكومة العراقية، فالشيء الوحيد الذي أرسلته لنا الحكومة هو الموت عن طريق الأسلحة الكيميائية ونيران المدافع. وهذا ما سمح به صدام للتعامل مع الأكراد بهذه الطريقة)).

في جناح قذر من مشفى زاخو كان يرقد ضحايا القتال خارج البلدة حيث جروقهم مروعّة وأملهم في البقاء على قيد الحياة بدا ضئيلاً جداً بغياب الضمادات والأدوية والعقارات المخدرة ((إن ذلك الرجل أُحرق بقنبلة الفوسفور ـ العضوي)) هذا ما قاله الدكتور حسن صبري وهو يشير إلى رجل فَقَدَ كل جلد وجهه وأبقى يديه فوق صدره لأنهما كانتا تؤلمانه تحت البطانية. وتابع يقول: ((لقد سقطت قنبلة من الطائرة على رجله وانفجرت. إن نسبة الأمل في بقائه على قيد الحياة لا تتجاوز العشرين في المئة)). وفي أقسام أخرى من المشفى كانت العيون الحزينة لأمهات ينحنين على أسرّة أطفال ذوي جلود صفراء منتفخة نتيجة لسوء التغذية: ((لقد فقدنا أطفالاً هنا من قبل لسبب بسيط هو عدم توفر الطعام))

كانت القوات الكردية مجموعة تضم مختلف الفئات: المحترفين مثل الدكتور كركوكي والهواة المتحمسين الذين يسافرون ـ حتى عندما تشتد وطيس الحرب ــ إلى عائلاتهم عند الغروب بسيارات يوقفونها ليركبوها مجاناً بالاضافة إلى الوحدات التي كانت في السابق ميليشيات تابعة لصدام وبسرعة غيرّت وجهتها.

من بين المحترفين كان سائقنا (علي حسين عزيز) وهو أسمر وسيم في منتصف الثلاثينات، ذو مشية عسكرية وصوت أحش خشن لا يتناسب وهيئته. كان يتصف بالصفات الكردية التقليدية من عناد وكرم. ولكن الصفة الثانية كانت دائماً تغلب الأولى. له زوجتان وتسعة أطفال تركهم في زاخو عندما توجهنا إلى المجهول. لقد أمضى (علي حسين) في صفوف البيشمركة عقدين من الزمن وكان

دائماً نظيفاً ببدلته الضاربة إلى الصفرة ويعيد كل صباح طيّ جَمَدانته[1] الحمراء والبيضاء التي تشكل عمامته حيث كان يلفها بدقة حول قلنسوة بيضاء صغيرة ليربطها بعد ذلك بإحكام على الطرف. كانت القماشة حمراء وبيضاء وهذا يدل على أنه من جماعة البرزاني. أما سيارته فهي من نوع لاندكروزَر من تلك التي تركها الجيش العراقي خلفه، وقد كُتب عليها بطريقة الاستنسل [2] كلمة (ح.د.ك). وقد لُصقت على زجاج السيارة صورة الراحل العظيم ملا مصطفى، الزعيم الأول للأكراد العراقيين في العصر الحديث. ورغم إن الجنود الفارين عطلوا القادح لمنع الثوار من استخدام السيارة، إلا أن علي حسين كان ينجح عادة في إعادة الحياة إلى المحرك وذلك بدفع السيارة. وإذا أراد التوقف كان يستخدم تقنية ضغط ماسورة بندقيته من نوع AK - 47 على دواسة البنزين وذلك لمنع التوقف المفاجئ للمحرك. كان يحب أن يسوق بسرعة، لهذا عندما كان يُبطئ أو يميل إلى الأمام وهو في مقعده فإننا كنا نعرف أنه يشعر بخطر غير مرئي في الأمام. في إحدى المرات أبطأ السيارة في منطقة جبلية لأنه رأى ثعلباً. في البداية أبدى رغبةً في إطلاق النار عليه ولكننا بالخرافة، أكثر من أي شيء آخر، استطعنا إقناعة بترك الثعلب.

في أسفل الطريق العام المؤدي إلى دهوك بإشاراتها التي تحدد طرق الموصل وتكريت و بغداد، كان يمكن رؤية عربات الجيش المحروقة والصهاريج المهجورة. وفي الطريق إلى ضواحي المدينة رأينا سيارة (شيفروليه ماليبو) وقد تسلقت حاجز الطريق الحجري وبداخلها الشرطة السرية الذين سيقوا إلى هذه الزاوية وقُتلوا هناك في ليلة الانتفاضة. خارج الموصل ومن الطريق الفرعية لـ (عقرة) كان يمكن رؤية طائرة هليكوبتر عراقية وهي تحوم ببطء على جبل مقلوب حيث عدة مئات من البيشمركة يسيطرون على مفترق الطرق لما ظنوه هجوماً على الموصل، رغم إن مسعود البرزاني كان قد أكد في تلك الليلة بأنه ليس هناك أية نية لمهاجمة هذه المدينة العربية ما لم ينتقض العرب أنفسهم ويطلبون النجدة. بدت القوات الكردية في حالة ارتباك من مسؤولياتها وزاد الطين بلة انضمام المتطوعين ووحدات الجيش الشعبي إلى آلاف البيشمركة الذين صمدوا في الجبال حتى إعلان الانتفاضة. ورغم التشوش والفوضى الواضحين أبدى المقاتلون انضباطاً ومرحاً متميزين، ففي اربيل، عاصمة كردستان العراق، كانوا ينتظرون بفارغ الصبر في طابور طويل في سيارتهم المغطاة بالوحل من أجل الحصول على

---

(١) الجَمَدانة هي الكوفية المخططة التي يلفها الكردي على رأسه على شكل عمامة.المترجم

(٢) الاستنسل: كتابة أو رسوم تُطبع بتحبير الورق وغيره من خلال خروق صفيحة رقيقة (من معدن أو ورق مقوى..) مخرَّقة على صورة حروف أو رسوم. المترجم.

قطرات ثمينة من البنزين التي ستوصلهم إلى الخط الأمامي على بعد أقل من عشرة أميال. هناك قَطَعَ الجيش العراقي طريق كركوك وكانت هذه بداية الهجوم المضاد لقواتَ صدام حسين التي ستضع حداً للانتفاضة وتتسبب في هجرة جماعية للسكان.

كان مركز قيادة البرزاني في صلاح الدين بإحدى أكثر قصور صدام تواضعاً حيث كانت مصطبتها تطلّ على سهل أربيل. وفي ليلة السابع والعشرين من آذار كان البرزاني يتشاور مع قواد الجيش الشعبي الذين انضموا إلى الثوار.

فيما بعد كان البرزاني تواقاً جداً لأن يوضح لضيوفه الأجانب سياسة الجبهة الكردستانية في مسألة الحكم الذاتي والاستقلال: ((إن كل كردي يشعر بانتمائه إلى الأمة الكردية، ولكن الظروف، الآن، غير مؤاتية لدولة كردية، لذلك فالهدف الاستراتيجي الواقعي هو أن يتبع كل واحد منا الدولة التي يعيش فيها، بكلمة أخرى قبول الحكم الذاتي)) هذا ما قاله البرزاني الذي أكد أنه يتصور عراقاً تسيطر فيه بغداد على الشؤون الخارجية و الدفاع والميزانية وإنتاج النفط، بينما تُترك الأمور المحلية في الشمال بيد الأكراد.

وقد أبدى البرزاني دهشته أيضاً من سرعة نجاح الانتفاضة وقال في هذا الصدد: ((لقد كنا نتوّقع أن تستغرق الانتفاضة من شهرين إلى ثلاثة أشهر، ولكن الجيش لم يقاوم تقريباً)). وقد أبدى مخاوفه من أن الانتفاضة لن تستمر ما لم تأتيها مساعدة من القوى الخارجية فناشد بدون اقتناع [من أن تستجيب هذه القوى] الولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة لإقامة جسر جوي للمؤن إلى القواعد الجوية التي يشغلها الأكراد في كركوك وأربيل والسليمانية و لم تأتِ المساعدة أبداً، أو على الأقل لم تأتِ إلا بعد إخفاق الثورة وفرار مئات الآلاف من الأكراد خوفاً من الجيش المتقدم، حيث كانوا يموتون جوعاً في الجبال العالية.

ورغم إن الأكراد كانوا قد أُجبروا على التقهقر من المدن في غضون أقل من أسبوع، إلا أن الثورة تركت أثراً ذا مغزى يتجلى في فك ارتباط قوات الجيش الشعبي ولاءها لصدام حسين. إن سياسة (فرق تسد) كانت تُستخدم على نحو تقليدي لمنع بزوغ حركة كردية مستقلة وموحدة في العراق، وقد حاول صدام، مثل أسلافه، اللعب على وتر المنافسات العشائرية وغيرها لتحريض الأكراد ضد بعضهم البعض. ولكن في انتفاضة ١٩٩١ أثبت الأكراد الموالين لبغداد ـ الذين يُعرفون في عموم كردستان باسم

(الجحوش) ـ أنهم ليسوا فقط غير جديرين بالاعتماد عليهم كحلفاء بل لعبوا أيضاً دوراً قيادياً في الثورة ضد الحكومة المركزية.

وخلال استفحال الحرب في الكويت ارتكب صدام خطأً قاتلاً وذلك بتخليه عن الأمن الداخلي في الشمال (للجحوش) لكي يفرّغ الجنود للجبهة الجنوبية. وكانت الجبهة الكردستانية على علم بهذه التغيرات فزادت من حملتها الرامية إلى إجراء اتصالات مباشرة مع قوّاد الجحوش بقصد التحالف.

في أربيل كانت الوحدة (٥٦) للجيش الشعبي بقيادة رفعت شيرواني الذي اعترف بأنه صديق سابق لصدام حسين نفسه. والشيرواني رجلٌ لافتٌ للنظر بشواربه الرمادية الرفيعة وثيابه وعمامته الكردية، ويبلغ من العمر الثامنة والأربعين ويتماثل كثيراً مع (ايرول فلين Errol Flynn) وهو يمثّل دور ملك القرصان الخرافي. يدّخنُ بشكل متواصل سجائر (ل.م) حيث يصر على ضيوفه بتدخينها بدلاً من سجائرهم. وقد وضّح لنا أهداف الجيش الشعبي قائلاً: ((إن الهدف الأول للجيش الشعبي هو أن يقتل الأكرادُ الأكرادَ)) وأكد الشيرواني إنه بعد غزو الكويت سحب صدام أحسن قواته من كردستان واعتمدَ على وحدات الجيش الشعبي لضمان الأمن الداخلي. ولكن ، ووفقاً لـ (الشيرواني) كانت هذه الوحدات تنتظر فرصةً لتنقلب على الديكتاتور ولدعم إخوانهم الأكراد: ((أعرف صدام شخصياً. لقد زرته وتناولنا الطعام معاً. أنه رجل مريض ومرضه يكمن في أنه يريد أن يتباهى أمام الناس. إنه يريد أن يُنجز كل شيء باسمه. لقد كان انضمامنا إلى الحكومة بحرد تكتيك، فنحن كنا ننتظر اليوم الذي نستطيع فيه أن نفعل شيئاً. والآن أرى أن كل الأمة أو على الأقل ٩٠٪ يدعمون الانتفاضة، وإذا لم يرفع التحالف الحصار عنه أو السماح له باستعمال الطائرات فإنه منتهي)) وفي ساعة مبكرة من تلك الأمسية كانت أول طائرة هليكوبتر تستكشف ضواحي أربيل، وبعد ثلاثة أيام سقطت المدينة.

ووسط الفرحة الغامرة بالثورة، كانت هناك علامات شؤم تشير إلى انهيارها الوشيك، وتأكدت صحة العلامات المشؤومة تلك في واشنطن في السابع والعشرين من آذار عندما أعلنت المتحدثة باسم وزارة خارجية الولايات المتحدة (مارغريت تيتوايلر Margaret Tutwiler) بأن العراق يحشد قوات ضخمة في شمال بغداد لاسترداد كركوك. وفي صباح اليوم التالي كانت المداخل الأربعة للطريق العام بين أربيل وكركوك، باشاراتها الطرقية السياحية باللغتين الانكليزية والعربية وصور صدام حسين التي شوهها الشعب على بعد كل ميل أو نحو ذلك تقريباً، مسدودة خارج قرية ألتون كوبري،

التي تبعد على بعد خمسة آلاف سبان[1] عن نهر الزاب الصغير. وعلى مسافة كانت طائرتا هليكوبتر تحومان وتطلقان النار بين الفينة والأخرى حيث نصب البيشمركة مدفعاً مضاداً للطيران. وفي الليل هاجمت الطريق قوة مشتركة من نحو عشرة آلاف جندي عراقي ورغم صدّ البيشمركة كانت الطريق إلى كركوك عملياً مغلقة. ورغم كثرة عددهم لم تكن لدى قوات البيشمركة، التي كانت معتادة على القتال في الجبال أكثر منها في السهول، لا المعدات ولا القدرة على رد الهجوم.

وتكررت نفس القصة في صباح اليوم التالي على طريق موصل ـ أربيل: فعلى بُعد أقل من ميل من مدينة أربيل، قرب مركز قيادة الجيش الخامس المهجور التابع لصدام، كان الطابور الأول من سيارات الـ (بيك آب) والسيارات العادية وحتى الجرافات محملة باللاجئين وأغراضهم تتجه نحو أربيل. وعلى بُعد ميل آخر، وعلى ارتفاع يطل على بلدة كلك الصغيرة تمركزت مجموعة من البيشمركة خلف سد أرضي، بينما تفرق الآخرون في الحقول المجاورة حالما بدأت قاذفات القنابل بضرب جانب الطريق إلى الغرب قليلاً. ظهر العراقيون في الصباح ومعهم الدبابات وصُدّوا على جسر (بيلي) الحديدي المشيّد على نهر الزاب الكبير في بلدة كلك. لقد كانت استراتيجية الحكومة واضحة في تقسيم المنطقة المحررة إلى نصفين لتتأكد من أن هجومها المضاد لن يتم صدّه، فالموارد الكردية لا تكفي وقوى التحالف لا تُبدي أية رغبة في مساعدتهم.

في مركز قيادة البرزاني في صلاح الدين اعترف (فاضل ميراني) وهو عضو بارز في الـ (ح.د.ك) بأن كركوك قد سقطت مسبقاً في هجوم جوي وبري أستُخدمت فيه مائتان و خمسون

دبابة، ((لقد فُرض علينا الاستيلاء على هذه المدن. لم نكن معتادين على القتال في المدن، إنها المرة الأولى)) هذا ما قاله الميراني.

في الجبال خلف مدينة صلاح الدين حيث كانت الهجرة الجماعية قد بدأت، في البداية ببطء ودون تخطيط [عفوية] ثم تحوّلت إلى هلع عندما كانت القوات العراقية تتجه شمالاً دون أن يتمكن أحد من توقيفها. اتجه اللاجئون نحو الحدود التركية والإيرانية عبر طرق موحلة ومروا بخرائب لنحوّ ٤٥٠٠ قرية دمرها صدام رغبةً منه في الانتقام لخيانة الأكراد المزعومة أثناء الحرب العراقية ـ الإيرانية. اللاجئون الذين فروا أولاً كانوا أولئك القريبين من ساحة القتال في (عقرة) وعلى جبهة الموصل. كانوا يعتزمون

---

(١) سبان: وحدة قياس انكليزية تساوي ٩٩ إنش

البقاء في الجبال حتى يُصد الهجوم العراقي، أو إذا سارت الأمور بشكل سيء، حتى يتوجهوا صوب الحدود. وقد شكل هؤلاء طليعة اللاجئين الذين أضحوا في غضون أسبوع سيلاً من المعاناة البشرية. كانوا يفرون من الجيش الذين يتقدم، خائفين من أن يرسل صدام طائراته، كما فعل سنة ١٩٨٨، ويرشهم بالغاز حيث هم واقفين ((أين هو جورج بوش)) صرخ رجل بالقرب من خرائب بلدة برزان (أخبروه أنه يجب أن يفعل شيئاً)).

لكن واشنطن رفضت أن تتزحزح. وفي وصف انتقادي بالغ لسياسة الإدارة أثناء التمرد خُتِم تقرير مقدّم إلى لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي على النحو التالي: ((إن معاملة الحكومة الفظة للأكراد ولزعماء المعارضة العراقية الآخرين فُسِّر على أنه دليل واضح أن الولايات المتحدة لم تكن تريدُ النجاحَ للثورة الشعبية. وقد تَثبُت ذلك في تصريحات أدلى بها من خلف الكواليس مسؤولون في الإدارة بأنهم كانوا يتطلعون إلى بديل عسكري، لاشعبي لصدام حسين)).

وفي الثلاثين من آذار أصبحت القوات الكردية في حالة تقهقر. لقد تغيّر الوضع في زاخو بشكل مثير، أصبح عدد البيشمركة في المدينة أقل مما كان قبل بضعة أيام، وكان جو من القلق يخيم على الشوارع وفي غضون أربع وعشرين ساعة سقطت المدينة بيد الحكومة.

الفصل الثاني

الملاذ الآمن

في تلك الأسابيع الثلاثة العنيفة كان ثمة أملٌ. فمن الأيام الأولى لشهر آذار سنة ١٩٩١ ولغاية الخامس والعشرين منه، كان الأكرادُ القوة الوحيدة التي بإمكانها أن تمارس أية سلطة في شمال ــ شرقي العراق، ومع ذلك فالقول بانهم يسيطرون على كردستان العراق سيكون تجاوزاً لحقيقة الوضع إذ لم يكن لديهم لا الرجال ولا القدرة ولا حتى البنية التحتية لإقامة إدارة مدينة في تلك الرقعة الشاسعة وخلال فترة قصيرة . كان قوّاد البيشمركة يمثلون السلطة في مناطق عملياتهم التي لا تزال في الريف والقرى أكثر منها في المدن، رغم ان المقاتلين الأكراد سيطروا على مدن زاخو ودهوك والسليمانية في الأيام الأولى من الانتفاضة دون أية صعوبة تذكر. وكان ينبغي عليهم أن يخوضوا معركة في كركوك. وبحلول العاشر من آذار عندما سحقَ الحرس الجمهوري التمردَ في الجنوب كان الأكراد يسيطرون فقط على جزء من كركوك و كان الجزء الأكبر بيد وحدات الجيش التي لم تشترك في الحرب والتي لا تزال موالية لصدام.

في الخامس والعشرين من آذار هاجمت راجمات الهليكوبتر والطائرات ذوات الأجنحة الثابتة المواقع الكردية وانتشرت وحدات الحرس الجمهوري بسرعة وفعالية من جنوب القطر واستمرت في الهجوم. وبعد ثلاثة أيام كان كل شيء منتهياً، فقد وقعت كركوك تحت سيطرة الحكومة من جديد وبعد عدة أيام أخرى سقطت دهوك وأربيل وكانت السليمانية الأخيرة التي سقطت.

في ذلك الشهر الموئس[1] كان زعماء الأكراد في وطنهم، إذ أُحتُفي بـ (جلال الطالباني) بشكل تفاخري[2] في منطقة عشيرة بارزان وكُرَّم (مسعود البرزاني) بمهرجان فرح عندما ذهب جنوباً إلى منطقة الطالباني. وطبقاً للتعاليم الراسخة لكل جماعة، ركزّ البرزاني على محاولة الاستمرار في القتال، وحشد رجاله للاحتفاظ بالزواية الشمالية ـ الشرقية من العراق على أقل تقدير، بينما شرع

---

(١) الموئس: باعث على اليأس

(٢) تفاخري: مُعَدّ للفت الأنظار. المترجم

الطالباني بسياسته الديبلوماسية ـ الشاقة والمعقدة على الأغلب ـ والتي كانت دائماً موطن قوته فزوّدته منظمة أستخبارات خاصة في لندن بهاتف متصل مع القمر الصناعي حتى يكون على اتصال دائم مع العالم الخارجي من مركز قيادته المؤقت على تلة تطل على السليمانية.

وفور استعادة العراقيين للسيطرة بدأ النشاط السياسي بلقاءات سرية بين بغداد والأكراد أفضت إلى المفاوضات المباشرة بين الطرفين في العشرين من نيسان. والشيء اللافت للنظر في العلاقة الجديدة كان العناق المتلفز بين طالباني المبتسم بإبتهاج وصدام حسين المبتسم المتزن. بدت القبلات باتزان التي تبادلاها بمثابة أضاليل بالنسبة لكثير من الناس، ولكن أغلبية الأكراد كانوا يرونها تعبيراً عن واقع جديد: مرة أخرى أخفقت الثورة الكردية لذا فقد جاء وقت المفاوضات.

ولكن في هذه المرة كانت للإنتفاضة القصيرة الأمد نتائج تجاوزت بكثير حدود العراق. فبعد كل الذي حصل فرّ الأكراد لا بالآلاف أو مئات الآلاف بل بالملايين، وقد وصفها، بحق، الرئيس التركي (تورغوت أوزال) بأنها أكبر هجرة جماعية في العصور الحديثة. وسرعان ما كان لها أثرٌ مباشر على بلده وعلى إيران، وأثرّت كذلك على شعوب وحكومات الكثير من الدول الأخرى، إضافة إلى الأمم المتحدة ووكالات الإغاثة في الغرب.

لقد فرّ الأكراد بهذه الأعداد الهائلة لأنهم كانوا على دراية بما يمكن أن يحدث، فذكرى الهجوم بالأسلحة الكيميائية سنة ١٩٨٨ لا تزال طرية في ذاكرتهم كما أن السبعة و العشرين ألف كردي الذين فرّوا في حينه من العراق لا يزالون في المخيمات في تركية، وكان يُعرف على نطاق واسع بأن الذين قبلوا العفو العام الذي عرضه صدام حسين وعادوا إلى بيوتهم اختفوا بسرعة. وكان في مقدمة ما يزيد من مخاوفهم التقارير اليومية الواردة من جنوبي العراق. فقد كان الأكراد يستمعون إلى نشرات الأخبار من إيران التي كانت، لغايات خاصة بها، تقدّم تقارير مفصّلة وتبالغ في كثير من الأحيان، عما كان يجري في جنوبي الوطن. فقدمت الإذاعة الإيرانية وصفاً دقيقاً عن القسوة التي رافقت تحرّك الحرس الجمهوري نحو البصرة، وعن وحشية الأعمال الانتقامية ضد مقاتلي الشيعة عندما تم أسرهم، وكذلك عن الاستخفاف بحُرمة الأماكن المقدسة عندما انتقل الجنود إلى كربلاء والنجف. وجاءت القشة التي قصمت ظهر البعير مع قصف كركوك بالقنابل من قبل الجيش العراقي قبل أن ينتقل لاسترداد المناطق الأخرى التي استولى عليها الأكراد. فإذا كان العراقيون قد تصرفوا بهذا الشكل مع مدينة يعتبروتها جزءاً من العراق ومكان عرّبوه بدقة وحرص وذلك باستقدام الناس من الجنوب، فماذا سيفعلون إذاً مع مدن وقرى كردية تماماً؟ كان الأكراد يعرفون الجواب، ولذلك شرعوا بترك كل مدينة

وبلدة رترية في كردستان العراق من أجل الأمن الذي تمنوه في الدول المجاورة. على أية حال غادر كردستان حوالي مليوني شخص رجالاً ونساءً وأطفالاً وتوجهوا إلى تركيا وإيران. لكن نسبة النساء والأطفال كانت أكبر إذ بقي الكثير من أرباب الأُسر أما للقتال مع البيشمركة أو لحراسة بيوتهم وممتلكاتهم.

كان الوقت لا يزال شتاء والجبال مغطاة بالثلوج والرياح قطبيشمالية وعندما أصبح الطقس معتدلاً أصبحت الطرق موحلة ومنزلقة وبدأت فيضانات مفاجئة تغمر الأنهر. كان ذلك أسوء الأوقات لهجرة جماعية عبر تضاريس هي الأقسى في العالم. وعندما وصل الأكراد إلى الملاذات التي قصدوها، وجدوا إن إحداها - تركيا - قد منعتهم من الدخول والأخرى - إيران - كانت راغبة في قبولهم لكن لم تكن لديها لا الموارد ولا القدرة على التعامل مع أزمة كهذه.

اتجهت أنظار العالم نحو تركيا، في الأغلب لأنها سمحت للصحفيين بالدخول لرؤية ما يحدث، بينما احتفظ الإيرانيون في الأيام الأولى بسياستهم في إبقاء المراسلين خارج إيران. وكانت النتيجة موجة من الإنتقادات لتركيا، تلك الانتقادات التي أضرّت على نحو خطير بعلاقاتها مع حلفائها الغربيين، وفي إحدى المراحل كتبت صحيفة حكومية في أنقرة مايلي:

((إن دولاً لم تقدّم مأوىً لمشرد عراقي واحد تشوّه الآن سمعة تركيا حكومة وشعباً. ومما يؤسف له حقاً هو أن الاتهامات تلك تأتي من الدول الصديقة لتركيا. اللهمَّ احمينا من هكذا أصدقاء، أما أعداؤنا فنحن نحمي أنفسنا منهم.))

كان سبب كل المشكلة هو قرار السياسة التركيّة بتوقيف اللاجئين على الحدود، وكان الأكراد على وعي لما قد حصل سنة ١٩٨٨ تماماً كما كانت تركيا يقظة من عدم السماح بتطور الموقف والذي قد يودي إلى [إقامة] مركز دائم للاجئين وعدم السماح للأكراد في أن يحاولوا الانخراط في حياة سكان الأقاليم الشرقية. فمع استمرار حملة ((PKK Partiya Karkerê Kurdistan)) الماركسي المتطرف الذي يشّن حرب عصابات في شرقي تركيا كان الزعماء الأتراك متخوفين من انضمام أكراد العراق - الذين لا تزال طعم الحرية تحت لسانهم — إلى أولئك المتمردين الأتراك لمحاولة إقامة كردستان هناك أكثر منه في العراق، أو على الأقل استخدام الحدود التركية لشنّ هجمات على قوات صدام حسين مما قد يورطها في صراع أقليمي حاولت منذ زمن طويل تجنبه. إن التراخي في القيود التي كانت مفروضة على استعمال اللغة الكردية والتنازلات الأخرى التي أعلن عنها الرئيس (أوزال)

أصبحت نافذة المفعول، ولكن أجواء عدم الثقة بالأكراد بدت واضحة في الصحافة التركية التي كانت تشير إلى الأكراد الفارين بـ ((العراقيين المشردين))[1]. لذلك أصدرت السلطات التركية مرسوماً يقضي بوجوب إبقاء اللاجئين على الجانب العراقي من الحدود. وهذا معناه بقاء اللاجئين على قمم الجبال وليس في الوديان المأهولة التي يمكن الوصول إليها بسهولة في الجانب التركي من الحدود حيث كان بالإمكان إطعامهم وتنظيمهم بسهولة أكبر. بدلاً من ذلك انتشر الجيش التركي للتأكد من أن الأكراد لا يعبرون الحدود وشُوهدوا على شاشات التلفزيون العالمية وهم يستعملون الهراوات وأعقاب البنادق وحتى الذخيرة الحيَّة للتأكد من تنفيذ أوامرهم. ولأن سيارات الشحن لم تكن تستطيع التغلب على الطرق الجبلية الشديدة الانحدار في ظروف الشتاء، فقد كان هناك نقص شديد في كل ما يلزم من الخيم والطعام، وكان المسنون والمرضى والصغار يموتون أمام عدسات التصوير بمعدّل وصل إلى ألف شخص في اليوم الواحد.

في أوائل نيسان كان هناك نصف مليون كردي على الحدود التركية وسبعمائة ألف في طريقهم إلى إيران التي كانت تحاول من قَبْل العناية بعدة آلاف لاجئ من الشيعة في الجنوب. ولم تكن هذه المرة الأولى التي يسيء فيها القادة إلى مزاج شعوبهم، إذ بدوا وكأنهم يعتقدون بأن الفكرة الوحيدة في أذهان الناس بعد حرب الخليج هي ((رجوع الأبناء إلى الوطن)). كان هذا هو بالتأكيد الموقف في واشنطن حيث قال الرئيس (بوش) في الخامس من نيسان: ((إن حياة الأمريكيين عزيزة علينا جداً لإقحامها في حرب أهلية)) وقد كرر هذه الفكرة عدة مرات حتى أجبره السخط الشعبي العام على تغيير موقفه هذا.

إنه في اوربا - وفي بريطانية بشكل خاص - حيث فرض الرأي العام نفسه لأول مرة. ففي بريطانية كلها تصاعد غضب عام وصادق لما يجري للأكراد وعدم استجابة العالم الغربي.وقد استجاب رئيس الوزراء جون ميجور بالإعلان عن مساعدة قدرها ٢٠ مليون جنيه استرليني بالإضافة إلى شحنة من البطانيات والخيم. لكنه من ناحية أخرى تنصَّل من أية مسؤولية في الأزمة عندما سُئل خارج مسكنه في دوانينغ ستريت عما إذا كان الأكراد قد تلقوا أي تشجيع من الغرب للتمرد، فكان جوابه: ((لا أتذكر أنني طلبت منهم البدءَ بعصيان مسلح من هذا النوع)) وأضاف ((إن ما يجري في العراق مؤذٍ ويثير القلق. ولكنه يجري ضمن حدود العراق وليس لدينا قرار دولي للتدخل)).

---

(١) لعلّ هذا الموقف يذكرنا بالصحافة السوريّة التي كانت تُشير إليهم بسكان شمال العراق. المترجم

لكن تصريح رئيس الوزراء لم يكن ليهدأ القلق العام في بريطانية، وبسرعة انتشرت مواقف مشابهة في فرنسة، وبدرجة أقل في ألمانية وعدة دول أخرى. وبدا واضحاً أن الرئيس بوش لم يكن يتوقع شيئاً من ردة الفعل العاطفية هذه. إذ كان يعتقد إنه بانتهاء الحرب مع صدام لم يعد يهم الغرب ما يجري في العراق. على العكس من ذلك كان يُنظر إلى دعوة بوش الشعب العراقيّ للإطاحة بصدام حسين سبباً مباشراً لكل ما يجري، فالأكراد، مثل الشيعة، صدقوا أن بوش كان يعني ما يقول، وبأنهم يمكن أن يتوقعوا شيئاً من أمريكا إذا ما استجابوا لدعوته. وبنهاية شهر آذار كانت ما تزال هناك محطة إذاعة سرية باسم (صوت العراق الحر) تطلب من الأكراد أن يعلنوا الثورة لطرد العراقيين من وطنهم، ولعزل صدام الشرير. كانت وكالة الاستخبارات المركزية [الامريكية] (سي.آي.أ) هي التي تمّول تلك الاذاعة.

وبتنظيم فعّال في أوربة كان الأكراد نشيطين في الترويج لقضيتهم في الغرب، وارتفعت أصوات قوية لمصلحتهم في العديد من الدول. بخلاف الشيعة في جنوبي العراق، كان الأكراد يحاربون منذ سنين وأدركوا قيمة التأييد الدولي، وفهم الساسةُ الرسالةَ: يجب عمل شيء.وكانت استجابتهم هي محاولة التخلص من تلك [الورطة] بأقل الخسائر الممكنة، وبكثير من الجعجعة بعثوا الطعام والأدوية والخيم إلى تركيا لإرسالها فيما بعد الى اللاجئين. وأظهرت الصور التلفزيونية الأكراد وهم يتجمعون حول سيارات الشحن التي وصلت إلى المناطق الحدودية حيث يعسكرون. كانوا يتشاجرون مع بعضهم البعض أو مع الجنود الأتراك من أجل الحصص الضئيلة الموجودة. وثمة ــ حينذاك ــ تقارير عن جنود أتراك يقومون بسرقة مواد الإعانة ـ ربما بسبب مرتباتهم المتدنية ومستوى معيشتهم ـ أو نية الموظفين الأتراك في ابقاء الأكراد خارج حدود دولتهم.

كانت الخطوة التالية تنظيم عمليات إنزال جوي للمؤن بواسطة طائرات النقل كروز C130 حيث كانت رُزم من فرشات القش تُقذف من على سُلّم الطائرات المفتوحة والتي كانت تقطع مسافة مائة وخمسين ميل في الساعة، وقد وصف عمال متمرسون في أعمال الإغاثة تلك العملية بأنها أسوء الحلول الممكنة في تضاريس كهذه، وفي ظل الظروف الجوية السائدة وكانت هناك تقارير عن اسرة لاقت حتفها وهي نائمة في مأواها المؤقت عندما سقطت عليهم رزمة من فرشات القش. وقد أُوقفت عملية الإنزال الجوي التي أعدت لأغراض اعلامية أكثر منها للمساعدة.

ولكن الرأي العام ظل متشدداً، وبات يعبّر عن نفسه بصوتٍ عالٍ أكثر فأكثر. فالمطلوب فعل المزيد، ولكن بعيداً في واشنطن، كان بوش ومستشاريه راغبين عن أي تحرك، فظلوا مصرّين على عدم الإنخراط فيما سموه حرب أهلية مستمرة منذ عقود من الزمن.

وأخيراً أعطى الرئيس أوزال قوة دفع للقضية أدت إلى إحداث تأثير – رغم إنه فعل ذلك لابسبب دوافع إنسانية بل في محاولة أخرى لابقاء الأكراد خارج تركيا. ففي حديث له في التلفزيون الأمريكي الأحد، السابع من نيسان اقترح أوزال على الأمم المتحدة إقامة ملاذ للأكراد في المنطقة الشمالية من العراق وقال بأنه مستعد لأن يضع الجنود الأتراك تحت تصرف أية قوة للأمم المتحدة تُرسل لحماية المنطقة المختارة. دق خطابه هذا ناقوس الخطر في واشنطن ونيويورك، فأثناء حرب الخليج أدلى أوزال بسلسلة من التعليقات التي أظهرت وكأن لديه أفكاراً لتثبيت الهيمنة التركية في شمالي العراق حتى إنه أثار المطالبة القديمة بمدينة ومقاطعة الموصل في شمال العراق التي تقدمت بها الامبراطورية العثمانية في أعقاب الحرب العالمية الأولى. كانت بريطانية، وقتئذ القوة المنتدبة في العراق وكانت مصممة على الاستمرار في المنطقة بسبب وجود النفط وبعد مناورات شاقة أيدت عصبة الأمم في عام ١٩٢٥ حق بريطانية في المطالبة. ومع ذلك فقد كانت الموصل مركزاً لولاية عثمانية وبدا أن أوزال يريد إحياء هذا النزاع كوسيلة لتأكيد انشغال تركيا بشمال العراق. في ظل معطيات هذا الموقف فإن فكرة تقدم الجنود الأتراك نحو العراق وُلِدَت ميتة، فهي بالتأكيد أخافت الأكراد أكثر من أن تطمئنهم، وأثارت قلق كل القوى الأقليمية وسيُنظَر إليها كتعدٍ صارخ من قبلِ عراقٍ لابد وان يتعامل في يوم من الأيام مع الموقف المختلق. ومع ذلك بقيت كلمة ((الملاذ)) في أذهان الساسة.

وفي نفس اليوم بدأت طائرات الولايات المتحدة بعملية إنزال جوي للمؤن للاجئين رافقها ازدياد مباشر للتغطية التلفزيونية فجاء الرأي العام الأمريكي ليعزز الضغط الذي كان الرأي العام في أوربا يمارسه من قبل. وكان مستشار الأمن القومي (برينت سكوكرافت Brent Scourcraft) أول من تنبه إلى تنامي موجة الرأي العام فأعلن بسرعة أن الولايات المتحدة لن تترك الأربعين ألف لاجيء تحت حماية قوات التحالف في جنوب العراق. لكنه قال بأن الولايات المتحدة ليس لديها كل الأجوبة عما يجب عمله لمشكلة اللاجئين برمتها والتي تشمل الأكراد في الشمال والشيعة في الجنوب. وقال الرئيس بوش بأنه سيحث الأمم المتحدة للشروع في العمل دون أن يقترح نوع العمل أوكيف يُمكن ترتيب ذلك أو من سيتولى دفع النفقات. وقال وزير الدفاع (ديك تشيني Dick Cheney) بأن الولايات

المتحدة سوف تتعامل بأمانة مع تركيا دون أن يعطي أية تفاصيل. فبدت الولايات المتحدة القوية والحاسمة وقت الحرب وكأنها تتخبط وقت السلمْ.

وفي اليوم التالي، الثامن من نيسان، كان وزير الخارجية جيم بيكر Jim Bakerفي تركيا في طريقه إلى الشرق الأوسط في محاولة ـ لم تتكلل بالنجاح ـ لبدء محادثات السلام العربية ـ الاسرائيلية. حيث وضح كل شيء تماماً وعلى نحو يثير الحزن والألم فقال بأن زيارته القصيرة إلى أنقرة كانت مجرد مجاملة لإظهار عرفان الولايات المتحدة بالجميل للمساعدة التي أبداها الرئيس أوزال أثناء الحرب، واستجابةً للضغط الشعبي زار بيكر المنطقة الحدودية حيث قضى سبع دقائق في مخيمٍ للاجئين. لم يبدو عليه الإهتمام بما يجري، لكنه كان متلهفاً ليؤكد بأن أمريكا لن تتورط، وقال بهذا الصدد: ((لسنا مستعدين للنزول إلى منحدرٍ زلق بإقحام أنفسنا في حرب أهلية. لا نستطيع أن نضبط ما يجري داخل العراق، ولا نستطيع أن نكون وسطاءً في مَنْ سيحكم العراق)).

ولكنْ في غضون أسبوع من ذلك كان الأمريكيون يضبطون بالفعل ما يجري داخل العراق، و بإصرارهم على إبقاء العقوبات كانوا يبذلون قصارى جهودهم لرؤية صدام حسين وهو يكف عن الحكم في بغداد.

كانت مبادرة منهلة من لندن التي أقنعت أخيراً الأمريكيين للشروع في العمل. فقد أظهر رئيس وزراء بريطانية الجديد جون ميجور، نفسه مضطرباً فيما يتعلق بالشؤون الخارجية خلال فترة الثلاثة أشهر التي قضاها كوزير للخارجية سنة ١٩٨٩، لكنه فوجئ بردة الفعل المناوئ لبلادَته الواضحة تجاه ما يحدث للأكراد في التعليقات التي أدلى بها أمام باب مسكنهِ في داوننغ ستريت. وربما كانت لتعليقات اسلافه أثر فالسيدة تاتشر، رئيسة الوزراء التي سبقته، أبدت رأيها صراحةً وبقوة لصالح تقديم مساعدة للأكراد بينما كان ميجور وزملائه لايزالون مترددين، وربما كان التوقع من أن تعاملهم السيدة تاتشر بتكبر وعجرفة هي التي دفعت ميجور إلى اتخاذ زمام المبادرة.

وهكذا، متجاهلاً الدبلوماسيين والخبراء الذين يحيطون عادةً بالسياسيين، قدّم ميجور فكرته هو والتي بناها اعتماداً على إشارة الرئيس أوزال الغامضة إلى ((الملاذ)). وفي الخامس من نيسان طلب ميجور من وزير الخارجية في لندن برسم الخطوط العريضة لفكرة كيفية مساعدة اللاجئين الأكراد، ولكن عندما لم تستطيع وزارة الخارجية، بطريقة عابرة، تقديم أية مقترحات ملموسة استمر ميجور في مخططه. كان وزير الخارجية دوغلاس هيرد Douglas Hurd خارج بريطانية والموظف المدني المسؤول

عن القضية الكردية ديفيد كَوربوث David Gore Booth يحضر مؤتمر نهاية الإسبوع في أوكسفورد شاير. وقد أُستدعي كوربوث بسرعة إلى لندن ليحاول بلورة أفكار رئيس الوزراء.

لدى وصوله إلى لوكسمبورغ في الثامن من نيسان لحضور لقاء القمة الأوربية (CE) وزع رئيس الوزراء البريطاني نص المقترحات التي سيعرضها صباح ذلك اليوم على رفاقه الأحد عشر من القادة الأوربيين، كان ينوي تقديم اقتراح يُعيين منطقة للأكراد في شمال العراق تحميها قوات الأمم المتحدة حيث سيكون اللاجئون واثقين من سلامتهم وبذلك يمكن تزويدهم بكل ما يلزم.

انتفض السيد جون ويستون John Weston المدير السياسي في وزارة الخارجية و شرع بالعمل، فسافر على طائرة مبكرة إلى لوكسمبورغ و لم يتحدث إلى رئيس الوزراء قبل أن يُعلن ميجور فكرته، والآن [بعد أن أعلن] بدأ الديبلوماسي بإصلاح ما رآه هو وزملاؤه غلطةً فَخلْق منطقة داخل أراضي دولة ذات سيادة وعضو في الأمم المتحدة، وحماية تلك المنطقة من قبل قوات الأمم المتحدة قد تُثير سابقات كثيرة من هذا النوع وهذا ما يثير قلق نصف دول العالم. والأسوأ من هذا لاقتراح بأن تكون المنطقة ((كردية)).والصورة التي ظهرت في الأذهان مباشرة كانت دولة كردية جنينية محمية من قبل قوات القبعات الزرق وهذا شيء سترفضه كل من الصين والاتحاد السوفيتي باستخدام حق الفيتو وسيؤدي هذا إلى زيادة مخاوف الدول العربية، كل واحدة منها من أقلياتها.

وباسلوب أضحى مألوفاً من قبل مساعدي البيت الأبيض خلال فترة حكم الرئيس ريغان، شرع جون ويستون وفريقه بإخبار كل من يريد أن يسمع بأن ما قصده رئيس الوزراء حقاً هو أنه يجب أن يكون هناك ((ملاذٌ آمن)) للأكراد في شمالي العراق. أما كيف يمكن إنجاز ذلك فقد بقي غامضاً تماماً، بينما كانت وزارة الخارجية في لندن تتحدث فقط عن ((محيط آمن)) للاجئين دون تحديد أين ومتى وكيف يُمكن أن يصبح آمناً.؟

ومهما يكن الإسم الذي أُطلق عليه أخيراً، فقد تم التصديق على خطة ميجور وبحرارة لاسيما من جانب الرئيس ميتران الذي كان مسروراً لأن يُخبر السيدة ميتران بأنه استطاع أن يفعل شيئاً لأحبائها الأكراد، ومسرور بنفس القدر لأنَ رئيس الوزراء البريطاني أطلق مبادرته في مؤتمر القمة الأوربي دون أن يستشير مسبقاً واشنطن - وهذا ما لم يحدث أبداً في عهد سلف ميجور. وبدا للوهلة الأولى إن عدم التشاور مع واشنطن قد يحكم بالإخفاق على المشروع. فبدون موافقة أمريكا لن تُعطي

الأمم المتحدة، بالتأكيد، الحق لأي جنود يتم إرسالهم إلى شمالي العراق، وحتى مع مساندة أمريكا للمشروع فإنها غير راغبة في ذلك.

في لوكسمبورغ تكلم جون ميجور، أخيراً، باسم بريطانية قائلاً: ((لا نستطيع أن نحدّ من جهودنا في التخفيف من وطأة المأساة. لا نستطيع أن نكتفي فقط بتضميد جراح الشعب الكردي.. يجب أن نحاول وضع حد لإراقة الدماء بسبب صدام حسين. وإذا لم يكن بمقدورنا التخلص منه، فإننا نستطيع على الأقل توفير نوع من الحماية لأولئك الأكثر عرضة للهجوم من الشعب العراقي)).

وفي الأمم المتحدة كان خافيير بيريز دي كويلار Javier Perez de Cuellar في أحسن الأحوال غامضاً حول فكرة الملاذات الآمنة فقال: ((لا أعتقد أنه أمر مستحيل، ولكن ذلك سيكون داخل الأراضي العراقية، وهذا سيؤدي إلى إثارة المشاكل حول مسألة السيادة. لا أعرف إن كنا قادرين على فرض منطقة خاصة على العراق إنها مسألة معقدة)) وعندما تبنى الأمريكيون الفكرة كان دي كويلار أكثر معارضة فقال: ((يجب أولاً أن نكون على اتصال مع السلطات العراقية: سنكون بحاجة إلى معرفة رد فعلهم إزاء وجود قوة عسكرية من هذا النوع في أراضيهم. إذا كان الوجود العسكري تحت رعاية الأمم المتحدة، فإن الموافقة يجب أن تؤخذ من مجلس الأمن. أما إذا كانت الدول المعنية لا تحتاج إلى راية الأمم المتحدة، فتلك مسألة أخرى)). في مواجهة مشكلة الأكراد بدا دي كويلار وكأنه يحاول بشتى السبل تجنب توريط الأمم المتحدة ، إذ بدأ يخطو بالمنظمة خطوات بطيئة من كل النواحي ربما انتقاماً لما رآه الكثيرون اختطاف الأمم المتحدة من قِبل الولايات المتحدة وحلفائها خلاف فترة حرب الخليج أو ربما لأنه كان قلقاً من أن يواجه صعوبات في الأشهر الأخيرة من بقائه في المنصب. وقد عيّن بيريزدي كويلار ممثلاً خاصاً للذهاب إلى بغداد لبحث مشكلة اللاجئين لكن الرجل الذي اختاره ايريك سو Erik Suy من بلجيكا لم يكن يتميز بالدينامية، فهو حتى قبل أن يغادر نيويورك شدّد بان موافقة العراق ((مبدأ أساسي)) من أجل أي ملاذ يُقام للأكراد مما أضعف موقفه في المفاوضات. وبد أن السكرتير العام يفكر بنفس الطريقة ولذلك كلّفَ شخصاً ثانياً هو الأمير صدر الدين آغا خان بالمهمة أيضاً.

وبينما المناورات الديبلوماسية مستمرة، كانت الأوضاع في المنطقة الحدودية تزداد سوءاً بوصول المزيد والمزيد من الناس إلى هناك. ففي طهران قال محمد عطاريان ممثل وزارة الداخلية بأن عدد اللاجئين الذين وصلوا إلى إيران يبلغ ثلاثة أضعاف من وصلوا إلى الحدود التركية ـ كان عددهم في

ذلك الوقت سبعمئة وخمسين ألفاً. واشتكى من أن تركيا لا تزال تستحوذ على كل الاهتمام بينما الأمم المتحدة ((مهملة وغير مبالية)) بها.

وبينما كان السياسيون يتناقشون ويتنازعون استمر اللاجئون بالهروب من منازلهم. فعلوا ذلك بدافع خوف حقيقي، رغم إن بعض التقارير التي حضتهم على الرحيل كان مبالغاً فيها إلى حد بعيد. وقد كان العراقيون بدون شك، مثل الإسرائيليين سنة ١٩٤٨، مسرورين جداً لرؤية هذه الهجرة الجماعية الضخمة من شمال بلادهم - وكان هذا بالنسبة لهم الحل النهائي للمشكلة الكردية الذي حاولوا تطبيقه سنة ١٩٨٨ ولم يتمكنوا من مواصلته حتى الانجاز.

كان هناك بالتأكيد ضغط على الأكراد. فقد استعمل العراقيون مدفعيتهم بشكل متكرر لقصف الطرق المؤدية إلى الحدود بالقنابل، رغم إنهم مُنِعوا من إرسال طائراتهم ذوات الأجنحة الثابتة وراجمات الهليكوبتر - ففي خطوة هادئة عكست القلق الأمريكي، حذّر الرئيس بوش من أن أي تحليق شمال خط العرض ٣٦ غير مسموح به، وأعطى الأوامر إلى سلاح الجو الأمريكي باسقاط الطائرات التي تنتهك ذلك الأمر. فسقطت، نتيجة ذلك، طائرتان عراقيتان وبعدها تخلت الحكومة العراق عن أية محاولة لاستعمال قواتها الجوية. وكانت هناك تقارير أيضاً عن فظائع ارتكبها الحرس الجمهوري والبوليس السري العراقي عندما عاودت قوات الحكومة استيلاءها على مدن الجنوب. فقد قيل إنه نُفذ حكم الاعدام بأربعمائة شخص في إحدى المدن، وفي مدينة أخرى أُحرق العشرات ممن ساعدوا في تمرد الشيعة وهم على قيد الحياة، واختفى الكثيرون كما أن آخرين أخذهم البوليس، كل ذلك حسب الشائعات المتداولة بين اللاجئين. وقد أُضيف كل هذا إلى هروب الشعب المذعور بكامله.

في واشنطن لم تظهر أية بوادر بأن فرحة ما بعد الحرب قد خفّت، فقد كان الرئيس و موظفيه راغبين في ترك الأوربيين لتولي عملية تقديم المعونة للأكراد، ولم يعيروا اهتماماً كبيراً لفكرة جون ميجور عن الملاذات الآمنة.و ربما لم تكن الفرحة والحرص على المصلحة الشخصية فقط وراء ذلك: تماماً مثل الصين الخائفة من منطقة محمية من قِبل الأمم المتحدة في دولة ذات سيادة بسبب وضعها في التيبت، والاتحاد السوفيتي كان قلقاً بشأن جمهوريات البلطيق، وكذلك الولايات المتحدة التي ربما فكرت بالوضع في الأراضي المحتلة من قِبل اسرائيل. فمنذ سنوات طويلة والزعماء الفلسطينيون يناشدون الأمم المتحدة لإرسال المراقبين والجنود لحماية شعبهم في الضفة الغربية وغزة ضد ما سمّوه الأعمال الوحشية الاسرائيلية، والخطة المذكورة لأكراد العراق قد يُنظر إليها كتجربة لما كان يدور في أذهانهم.

كان الأكراد أنفسهم متحمسين لخطة الملاذ الآمن: فالناس اليائسين كانوا يأملون بتحسين أوضاعهم المروّعة التي يعانونها في المخيمات وسوف تمنحهم أيضاً نوعاً من الحماية، أما الزعماء فكانوا خائفين من كابوس أن يتحوّل شعبهم إلى فلسطينيين جدد، رافضين الاضمحلال في مخيمات اللاجئين على طول الحدود مع وطنهم الأم، ومناضلين لإسماع صوتهم للأمم المتحدة، مضطرين دائماً للذهاب بكل تواضع لطلب المساعدة، واعتبر البرزاني الخطة: ((خطوة انسانية و سياسية كبيرة إلى الأمام)). وحث جميع الدول لدعمها.

في العاشر من نيسان أعلن مسؤولون بارزون بأن عدد اللاجئين على الحدود التركية قد بلغ ٨٠٠,٠٠٠ ومليوناً في إيران وقد لاحظت وزارة المساعدات في الكوارث الخارجية الأمريكية بأن عمليات الإعانة التي تديرها الحكومة الإيرانية والهلال الأحمر الإيراني كانت أكثر تنظيماً من مثيلاتها في تركيا. ففي الوقت الذي استطاع الهلال الأحمر الإيراني إيجاد ستة آلاف مساعد ومتطوع لمساعدة الأكراد، لم يستطع الهلال الأحمر التركي إيجاد أكثر من مئة وعشرة أشخاص. ومع ذلك لم تشهد الجهود البريطانية والأوربية لإقامة الملاذات وترحيل الأكراد من الجبال والاستقرار في السهول، تقدماً ملحوظاً. فالأكراد لن يعودوا ما لم تكن هناك حماية لهم، ورغم إن ميجور قدّم الجنود البريطانيين ولمّح إلى أنهم سيستخدمون القوة إذا ما تدخل العراق في خطة الملاذ الآمن، فقد كان معروفاً أن أية قوة دولية ستنقصها المصداقية دون المشاركة الأمريكية.

ومع ذلك لم يبدو أن الأمريكيين مهتمون، بخروج الرئيس بوش عن المألوف ليقول: إنه لن يورط الجنود، واعترف موظفو الإدارة سراً بأن الرئيس ومستشاريه فكروا بكارثة بيروت سنة ١٩٨٠ عندما تدخلت القوات البحرية للولايات المتحدة للإشراف على إجلاء (م.ت.ف) فأبحرت [القوات] بـ ((مهمة مُنْجَزَة)) والعلم مرفرف، ودخلت بعد ذلك في حرب أهلية لم تدرك كنهها، وكلّفتها عملياً مئتين وخمسين شخصاً. وفي خطاب له في أكاديمية عسكرية قال الرئيس: ((لا أريد أن يقحم جندي أو طيار في حرب أهلية في العراق مستمرة منذ دهور: لن أوافق على ذلك)). كان ذلك في الثالث عشر من نيسان. بعد ذلك بثلاثة أيام ناقض جورج بوش نفسه آمراً جنود الولايات المتحدة بالتحرّك إلى شماليّ العراق، متبنياً خطة الملاذات الآمنة لـ (جون ميجور) وكأنها كانت منذ البدء مبادرة أمريكية، ولا مبالياً بانتقادات الأمم المتحدة. لكن الرئيس كان لايزال يقول بأنه يريد عودة كل الجنود الأمريكيين بأسرع وقت ممكن. كانت المسألة برمتها مثالاً نموذجياً لكلام واشنطن الغامض والتي من خلالها أذعن بوش ومساعديه لضغط الحلفاء لأنهم أدركوا أن الرأي العام في بلدهم يدور حول وجهة

النظر الأوربية. لم يكن ذلك سياسةً بقدر ما كان محاولةً للبقاء على الخط، ولأنه لم يتم التفكير ملياً في المسألة من قبل، فقد حلقت مشاكل عديدة تم التغلب عليها.

بالطبع كان يحق للأمريكيين الإدعاء بفضلهم في انجاز خطة الملاذ الآمن، فلولاهم لما وُضِعت موضع التنفيذ، لكنهم كانوا جاحدين، على الأقل، بالاعتراف بفضل جون ميجور في المقام الأول الذي عرض الفكرة، والرأي الأوربي الذي أجبر الساسة على التحرك. وقد أقرّت الناطقة باسم البيت الأبيض (مارلين فتزوتر Marlin Fitzwater) أن الإدارة لم تكن تفكر بأن الملاذات الآمنة ضرورية عندما قُدّم الاقتراح لأول مرةً:((كنا نأمل بإطعام الأكراد في مواقعهم. لكنه بداجلياً أنه غير كافٍ، فقد كان هناك الكثير من الناس المتجمعين في المناطق الجبلية. لقد أصبحت المشكلة أكبر مما ينبغي ولذلك كان علينا أن نجرّب هذه العملية)).

وقد وضّح الرئيس بوش وجهة النظر الأمريكية قائلاً:

((إذا لم نكن نستطيع إعداد الطعام، والمأوى، والملبس الكافي للأكراد الذين يعيشون في الجبال، يجب علينا أن نشجعهم للانتقال إلى منطقةٍ ما في شمالي العراق حيث الجغرافية تسهّل جهود هذه الإغاثة الضخمة.

أدركُ تماماً أن لدى الكثيرين من الأكراد أسباباً معقولة للخوف على سلامتهم إذا ما عادوا إلى العراق. دعوني أُطمئنهم ثانيةً بأن القوات البرية والجوية للولايات المتحدة وبريطانية وفرنسة ستوفّر لهم حمايةً كافية. سيكون لنا قوة جوية حول تلك المنطقة إذا استدعى الأمر، وسنكون قادرين لا على حماية شعوبنا فقط بل أيضاً الشعب الذي نعلن عن حمايتنا له. لقد استخّف العراقيون بالولايات المتحدة من قبل. يجب ألا يفعلوا ذلك مرةً أخرى.))

في البداية بدا كأن الأمريكيين يفكرون بأنهم لن يواجهوا أية مصاعب في الاشتراك لعدة أيام أو أسابيع، وبعد ذلك تُسلمَّها إلى الأمم المتحدة، ويجلبوا قواتهم إلى الوطن في وقت لا يتجاوز الرابع من حزيران، هذا التاريخ حدَّده الجنرال كولين باول Colin Powell شخصياً عندما قام بجولة تفتيشية أكد خلالها بأن الانسحاب سيكون سريعاً وهو ما أدى إلى عدم استقرار الوضع أكثر من أي شخص آخر.

ومع ذلك فقد نجحت الخطة الأنكلو ـ أمريكية. حيث استطاعت قوات الحلفاء البرية اقناع الأكراد بالرجوع، وما كان استخدام القوة الجوية وحدها ليفعل ذلك أبداً. بالإضافة إلى ذلك تم تخفيض جهود الإغاثة بنسبة معينة عندما كانت مواد الإغاثة تُرسل إلى المخيمات المشيّدة في شمالي العراق وكان هذا دافعاً قوياً للاجئين ليتخلوا عن أوضاعهم المزرية على الحدود التركية و الإيرانية. بداية شجب العراق وبشدة المسألة برمتها وحاول عرقلة الأمور. وأرسل قوات من الحرس الجمهوري متنكرين في ثياب الشرطة إلى زاخو، ولما أصرّ الحلفاء على مغادرتهم، أرسلوا رجال البوليس السري إلى معظم المدن الكردية وأرادوا التأكد من أن لديهم مخبرين في كل مكان، لذلك كان الأكراد الذين تعاونوا بنشاط مع الحلفاء ـ ثمانية دولارات في اليوم لكل مترجم ـ معروفين لدى العراقيين. وساد شعور من عدم الارتياح بين الأكراد الذين ساعدوا في إقامة المخيمات و نظموا الإدارة وحافظوا على سير الأمور، ولكنه لم يصبح مشكلة إلا عندما أراد الحلفاء الذهاب.

كان واضحاً منذ البداية أن إقامة مخيّمات ـ سلسلة من قرى الإعانة ـ لن يكون كافياً، لذلك فقد انتقل الكثير من الناس خارج تلك القرى وكانت الطريقة الوحيدة لإعادة الأمور إلى نصابها هي إقناعهم بالعودة إلى منازلهم. كانت مدينة دهوك ذات المئة ألف نسمة في موقع حيوي، لذلك واصل الحلفاء تقدمهم وأرسلوا جنوداً لحَفر الشوارع والتحقق من أن البوليس العراقي الذي بقي هناك لن يثأر لصدام ـ هذا الثأر ـ الذي لايزال الأكراد يتوقعونه إذا ما تخلى التحالف عنهم. في اوج عمليات الإغاثة كان هناك ثلاثون ألف جندي يشتركون في عملية ((بروفايد كومفورت)) أو تزويد الراحة. وبخلاف البريطانيين كان الأمريكيون مولعين بالاسماء المشفرّة المناسبة وليس فقط إقتباس الاسم الذي يلي الاسم السابق في الكتاب كما فعلت القوات البريطانية.

ظل الأمريكيون مصرّين على إخراج جنودهم بأسرع ما يُمكن. وبحلول حزيران ١٩٩١ بدأوا تدريجياً بالانسحاب من العملية مع أن كل قوّاد قوات التحالف البرية ـ البريطانية والهولندية والايطالية والفرنسية والأمريكية ـ حذروا من أن العراقيين سيُعَدون للهجوم إذا ما تُرِك الأكراد دون حماية. كان مبرر واشنطن هو أن الأكراد والعراقيين في طريق وصولهم إلى اتفاقية ستمنح الأكراد مرةً أخرى منطقة متمتعة بالحكم الذاتي، وستسمح كذلك للبيشمركة بالبقاء في الموضع الصحيح كحُماة للمدنيين الأكراد.

كانت المشكلة تكمن في أن المفاوضات بين زعماء الأكراد وحكومة بغداد لم تكن تجري كما أمل الأكراد أو الأمريكيين. وفي أول فورة حماس أعلن الطالباني عن ((اتفاق من حيث المبدأ))

ملمّحاً إلى أنه سيتم تسوية كل شيء في غضون أيام. بعد ذلك رجع إلى السليمانية ليتشاور مع رفاقه وبدا واضحاً بأن الأمور لم تكن وردية إلى هذا الحد. كان الطالباني المتفائل الدائم يرى على الدوام بأن النجاح قريب جداً، بينما كان البرزاني الذي نشأ في جوٍ من الصراع القبلي أقل ثقة رغم إنه كان في النهاية مؤيداً للتسوية من قِبل الأكراد متكلاً على الضمانات الدولية التي ستحمل صدام على الالتزام بوعوده.

وكما في عام ١٩٧٠ كانت العقبة الرئيسية التي ظهرت في طريق المفاوضات هي وضع مدينة كركوك التي اعتقد الأكراد بأنها يجب أن تكون تحت سيطرتهم حتى يمارسوا الضغط على بغداد ـ حيث تبقى كركوك مدينة النفط الرئيسية رغم الاكتشافات الجديدة في الجنوب. ناقش ممثلوا الأكراد والحكومة كل أنواع الحلول للمدينة ـ إدارة مشتركة، إحراء إحصاء جديد هناك، أو تعيين حاكم خاص ـ ومع مرور الوقت اتضح للأكراد بأن صدام كان يناور فقط من أجل الوقت: كان يريد أن يؤجل الأمور حتى مغادرة جنود الحلفاء، ومنطقياً، متى ما حصل ذلك سيكون بإمكانه أن يمارس مرة أخرى تأثيراً مباشراً على الأكراد وإجبارهم على قبول الشروط التي يمليها. وحتى عندما كان جنود التحالف لايزالون في شمالي العراق، طالبَ [صدام] الأكراد بتسليم أسلحتهم الثقيلة، و إغلاق محطتي الإذاعة التابعتين لهم وبقطع كل العلاقات مع حلفائهم داخل وخارج العراق وهذا شرط مستحيل كما هو واضح . وفي تطور ذو مغزى جاءت قوة الموقف العراقي بعد أن بدأ الثلاثون ألف جندي المنتشرين شمالي العراق بالرحيل.

لم يكن كل هذا التأخر في الوصول إلى الحكم الذاتي سببه العراقيون وحدهم. كما العادة، كان الأكراد، أقل من متحدين، فزعيما الحزبين الرئيسيين ـ الطالباني والبرزاني ـ وسامي عبد الرحمن أمين عام حزب الشعب الديمقراطي الكردستاني، أحد كبار المفاوضين، كانوا يتنافسون فيما بينهم من أجل مراكز السلطة عندما يتم الوصول إلى اتفاق للحكم الذاتي. وقد شجع العراقيون ذلك عندما طرحوا موضوع مقاعد الأكراد في مجلس الوزراء ببغداد وبإقتراح مجلس أقليمي للنواب متمتع بسلطة حقيقية لإدارة شؤون منطقة الحكم الذاتي ، يكون مركزه أربيل ومن حقه الحفاظ على حدود مفتوحة مع كل من إيران وتركيا وهي صيغة مناسبة للضغط إذا ما أخذنا بعين الاعتبار وضع العلاقات بين هذه الدول. ومن سخريات القدر ان البرزاني، الزعيم العشائري الذي رأى والده ينخدع في النهاية، كان الأكثر استعداداً للتعامل مع صدام معتقداً إنه يجب على الأكراد الاستفادة من اهتمام ودعم الغرب، وقد قال البرزاني في معرض حديثه عن الوضع: ((تذكروا إننا لم نستطع أن نهزمهم، ولاهُمْ استطاعوا أن

يهزمونا .. يتعين علينا إذاً ان نعيش سويةً)) وقد ظهرَ (ح.د.ك) بزعامة البرزاني، أثناء المفاوضات، أكثر مرونةً من (أ.و.ك) بزعامة الطالباني. لقد كان هدفه رؤية الديمقراطية في العراق كأفضل وسيلة لضمان خير وسلامةو الأكراد. فإذا كانت هناك ديمقراطية حقيقية، فهل هناك حاجة لحكم ذاتي كردي؟ ((لا أرى أن الحكم الذاتي يتناقض مع الديمقراطية)) يقول البرزاني. ولكن هل الديمقراطية ممكنة وصدام لايزال في الحكم؟ يجيب البرزاني: ((لقد تغيرت الأمور كثيراً لقد تغير العالم لِمَ لا؟)).

كان الطالباني ـ وهو يساري أكثر من أن يكون زعيماً إقطاعياً تقليدياً ـ أول من عانق صدام و أول من وعد بإتفاق وشيك وأول من عبّر عن تزايد شكوك الأكراد عندما طالت المفاوضات أكثر من اللازم وبدأ الحلفاء يفقدون اهتمامهم. وقد جاء على لسان الطالباني ما يُثير مخاوفهم أكثر من أي شيء آخر فيقول محذّراً: ((أعتقد إذا غادر الحلفاء قبل إنحسار الديمقراطية في العراق، أو قبل الاتفاق النهائي بين الأكراد والحكومة العراقية، فإن الناس ستترك بيوتها وتهرب إلى الجبال ثانية)).

لقد كان على خطأ. ففي الخامس عشر من تموز ، أي بعد أسبوعين فقط مما كان يأمل الأمريكيون، انسحب الحلفاء أخيراً من العراق. كان الأطفال يلوحون ويصفقون عندما كان الجنود يندفعون إلى الأمام عبر الحدود التركية، وكان قادة البيشمركة يصافحون الضباط الذين كانوا يشغلون مراكزهم. كان هذا الشعور بالخفة والنشاط مردّه أن الحلفاء لايذهبون إلى مكان بعيد ـ فالطّية[1] بالنسبة للقوات البرية هي مدينة سلوبي الواقعة على الحدود مباشرة داخل تركيا، بينما بقيت الوحدات الجوية في انجرليك وباتمان على بُعد بضع دقائق بالطائرة من العراق. وفي محاولة جادة لتفادي هجرة جماعية أخرى قام الحلفاء، وعلى نطاق واسع، بالإعلان عن إنشاء ((قوة استجابة سريعة)) مهمتها الشروع بالهجوم إذا ما حاول العراق التحرك ضد الأكراد، وقد قال جون شاليكاشفيلي John Shalikashvili قائد قوات الولايات المتحدة: ((سنكون على بُعد [الوقت الذي تستغرقه] مكالمة هاتفية)) كان الكثير من الأكراد أقل تفاؤلاً من منظر تركهم لوحدهم مرةً ثانية. لقد صدقوا بأنه سيكون هناك تدخل دولي إذا ما حاول العراق مرة أخرى إخضاع كردستان بالقوة لكنهم كانوا حذرين من الانتقام الخفي الذي قد يقتضيه صدام حسين والبعثيين من أن كل من ((تعاون)) مع الحلفاء سيُقتل أو يُختطف. ولم تستطع قوةٌ ضاربة بقيادة أمريكية إيقاف ذلك، وشرطة الأمم المتحدة التي تُركت في الخلف لم تكن إلا رموزاً لإهتمام دولي بدون سلطة أو قوة لحماية الأكراد. ظل عمال

---

(١) الطّية. المكان الذي تنتهي به الرحلة، المكان المقصود.المترجم

الاغاثة هناك أيضاً بتأشيرة لمدة ثلاثين يوماً قابلة للتجديد من قِبل جنرال عراقي أوُتي به خصيصاً من شقلاوة لهذه الغاية. وبرغم كل تلك الابتسامات، أدرك الأكراد بأنهم لوحدهم مرة أخرى.

كان الهدف في واشنطن دائماً هو إنجاز العمل والخروج بأسرع ما يُمكن. فقد كانت الإدارة مقتنعة بان رغبة الشعب الأمريكي الرئيسية هي ((استعادة الأبناء إلى الوطن)) ومن كل ذلك الضغط الشعبي لمساعدة الأكراد في السابق لم يعد هناك اهتمام كبير بالمسألة. لقد انخفض مستوى تلك الشعبية الكبيرة ومع ذلك كان هناك نمو تلقائي سريع من التعاطف مع الأكراد في كل من أوربا والولايات المتحدة. وهذا عاملٌ [ضغطٍ] في المفاوضات، التي كانت لا تزال مستمرة في بغداد، بيد الزعماء الأكراد الذين أخبروا المفاوضين العراقيين بأنه في أسوء الإحتمالات ـ بغض النظر عما إذا كانوا يثقون بذلك أم لا ـ لن يُتركوا وحيدين مرة أخرى.

في لندن بدا أن وزارة الخارجية حسنة الاطلاع على الشكوك المشتركة بين الأكراد والرأي العام البريطاني. وخلافاً للعادة أصدرت بياناً اعتذارياً مكرّساً للتوضيح إنه تم انجاز ما كان يمكن عمله وبأنه لم يكن هناك بديل عن الإنسحاب، وجاء في البيان بتاريخ الثاني عشر من تموز: ((لقد عاد إلى الوطن تقريباً كل الأربعمائة ألف لاجئ الذين فّروا إلى الجبال في منطقة الملاذات الآمنة. لقد أُغلقت مخيمات اللاجئين. ومراكز الترانزيت (المرور) مهجورة تقريباً. أما المدن والقرى فتعود إلى حالتها الطبيعية. وقد تم بمساعدتنا ترميم مصادر الطاقة والمياه، وكذلك توزيع الطعام وترسيخ أنظمة الصحة العامة ومنع تفشي الأمراض بالإضافة إلى العناية الصحية بالذين كانوا في حاجة إليها. وساهمنا كذلك في انقاذ حياة الكثيرين. إن أهداف انتشارنا قد تكللت بالنجاح))

ودعم البيان استعمال أداة نُبذت في السابق: العقوبات. فالنظام الصارم الذي طُلب به في قرار مجلس الأمن ٦٨٧ ـ قرار وقف إطلاق النار في الخليج ـ سيبقى ساري المفعول لضمان أن العراق قد امتثل لكل الشروط المعلنة: فلا طائرات أو هليكوبترات ولا جيش عراقي أو حراس حدود أو قوات خاصة ضمن منطقة الحزام الأمني. ولم يُذكر شيء عن أي شكل من الشرطة.

حَذّر الحلفاء من أنهم على استعداد للرجوع إذا اقتضى الأمر، ولإظهار نياتهم كانوا يعقدون محادثات عسكرية منتظمة داخل الأراضي العراقية بينما يُبقون قوة الردع المتعددة الجنسيات في تركيا وقالت وزارة الخارجية في حينه أن ((هؤلاء الجنود سيكونون مستعدين، إذا اقتضت الظروف ذلك،

بالإستجابة سريعاً والرجوع، إذا كان الأمر ضرورياً، لحماية أمن اللاجئين وموظفي الأمم المتحدة والشروع بأي عمل آخر قد يُطلب منهم))

كانت هذه كلمات معسولة لكنها لم تأخذ بالحسبان ما يجري على أرض الواقع في تلك المنطقة، فبمرور الذكرى السنوية الثامنة لبدء انتفاضة (PKK) بدا أن الرئيس أوزال وحكومته قد خضعا لتغيير في الموقف. فقد تم نسيان التنازلات التي أُعلن عنها لأكراد تركيا أثناء حرب الخليج. بدلاً من ذلك كان هناك رجوع مفاجئ وقاسٍ إلى التكتيكات المتشددة وهي التي شجعت في الماضي العنف المضاد لـ PKK . وقد نشط لأول مرة الأعضاء اليقظين للجناح اليميني المتطرف والذين يُعتقد بشكل عام أن لهم ارتباط مع الأمن السياسي التركي، على أقل تقدير، أو مع دائرة الاستخبارات منذ أن كافحوا نشطاء الجناح اليساري فيما يشبه الحرب الأهلية في السبعينات. فمكتب ديار بكر التابع لإحدى منظمات حقوق الإنسان قُصِف بالقنابل بالإضافة إلى مكتب مجلةٍ تؤيد الأكراد. وانفجرت قنابل أخرى في سيارات موظفي حزب العمل الشعبي (HEP) وهو جماعة كردية برلمانية مرخصة رسمياً تزايدت شعبيته حتى أصبح الجيش القانوني لـ PKK كما يتحدث حزب الشين فين Sinn Fein في إيرلندة باسم الجيش الجمهوري الإيرلندي.

ونتيجة لذلك قُتِل على الأقل ثمانية أكراد في ظروف غامضة، وبلغت الذروة بتعذيب وقتل (بيدات آيدين Bedat Aydin) وهو ناشط كردي في السادسة والثلاثين. لقد أُخذ من منزله في منتصف الليل من قِبل رجال عرفوا أنفسهم كأعضاء في البوليس السياسي، وفي اليوم التالي وُجدت جثته مشوهةً وممثلاً بها. وقد تحوّل دفن (آيدين) إلى مسيرةٍ ضخمة للأكراد الذين يشكلون الأغلبية الساحقة في ديار بكر، ولكن بدلاً من السماح لهم بالمُضي قدماً بسلام أرسلتْ السلطات المظليين. وكانت النتيجة مواجهة انتهت إلى إطلاق الجنود النار على الحشد، فقُتل من جراء ذلك ثلاثة أشخاص وجُرِح ستة وثلاثون شخصاً، ولتأكيد موقفهم نصبَ الجنودُ كميناً لـ (فهمي إيسكلر) نائب (HEP) وثلاثة من رفاقه وقد قضى الأربعة نحبهم في المشفى.

وانسجاماً مع موقفها الجديد والصارم من المناطق الكردية التابعة لها، شنت الحكومة التركية هجوماً على قواعد PKK داخل الأراضي العراقية، وفي نفس الوقت حذّرت الحلفاء بأنها قد لاتسمح بالتواجد المستمر لقوة الردع في سلوبي. حيث قال رئيس الوزراء الجديد [في تلك الفترة بالطبع] مسعود يلماظ بأن مجموعة الحلفاء جاءت إلى هنا كإجراء مؤقت ويُمكن استعمالها فقط بعد إذن تركيا. وسوف يتم إعادة النظر في الوضع بعد عدة أشهر.

كان الموقف التركي الجديد إلى حد بعيد استجابةً للرأي العام. فحزب الوطن الأم كان يفقد شعبيته بسرعة، لذا شعر السيد أوزال تجاه ما يُقال، وبدأ يميل إلى نقد انتشار قوات الحلفاء على الأراضي التركية. جديرٌ بالذكر أن إحدى وصايا أتاتورك هي إيمان راسخ بأنه ينبغي على الأتراك وحدهم الدفاع عن تركيا و بأن أي تواجد أجنبي غير مسموح به. هذا الضغط من اليمين كان يساويه قلق عميق من اليسار الذي رأى بان تركيا أصبحت تُستخدم وكأنها قاعدة أمريكية لمزيد من التحرك في الشرق الأوسط، أو تشجيع تركيا لتصبح وكيلة أمريكا في المنطقة. كانت هناك معارضة من كل الجهات لأي شيء قد يؤدي إلى اقامة دولة كردية مستقلة، وكان يُنظر إلى دعم الحلفاء لأكراد العراق على أنه يسير في هذا المنحى.

نتيجةً لكل هذه الضغوطات شنّ الأتراك أكبر هجوم لهم على PKK فقصفوا بالقنابل القرى ومعسكرات الغريلا داخل الأراضي العراقية، كما أقاموا حاجزاً ـ داخل العراق ـ بعرض عشرة أميال يقوم بحراسته الجنود الأتراك، واتضح فيما بعد بأنه قد أصبح منطقة حرة للنيران وهي فكرة أخذوها عن العراقيين. فقُتِل مدنيون أكراد وبعض من عناصر PKK، ورغم التفاوت في تقدير عدد الاصابات ـ خمس وثلاثون إصابة بحسب الأتراك و ((قليلة جداً)) بحسب PKKبدا أن الغارات الجوية الضخمة والمتكررة لم تحقق نجاحاً كلياً.

وتدلُ بعض الأمارات بأن الأتراك تحمسُوا سياسياً أكثر من أن يكون العمل مخططاً له من قِبل ضباط الجيش. فقد كان الباعث المباشر لتلك الهجمات هو وجود عثمان أوج الآن، شقيق زعيم PKK عبد الله أوج آلان، في إحدى القرى من الجانب العراقي للحدود ولكنه نجا. أما الهدف البعيد للحملة فقد كان التوضيح للحلفاء بأن تركيا هي التي تُملي سير الأحداث في شمال العراق ولتُري زعماء الجبهة الكردية في العراق بأنها في موقع من تحدِّد مصيرهم.

كانت رسالةً لم يصعب على الأكراد فهمها، واستجابوا لها بنوع من التعاون المثير للسخرية مع أنقرة، هذا التعاون الذي مارسوه في الماضي مع بغداد. فقال (محسن ديزي) من الحزب الديمقراطي الكردستاني ـ وهو عضو أساسي في الجبهة ـ إذا أصرّ PKK على محاربة تركيا من داخل العراق، فإن أكراد العراق سيطردونهم: ((سنقول لهم أما أن تذهبوا إلى منطقتكم أو أن توقفوا هجماتكم)). وكان الطالباني على نفس القدر من الوضوح فقال: ((عندما ينسحب الجنود الأتراك فإن السيطرة على المنطقة ستكون من حقنا. والجبهة الكردستانية هي التي ستكون مسؤولة عن ذلك. لانريد لأحد أن يقوم

بعمليات من هذه المنطقة. وإذا كان لابد من العمليات فلينهبوا وليقوموا بالعمليات من داخل دولتهم.))

في اليوم التالي أصبح التعامل السري واضحاً فأعلنت تركيا إنها ستُرسل عشرة آلاف طن من الأغذية والمواد الطبية إلى أكراد العراق. وحتى تغرز المدية تماماً ولتتأكد بذلك من استحالة أي اتحاد بين الأكراد العراقيين و PKK ـ أعلنت المخابرات العسكرية التركية على الملأ بأن الكثير من المعسكرات والقرى التي استهدفتها القوة الجوية تم اختيارها بناءً على المعلومات التي أعطاها الأكراد العراقيين.

كانت إحدى النتائج اللامتوقعة من كل هذا هي ازدياد الهوّة بين الطالباني والبرزاني الذي أصدر بياناً مطالباً الأتراك بإنهاء هجماتهم على ((شعبنا)) حيث أدعى البرزاني بأن الغارات الجوية تقتل المدنيين الأكراد وقال: ((إننا نُدين أية هجمات على اللاجئين الأكراد البريئين من العراق فهذه الهجمات زادت من التوتر وقوضت الأمن الذي كان يسود المنطقة. إننا ندعو الحكومة التركية بإنهاء فوري لهجماتها على شعبنا. إنه حقنا الطبيعي في ان نحمي شعبنا وأراضينا)).

كان واضحاً أن هذا على تعارض مع موقف الطالباني، كما أكدت [تلك الحملة] الخلافات ضمن الجبهة الكردية وخاصةً بين المنافسين التقليديين الطالباني والبرزاني وهو شيء أثلج صدور الأتراك دون شك. فبإمكان الأتراك العيش بجوار منطقة متمتعة بحكم ذاتي، لكن الانقسامات بين زعمائها لن تسمح لها، بالسير نحو الاستقلال ولن تكون [المنطقة] في موقع يؤهلها لمساعدة الأكراد في تركيا. على العموم هنّأ الأتراك أنفسهم بالطريقة التي أظهروا فيها الذكرى السنوية للإنتفاضة ـ حتى وإن حَكَمَ الحلفاء على هجومهم بالتشوش الكامل وعلى تدخلهم بالضرر العميق.

بدورهم كان العراقيون مسرورين أيضاً لسير الأمور بهذه الطريقة، وبدأوا باعطاء مساعدة هادئة لـ PKK كوسيلة لارباك معارضيهم الحقيقيين المتمثلين بالحزبين الكرديين السياسيين بقيادة الطالباني والبرزاني. كان واضحاً منذ البداية أن سياسة صدام حسين هي الظهور بمظهر توفيقي مع عدم التنازل عن أي شيء، والمراوغة والتسويف لعلمه أن الحلفاء والمنتصرين سوف يفقدون بالتأكيد اهتمامهم بالأكراد. بدأت الخطة العراقية تنجح رويداً رويداً وتجلى ذلك أولاً بانسحاب قوات الحلفاء من شمالي العراق، وعندما لم يُحدِث هذا الهجرة الجماعية التي تنبأ بها الطالباني، بدأت التحركات لصدّ القوة المضادة، وفي الحال انوجدت الطائرات للتصدي للعراقيين إذا ما حاولوا القيام بأي عمل آخر، مستبعدين تماماً أية محاولة لهجوم بري جديد.

استطاع البرزاني والطالباني احتواء المنافسات القديمة بين (ح.د.ك) و (أ.و.ك) لكن بعض الجماعات الصغيرة في الجبهة الكردستانية كانت أقل قدرة على ذلك. فكانت [هذه الجماعات] تقول بأن المواجهة المباشرة هي التي ستُعطي النتائج بينما لايزال الغرب ينظر بعين واحدة إلى شمال العراق على الأقل. لهذا أرادوا شنّ حرب العصابات من جديد، وبدعم من إيران المتلهفة لإضعاف القوات العراقية أكثر فأكثر، قام بعض البيشمركة بأعمال عنف في عدة مناسبات ولكنهم لم يتلقوا دعم الطالباني والبرزاني، وهكذا فشلوا في مسعاهم لتوريط القوى الخارجية. وباستمرار جلسات المفاوضات في بغداد والتي انضمت إليها التجمعات العشائرية في شقلاوة عندما حاول القادة ايجاد تسوية مقبولة، كان صدام حسين قادر على ربط الأمور ببعضها، وواثقاً من أن المنافسات الكردية ستسّهل أخيراً من مهمته. كان الوقت بالتأكيد لصالح صدام حسين عندما تحوّل الصيف إلى شتاء قارس والكثير من اللاجئين لايزالون في المخيمات وآلاف آخرين لايزالون في مدن و قرى غربية. مرةً أخرى كان الأكراد لوحدهم، ولديهم عدة أوراق للعب بها، والانقسامات بدأت تظهر في صفوفهم وكانت إيران وتركيا تسعيان لاستغلال الوضع الجديد كما استغلوا الوضع السابق. إن الدراما العظيمة للثورة تلتها تراجيدية الهجرة الجماعية وكانت تنتهي بالموت.

الفصل الثالث

أصل الكرد ومنشؤهم

كان التمرد ضد صدام حسين في ربيع ١٩٩١ قد وصل إلى أوجه في نوروز، السنة الكردية الجديدة في الواحد والعشرين من آذار والتي تمثّل الذكرى السنوية للإطاحة بالطاغية [زهاك] ضحّاك قبل ألف سنة من مجيء الإسلام حسب التقويم الكردي كان ذلك عام ٢٦٠٣.

رغم ارتباطهما المتين بالتقاليد والأعراف الفارسية فإن عيد نوروز وأسطورة ضحاك تحتويان واحدة من عدة أساطير شعبية حول أصول الكرد. هذه الأساطير التي تعتبرهم مستقلين عن جيرانهم وتساعد في توطيد هويتهم كشعب مستقل. والتقويم الكردي يرقى تاريخياً إلى هزيمة الإمبراطورية الآشورية في نينوى، شمال الموصل، على يد قوات الميديين.

إن أسطورة ضحاك نابضة بالحياة. وفقاً للفلكلور الكردي كان قد ظهر ثعبانان ضخمان * على منكبي هذا الطاغية، وهي عاهة عجز أطباء البلاط عن شفائه. إلى أن جاء الشيطان وأخبر الطاغية بأنه سيُشفى إذا ما أطعم الثعبانين بمخ إنسانين كل يوم. وكان الجلاد الذي عيّن بمهمة التزويد بالأدمغة يرأف بضحاياه فيصفح عن أحدهما ويبّدل دماغه بدماغ خروف. كان الناجون يهربون إلى الجبال الآمنة حيث أصبحوا المؤسسين لشعب جديد هم أحداد الأكراد. وقد أُطيح بضحاك نفسه عندما ثار أحد ضحاياه المفترضين ضد قدره وقتله.

في أساطيرهم كما في تاريخهم المكتوب يبرز الأكراد كوجود مستقل رغم جهود الدول التي تحكمهم الآن في إنكار هويتهم الخاصة. وحتى الآن لا تزال تركيا تنكر وجودهم كشعب متميز وتسميهم ((أتراك الجبال)) واضعةً الحظر على لغتهم المكتوبة ومحاولةً صهر ثقافتهم. وفي إيران يُنظر إليهم كجزء متمم للأمة الإيرانية دون اعتبارهم شعباً متميزاً عن الإيرانيين. وفي العراق قد تُستعمل كلمة ((كرد)) كمَسبّة للإشارة إلى البدائي والبدوي غير المثقف.

---

(١) في الشاهنامة "تنينان عظيمان" انظر خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، تأليف محمد أمين زكي ترجمة محمد علي عوني، الطبعة الثانية ص٤٧.

رغم كل هذه المحاولات الرامية إلى المحو الثقافي يستمر الأكراد في رؤية أنفسهم كأمة مستقلة من حقها "التمتع بالحكم الذاتي والاستقلال في نهاية المطاف. إن لهم لغتهم وعاداتهم ومناطقهم الخاصة بهم ـ تلك الجبال العالية التي شكلت حاجزاً طبيعياً ضد جيرانهم المعتدين من العرب والأتراك والفرس ـ ولديهم تاريخ ثقافي حافل شهدَ أكبر ازدهار له في القرون الوسطى [العصور الإسلامية] بتأسيس سلالة كردية قوية حاكمة من ضمنها صلاح الدين الذي هزم ريتشارد قلب الأسد قائد الصليبيين، والذي أعادَ فتح فلسطين للمسلمين. ولكن لم يكن لديهم دولة خاصة بهم باستثناء فترة قصيرة في العصور الحديثة.

إذا كان ثمة دولة كردية فإن بمسألة الأرض التي ستغطيها ومن سيكون سكانها مفتوحة للنقاش. فالأكراد في وضعهم الحالي المقسمين بين العراق وإيران وتركيا وسورية والاتحاد السوفيتي ليس لديهم أي هيئة سياسية مركزية ولا منبر ليرسخوا هويتهم السياسية. ورغم أن الدول التي تقتسم كردستان تتبع سياسات مختلفة تجاه أقلياتها الكردية، إلا أن لديها مصلحة مشتركة في قمع فكرة الهوية الكردية العامة التي تتجاوز الحدود الدولية. نتيجة لذلك فإن الإحصائيات الأولية ـ لعدد السكان مثلاً ـ أكثر بقليل من أن تكون مجرد تخمينات للمطلعين. حيث تتفاوت التقديرات الحالية لعدد سكان كردستان من ١٥ ـ ٢٥ مليون مظهرةً بذلك تبايناً كبيراً فيما يتعلق بتقديرات عدد السكان في أماكن أخرى من العالم. وكما هو متوقع فإن الدول المسيطرة تأخذ بأدنى التقديرات بينما يحبّذ القوميون الأكراد أعلاها. ففي إحصائية لعدد سكان كردستان عام ١٩٨٧، نشرتها جمعية حقوق الأقليات التي تتخذ من بريطانية مركزاً لها، وُصفت بأنها مأخوذة بحذر، أُعطيت الأرقام التالية: تركيا ٩,٦ مليون (١٩٪ من السكان) إيران ٥ مليون (١٠٪ من السكان) العراق ٣,٩م (٢٣٪) سورية ٩٠٠,٠٠٠ (٨٪) الاتحاد السوفيتي ٣٠٠,٠٠٠ (نسبة ضئيلة جداً) بكلمة أخرى يشكل الأكراد أمة مؤلفة على الأقل من عشرين مليون وأكبر ـ مقارنة مع جيرانها الشرق أوسطيين ـ من الواحد والعشرين دولة عربية الأعضاء في الجامعة العربية باستثناء مصر، وبحجم السودان والجزائر.

كذلك الأمر فإن المنطقة الجغرافية للدولة الكردية المفترضة ستكون موضع بحث. إن خارطة إثينة [عرقية] لكردستان اعتماداً على المناطق التي يشكل فيها الأكراد أغلبية" ستغطي الزاوية الجنوبية الشرقية من تركيا متضمنة مدن ديار بكر وماردين وهكاري وبحيرة وان وجبال آرارات ثم المناطق الحدودية السورية كرداغ (جبل الأكراد) والجزيرة الواقعة شرقي نهر الفرات وبعد ذلك تدخل إلى العراق حيث يعيش الأكراد في المنطقة الجبلية في شمال ـ شرق العراق في خط يمتد من زاخو في أقصى

شمال ـ غرب وإلى مدن الموصل وأربيل وكركوك وخانقين. وفي إيران يعيش الأكراد في المنطقة الحدودية الغربية التي تمتد من المثلث الحدودي السوفيتي ـ الإيراني ـ التركي إلى مدينة كرمنشاه شرقي بغداد مباشرة. عموماً فإن كردستان تغطي منطقة بحجم مساحة فرنسة[1] تقريباً. ومع ذلك فإن الكثير من السكان الحاليين في هذه الحدود المفترضة لكردستان لا يعتبرون أنفسهم أكراداً ففي السهول هناك عدد كبير من العرب والأتراك وهم أما سكان أصليون أو أتت بهم الحكومات المركزية لتغيير التركيب الإثني لكردستان، بينما يعيش الأكراد في مناطق كردستان العراق جنباً إلى جنب مع عدد كبير من التركمان والمسيحيين الشرقيين الذين يسكنون المنطقة منذ قرون. و في جنوب ـ شرقي كردستان حول مدينة كرمنشاه الإيرانية، يعتبر السكان المحليون أنفسهم عادةً من الفرس أكثر من أن يكونوا أكراداً والحق يُقال أنهم من حيث اللغة والدين أقرب إلى الفرس منهم إلى أكراد (كرداغ) في سورية على سبيل المثال. رغم ذلك حاول القوميون الأكراد توسيع الخارطة الاثنية لتشمل الكثير من جنوب ـ غربي إيران بما فيها أقليم خوزستان ذي الأغلبية العربية. ويطالب البعض حتى شاطئ الخليج المواجه للشريط الساحلي الكويتي. في سان فرانسيسكو حين اجتمعت ثمانية وأربعون دولة سنة ١٩٤٥ للتوقيع على الميثاق التأسيسي للأمم المتحدة سلّم وفد كردي خريطةً تطالب بدولةٍ كردية تمتد من لواء اسكندرون على البحر المتوسط للساحل السوري إلى بوشهر على بعد ١٥٠ ميل من شط العرب على طول الساحل الإيراني.

رغم أن هذه الدعاوى المتطرفة تتجاهل الحقوق التاريخية لأقليات أخرى تعيش في المنطقة إلا أن حقيقة الأمر هو أن معظم المنطقة المُشار إليها أعلاه مسكونة بأغلبية مطلقة لسكان يتكلمون اللهجات الكردية ويعرّفون أنفسهم لا كأتراك أو عرب أو فرس أو آشوريين أو أرمن بل كأكراد.

إن أرض كردستان جبلية على الأغلب حيث يصل ارتفاعها إلى ١٥,٠٠٠ قدم وتتركز حول سلاسل طوروس وزاغروس التي كانت سداً منيعاً في وجه الغازين وملاذاً لقطاع الطرق و الثوار. إما الهضبة الأرمنية فقد أصبحت كرديةً في العصور الحديثة عندما نُقلت العشائر الكردية إلىهناك من قبل العثمانيين لحراسة حدود الإمبراطورية. أما بشأن المطالبات الكردية بمدن شمالي العراق والتي قاتل البيشمركة دفاعاً عنها فيكتنفها الغموض تاريخياً. فـ (كركوك) وهي مدينة ذات أغلبية كردية لم تكن

---

(١) يقول الدكتور عبد الرحمن قاسملو في كتابه كردستان والأكراد، ((وهكذا فإن المساحة الكلية لكردستان تبلغ زهاء ٤٠٩٦٥٠ كم٢ أي أنها أوسع رقعة من مساحات بريطانية وهولندا وبلجيكا وسويسرا والدانمارك مجتمعةً)) المترجم

في الأصل كردية، أما أربيل، عاصمة كردستان العراق، فكانت حتى بداية هذا القرن قلعة صغيرة، تركية بالدرجة الأولى، محاطة بالعشائر الكردية، وكان حاكم أربيل الأول ــ وهو كردي تم تعيينه في الثلاثينات من قِبل الملكية العراقية المستقلة حديثاً ــ أول من بنى خارج حدود القلعة التي تعود إلى القرون الوسطى [العصور الإسلامية]

بالفتح والاحتلال وسّع الأكراد أرضهم عبر قرون من الزمن، لهذا فإن دولة كردية مستقلة تتضمن كل المناطق ذات الأغلبية الكردية ستغطي السهول والجبال وستكون ذات اقتصاد زراعي قوي قوامه القمح والشعير والعدس والمواشي. فالسهول في كردستان سورية والعراق مخازنُ قمح لهذه الدول. كما أن الدولة الكردية المستقلة ستكون مسيطرة على منابع دجلة والفرات بالإضافة إلى احتياطات النفط في كل من العراق وتركيا وسورية. وهناك أيضاً احتياطي ضخم من الكروم، والنحاس والحديد والفحم، وتتعزز أهمية كردستان الاستراتيجية بمعرفة حقيقة مفادها أن الطريق الرئيسي وشبكة الخطوط الحديدية بين أوربا وآسيا تمر عبر أراضٍ كردية.

إنها مغالطة عززتها الدول التي تقتسم كردستان بأن الأكراد في الأساس من البدو. إن القبائل البدوية وشبه البدوية هي السائدة في المجتمع الكردي، ولكن حتى قبل هذا القرن كان معظم الأكراد مستقرين أو يهاجرون موسمياً لرعي مواشيهم. ولدى انتقالهم إلى المدن تخلى معظم الأكراد عن شخصيتهم القبلية.

قبل تقسيمها بين خمسة دول حديثة كانت كردستان بعيدة عن أن تكون أقليماً متجانساً، فالاختلاف في اللهجات والعادات والدين بالإضافة إلى المنافسات العشائرية تؤكد أن الأمة الكردية بقيت مجزأة. وتضاعفت هذه التباينات بإختلاف طبيعة الدول الحديثة التي يعيش فيها الأكراد والتي لم تتمكن حتى الآن من منع الأكراد من الحفاظ على كرديتهم حتى وإن أخفقوا في معرفة لغتهم الأم كما هو الحال بالنسبة للكثير من الأكراد في تركيا. إن الروابط الأُسرية والعشائرية تعبر الحدود القومية، وتُعَدّ الحدود الراهنة عقبة غير مرغوبة ولابد من تجاهلها أنىّ كان ذلك ممكناً.

لقد أبقت الدولُ التي تقتسم كردستان المناطقَ الكردية في حالة من اللاتطور والفقر خوفاً من تزايد النفوذ الكردي. ولذلك يقتصر النشاط الصناعي على بعض الصناعات المحلية ناهيك عن صناعة التبغ لاستغلال الموارد الكردية. أما الحِرَف المحلية والتي كانت تقليدياً حكراً على المسيحيين واليهود في المدن و القرى الكردية فقد اختفت الآن نتيجة لهجرة هؤلاء وبسبب دخول مواد مصّنعة بأسعار

رخيصة إلى كردستان. إن عزل المعاشر الكردية بعضها عن بعض لم يتحقق تماماً بسبب شبكة الطرق ووسائل الاتصال فهذه تلبي حاجات الدول القومية الحديثة. وهكذا يصبح السفر من كردستان تركيا إلى أنقرة أو السفر من كردستان العراق إلى بغداد، أسهل من السفر ضمن كردستان نفسها.

ولكن من هو هذا الشعب الذي يرفض بعِناد قبول حكم التاريخ في أن لايكون له مكان مستقل في هذا العالم؟ إن إحدى النتائج السلبية لسياسات الدول في صهر ورفض القومية الكردية هي وجود أبحاث قليلة نسبياً في الوقت الحاضر عن أصول الكرد العرقية والثقافية. وهذا يعني إنه لايوجد جواب واضح عن اصولهم، ولكن يمكن القول: بوجود شعب كردي مماثل في المناطق الجبلية شمالي بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) منذ أربعة آلاف سنة.

إن أول إشارة تاريخية لأجداد الأكراد (وحتى هذا لايزال موضع نقاش) وردَ في كتاب أناباسيس لـ زينفون (Xenophon)[1] حيث يوجد وصف للرحلة الملحمية للعشرة آلاف اغريقي الذين فرّوا من الامبراطورية الفارسية في عام ٤٠١ ق.م بعد هزيمة كورش (Cyrus) ومناوشتهم للأجانب الهمجيين. وحالما توجهوا شمالاً من بلاد ما بين النهرين إلى البحر الأسود، دخل زينفون ورفاقه إلى أراضي قوم الـ (الكاردوكي أو الكردوخي). وبعد عشرين قرن لاتزال هوية هولاء الهمجيين غير واضحة، ولكن اسمهم و مكانهم ـ شمال مدينة الموصل في يومنا هذا ـ يربطهم بأكراد اليوم كما يشير إلى ذلك أيضاً موقفهم من السلطة المركزية. ((عاشت هذه الشعوب)) ـ يقول زينفون ـ ((في الجبال وكانوا مولعين جداً بالحرب ولم يكونوا خاضعين للملك [الفارسي]. حتى أن جيشاً ضخماً قوامه مائة وعشرين ألف جندي غزوا بلادهم [بلاد الكردوخيين] ولم يَعُد منهم أحد بسبب الظروف السيئة جداً للأرض التي مروا عبرها)) قاتل الاغريق لمدة سبعة أيام أثناء مرورهم باقليم الكردوكيين، ويعترف زينفون أنه عانى في مواجهة الأكراد الأصليين أكثر مما عاناه وهو يواجه جيوش الامبراطورية الفارسية.

---

(١) يقول السير سيدني سميث إنه: "ورد ذكر لاسم (الكرد) خلال عهد انقراض حكومة الآشوريين وقبل هذا التاريخ أيضاً مرات عديدة. ثم يقول اعتماداً على كتاب (تاريخ الشرق الأدنى القديم) للمستر هول: أن (آشور ناصر بال) الذي كان آخر ملك على الآشور قام بحملة تأديبية على ملك (ماني) ولكنه أخفق أمام شجاعة الأكراد وبسالتهم (سنة ٦٢٦ ق.م).

انظر كتاب خلاصة تاريخ الكرد وكردستان (مصدر سابق) ص ٥٥ ـ ٥٦ المترجم

أن ما يخبره زينفون عن الشعب الكردوكي لايتجاوز حبهم للحرب ومهارتهم في القوس. ومع أن الاغريق كانوا قد تكلموا معهم بواسطة المترجمين إلا أنه لايوجد وصف للغة التي كانوا يتكلمونها.

إن اللغة التي يتكلمها الأكراد في الوقت الحاضر قريبةٌ جداً من الفارسية وتنتمي إلى المجموعة الإيرانية الشمالية ـ الغربية جنباً إلى جنب مع لغات أفغانستان وبلوجستان و طاجيكستان. وحسب المؤرخ الاغريقي هيرودوتس **Herodotus** كان الأكراد والفرس يفهمون لغة بعضهم في العصور القديمة. وإذا توسعنا سنجد أن اللغة الكردية قريبة من السنسكريتية والكثير من اللغات الأوربية الحديثة ومنها اللغة الانكليزية، حيث يمكن رؤية هذه القرابة بمقارنة الكثير من الكلمات الأساسية مثل:

عربي	انكليزي	كردي
الأرض	earth	erd
جديد	new[1]	new
حاجب	eyebrow	[e] brû
نهر	river	rûber[2]
قطرة	drop	dlop[3]

(١) الجدير بالذكر أن اللفظ الأمريكي للكلمة هو [nu:] أي كما تلفظ في منطقتنا أما كلمة **new** بالكردية فقد وردت في قاموس باران رزكار (الكردي ـ الانكليزي).

(٢) جاءت تهجئة هذه الكلمة في قاموس علي سيدوكوراني بهذا الشكل (rûbar) أما في قاموس باران رزكار فقد جاءت **robar** ومن المعروف أن اللفظ يختلف من منطقة إلى أخرى.

(٣) هكذا في الأصل والأصح **dilop**

(٤) لعَقْد مزيد من المقارنات بين اللغة الكردية واللغات الأوربية الحديثة يُمكن مراجعة كراس (رسالة إلى الغازي مصطفى كمال باشا للأمير جلادت بدرخان وترجمة روشن بدرخان منشورات دلاورزنكي ط١ ١٩٩٠ المترجم.

إن اللهجات الكردية الحديثة في بعض الأحيان غير مفهومة بشكل متبادل [أي لا يستطيع متكلم اللهجة السورانية فهم الكرمانجية والعكس صحيح] حيث يوجد فرق شاسع في المفردات والقواعد. إن اللهجتين الرئيسيتين هما الكرمانجية تُستعمل في [كردستان] تركيا و شمال غربي العراق وحتى بحيرة أورمية في إيران، أما السورانية فتُستعمل في شمال وجنوب غرب كردستان، والزازائية لهجةٌ مستقلة يتكلم بها الكثير من الأكراد في تركيا جنباً إلى جنب مع الكرمانجية بينما يتكلم الأكراد الشيعة[1] لهجات أقرب إلى الفارسية منها إلى لغة رفاقهم الأكراد.

إن عدم وجود لغة موحدة يُستعمل كبرهان للإدعاء بأن الأكراد ليسوا أمة واحدة، ولكن اللهجات الكردية بالأساس قريبة من بعضها مثل البرتغالية والاسبانية وهي أقرب إلى بعضها من لغات الصين الحديثة وإيطاليا في القرن التاسع عشر.

ويُستنتج من الدلائل التاريخية واللغوية عموماً أن الأكراد ينحدرون من الميديين القدماء وهم شعب جاء من وسط آسيا واستوطن، في القرن الثاني عشر ق.م، في جبال زاغروس وحول بحيرة أورمية فيما يُعرف اليوم بأذربيجان. فتح الميديون الامبراطورية الآشورية ومدنها الكبرى نمرود ونينوى - قرب الموصل - ولكنهم هُزموا بدورهم على يد الفرس. ويجبذ الأكراد عادةً النظرية التي تقول بأن الميديين أسلافهم، ويطلقون اسم ميديا على بناتهم الصغار.

منحى آخر للتراث الكردي يمكن رده إلى السيثيين، وهم شعب هندو - أوربي نزل مما يُعرف اليوم بـ (أوكرانيا) وأسس مملكة في كردستان إيران في القرن الثامن قبل الميلاد.

وربما كان الأكراد مجرد قبيلة عريقة منحت اسمها للسكان المختلطين في تلك المنطقة ويبين لنا التاريخ بأن الاسم قد ترسخ في القرن الثالث الميلادي عندما أسس الملك الفارسي (أردشير) السلالة الساسانية الحاكمة فمن بين منافسيه الذين لابد من اخضاعهم في بداية عهده كان : (كردان شاهِ مدريغ) مدريغ (MADRIG) ملك الأكراد.

---

(١) يقصدان الأكراد الفيلية ولهجتهم آتية من كونهم جماعة كردية محالفة للفرس وليس لكونهم شيعة لأن الطائفة والدين لا يحددان اللغة (هـ . ع)

إن أكراد اليوم ينحدرون بالتأكيد من مزيج عرقي أعقد بكثير مما قد تشير إليه لغتهم الهندو ـ أوربية. حيث إن النظرية الانثروبولوجية الحديثة دحضت إلى حدٍ بعيد الفكرة القائلة بان الهجرة الجماعية لوافدين جدد أكثر تطوراً وحباً للقتال كانت تستأصل شأفة السكان الأصليين القدماء . بل، يُعتقد الآن، بأن الوافدين الجدد كانوا يجلبون لغتهم وثقافتهم إلى المناطق التي فتحوها وساهموا في مزيج عرقي أغنى. في هذا السياق ربما يَدين أكراد اليوم بأصولهم إلى سكان المنطقة قبل الأيرانيين كما يَدينون للقبائل الهندو ـ أوربية التي جاءت وهيمنت عليهم. إن هذه العملية، حيث يصبح السكان القدماء ثقافياً ولغوياً من الهندو ـ أوربيين تظهر في أسطورة تقليدية أخرى حول أصول الكرد. إنها تتعلق بسفينة نوح وكيف رست بعد الفيضان على قمة جبل الجودي في العراق وذلك قبل ٤,٤٩٠ سنة من ميلاد النبي محمد حيث بُنيت مدينة كبيرة كان يحكمها شخص من قبيلة نوح هو ملك كوردم (Melik kurdim) وعندما وصل ملك كوردم سن الستمئة عام، اخترع لغة جديدة سمّاها شعبه كوردِم وهي لغة الأكراد.

وتُظهِر حكاية أسطورية أخرى في الفولكلور الشرق أوسطي شيئاً عن هذا المزيج العرقي حيث تروي كيف أن الملك سليمان كان يحكم عالماً خارقاً للطبيعة مليئاً بالجن والعفاريت. حيث أرسل خمسمائة من أتباعه المخلصين ليخطفوا أجمل خمسمائة فتاة تقع عليهن أعينهم. في طريق عودتهم وجدوا أن الملك قد مات لهذا اختطفوا بالنسوة، وكان الأكراد نتيجة هذه الوحدة القسرية. ويُمكن إيجاد وصف مماثل في الفولكلور اليهودي حيث يُقال أن الأكراد سليلو الشياطين ممن اغتصبوا أربعمائة فتاة عذراء.

قبل وصول القبائل الهندو ـ أوربية في الألف الثالث ق.م، كانت المنطقة التي تسمى الآن بكردستان يسكنها سكان أصليين من القبائل الأرمينية والقوقازية وكانوا يتكلمون لغات ترتبط من بعيد باللغات الجيورجية الحديثة. فقبل مجيء الآريين كانت هناك قبائل [شعوب] لولو (Lullubi) والكاشيين والعيلاميين والكوتيين أو الجوتيين (Guti) ويُعدُ الاسم الأخير من بين أسلاف الأكراد. كانت هذه القبائل القديمة في حالة حرب مستمرة حيث كان سكان بلاد ما بين النهرين يغزون الجبال من أجل الأخشاب والمياه المعدنية والعبيد وكذلك من أجل نساء الكوتيين الشقراوات اللواتي كن مشهورات بجمالهن. وحتى في يومنا هذا يبدو سكان السهول أقصر قامة وبشرتهم داكنة أكثر من سكان الجبال حيث ليس من المستغرب أن تُصادف أناساً بشعور شقراء وعيون زرقاء.

وهكذا أصبحت القبائل الجبلية هندو ـ أوربية بالتدريج، اعتباراً من الألف الثالث فصاعداً عندما انتقلت موجات جديدة من الفاتحين جنوباً. ولكنها عمليةً لم تُستكمل تماماً. إلا في القرن الخامس (ق.م)، قريباً من عصر زينفون، حيث أصبحت هذه الشعوب الجبلية مندمجة ثقافياً وعرقياً بشكل يماثل أسلاف الأكراد في الوقت الحاضر.

وقد اصبح المزيج العرقي أعقد من ذلك في العصور التالية عندما بدأت القبائل التركية والعربية تهجم على الأرض الكردية. ففي بداية العصور الوسطى[1] استُكردت بعض القبائل التركية في وقتٍ أصبحت القبائل الكردية تركية". وأصبح الأكراد تابعين لشيوخ قبائل عربية والعكس صحيح، كما بدأت المفردات العربية والتركية تجد طريقها إلى اللهجات الكردية.

إن النظريات التي وردت هنا عن الأصول العرقية المختلطة للأكراد لا تقوّض بأي شكل من الأشكال حق الأكراد في المطالبة بأن يكون لهم أمة مستقلة، فالفكرة القائلة بأن النقاء العرقي شرط أساسي لقيام دولة أو أمة دُحضت منذ وقت طويل. على العكس من ذلك إن الهدف من المناقشة هو أن الأكراد يمثلون مزيجاً عرقياً وثقافياً فريداً أدى إلى إعادة نشأتهم من قِبلهم ومن قِبل الآخرين كأمة يمكن تعيين هويتها.

قبل مجيء الإسلام في القرن السابع الميلادي كان سكان كردستان بشكل عام يتبعون الزرادشتية، دين حيرانهم الفرس، رغم إنه لا تزال توجد في الفولكلور الكردي أصداء ثقافية للمعتقدات الوثنية التي تعود إلى ما قبل الآريين. وفي العصور التي سبقت الإسلام، قامت المسيحية بعدة غزوات في كردستان حيث اهتدت قبائل بأكملها إلى الدين الجديد. وعلى سبيل المثال اعتادت قبيلة هركي البدوية سابقاً ـ استقرت الآن في مقاطعة أربيل ـ على حمل سفينة خشبية كان يُقال أنها تحمل رأس القديس جورج.

كان الأكراد نسبياً متأخرين في اتخاذ الدين الجديد الذي نشأ في القرن السابع في شبه الجزيرة العربية ثم اكتسح الشرق ووسط آسيا وعبر شمال أفريقيا إلى جنوبي أوربا. وقد كان أول اتصال مباشر بين الأكراد وجيوش المسلمين سنة ٦٣٧م عندما استولى الغزاة على مدينة تكريت على حافة الأقليم الكردي وعلى بعد مئة ميْل من بغداد. وبعد سنتين قاتل الأكراد إلى جانب حاكم الأهواز

---

(١) يستعمل المؤلفان التقويم الأوربي فيثيران التباسات في التزمين. ان العصور الوسطى هي عصور أوربية لا كردية، وكان المطلوب استعمال التقويم الميلادي الذي يوفر فهماً مشتركاً للتاريخ (هـ . ع)

الفارسي وذلك عندما حاولت الأميراطورية الزرداشتية المضمحلة صدّ تيّار الدين الجديد ولكن دون جدوى . فأنشأ العرب أول موطئ قدم لهم [أول قاعدة] في كردستان سنة ٦٤٣ بعد هزيمة الجيوش الكردية في معركة دامية قرب فيما يُعرف اليوم بمحافظة السليمانية.

لقد قاتل الأكراد بقوة أكثر من الجميع ضد سيطرة العرب فاشتركوا في الكثير من الانتفاضات وربما يعود ذلك إلى التنافس على المراعي بين الأكراد وعرب السهول، هذا التنافس الذي سبق بمجيء الإسلام بكثير. وربما كانت البُنية العشائرية المنغلقة للمجتمع الكردي والعزلة الطبيعية لوطنهم الجبلي من العوامل التي ساعدت أيضاً في مقاومتهم للدين الجديد. وإذا كانوا قد خضعوا له أخيراً فربما يكون مردّه ـ كما في أماكن أخرى ـ إلى أن المسلمين قد أُعفوا من الضرائب المفروضة على غير المؤمنين، أكثر من أن يكون تقيداً شديداً بالمعتقدات الروحية للدين الجديد.

كما في أماكن أخرى من العالم عززت جيوش المسلمين هذه التحالفات الجديدة عن طريق التزاوج فكانت أم آخر خليفة أموي، مروان بن الحكم[1]، كردية". ومع ذلك فقد ظلت القبائل الكردية الأكثر عزلةً ترفض الإذعان للوافدين الجدد وكانت تشن الغارات على أراضي المسلمين حتى القرن الثالث عشر. إن هذه الروح من الاستقلال والمقاومة للسيطرة العربية[2] تظهر في حكاية أخرى من الفولكلور الكردي. تقول الحكاية: إنه عندما دعا النبي (محمد) أمراء العالم لاعتناق الدين الجديد، أسرع الجميع للخضوع له. فأرسل له (أوغوزخان Oguzkhan) أمير تركستان ممثلاً عنه شخصاً كردياً اسمه (زَمين). و يُقال إن النبي قد تأثر كثيراً من رؤية هذا الرجل العملاق ذي النظرات الحادة فسأل عن أصله، ولما عرف النبي أصل (زمين) الكردي دعا الله ألا يوَحد أبداً شمل هذا الشعب المخيف في أمة واحدة.

فور إهتدائهم إلى الدين الجديد، أصبحت غالبية القبائل الكردية من أقوى المدافعين عنه وأشدهم إخلاصاً له، رغم إن الجانب الروحي في حماسهم الديني كان دائماً مجالاً للشك كما يعبّر عنه

---

(١) هو مروان محمد بن مروان بن الحكم (هـ.ع).

(٢) أن تعبير ((السيطرة العربية)) غير دقيق هنا لأن الفتوحات كانت اسلامية وليست عربية، فقد انخرط فيها الفرس والنبط والأكراد وفيما بعد الأتراك (هـ . ع)

المثل التركي: ((مقارنة" مع الكافر يُعتبر الكردي مسلماً صالحاً)). لقد أصبحت الآن قدراتهم الحربية مكرّسة لخدمة الإسلام بعد أن كانت قد سُخّرت لخدمة الامبراطوريات الرومانية والبيزنطية والساسانية.

بعد اثني عشر قرناً من مجيء الإسلام، كان الدين أهم عامل يربط شعوب الشرق الأوسط بعضهم ببعض، بغض النظر عما إذا كانت السلالة الحاكمة تركية أو عربية، فقد كان كل مسلم من أي عرقٍ كان يرى أن واجبه الأول هو خدمة الإسلام. واستمرت هذه الرابطة الإسلامية حتى القرن التاسع عشر حيث بدأت تتلاشى تدريجياً أمام الأفكار الأوربية عن القومية. ولكن على الرغم من وحدة الهدف كان هناك ادراك خجول بين الأكراد بأن الآخرين يستفيدون من انقساماتهم وبأن الأمة الكردية بالسماح لنفسها بان تُستَغل كقوة مستأجَرة كانت تخسر الكثير. ففي القرن السابع عشر يقول أحمد خاني نادباً القدر الذي جعله الله للأكراد. فيقول في ملحمة مم وزين:

" ـ لقد حار فكري في حكمة الله من جعل الأكراد في هذه الدنيا.

- محرومين، محكومين مستعبدين بالجملة

- إنهم انتزعوا بالسيف بلاد الشهرة، وبالهمة انقادت لهم البلاد

- إنهم دروع لهولاء الفرس والترك في الجهات الأربع

- إن الطرفين، قد جعلا الأكراد هدفاً لسهام القضاء (الموت)

... ـ لذلك فهم أشتات متفرقون، دائمو العصيان والشقاق (على بعضهم)

- لو كان لنا اتفاق ... لدخل في طاعتنا الروم والعجم والعرب برمتهم."(١)

لم يكن أحمد خاني يكتب باسم شعب خاضع بالمعنى التقليدي للكلمة. فالقبائل الكردية سواء أكانت رحل أو شبه بدوية [رحل] أو حضرية [مستقرة] لم تكن عبيداً أو أقناناً للأمم الأخرى، بل على العكس من ذلك كان شيوخ القبائل الكردية على الأغلب يحكمون فلاحين غير أكراد مثل

---

(١) تبدو الأبيات مختلفةً بعض الشيء في النص الإنكليزي- وهذا بسبب ضرورات الترجمة ـ لكنني فضلت هذه الترجمة المباشرة من الكردية عن (ديوان أحمد خاني: مم وزين ترجمة وتحقيق جان دوست ط١ ١٩٩٥) المترجم

الأرمن وغيرهم من المسيحيين، ما كان يرثي له خاني، على الأصح، هو حقيقة أن بقية الشعوب أظهرت مقدرة في العمل وفقاً لهدف مشترك بينما كان الأكراد غالباً يحابهون بعضهم بعضاً خدمةً للقوى المتنافسة.

كان لمجيء الإسلام عموماً تأثير ايجابي على المجتمع الكردي، حيث حَمَلَ الحضارة إلى زاوية كانت في السابق معزولة وبدائية في الشرق الأوسط. فشهدت بدايات العصور الوسطى ازدهار ثقافة كردية متميزة، كما شهدت تأسيس إمارات مستقلة وسلالات حاكمة قوية. ففي الوقت الذي خفت فيه حماسه العرب في الاهتداء بالدين الجديد وتلاشت تدريجياً قوة السلالة العربية الحاكمة في العصور الأولى من ظهور الاسلام، تحركت القبائل التركية والكردية من وسط آسيا بإتجاه الشرق فأعطت بذلك دماءً وقوة جديدتين لقضية الإسلام.

من بين أولى السلالات الكردية الحاكمة وأكثرهم مجداً يبرز اسم الشدادية التي أسسها سنة ٩٥١ محمد شدّاد بن قرتان من قبيلة الروادية ـ هذه القبيلة التي ستُبرز صلاح الدين ـ والمروانية التي دامت مئة سنة اعتباراً من سنة ٩٨٥ بعد تأسيسها على يد (كرد باد ، باذ)[1] الذي كان في السابق راعياً وأصبح أميراً محارباً. لقد نَصَبَ نفسه حاكماً على نصيبين وديار بكر وهي الآن المدينة الرئيسية في جنوب ـ شرقي تركيا، حتى أن جيوشه هددت بغداد قبل موته في معركة" قرب الموصل. وكان معركة يحكم النصف الشرقي من كردستان في نفس تلك الفترة سلالتين كبيرتين هما حسن وحيد [2] (Hassan wahid) (٥٥٩ ـ ١٠١٥) وبنو عناز[3] (٩٩٠ ـ ١١١٦).

وقد كانت كردستان في تلك الفترة ـ قبل وبعد ذلك أيضاً ـ ساحة قتال للامبراطوريتين المتنافستين. ففي الغرب كانت الامبراطورية البيزنطية المسيحية تحاول بسط سيطرتها نحو بحيرة وان، بينما بدأ السلجوقيون الأتراك بالظهور عندما تمركزت السلالة العسكرية الحاكمة للخلافة الإسلامية في بغداد. اتخذ إبن أخي باد أبو ناصر ـ الذي حكم من ١٠١٠ ـ ١٠٦٠ ـ تدبيراً وقائياً فاحتفظ بعلاقات

---

(١) ورد اسمه في خلاصة تاريخ الكرد وكردستان بهذا الشكل (باز أبو الشجاع) المترجم

(٢) في المرجع السابق (الحسنوية ـ برزيكاني) المترجم

(٣) يقول المرحوم محمد علي عوني مترجم كتاب خلاصة تاريخ الكرد وكردستان مانصه: ((يؤخذ من كتاب (شرفنامة) الفارسي المتضمن تفاصيل أخبار الحكومات والإمارات الكردية إن صحة هذا الإسم هو (عيار) لا (عناز) ولعل ما في المصادر العربية مثل ابن الأثير وغيره مصحف عن عيار. المترجم

طيبة مع كل القوى الكبرى ـ وحكم نتيجةً لذلك في فترة هي الأكثر عظمةً وازدهاراً في الحضارة المروانية، مؤسساً لبلاط كردي في مدينة ديار بكر كان ينافس تلك الموجودة في دمشق أو القاهرة. وعندما تولى مقاليد الحكم، تلقى رسائلَ ودٍ من الخليفة ومن الامبراطور البيزنطي باسيل ومن أبو علي منصور[1] حاكم الفاطميين في مصر. وقد منحه الخليفة عقداً أصبح أبو ناصر بموجبه حاكماً على كل المدن والحصون التابعة لمقاطعة ديار بكر. كانت الارستقراطية الكردية والجندية القبلية تحكم مجتمعاً أغلبيته من الفلاحين المسيحيين وكان موظفو البلاط إما عرباً أومن السريان.

لكن هذا العهد من المجد والأزهار لم يكن ليدوم. ففي سنة ١٠٥٥ دخل السلاجقة إلى بغداد وأخذوا على عاتقهم دور المدافعين عن الخليفة من الحاكم البويهي العاجز سياسياً، فقد كان الخليفة حاكماً بالاسم فقط للعالم الاسلامي، ثم تحرك السلاحقة شمالاً ليجابهوا البيزنطيين ودحروا امبراطورهم رومانوس الرابع قرب [سهل] ملاذ كرد شمالي بحيرة وان، ثم دخلوا أرض الدولة المروانية سنة ١٠٧١م. واستمر السلجوقيون فصادروا معظم آسية الصغرى ـ تركيا الحديثة ـ من البيزنطيين الذين يتكلمون الاغريقية وأصبحوا بسرعة في موقع السيطرة على كل العالم الإسلامي باستثناء مصر. وكتدبير وقائي قام السلاحقة بوضع حدٍ للإمارة الكردية المستقلة على الحدود حتى هُزم المروانيون سنة ١٠٨٥ وأُجبر رعايا الأمير السابق منذ ذلك الوقت على دفع الضرائب لحكامهم الجدد من الأتراك.

وفي القرن التالي استُعمل لأول مرة اسم كردستان حيث اتخذه السلجوقيون لتحديد سنجق ـ أقليم ـ يمتد من همدان وكر منشاه في الشرق إلى سنجار في الغرب. كان الأقليم مقسماً إلى ستة عشر مقاطعة بحدها العراق العربي في الجنوب وخوزستان في الجنوب ـ شرق وأذربيجان في الشمال وهي المنطقة التي أطلق عليها جغرافيو العرب[2] سابقاً اسم الجبل. ورغم أن الأقليم كان جزءاً من الامبراطورية السلجوقية المترامية الأطراف، فقد وزع الأتراك المقاطعات عملياً على رؤساء القبائل الكردية الذين كانوا يديرون شؤون مناطقهم العشائرية الشبه مستقلة والتابعة اسمياً للسلجوقيين.

كانت مرحلةً هامة من الزمن شهدت امتزاجاً ثقافياً وعرقياً بين شعوب المنطقة عموماً وبين

---

(١) هو المنصور بالله اسماعيل بن محمد والمنصور لقب لا اسمه (هـ . ع)

(٢) يقصدان الجغرافيين المسلمين فهم كانوا من العرب والفرس والكرد وغيرهم (هـ . ع)

الأتراك والأكراد بشكل خاص. وتظهر اسماء بعض العائلات التركية في كردستان منذ ذلك العهد، مثل عائلة كوكبوري (Kokburi) ورثة حكام أربيل. امتد النفوذ الكردي باتجاه الشمال أيضاً إلى أرمينيا وحسب المعتقدات الأرمنية فإن الأميرين المحاربين الكبيرين زاكاري (Zachari) وايفان كانا كرديين بالأصل.

بعد خمسة وعشرين عاماً من انتصار السلجوقيين في ملاذ كرد وصلت أخبار أولية إلى الشرق عن تحركٍ لقوات ضخمة في الغرب في طريقها إلى القسطنطينية كانت هذه قوات الفرنجة في حملتها الصليبية الأولى. فقد تم تتريك آسيا الصغرى سطحياً، وكان امبراطور البيزنطة اليكسيوس (Alexius) يحاول استعادة أراضيه المسلوبة بمساعدة رفاقه المسيحيين في اوربا الغربية. كان الذين استجابوا رعاعاً من المتعصبين الدينيين بعشرات الآلاف ومجموعة صغيرة نسبياً من الفرسان. لم يكن هذا الظهور الأول لفرسان الفرنجة في الشرق، فقد سبق وأن طافوا هناك كمرتزقة. وفي زمن معركة ملاذ كرد تقريباً، أبدى فارس يدعى روسل (Roussel) من بيلول (Bailleul) عن رغبته في انشاء دولة خاصة له في أرض بيزنطة. فلم يستعن الامبراطور في حينه الا بالسلجوقيين لطرد ذلك المتطفل.

إن هذه التحالفات اللامتوقعة كانت سمةً بارزةً لعهدٍ تميز بأن حدود الامبراطوريات كانت في تغيير دائم، وكانت هذه التحالفات نموذجية في القرنين التاليين لحكم الصليبيين في الشرق. ففي غضون هذين القرنين كان المسيحي يتحالف مع المسلم لمقاتلة المسيحي و العكس صحيح. فقد رحّب حكام مصر المسلمين بوصول الأوربيين[1] لأنهم رأوا فيهم قوة مقابلة للتوسع السلجوقي. فمدينة القسطنطينية المسيحية التي استعانت بالصليبيين لمساعدتها في المقام الأول، نُهبت سنة ١٢٠٤ من قِبل الصليبيين أنفسهم. ويمثل خطورة النزاع بين المسلمين والمسيحيين ـ الذي استمر لمدة قرنين ـ كذلك كان النزاع بين إسلام السنة التقليدي والتي كان الأكراد والأتراك من أكثر المدافعين حماسةً له، والشيعة التي كانت في ذلك الوقت مهيمنة على مصر.

إن عهد الصليبيين يُذكر في الشرق الأوسط كعصر السلب والقتل الجماعي ويُمكن مقارنتها فقط بغزوات المغول التي جاءت بعد ذلك بوقت قصير. استفاد بعض الفرسان المسيحيين الذين استقروا في الشرق ـ حيث تأسست ممالك صليبية مستقلة ـ من التعرّض لثقافة المسلمين بينما كان يُنظر بازدراء إلى الذين انضموا أفواجاً إلى حملات الصليبيين وكانوا يُعاملون كهمج.

---

(١) لم يتحالف الفاطميون مع الصليبيين قط وتصدوا لهم منذ البداية وانما تحالفت معهم بعض الأقليات الشيعية في بلاد الشام كالاسماعيليين ثم نقضت حلفها معهم وانضمت للمقاومة (هـ . ع)

لم يكن العالم الإسلامي مستعداً بشكل جيد لمواجهة هذا البلاء وفي غضون ثلاثة سنين من وصولهم إلى الشرق استولى الصليبيون على القدس ونصب بولدوين (Baldwin) كونت ايدسا (Edessa) نفسه ملكاً. كان ذلك قبل مئة عام من إعادة فتح المدينة المقدسة للإسلام من قِبل القائد الكردي العظيم صلاح الدين.

خلال القرن الحادي عشر كانت السلالات الكردية الحاكمة ذات نفوذ هام خارج حدود (الجبل[1]) وكانوا ذوي حضور حقيقي حتى سواحل المتوسط في سورية. كان حصن الأكراد[2] إحدى أهم تحصينات المسلمين في المنطقة الساحلية التي استولى عليها الصليبيون واتخذوه مركزاً لقيادتهم سنة ١٠٩٩ واسمه بالفرنسية هو كراك[3] دوشوفالييه ــ حيث كراك كلمة عربية محرّفة تُطلق على الأكراد - وهو [الحصن] لايزال قائماً في السهول السورية ويُعتبر من أبرز الأمثلة على الفن المعماري العسكري في بدايات القرون الوسطى.

وُلد صلاح الدين يوسف، أوسالدين كما كان معروفاً لأعدائه الصليبيين، سنة ١١٣٨ في مدينة تكريت الصغيرة شماليّ بلاد الرافدين التي أصبحت بعد ثماني مئة عام مسقط رأس صدام حسين. إن الديكتاتور العراقي وهو طالبٌ مخلصٌ هاوٍ، للتاريخ العربي[4] لم ينفر من عَقْد المقارنات بينه وبين صلاح الدين. ولكن انطلت عليه كما على معظم المؤرخين العرب حقيقة أن منقذ الإسلام لم يكن عربياً بل كردياً.

---

(١) كما سبقت الإشارة هو الاسم الذين أطلقه الجغرافيون المسلمون على كردستان. المترجم

(٢) عُرّب الآن فأصبح اسمه قلعة الحصن، علماً إن الحصن معناه القلعة أي قلعة القلعة!!؟ المترجم

(٣) لدى مراجعتنا لكتاب: Syrie aux sources de la civilization - Alain Cheviere Copyright (2) 1995 تبين أن كلمة (كراك) كردية الأصل ودخلت إلى اللغة الفرنسية حيث يقول المؤلف حرفياً في الصفحة ٧٣ ما يلي: Krak Signifie Chateau en langue Kurde أي: (كراك) تعني القلعة (القصر) بالكردية. وهي كلمة قديمة تعود إلى تلك الفترة وليس غريباً عدم استعمالها هذه الأيام. أما بشأن (كراك) ككلمة محرّفة فقد سألت الكثيرين في سورية وقالوا بأنهم لم يسمعوا بها، ويقول الأستاذ هادي العلوي أنه لم يسمعها في العراق، مما قد يدل بأنهما على خطأ. المترجم

(٤) هذا تضخيم لصدام حسين فهو شخص لا يملك أي طموح تاريخي يتعدى السلطة و امتيازاتها وهو أمي لا يفقه شيئاً من التاريخ و لم يقرأ في حياته أي كتاب (هـ . ع)

كان صلاح الدين ابن أخي شيركوه ـ الأسد ـ وهو ضابط في خدمة نور الدين محمود ـ التركي المولد ـ حاكم السوريين والذي بدأ يحرّك التيار ضد المسيحيين المتطفلين. رافق صلاح الدين عمه في فتح مصر الفاطمية وهو عملٌ منع سقوط مصر بأيدي الصليبيين.

كان شيركوه قاسياً وقائداً عسكرياً متأهباً، أعور وسيء الطبع، شهوانياً ويشرب باسراف وكانت تنتابه نوبات من الانفعال لايمكن السيطرة عليها. ومع ذلك فقد كان بارعاً في الاستراتيجية ومحبوباً من قِبل أتباعه الأتراك والأكراد. انطلق الفرسان بقيادة شيركوه نحو الضفة الشرقية لنهر الأردن ودخلوا مصر عبر سناء متجنبين قوات ملك الصليبيين أما لريك (Amalric) ووصلوا إلى أسوار القاهرة في أقل من شهر. كان الجنرال الكردي هناك ظاهرياً من احل العمل على حماية حاكم مصر الفاطمي الوزير الجليل شاور، ولكن شاور انقلب على منقذه وطلب نجدة الصليبيين في سورية من أجل مساعدته في طرد القوات التي يقودها هذا الكردي وتحرك شيركوه إلى خارج القاهرة لكنه حُوصر من قبل المسيحيين عند بيلبيس في دلتا النيل وجاءه الفَرَج عندما دمر نور الدين القوات الصليبية التي بقيت في سورية تحت قيادة الأمير بولدوين وبذلك أجبروا المسيحيين[1] بترك مصر والرجوع إلى الشمال.

في تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١١٦٤ توّصل شيركوه وأمالريك إلى اتفاقية نصّت على أن يقود كلاهما ـ بوقت واحد ـ قواتهما خارج مصر ويتركوها بيد الخائن شاور. فذهب المسيحيون شمالاً على طول الساحل باتجاه القدس بينما رجعت قوات شيركوه إلى دمشق. ولكن شيركوه أبى أن يُخدع من قِبل شاور وبدأ يضغط على نور الدين بشكل متواصل ليسمح له بشن حملة مصرية جديدة. لهذا وخوفاً من انتقام شيركوه، وقّع شاور ميثاقاً مع الصليبيين الذين بعثوا مرةً أخرى جنوداً من الجنوب إلى مصر وذلك عام ١١٦٧.

وصلت قوات أمالريك المسيحية إلى مصر مع وصول قوات المسلمين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين، لكن شيركوه رفض قبول التحدي بمواجهة المسيحيين وحلفائهم المصريين خارج أسوار مدينة القاهرة. بدلاً من ذلك أخذ جنوده عبر النيل وعسكر قرب أهرامات الجيزة وجاءت المعركة الحاسمة في الثامن عشر من آذار سنة ١١٦٧ قرب (البابين) على الضفة الغربية لنهر النيل. سلّم شيركوه قيادة الجيش في الوسط لصلاح الدين وأمره أن يتظاهر بالتقهقر حالما يقع تحت هجمات

---

(١) استعمال المسيحيين هنا غير دقيق فالصراع بين هذه المنطقة وأوربا ليس دينياً، وهو يسبق ظهور المسيحية والإسلام إلى عصر قرطاجة في القرن الثاني (ق.م) (هـ . ع)

الصليبيين وهذا ما فعله، وبذلك أغرى المسيحيين للوقوع في شَرَك حيث أحاط بهم أجنحة جيش شيركوه. نجا أمالريك من مشهد الهزيمة المسيحية وفرّ إلى القاهرة ومن هناك تلقى الأنباء بأن شيركوه قد ذهب شمالاً بعد معركة البابين مباشرةً واستولى على مدينة الإسكندرية. وزحف أمالريك شمالاً ليحاصر الاسكندرية وهو عمل انتهى مرة أخرى بمأزق فاتفق والجنرال الكردي على مغادرة مصر في نفس الوقت. وقد ترك أمالريك في القاهرة جيش احتلال صغير على شكل كتيبة من فرسان الفرنجة وساهم وجودهم في تحريض الشعب المصري ضد الأجانب وحليفهم الوزير الجليل شاور.

وفي النهاية نُصِب كمين لـ (شاور) الذي تذبذب كثيراً وقُتل على يد صلاح الدين نفسه ونُصب شيركوه وزيراً كبيراً - وبذلك أصبح أول حاكم كردي على مصر المسلمة - وهو منصب راقَ له كثيراً قبل موته بشهرين بسبب الإسراف في الأكل. فعيَّن الخليفة العَاضد صلاح الدين خلفاً لعمه وأعطاه لقب الملك المنصور.

جرد صلاح الدين البيروقراطية الفاطمية القديمة ووضع رجاله في موقع المسؤولية وأقنع الامبراطورية البيزنطية بالعدول عن خطتهم الفاترة للتدخل في مصر. ورفض عرضاً من أمالريك للتحالف مع المسيحيين ضد مولاه بالاسم نور الدين. وبناءً على أوامر هذا الأخير قضى صلاح الدين، على مضض[1]، على السلالة الفاطمية الشيعية الحاكمة منذ مئتي عام وحلّ محلها حكم سُني.

رغم إنه كان كردياً، لم يُبرز صلاح الدين كرديته، فهو لم يكن قائداً عشائرياً كردياً كما كان معظم جنرالاته، وكان الجيش الذي يقوده تركياً بغالبيته. لكن كان يُوجد بين ضباطه عدد لايستهان به من القواد الأكراد ممن هم على شاكلة عمه شيركوه. لقد كان الدفاع عن الإسلام بالنسبة له قضية أهم من تقوية أبناء جنسه. لهذا فإنه يُبجّل شعبياً على أنه بطل القوميين العرب كما هو صدام حسين، بينما يذكره شعبه فقط، في المقام الأول إنه كان كردياً.

في عام ١١٧٤ توفي كل من نور الدين وأمالريك تاركين وراءهما خلفاءَ لا يزالون أطفالاً، وكان المنافس، المحتمل الوحيد لصلاح الدين هو الامبراطور البيزنطي مانويل الذي هُزِم بعد سنتين أمام الأتراك وتوفي إثر ذلك مباشرة. أرسل صلاح الدين قواتاً إلى سورية، ظاهرياً من أجل حماية عرش

---

(١) الذي طلب من صلاح الدين ازالة الدولة الفاطمية هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله وكان صلاح الدين يستمهله لأن العاضد كان مريضاً فلم يمهله واضطر إلى قطع الخطبة والعاضد حي فمن هنا تردده (هـ . ع)

خليفة نور الدين، لكنه في الحقيقة كان ينوي أن ينصب نفسه ملكاً على مصر وسورية[1]، وقد عزّز هذا المنصب في عام ١١٨١ ـ بعد سلسلة من الحملات ضد منافسيه ـ وبعد الاستيلاء على مدينة حلب. توفي خليفة نور الدين في وقت مبكر فأصبح صلاح الدين سلطاناً لسلالةٍ حاكمة جديدة ألا وهي الأيوبية التي شكلت تهديداً قوياً للممالك الصليبية في الشرق.

مبدئياً، كان صلاح الدين سعيداً بالتعايش مع المسيحيين ووقع هدنة مع مملكة القدس التي كان المسيحيون ـ أكثر من المسلمين ـ أول من خرقوها. ورداً على ذلك أرسلَ في طلب امدادات عسكرية بالآلاف من الكرد والعرب والأتراك للقدوم إلى دمشق والتحضير لحرب مقدسة ضد الكفار. وفي الرابع من تموز من عام ١١٨٧ هزم جيش المسلمين الصليبيين قرب تلة في الجليل تُعرف بـ (قرون حطين) Horns of Hittin. فتح صلاح الدين في غضون شهر واحد معظم مدن فلسطين وفي ايلول طوّق القدس. وفي الشهر التالي استسلم الصليبيون المدافعين عن المدينة المقدسة وفي الثاني من تشرين الأول دخل السلطان الكردي بواباتها. وبخلاف الاستيلاء الصليبي على القدس سنة ١٠٩٩ حين عُمِل السيف في رقاب السكان ـ المسلمين والمسيحيين الشرقيين على حد سواء ـ خلا الأمر من المجازر والسلب والنهب بل سُمح للسكان بالمُضي في سلام.

حثت خسارة القدس النصرانية الغربية لاستئناف جهودها لإخضاع الأرض المقدسة، وبدأ الامبراطور الألماني فردريك باربا روسا Frederick Barbarossa برحلة إلى الشرق لمواجهة صلاح الدين الذي استجاب بحشد جيوش جديدة من بين شعبه الكردي في سنجار والجزيرة والموصل وأربيل. تَبِعَ باربا روسا امبراطور فرنسة فيليب Philip عام ١١٩١ وهي نفس السنة التي شهدت وصول ريتشارد قلب الأسد Richard The Lionheartمن انكلترة. ولكن طالما بقي صلاح الدين على قيد الحياة لم ينجح الأوربيون قط في استعادة القدس.

توفي السلطان سنة ١١٩٣ عن عمرٍ يناهز الخامسة والخمسين ودُفن في دمشق حيث بالإمكان زيارة ضريحة اليوم، في مبنى حجري صغير في حديقةٍ هادئة قرب السوق الكبير. [سوق الحميدية]. ليس هناك اعتراف بأن منقذ مسلمي الشرق كان كردياً[2]. لقد دامت السلالة الحاكمة التي

---

(١) كان غرض صلاح الدين هو توحيد بلاد الشام لمواجهة الصليبيين وليس تكوين امبراطورية خاصة (هـ.ع)

(٢) كلام غريب! لم ينكر أحد كردية صلاح الدين. و المصادر الاسلامية كلها تتحدث عن نسبه الكردي وقال ابن كثير في (البداية والنهاية): انه ينتمي إلى أشرف شعوب الأكراد. فقط بعض القوميين المتعصبين اليوم بحثوا عن نسب عربي له و لم يلتفت إليهم أحد (هـ . ع)

أسسها عدة عقود أخرى ولكنها بدأت تضعف بعد وفاته حين نزل أتباعه إلى مستوى القتال الأخوي من أجل الخلافة. انهارت السلالة الأيوبية الحاكمة سنة ١٢٥٠ واستولى المماليك ـ الذين جُلبوا من آسيا لحمايتها ـ على السلطة في مصر.

إن صعود صلاح الدين يوضح أهمية النفوذ الكردي في وقتٍ مبكر من العصور الوسطى [في وقت متأخر من العصور الإسلامية] في عهد نافس فيه الأكرادُ الأتراكَ والفرس والعرب في مجالات الثقافة والبراعة العسكرية في العالم الإسلامي. ولربما كان التطور والتوسع الكرديين أعظم ما لم تكن كردستان مرةً أخرى ساحة قتال للكارثة التي أُبتليَ بها الشرق الأوسط، المتمثلة بغزوات المغول.

ففي القرن الثالث عشر غزت القبائل المغولية وفتحت بلاداً مثل الصين واليابان وبورما والهند وأرمينيا وخلال عقد من سقوط السلالة الأيوبية بدأت بفتح بلاد فارس والعراق والمشرق. في هذا الوقت كانت الأراضي الكردية قد امتدت حتى سهول فارس ووصلت إلى (ري) قرب طهران حيث ذبح المغول الأهالي وبنوا رابية من العيون البشرية[1]. واتخذت بعض القبائل الكردية خياراً براغماتياً [ذرائعياً] فقاتلوا إلى جانب الغزاة.

لكن القبائل الكردية في العراق اتخذت دوراً في الدفاع عن بلاد مابين النهرين ضد القبائل المغولية فجابهت فرسان هولاكو ـ حفيد جنكيزخان الذي نهب بغداد في سنة ١٢٥٨ ـ وفي القرن الذي تلاه قوات الامبراطور المغولي الكبير تيمورلنك الذي فتح دمشق. وكان لهذه الغزوات أثر في دفع الأكراد خلفاً إلى جبالهم، وشمالاً وغرباً باتجاه الأراضي الأرمنية.

شهدَ القرن الثالث عشر أيضاً تأسيس الامبراطورية العثمانية من قِبل الأمير عثمان الذي عيَّن نفسه سلطاناً على الأتراك سنة ١٢٩٠. وبضعف نفوذ المغول تدريجياً وسّع العثمانيون حدود إمارتهم شمالاً حتى البحر الأسود وإلى شمال شرقي أوربا مطوّقين بذلك الامبراطورية البيزنطية التي سقطت أخيراً بالاستيلاء على القسطنطينية سنة ١٤٥٣. فاقت قوة الامبراطورية العثمانية منافساتها في الشرق الأوسط وتحكمت لمدة خمسمائة عام بمصير كردستان. وبعد انهيار امبراطورية تيمورلنك ١٤٠٤ التي اتخذت من سمرقند مركزاً لها بدأت الامبراطوريتان الفارسية والعثمانية بالظهور كقوتين متنافستين في

---

(١) في خلاصة تاريخ الكرد وكردستان "أنشأ اهرامات عظيمة من رؤوس سبعين ألف من القتلى المظلومين" المترجم.

المنطقة لتتطور إلى شيء قريب من الدول الحديثة المتعددة القوميات وحدود غير واضحة المعالم على طول كردستان.

تحرك العثمانيون باتجاه الشرق إلى الجبال الكردية، وقتلوا بوحشية الأسر الكردية الحاكمة لضبط النفوذ الكردي المستقل. واستخدم الحاكم التركي أوزن حسن كردستان قاعدةً للانطلاق إلى فارس وأذربيجان وقد توسعت الإمبراطورية أكثر تحت قيادة السلطان محمد الثاني (الفاتح) وبدأت تدخل في صراع مفتوح مع السلالة الصفوية التي أسسها الشاه اسماعيل في مُنْقَلَب القرن السادس عشر. أصبحت الشيعية في ظل الصفويين ((المنشقين)) دين الدولة في إيران وهذا ما خلق سبباً اضافياً للنزاع مع العثمانيين السنة وأتباعهم الكرد ذوي الأغلبية السنية

لجأ الشاه اسماعيل إلى قبائل تركية بدائية مولعة بالحرب من المناطق الآسيوية النائية مايُسمى بالقزلباش ـ أو أصحاب الرؤوس الحمراء ـ لبسط النفوذ الفارسي على كردستان. فوقعت ديار بكر في يد زوج أخت اسماعيل بك اوستاجلو (Ustajlu) الذي سبق وأن ذبح الأسر النبيلة. وقد عُهدت الأراضي الكردية إلى القزلباش السُذج فكانوا ينهبون البلاد حتى الجزيرة ويسرقون قطعان الماشية، ويقتلون السكان ويحرقون الكنائس. كان لدى الكثير من الفلاحين المسيحيين فرصةً ضئيلة للاختيار بين ضرائب القزلباش أو حكم القبائل الكردية. وبرؤية عمليات السلب والنهب لجيوش الشاه لم يكن مستغرباً أن يختار الأكراد حماية العثمانيين.

أدى التنافس بين الامبراطوريتين في الحال إلى حرب مفتوحة وقعت في الأقليم الكردي عند جالديران ـ شمال ـ شرق بحيرة وان ـ سنة ١٥١٤ حيث دحرت قوات السلطان سليم (القاسي) جيشَ اسماعيل ليستولي على تبريز. ولم تكن هذه المرة الأولى ولا الأخيرة التي قاتل فيها الأكراد على كلا الجانبين في مواجهة حاسمة. ولكن مع انتصار سليم اندفع الأمراء الأكراد أفواجاً لتقديم الولاء للقضية العثمانية حتى أن عشرين أميراً كردياً دخلوا في مصلحته قبل أن تكون الحملة قد انطلقت. بعد جالديران وبتوجيه من إدريس البدليسي ـ وهو نبيل كردي سيصبح فيما بعد أول مؤرخ للامبراطورية العثمانية ـ اتحد هؤلاء الأمراء مع العثمانيين لطرد القزلباش وأجبروهم على الفرار إلى فارس.

أقامت معركة جالديران الحدود بين الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية ورغم أن نتائجها ـ [من حيث تقسيم الحدود] ـ كانت موضع نقاش فإنها بقيت في موضعها لمدة أربعة قرون تقريباً حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. كانت معظم الأراضي الكردية ـ فيما يُعرف الآن بـ تركيا والعراق وسورية ـ بيد الامبراطورية العثمانية بينما بقيت أقلية من العشائر الكردية تحت السيطرة الفارسية.

وقد عبّر العثمانيون عن شكرهم ـ لأهمية الدعم الكردي في الحرب ضد الفرس وكذلك أهمية موقعهم الاستراتيجي على حدود الامبراطورية ـ بجعل الأمراء الأكراد حكاماً وراثيين وهو ما لم يكن مألوفاً في الامبراطورية العثمانية. وأُعيدَ إلى مالكي الأرض الاقطاعيين نفوذهم وامتيازاتهم التقليدية وقد تُركوا أساساً لإدارة أمورهم ماداموا يجمعون ويحوّلون الضرائب إلى الباب العالي ـ البلاط العثماني في القسطنطينية. كانت بعض المناطق ـ ما سُميّ بالحكومات الكردية Kurd hukumeti أو مناطق الحكم الذاتي ـ تتمتع باستقلال تام، فكان من حقها صك النقود الخاصة بها وكذلك كانت صلوات الجمعة تتلى باسم أمرائها بينما كان جسد كردستان مقسماً إلى ثلاث ولايات عثمانية. بقي الوضع هكذا عملياً حتى القرن التاسع عشر بتفسخ الامبراطورية العثمانية ومجيء أفكار القوميين الأوربيين حيث بدأت تتغير نماذج الحكم القديمة في الشرق الأوسط.

بعد سنة ١٥١٤ شجّعَ كون الأكراد أمراء حدود عثمانيين، السلطان سليم بتوطين القبائل الكردية في شرقي أرمينيا حيث حلّوا محل و /أو/ استعبدوا السكان المسيحيين وأجبروا الكثير منهم على النزوح إلى القوقاز. بينما كانت قبائل كردية أخرى تقوم بدور الحراس للفرس. فقد نقل الشاه عباس الكثير من الأكراد إلى أقليم خوزستان الشرقي للسيطرة على حدوده هناك، ولايزال يعيش في المنطقة حوالي نصف مليون كردي تقريباً على بعد ستمائة ميل من كردستان بالمعنى الضيق للكلمة. ورغم خضوع الأكراد للامبراطوريتين المتنافستين فقد حافظوا على لغتهم وتقاليدهم وثقافتهم الأدبية، ورغم إنهم كانوا مقسمين بين ست عشرة إمارة فقد كانوا أقل انقساماً مما كان عليه الشعبان الايطالي والألماني في نفس تلك الفترة.

لقد ظلّ الكثير من تاريخ كردستان في العصور الوسطى بفضل الجهود التي بذلها الأكراد أنفسهم وفي مقدمتهم المؤرخ البارز شرف خان البدليسي الذي كتب الشرفنامة بالفارسية ونشرها في سنة ١٥٩٦ والتي تدوّن تاريخ النبلاء الأكراد منذ أسطورة ضحاك. إنه تاريخ ارستقراطي يهتم أساساً بمصير الأسر النبيلة أكثر من اهتمامه بالأمة الكردية ككل. وحتى في وقت مبكر من القرن العشرين كان التعريف الضيق لـ (كردي) لايزال يطبّق على القبائل البارزة أما من كانوا يتكلمون الكردية من الطبقات الدنيا ـ سواءً أكانوا من المسيحيين أو المسلمين أو اليهود ـ فلم يكن أسيادهم يعدونهم أكراداً[1]. لقد نعِمَ نبلاء الأكراد بنفوذ حقيقي في قلب الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية حتى أن كريم خان زند وهو كردي نصب نفسه شاهاً على بلاد فارس، ولكن أُطيح به بعد عقدين من الزمن

على يد القاجار الذين يتكلمون الكردية وبمساعدة من ـ هكذا هو تراث الانقسام في التاريخ الكردي ـ تحالف من القبائل الكردية.

إن وصفاً لكردستان في ظل حكم الإمبراطورية العثمانية، وبقيت هكذا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، قد أُعطي من قِبل الرحالة التركي أوليا جلبي الذي زار هذه المنطقة المعزولة من الامبراطورية الشاسعة في منتصف القرن السابع عشر، حيث يصف الاستقلال الكلي تقريباً لأمراء (خانات) الأكراد وتعدد لهجات للسكان وتكلف مدنهم و قراهم وقوتهم العسكرية. إنه ينسب منطقة شاسعة إلى كردستان متضمنة الكثير من سورية والعراق، كما يفعل القوميون الأكراد بعد ثلاثة قرون حيث تبدو [كردستان] وقد شملت جميع المناطق التي فيها وجود كردي وإن كانوا أقلية ((يعيش في هذه الأراضي الشاسعة)) ـ كتب أولياجلبي ـ "خمسمائة ألف رجل حاملين بنادقهم، وهم مسلمون مخلصون من المذهب الشافعي. وتوجد فيها ٧٧٦ قلعة وجميعها مسكونة. حمداً لله فإن مناطق كردستان هذه ستظل إلى الأبد بين أكبر السلالات الحاكمة، بين آل عثمان وشاهات الفرس)) هكذا كان مقدراً مصير الأكراد ـ إن لم يكن إلى الأبد ـ فعلى الأقل لمئتين وخمسين سنة أخرى.

---

(١) يقول الدكتور قاسملو في الصفحة ١٥٣ من كتابه كردستان والأكراد: فالشر فنامة تتحدث عن أكراد (سود) وأكراد (بيض) فما يزال هناك مثل دارج عن آغا يخاطب فلاحاً بقوله: إنني نبيل أما أنت فكرمنجي أسود الرأس.

الفصل الرابع

الخديعة الكبرى

في الوقت الذي حُشْدت فيه القبائل معاً في عصبة العشائر الكردية للبدء بثورة ضد مضطهِديهم العثمانيين عام ١٨٨٠ كتبَ الشيخ عبيد الله من شمدينان رسالةً إلى القنصل البريطاني في باشكال طالباً مساندته وموجزاً فيها أسباب ثورته:

((إن الأمة الكردية أمة مستقلة. ودينها مختلف عن أديان الأمم الأخرى وكذلك بالنسبة لقوانينها وعاداتها. إن زعماء كردستان ـ فيما إذا كانوا خاضعين للأتراك أو للفرس ــ وكذلك شعب كردستان بمسيحييها ومسلميها متحدين ومتفقين بأن الأمور لا يمكن أن تسير كما هي الآن مع الدولتين. إنه أمر مُلِح بأن الحكومات الأوربية يجب أن تفعل شيئاً، ما أن تفهم حقيقة الموقف .. إننا نريد أن نأخذ زمام الأمور بأيدينا. لم يَعد بإمكاننا تحمّل الظلم والاضطهاد اللذين تفرضهما علينا حكومات [الفرس والامبراطورية العثمانية]))

كانت ثورة الشيخ عبيد الله واحدة من بين دزينة من ثورات أخرى أكبر أو أقل شأناً ضد الامبراطوريتين في القرن التاسع عشر، وقد دُحِرَت جميعها في النهاية نتيجة اتحاد [عاملين] فقد كان أعداءهم أفضل تسليحاً بالإضافة إلى الانقسامات المستوطنة داخل المجتمع الكردي.

ورغم هزيمة الشيخ عبيد الله تبقى رسالته أول تعبير صريح عن القومية الكردية الحديثة. ولكن القومية الكردية حركةٌ لا تزال بعيدة حتى الآن عن تحقيق هدف إقامة دولة أو حتى حكم ذاتي للعشرين مليون إنسان الذين يعتبرون أنفسهم أكراداً. في أعقاب الحرب العالمية الأولى قُطِعت الكثير من الوعود للأكراد من قِبل بريطانية ودول أخرى، لكن القوى الدولية نكثت بعهودها سريعاً. لقد حُرِم الأكراد من كيان سياسي لهم بسبب الأحوال الجيوبوليتكية السائدة من ناحية و التنافس بين القوى الدولية من ناحية أخرى. لكن من الصحيح القول أيضاً بأن الأكراد ألدُّ أعداء أنفسهم حيث كانوا يضعون دائماً مصالحهم القبلية والطائفية فوق مصالح الأمة الكردية ويرغبون دائماً في تأييد الأجانب ضد إخوانهم الأكراد. ورغم ظهور زعماء من أمثال الشيخ عبيد الله الذين فهموا محنة

الأكراد في إطار قومي، فإن الأكراد كثيراً ما كانوا يدينون بولائهم لرجال كانت السذاجة والجشع صفاتهم الرئيسية.

حتى القرن التاسع عشر كان الرعايا الآسيويين للباب العالي ـ الأتراك والأكراد والعرب واليونانيين والأرمن واليهود ـ لا يزالون يهجعون في فترة انحطاط الإمبراطورية العثمانية. فقد كان المسلمون فيما بينهم يدينون بالولاء للسلطان كخليفة للمسلمين، وكانت الهوية القومية أقل أهمية من الدين المشترك. ونزلت كردستان من مجدها السابق نتيجة المعارك المتكررة على الأرض الكردية بين الأتراك والفرس وبسبب الصراعات القبلية بين الأكراد أنفسهم. فبدأت المدن والقرى بالتقلص، وأصبحت القلاع مهجورة وامتلأت قنوات السقاية بالطمي. وبدأت القبائل الجبلية القوية تغزو السكان المستوطنين في الوديان والسهول.

لقد دخلت الامبراطورية العثمانية دور انحطاطها التدريجي منذ ١٦٨٣ عندما ـ ظاهرياً كانت في أوج قوتها ـ رُدت جيوشها عن فيينا. وفي القرن التاسع عشر أصبح هذا الإنحطاط جلياً. فلم يكن البلاط العثماني على مستوى الإدارة والدفاع عن امبراطورية مترامية الأطراف. فقد تراخت قبضة الباب العالي على أقاليمها الأوربية عندما انتشرت أفكار القومية والاستقلال، تحت تأثير الثورة الفرنسية، من أوربا إلى الشرق. فلقد بدأت قوى امبريالية جديدة وأكثر حيوية ونشاطاً مثل بريطانيا وروسيا القيصرية بالهجوم على الأراضي التابعة للامبراطورية العثمانية. ففي المناطق الاسيوية كانت هناك حروبٌ ضد الفرس والروس وقد قاتل الأكراد في كل تلك الأطراف، وتضم الأقلية الكردية في الإتحاد السوفييتي بعضاً ممن يتحدّرون من أولئك الذين قاتلوا إلى جانب روسيا القيصرية في حروبها ضد السلطان.

وكان رد فعل العثمانيين تجاه هذا التفسخ الداخلي للامبراطورية هو مركزة السلطة وبسط حكم مباشر على مناطق مثل كردستان التي كان يُسمح لحكامها في السابق بإدارة شؤونها طالما يدفعون ضرائبهم. وقد استعمل العثمانيون بنجاح سياسة (فرّق تسد) بين الأكراد لمنع القبائل من الاتحاد من أجل التحرر من النير الامبراطوري. وأولئك الزعماء أو الأغوات الذين انتفضوا وثاروا كانوا جزءاً أساسياً من حركة رجعية ضد الاصلاحات المركزية التي هددت مواقعهم كزعماء اقطاعيين.

ولكن قبل البحث في الأسباب التي كانت وراء فشل ثورات القرن التاسع عشر، من الأهمية بمكان أن نبحث في الطبيعة القبلية في كردستان ودورها في إخفاق الأكراد في بلوغ هدفهم بإقامة دولتهم الخاصة.

كان المجتمع الكردي التقليدي مقسماً إلى طبقة المحاربين ـ أفراد قبائل رحل أو شبه رحل ـ يتعهدون بالولاء لشيخ القبيلة القوي ومالك الأرض وفرع رئيسي من طبقة غير قبلية وكان هؤلاء في العادة لايملكون أرضاً أو من المحاصصين[1] وفي الواقع كانوا أقناناً. [ضمن هذا الإطار] كان واجب رحل القبيلة الأول هو قبيلته وزعيمها والثاني واجبه تجاه دينه. وقد كان مفهوم الواجب القومي تجاه رفاقه الأكراد، عملياً، غير موجود. فلو قرر زعيم القبيلة بأنه سيكون لمصلحة القبيلة في أن تقاتل ضد الأكراد إلى جانب سلطات دولة غير كردية لأطاع الأتباع. وحتى هذا اليوم لايزال بعض الأكراد، في العراق وتركيا، يؤيدون أنقرة أو بغداد ضد اخوانهم الأكراد دون إحساس بأنهم يخونون القضية القومية الكردية السامية. فأثناء الثورة التي قادها الملا مصطفى البرزاني في منتصف السبعينات ضد الحكومة البعثية في العراق، واجه بيشمركته البالغ عددهم خمسين ألفاً قواتٌ كردية غير نظامية تابعة للنظام أكبر من ذلك العدد بكثير. إن منطق معارضة القضية القومية لا يُعزى بكليته إلى الارتزاق فإنتصار الوطنيين سيُعزز وبشكل أوتوماتيكي مكانة القبيلة التي قادت الثورة ـ في هذه الحالة البرزانيين ـ لذلك هناك مصلحة طائفية [قبلية] في ضمان أن النصر سوف لن يكون حليفهم.

إن روابط الدم التي تربط أفراد القبيلة خيالية غالباً أكثر من أن تكون حقيقيّة إذ نادراً ما يستطيع رجل القبيلة أن يتتبع أسلافه أكثر من بضعه أجيال. وفي الواقع تمثّل القبيلة اتحادات موقتة تتغير بحسب الظروف. فقد يحدث أحياناً أن تنفصل مجموعات بكاملها من عشيرة معينة وتطلب حماية قبيلة أخرى أقوى من قبيلتهم وفي نهاية الأمر تندمج معها. وهكذا تصبح بعض القبائل أقوى مما كانت في الأول بينما تزول قبائل أخرى. كانت العشائر عادةً تقترن عادةً بمنطقة معينة وعلى الأغلب يُطلق عليها اسم العشيرة التي تقطنها. وأفراد القبيلة يلتزمون بعددٍ من التقاليد والأعراف أُعدت خصيصاً من أجل ضمان سلامة القبيلة و من أهمها الزواج من داخل القبيلة والملاحقة المستمرة من أجل الأخذ بالثأر.

كما يوجد ضمن المجتمع القبلي الكردي عادةُ الزواج بين أبناء وبنات العم و هذه العادة

---

(١) المُحاصص: مزارع يستغل الأرض لمصلحة المالك مقابل جزء من المحصول. المترجم

لاتوجد بين الذين لاينتمون إلى القبائل. فأول ابن عم للفتاة يُقبل بشكل عام في أن يكون له الحق أوتوماتيكياً في طلب يدها للزواج، وبناءً عليه يحق له أن يعارض زواجها، نظرياً على الأقل، من شخص آخر[1]. وفي حال عدم حدوث الزواج بين أولاد العم، يفضل الوالدان دائماً إيجاد شريكة من الأهل المقربين بدلاً من أحد الأقارب ممن لا تربطهم بهم صلة وثيقة، وفي النهاية تُعد أية فتاة من الأقارب أفضل من أخرى خارج العشيرة.

إن عادة الأخذ بالثأر وخاصة فيما يُسمى الآن بـ (كردستان تركيا) تنص علىّ أن الولاء للقبيلة فوق أية اعتبارات أخرى. فإذا قُتِل أحد الأكراد فإن أقاربه سيبحثون عن أول فرد مسؤول في القبيلة يمكنهم أن يجدوه ويقتلوه. ولا يُعتقد أنه من الضروري البحث عن القاتل الحقيقي، وهذا يثير بدوره سلسلة من الثأر والثأر المضاد الذي قد يستمر لعدة أجيال وكان هذا أهم أسباب التنافس القبلي.

إن المنفعة الرئيسية من الانتساب إلى قبيلة ما ، هو أنها توفر الأمن والحماية المتبادلين وفي مقابل ذلك يمنح رحل القبيلة ولاءه وطاعته التامتين لزعيم القبيلة. ولهذا فإن القبيلة ضرورية في أوقات الحرب ـ وهي القاعدة في كردستان ـ أكثر منه في وقت السلم. وعند الضرورة تنضم القبائل إلى بعضها في اتحادات أكبر بدافع المصلحة المتبادلة من أجل اللصوصية والحرب ضد القبائل المتنافسة عادةً.

إن القبلية ليست ظاهرة فريدة في كردستان ولا حتى في المنطقة المجاورة. فحتى هذا القرن لا تزال القبيلة ذات تأثير قوي في المجتمع العربي العراقي ـ و اعتماد صدام حسين على عشيرته التكريتية لإدارة الدولة القومية العراقية الحديثة مثال نموذجي على أن القبيلة لاتزال سارية المفعول. والقوميون الأكراد هم أول من يعترفون بأن صدام ـ مهما تكن مواطن ضعفه في التعامل مع العالم الخارجي ـ داهيةٌ ومتلاعبٌ ماهر بالسياسة القبلية ضمن بلده.

إن عيب النظام القبلي ـ حسب المنظور القومي ـ هو أنه، حتى يومنا هذا، قد مزق الأمة الكردية. فقد كانت الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية، وورثتهما من الدول القومية مصدر قوة ونفوذ لزعماء القبائل ورجالهم. فقد كان الولاء للامبراطورية أو الدولة القومية يجلب المنفعة والمكانة العالية

---

(١) وهي عادة جارية عند القبائل العربية أيضاً وتسمى النهوة والخيار (هـ . ع)

بالإضافة إلى إمكانية التغلب على الخصوم. ووحدت القبائل التي كانت ـ لسبب أولآخر ـ على خلاف مع تلك الموالية للدولة المركزية نفسها، تقوم بشكل آلي بدور المتمردين والخارجين على القانون. لقد كان العداء بين القبائل الكردية نعمة ونقمة، في آن واحد للحكومات المركزية، فمن جهة قدّم هذا العداء فرصة التقسيم والسيطرة على الأمة الكردية، ومن جهة أخرى ربما كان لكل زعيم موالٍ للحكومة منافس له في الثورة.

ليست الزعامة وراثية بين القبائل الكردية باستثناء بعض الأسر الأميرية الكبيرة التي يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى. فقد استمد الملا مصطفى البرزاني، قائد قوات البيشمركة العراقية، نفوذه من كونه زعيم عشيرة البرزانيين بينما ابنه الرابع ـ مسعود ـ الذي ساعد في ابقاء لهيب القومية الكردية متقداً بعد وفاة والده، والذي قاد قوات البيشمركة في انتفاضة ١٩٩١ ضد صدام حسين، لا يُعد زعيماً للعشيرة.

إنه [مسعود] نِتاج زواج سياسي بين الملا مصطفى وإحدى بنات قبيلة الزيباري الشهيرة. إن البرزانيين فخذ من عشيرة الزيبارين لكن العلاقات بينهما كانت متوترة على الأغلب. و إذا كان الزيباريون أول من أطلقوا الرصاص ضد الاحتلال البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى، وقاتل بيشمركتهم حنباً إلى حنب مع البرازنيين في ثورتهم عام ١٩٤٠ .فإن ذلك لم يمنع الطرفين من الدخول في شِجار وبسبب التنافس القبلي وانتقل الكثير من الزيبارين إلى جانب الحكومة. وقد كان الزواج جزءاً من التسوية بين القبيلتين رغم إن الكثير من الزيبارين لا يزالون مستمرين في ولاءاتهم لمن يكون في السلطة ببغداد.

ومن الممكن أن يؤثر موقف الأغوات تجاه الحكومة المركزية على موقف الفلاحين الذي لا ينتمون إلى القبيلة والذين كانوا يعدون، بنظر الآغا، مجرد أشياء وكانت منزلتهم أعلى بقليل من منزلة قطعان الماشية وكانوا في بعض الحالات يمنعون من حق التنقل خارج قراهم ما لم يحصلوا على إذن مالك أرضهم. و في بداية هذا القرن أصبح الفلاحون اللاقبليون حوالي مدينة أربيل في شمالي العراق، وطنيين غيورين وذلك رداً على قبيلة ديزى التي سيطرت على المنطقة واستمدت نفوذها من تواطئها مع العثمانيين أولاً، ثم مع الحكومة العربية في بغداد. وفي العقد الأخير من عُمْر الملكية العراقية عام ١٩٥٣ كانت هناك ثورة فلاحية خطيرة ضد اقطاعيي قبيلة ديزى.

ولاتزال القبيلة تلعب دوراً هاماً في السياسة والحياة الكرديتين، رغم إن الفكرة القائلة بان الأكراد ينحدرون من جنس القبائل الرُّحل قد بولغ فيها كثيراً. إذ قليلون جداً هم الذين يتبعون حياة البداوة والترحال، وحتى في العصور القديمة كان يوجد بين الميديين ـ أسلاف الأكراد ـ سكان من الحضر ومن البدو أيضاً. وفي هذا القرن حيث فضلت بعض القبائل توديع حياة البداوة أو أُجبرت على الاستقرار استمر الكثيرون في الاحتفاظ بروابطهم العشائرية. علاوةً على ذلك اختار سكان المدن الانحياز إلى عشائر قوية بجوارهم مباشرة وذلك من أجل أن ينعموا بحمايتها. ولكن، في أماكن أخرى، جُرِدَ الأكراد من عشائرهم بحكم قوة الظروف، حيث تفككت روابطهم التقليدية بالهجرة القسرية إلى مناطق تركيّة وعراقية وإيرانية خارج حدود كردستان.

في ظل حكم العثمانيين كان أكراد الامبراطورية ـ سواءً كانوا قبائل أو غير قبائل ـ يعيشون في أغلب الأحيان تحت حكم معتدل نسبياً لأمراء حكموا المنطقة لمصلحة الباب العالي. ولكن، مع بداية القرن التاسع عشر بدأ الأتراك يتدخلون في شؤون كردستان، نتيجة للإصلاحات الرامية إلى تمركز إدارة الامبراطورية ولأن كردستان تمثّل مصدراً هاماً للقوة البشرية من أجل حروب السلطان الاستعمارية في أوربا و أماكن أخرى. كان هذا التدخل المباشر في الشؤون الكردية تحدياً لسلطات الأغوات الاقطاعيين الذين كانوا مسرورين بما فيه الكفاية بولائهم للقسطنطينية طالما يُتركون على ارادتهم.

في الربع الأول من القرن التاسع عشر انفصلت مصر عن الحكم العثماني وبدأت صربيا بثورتها، كما شنّ اليونانيون حربهم من أجل الاستقلال. ولمواجهة هذه الثورات حشد الباب العالي بشكل قسري قواتٍ من بين العشائر الكردية. وإذا كان ثمة شيء أغاظ الأكراد أكثر من الضرائب والرسوم الجمركية فلابد أن يكون التجنيد الإلزامي.

كانت أول ثورة كردية ضد الحكم العثماني هي تلك التي أعلنها عبد الرحمن باشا عام ١٨٠٦ وهو زعيم إمارة بابان التي بنت مدينة السليمانية في كردستان الجنوبية واتخذتها عاصمة لها. أعلن عبد الرحمن باشا الحرب على الباب العالي عندما عيّن العثمانيون أميراً على العرش من قبيلة منافسة له. دامت ثورة البابان ثلاثة أعوام ولكنها دُحِرَتْ في النهاية من قِبل إتحاد بين القوات التركية والقبائل الكردية التي كانت تقليدياً منافسة للبابان. وكانت تلك محاولة هي الأولى من بين عدة محاولات للدفاع عن حق الاستقلال الكردي، حيث كان الثوار يُخدعون، وعلى نحوٍ نموذجي، من قِبل رفاقهم

الأكراد. وقد أثار الاحتلال اللاحق للمنطقة من قبل القوات العثمانية المزيد من الثورات، تماماً كما فعلت الحروب الروسية ـ التركية (١٨٢٨ ـ ١٨٢٩) التي جرت معاركها في كردستان الجنوبية.

فقد اندلعت ثورة أخطر بكثير في كردستان الجنوبية عام ١٨٢٦ قادها المير محمد الراوندوزي، أمير سوران ، وسليل صلاح الدين. أعلن المير محمد الاستقلال عن الباب العالي وبدأ بعلاقات ديبلوماسية مع كل من إيران ومصر محمد علي الذي كان لنجاح تمرده أثر ملهم في إعلان ثورته. أقام المير محمد معملاً لصناعة الأسلحة في راوندوز[1]، و بدأ بتحويل محاربيه القبليين العنيدين إلى ما يشبه جيشاً نظامياً. وكان هدفه ـ كما أعلن هو في عام ١٨٣٣، على رأس جيش من عشرة آلاف من الفرسان وعشرين ألفاً من المشاة ـ بأنه: لاشيء سوى توحيد القبائل وفتح كل كردستان وإقامة مملكة مستقلة.

طلب المير محمد مساعدة حيرانه، مثل أمير بوطان الذي كانت لديه طموحات في أن يصبح ملكاً، وبعث أيضاً مندوبين إلى الأكراد في إيران لحثّهم على مساندة حربه من أجل التحرّر. و في عام ١٨٧٤ نجح المير محمد في صد هجوم مضاد عنيف لقوات السلطان، وفي السنة التالية فتح كردستان إيران. وذُعِرَ الشاه من ذلك حتى أنه استدعى الروس لمساعدته في كبح الثورة.وخوفاً من هجوم مشترك بين العثمانيين والفرس، سحب المير محمد قواته الى راوندوز ليعزّز موقعه وفي نفس الوقت أراد أن يُقحم الشاه في معارضة السلطان وذلك بإبداء استعداده للإعتراف بالسيادة الفارسية على الأقاليم الإيرانية من كردستان.

في تموز من عام ١٨٣٦ هزمت القوات الكردية الجيوش العثمانية هزيمةً منكرة، فلجأ السلطان إلى مناشدة التضامن الديني لدحر الثوار. وتم إصدار فتوى قضت بأن كل الذين قاتلوا ضد جيوش السلطان ـ الخليفة كفار. رفض المير محمد الإذعان لهذا الابتزاز، لكن الاحتكام إلى الاسلام أفقده دعمَ ومساندة أتباعه. في هذه المرة كان الدين ـ الواجب الثاني للكردي بعد القبيلة ـ هو الذي أضعف مكانه القضية القومية.

---

(١) اداره المدفعي الكردي اسطى رجب الراوندوزي الذي صنع له مدافع ثقيلة عززت قوته العسكرية ضد العثمانيين ويحتفظ متحف الأسلحة في بغداد بعدد مرموق من هذه المدافع وعليها اسم اسطى رجب والأمير محمد (هـ.ع)

أُجبر المير محمد على الاستسلام وأُخذ إلى المنفى في القسطنطينية. وقد أعطاه السلطان محمود الثاني مظاهر الحفاوة والتكريم الرمزية وبعد ستة أشهر أُطلق سراحه [من المنفى] فأصبح ظاهرياً حراً بالعودة إلى كردستان، لكنه قُتل على يد رجال السلطان في طرابزون وهو في طريق عودته إلى الوطن.

كانت الثورة الهامة التي تلت ثورة المير محمد هي التي قادها بدرخان بك الذي خَلَفَ والده عام ١٨٢١ كأمير لجزيرة بوطان، حيث تقطن مجموعة من الرحل وقبائل أخرى تتميز بالعناد ويتمركزون حول الجزيرة حيث تلتقي الحدود الجديدة لتركيا والعراق وسورية. وقد أظهرَ بدرخان بك استقلاله عن القسطنطينية برفضه إرسال الجنود إلى الحرب الروسية ـ التركية في عام ١٨٢٨، ويبدو إنه كان يتميز بصفات قائدٍ عصري ـ وإن كان فردياً ـ حيث وفر الأمن والإزدهار لإمارته بمعاقبة الخروج عن القانون واللصوصية عقاباً قاسياً.

وكما فعل المير محمد، نظم بدرخان بك القبائل على شكل أفواج وعقد التحالفات مع الزعماء القبليين بمن فيهم زعيم قبيلة هكاري القوية. وعندما حاصر العثمانيون عاصمته الجزيرة عام ١٨٣٦ استجاب حلفاؤه بارسال قوة مشتركة من الكرد والآشوريين والأرمن لتخليصه لكن الأتراك انتصروا عندما نسفوا الجسور على نهر بوطان مما جعلوا حلفاءه في وضع حرج.

بقي بدرخان على قيد الحياة، وفي عام ١٨٤٠ وبعد هزيمة القوات العثمانية على يد القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا، رأى بدرخان الفرصة سانحة لتحرير كردستان برمتها. وقد استطاع السيطرة على كل كردستان الواقعة تحت السيطرة العثمانية بالدرجة الأولى من خلال حلفائه ورفاقه من الأمراء ورؤساء القبائل. ومرةً أخرى لجأ الباب العالي إلى الدين لتقويض الثورة، هذه المرة من خلال دعوة المبشرين المسيحيين في كردستان لإقناع القبائل المسيحية بعدم القتال مع البك. ورغم تسامحه المعروف تجاه المسيحيين، فقد وقعت مجازر ضد الجالية المسيحية في كردستان[1] وهذا ما ساهم في اتخاذ القبائل المسيحية قراراً بسحب تأييدها الثورة.

استمرت الحرب الكردية ـ العثمانية ببطء حتى عام ١٨٤٧ عندما أقنع العثمانيون ابن أخ بدرخان، يزدان شير ـ وهو قائد كردي كبير ـ بتغيير موقفه. وقد شكلت هذه الخيانة نهاية ثورة البك. فاستسلم بدرخان ومات في المنفى، بينما كوفئ ابن اخيه بأن أصبح حاكماً عثمانياً على هكاري.

---

(١) واضح انها كنت مدبرة من العثمانيين. والتذابح الطائفي لا يخلو في أكثر حالاته من التدبير (هـ . ع)

وقد أثبتت (يزدان شير) بانه تابع غير جدير بالثقة، ففي عام ١٨٥٣ عندما لجأ الباب العالي ثانيةً إلى الحرب ضد روسيا، بدأ بثورته وكان قد حشد حتى نهاية عام ١٨٥٥ جيشاً مولفاً من مائة ألف رجل استطاع أن يهدد حتى بغداد. في هذه المرة طلب الأكراد مساندة وتأييد القوى الخارجية ـ الروس والبريطانيين ـ غير مدركين أن كلا الطرفين لا يريدان كردستان مستقلة تحت رعاية الامبراطورية المنافسة. لقد أُغري (يزدان شير) بالذهاب إلى القسطنطينية من جرّاء وعدٍ بأن البريطانيين سوف يتوسطون في المفاوضات مع الباب العالي فأُعتقل وسُجن فور وصوله.

مثّلت ثورات النصف الأول من القرن التاسع عشر أولى حوافز القومية الكردية ولكنها شكلّت كوارثَ استناداً على نتائجها المباشرة. فقد تفككت الإمارات ووُضعت تحت الحكم العثماني المباشر، وسُمح للجنود الأتراك بسلب ونهب البلد، وأصبحت القبيلة ضد القبيلة عن طريق الديبلوماسية العثمانية البارعة، ودخلت كردستان عهداً من اللاقانون والفقر والفوضى. وقُضي على علاقة المساواة بين الأكراد والأتراك التي كانت موجودة في ظل حكم السلاحقة. وتحوّلت كردستان إلى مرتبة مستعمرة. ومع ذلك، كانت الإرادة السلطانية العثمانية تمتد على المدن فقط، تاركةً الريف فريسةً لقبائل قاسية متحجرة الفؤاد كانت تهبط من الجبال نحو إخوانهم الأكراد في الوديان والسهول على طريقة قبائل المغول.

لقد كانت كل الانتفاضات بادارة النبلاء القبليين في المجتمع الكردي، وكانت تهدف إلى الحفاظ على الحقوق الإقطاعية للارستقراطية ضد انتهاكات العثمانيين. و مع ذلك فقد كانت هناك مسحة قومية قوية وذلك بإحتكامها إلى الأكراد الذين كانوا يشاركونهم [النبلاء] المعاناة التي سببتها الحرب والاحتلال التركي.

إن آخر ثورة كبيرة في القرن التاسع عشر، كانت دونكيخوتية وغير ناجحة مثل التي سبقتها وهي التي أعلنها عام ١٨٨٠ الشيخ عبيد الله وكانت موجهةً في المرحلة الأولى ضد الشاه في إيران. لقد كان أكراد إيران يعدون الشيخ زعيمهم الروحي، وبالاتفاق مع الشاه كانوا يدفعون ضرائبهم إليه أكثر مما يدفعونها إلى إيران. لكن الشاه نكث بعهده بشأن هذا الاتفاق فارسل جيشه إلى الشيخ ورداً على ذلك لجأ الشيخ إلى السلطات العثمانية من أجل المساعدة.

كان من الممكن أن يبقى هذا الاضطراب شأناً كردياً ـ فارسياً لو لم تندلع حرب روسية ـ تركية مرةً أخرى عام ١٨٧٧ تسببت في إرسال المزيد من جنود الأتراك الغزاة إلى كردستان. ولجأ

الأكراد المنحوسين إلى زعيمهم الروحي من أجل المساعدة ورأى الشيخ نفسه في صراع غير متوقع مع العثمانيين. فلجأ إلى الروس ولكنه أخفق، وأسفرت دعوته للبريطانيين عن الحصول على البنادق والذخيرة. فوّجه عبيد الله هذه الأسلحة أولاً إلى إيران فحقق نجاحاً هاماً في انتزاع السيطرة على الأقليم الكردي من قوات الشاه. لكن تقدمه نبّه العثمانيين، الذين أرسلوا جنوداً لتطويقه من الغرب. وفي عام ١٨٨٢ تركَ الشيخ هذا الصراع اللامتكافئ بين الطرفين.

ورغم فشل ثورته، يجب أن يُعترف له بالذكاء وحدّة الذهن لمعرفته كيف يتم استغلال الأكراد من قِبل حكامهم الامبراطوريين لخدمة مصالحهم أكثر من المصالح الكردية. فبعد أن حثّه أتباعه على إصدار الأوامر بذبح مسيحيي أورمية انتقاماً لعدم مساعدتهم للقضية الكردية رد بقوله: ((نحن الأكراد نافعون فقط للأتراك لمواجهة المسيحيين، وعندما يكون قد قُضي على المسيحيين، فإن الأتراك سيهاجموننا)). وهذا ما كان قد حصل في العقود التالية.

ففي عام ١٨٧٦ تولى عبد الحميد الثاني عرش السلطنة وأدخل سلسلة من الإصلاحات الهادفة إلى عَصْرَنة إدارة الدولة العثمانية. وكانت القسطنطينية قد قلّلت من ذي قبل سلطة الأمراء الأكراد، ووضعت كردستان تحت الحكم المباشر، لكن عبد الحميد شرع الآن في كسب صداقة النخبة الكردية من أجل استخدامها ضد اعدائه الداخليين من الأقليات القومية مثل الأرمن والألبان والعرب الذين كانوا يهددون أمن الامبراطورية. بل أكثر من ذلك كان من الممكن دائماً استخدام الأكراد الموالين له ضد الأكراد الآخرين.

لقد منَح [عبد الحميد] الألقاب ومظاهر الحفاوة والتكريم لوَرَثة زعماء الثوّار القدامى حتى إنه عيَّن ابن بدرخان بحري بيك معاوناً شخصياً له. وفي عام ١٨٩٠ أصدر السلطان مرسوماً يقضي بتشكيل قوة من الفرسان الأكراد ـ على غرار قوات القوزاق الروسية ـ وسيكون لها شرف حمل اسمه ــ ستُعرف باسم [الفرسان] الحميدية.

كانت أفواج الحميدية قوات نظامية ولكن على أسس قبلية، وسبب وجودهم أساساً هو تشكيل قوة حدودية لحراستها [الحدود] من انتهاكات روسيا القيصرية رغم إنهم استخدُموا أيضاً لقمع السكان الأرمن الذين تلقّت مشاعرهم القومية تشجيعاً روسياً.

وقد كُوفِئ الذين انضموا إلى الفرسان الحميدية كثيراً من قِبل الباب العالي ومُنِحوا ألقاباً. وكانت عضوية القوات الحميدية تُعتبر ترخيصاً رسمياً من الدولة لشنّ غارات على القبائل الأخرى و قمع الفلاحين مقابل الولاء التام للسلطان. لكن القوات نفسها كانت بإحكام تحت أُمرة ضباط أتراك.

وقد كان عمل الحميدية الأول في عام ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ عندما طُلب منهم قمع ثورة الأرمن التي نشبت ضد أعباء الضريبة المضاعفة الكردية والعثمانية. وقُتِل في العملية عشرات الآلاف من الأرمن إما بناءً على أوامر مباشرة من السلطات العثمانية أو بمبادرة من الحميدية أنفسهم. وكانت هذه دلالة منذرة بمجازر ١٩١٥ ـ ١٩١٦ والتي لعبت فيها أيضاً الوحدات الكردية دوراً في قتل وتهجير الأرمن. وفي اشتباكات أخرى استُخدمت القوات الحميدية لقمع ثورات رفاقهم الأكراد والقبائل العربية في الجنوب.

كانت هناك أسباب عملية لإزدياد العداء الكردي ـ المسيحي في أواخر القرن التاسع عشر. فقد كان الأرمن بالإضافة إلى اليهود، يسيطرون تقليدياً على السلع والمهن الصناعية المحدودة النطاق في كردستان إلى جانب إنتاج السجاد والأسلحة. وكان منهم التجار والحرفيون في مجتمع تسوده نخبة من المحاربين الاقطاعيين. لقد كانت العلاقة بين الأكراد والأرمن علاقة تكافلية لعدة قرون ففي كثير من الأحيان كانوا يعيشون في نفس المنطقة وبغض النظر عن الدين، كانت تجمعهم تعاليم ثقافية مماثلة. فالأمتان مقسمتان بنفس الحدود الدولية وكذلك بعض القبائل التي تعد نفسها من الأكراد، هي في الحقيقة من الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام في وقت مبكر، والمثل الأرمني ((مخ أرمني وذراعٌ كردي)) يعكس وبدقة طبيعةَ العلاقة بينهما في الوقت الذي تعاونت فيه الأمتان.

ومع إدخال اقتصاد النقد إلى كردستان، أصبح المسيحيون مرابين نافعين للعشائر وهي علاقة أدت إلى مشاعر معادية من جانب مديونيهم. وقد أعطى العثمانيون أيضاً تبريراً دينياً بالمجازر، وذلك بالدعوة إلى تضامن المسلمين الأكراد ضد الكفار. و كان الأرمن، بسبب دينهم يميلون إلى الغرب المسيحي كمثل يُحتذى به ومن أجل الدعم، بينما مائل الأكراد المسلمون أنفسهم بسرعة أكبر مع السلطان العثماني.

حُلّت فرقة الفرسان الحميدية رسمياً، مع أنه سُمح لها بمتابعة نشاطاتها تحت اسم آخر، عندما تسلّمت حركة تركية الفتاة السلطة في الامبراطورية بعد انقلاب عسكري عام ١٩٠٨. كان هؤلاء الضباط القوميون ساخطين على الهاوية التي تردت فيها الامبراطورية واعتمادها على نزوات القوى

الأوربية. كانوا يمثلون مصلحة الأتراك والبرجوازية المسلمة التي كانت تحس بالاضطهاد من طبقة التجار المسيحيين الذين سيطروا على الاقتصاد من خلال صِلاتهم مع أوربا، والموظفين الفاسدين في بلاط السلطنة.

واستنبطوا مذهب القومية العثمانية التي تسعى لتوحيد قوميات الإمبراطورية المختلفة، سواءٌ كانت تركية أوألبانية أو عربية أو كردية، من أجل إنشاء دولة حديثة. ولكن سرعان ما تلاشت هذه الأفكار النبيلة عندما جاء العنصر التركي في الحركة وسيطر على البقية. وبينما استمرت الامبراطورية بالانحلال ـ بعد أن حصلت ألبانيا و بلغاريا على استقلالهما عشية الحرب العالمية الأولى ـ أحلت القومية العثمانية المجال للقومية التركية، وهي فكرة تهدف لإنشاء امبراطورية جديدة تشمل العالم المتكلم باللغة التركية من الأناضول إلى أذربيجان وأوزبكستان وحتى إلى أقصى آسيا الوسطى. وكانت العقبة الرئيسية في وجه هذا المشروع هي تلك المنطقة البدائية من الامبراطورية التركية المسكونة من قِبل شعوبٍ غير تركية كالأرمن والأكراد. فأي حل أسهل بالنسبة للقوميين الأتراك، من استخدام الأكراد للقضاء على الأرمن ومن ثم التفرغ للأكراد؟

كانت الرغبة في إقامة امبراطورية تركية عصرية إحدى أهم الأسباب التي دفعت القوميين الأتراك لاتخاذ قرار دخول الحرب العالمية الأولى مع ألمانيا ضد بريطانيا وفرنسا والامبراطورية الروسية. لقد كانت حرباً لم تتسبب فقط في ذبح أكثر من مليون أرمني ـ كما يقول المؤرخ الكردي كندال نزان ـ بل تسببت أيضاً في مقتل سبعمائة ألف كردي.

لقد شُجِّع الأكراد للمشاركة في الجهاد الأكبر ضد الكفار، واستجابوا في أغلب الأحوال. حتى أن الأكراد الذين كانوا يعيشون في ظل الامبراطورية الفارسية المحايدة ظاهرياً انضموا أفواجاً إلى القضية العثمانية، مع أن آخرين في ظل السيطرة العثمانية رفضوا القتال، بينما أيد آخرون الروس بشكل فعّال. وكما جرت العادة كانت المصالح القبلية والشخصية فوق أية اعتبارات أخرى.

وقد رأى بعض المحنكين في القيادة الكردية إن الأكراد سيستفيدون أكثر من هزيمة العثمانيين وطلبوا فعلياً مساعدة الحلفاء. فذهب كامل بك من بوطان إلى تفليس عام ١٩١٦ في مسعى منه لاقناع الدوق نيقولا الكبير نائب قائد القوات الروسية والقوقازية على الجبهة التركية، لمساعدة القضية الكردية.

وفي السنة الثانية للحرب، حيث كانت الثورة البلشفية في روسيا على بعد سنتين من ذلك، بدأت بريطانيا وفرنسا وروسيا مناقشات سرية حول كيفية تقسيم غنائم الامبراطورية العثمانية المهزومة فيما بينهم. وكان السير مارك سايكس من بريطانيا وجورج بيكو من فرنسا بطلي هذه المناقشات. وبعد ثلاثة أشهر من المداولات سافرا إلى بتروغراد في آذار ١٩١٦ للحصول على موافقة/روسيا على اتفاقٍ تكون أرمينيا وكردستان العثمانية بموجبه في منطقة النفوذ الروسية. لكن ولاية الموصل العثمانية (في كردستان العراق) كانت قد مُنحت لفرنسا. وأصبحت الأقاليم العربية في الامبراطورية العثمانية مقسمة بين بريطانيا وفرنسا.

لكن الأحداث اللاحقة غيّرت موازين القوى ضمن المعسكر الحليف لصالح بريطانيا، فقد استولت قوات آلينبي على القدس ودمشق، وبعد حملة مكلفة ضد الأتراك في بلاد ما بين النهرين استولى البريطانيون على العراق العربي أيضاً. وبعد أربعة أيام من هدنة ١٩١٨ التي أنهت الحرب بخروج الامبراطورية العثمانية مهزومة، دخل البريطانيون إلى الموصل.

في هذه الأثناء كانت الامبراطورية القيصرية قد انهارت وتخلى ورثتها البلشفيون عن طموحات روسيا في الشرق الأوسط وبرزت بريطانيا، التي لم يكن لها أي دور في كردستان حسب شروط اتفاقية سايكس ـ بيكو، كأكبر قوة في المنطقة فور انتهاء الحرب.

رحّب سكان ولاية الموصل، بشكل عام، بوصول البريطانيين[1] بعد سنوات من الحرب المرهقة بينما رآها الزعماء القبليون تهديداً آخر لامتيازاتهم الشخصية.

كانت الامبراطورية العثمانية محطمة، بينما كان النفوذ البريطاني آخذاً بالتوسع. فاحتل جنود الحلفاء معظم الأناضول، وعُهدت مهمة تهدئة [الأوضاع] في كردستان الجنوبية إلى جيش الحملة الهندية وسلاح الجو الملكي في العراق.

ولم تنتظر التمردات القبلية طويلاً للإندلاع، فنصب رجال القبائل في شمال الموصل كميناً وقتلوا عدداً من الضباط البريطانيين في ربيع ١٩١٩ وردّ سلاح الجو البريطاني بقصف منطقة المتمردين

---

(١) هذا كذب. لم ترحب أي مدينة عراقية بالاحتلال البريطاني. وأسوأ ما حدث هنا هو أن بعض المدن لم تساهم في المقاومة التي قادها فقهاء الشيعة من غير أن تعلن ولاءها للانكليز (هـ . ع)

بالقنابل، وكانت تلك واحدة من عدة غارات جوية تأديبية ضد الأكـراد. بعـد ذلـك وفي نفـس السـنة حققت محاولات بريطانيا الخرقاء، لفرض النظام على القبائل الصعبة المراس، ما كان يبدو مسـتحيلاً، إذ تم عقد تسوية بين القبيلتين المتحاربتين البرزانيين والزيباريين وكانت الأولى بزعامة الشيخ احمد البرزاني، الأخ الأكبر للملا مصطفى. ورداً على ذلك قام البريطانيون باحتلال مواطن القبيلتين مما أجبر المتمردين على الفرار إلى الجبال.

إن الحركة القومية الكردية التي انبثقت عـن الحـرب العالميـة الأولى، وجـدت قواتهـا المسـلحة مستنزفةً ومنقسمة في مسألة أينبغي عليها وضع ثقتها في القوات الحليفة التي تسيطر الآن على المنطقة، أم تنضم بقَدَرها إلى الأتراك بقصد بناء دولة ثنائية ـ القومية على أنقاض الامبراطورية العثمانية؟

وما أن انتهـت الحـرب حتـى تقرّبـت المنظمـات الكرديـة في المنفـى وتلـك الـتي اتخـذت مـن القسطنطينية مركَزاً لها، من الحكومتين البريطانية والفرنسية، وطلبت بعض التنظيمـات مسـاندتهما مـن أجل كردستان مستقلة. كانت اثنتان، من أصل ثلاثة منظمات منهمكة في ذلك، يهيمـن عليهمـا أفـراد من سلالة بدرخان الحاكمة القوية، بينمـا كـانت الثالثـة "استخلاصي كردسـتان" أو تحريـر كردسـتان يُديرها عبد القادر ابن الشيخ عبيد الله الذي استُقبل في البلاط وعُومِل باحترام من قِبل السـلطان، لهـذا كان يُعارض بقوة مفهوم دولة كردية مستقلة[1].

كان الأكراد على اتصال أيضاً مع لجنة كينغ ـ كرين (King - Crane) التي أرسلتها الولايات المتحدة لتقييم وضع مابعد الحرب في الامبراطورية العثمانية. وقد قدمت اللجنة فيما بعد تقريـراً يوصـي بإقامة دولة كردية تغطي ربع مساحة كردستان بالإضافـة إلى إقامـة دولـة أرمنيـة في تلـك المنطقـة الـتي كانت قد أصبحت لروسيا القيصرية. وقد أوصى التقريـر أيضـاً بأنـه يجـب أن توضـع هـاتين الدولتـين، بالإضافة إلى الدولة التركية التي كان من المفترض أن تُقام في الأناضول، تحت إنتداب الولايات المتحدة.

---

(١) ينقل الدكتور كندال في كتابه (الأكراد في ظل الامبراطورية العثمانية) عن الشيخ عبد القـادر قولـه: ((إنـه مـن غـير اللائق بالشرف الكردي أن نوجه ضربة قاتلة للأتراك بتخيلنا عنهم ومطالبتنا باستقلال كردستان في هذا الظـرف البـائس الذي يمرون به، إنني أُصر عل ضرورة مساعدتهم الآن. ومع ذلك فأنتم تعلمون إن الأتراك قد وافقوا على رغبتنـا بانشـاء كردستان مستقلة ذاتياً متشيعة للسلطان العثماني. وتعلمون أيضاً إنه إذا أقدم الأتراك على عدم احترام وعودهم فإن الأمة الكردية قادرة على انتزاع حقوقها بالقوة)).

وقد أُعلن عن الاهتمام الأمريكي بمستقبل المنطقة في بيان المبادئ الأربع عشرة للرئيس وودرو ويلسون الذي ألقاه أمام جلسة مشتركة للكونغرس في الثاني من كانون الثاني ١٩١٨ حيث جاء فيه بأن: ((الحصة التركية من الامبراطورية العثمانية الحالية يجب أن يؤمن لها سيادة قوية، لكن يجب بكل تأكيد توفير حياة آمنة وفرصة حقيقية لتطوير الحكم الذاتي، لتلك القوميات التي لا تزال تحت الحكم التركي)).

ولكن رغم طموحات ويلسون النبيلة لإقامة نظام عالمي جديد بعد الحرب، لم يكن الاهتمام الأمريكي بكردستان، جوهرياً، أكثر سمواً من اهتمام فرنسا أو بريطانيا: فقد كانت الدول الثلاث تدرك أنه يوجد احتياطي ضخم من النفط في ولاية الموصل وكانت كل واحدة منها متلهفة لمنع وقوع هذه الموارد كليةً تحت يد الأخرى. لكن عندما بُدِئ بالإجراءات التمهيدية لمؤتمر باريس للسلام في كانون الثاني ١٩١٩ كانت في حوزة بريطانيا معظم الأوراق. فقد كانت القوات البريطانية تسيطر ـ وإن كانت سيطرة شكلية ـ على المنطقة المتنازع عليها، وقد كلف الدبلوماسيون البريطانيون أنفسهم عناءَ إقامة اتصالات مباشرة مع الأكراد حتى قبل انتهاء الحرب. فقد كان السير بيرسي كوكس (Sir Percy Cox) مهندس العراق الحديث، في مرسيليا في السنة المنصرمة ليُناقش مستقبل المنطقة مع الجنرال شريف باشا الذي أصبح ممثلاً عن الأكراد.

ولم يكن الأتراك المهزومون كسالى. فَلكي يمنعوا خطط الحلفاء لتمزيق الامبراطورية، وعدوا الأكراد بالحكم الذاتي، وهو وعدٌ لاقى استحساناً وتشجيعاً من قِبل منظمة الشيخ عبد القادر. وفي أيار ١٩١٩ ارتكب البريطانيون خطأً وذلك بإقناع السلطان لإرسال مندوب إلى كردستان لمواجهة نشاطات التنظيمات البلشفية في المنطقة.

وكان الرجل الذي وقع عليه الاختيار بطلاً في الحرب العثمانية، أتاتورك المستقبل، الجنرال مصطفى كمال. فانتهز مصطفى كمال الفرصة لشنّ حربه من أجل التحرير بمناشدة كل المسلمين لحشد قواهم استجابةً لقضية السلطان ـ الخليفة الذي سُجن في القسطنطينية من قِبل الحلفاء الكفار. واستطاع أن يستميل العشائر الكردية إلى جانبه باستغلال مخاوف الأكراد أن الأرمن على وشك ضمّ الأراضي الكردية إلى دولتهم الوليدة. وهكذا اندلعت الحرب التركية من أجل الاستقلال في كردستان تحت راية الإسلام، ونجم عنها علمانية تامة لتركيا وقمع ثقافي للأكراد.

في هذه الأثناء كان قد تم اختيار شريف باشا، وهو سفير سابق للباب العالي في استوكهولم، من قِبل الجناح المؤيد للاستقلال في الحركة الكردية ليطرح القضية الكردية في مؤتمر باريس. لقد وجد نفسه مندوباً عن حركة منقسمة إلى حد الإفراط ولها تأثير قليل وصلاتها تكاد تكون معدومة مع معظم سكان كردستان. وقد لُوحظ في وثيقة مقتضبة أعدّتها وزارة الخارجية عن مؤتمر باريس أن الأكراد يفتقرون إلى سياسة قومية ولا يتوفر لديهم سوى الوعي القبلي.

لقد أظهر البريطانيون والفرنسيون منذ البداية أنهم غير راغبين بالتخلي عن تلك الأقسام الواقعة تحت سيطرتهم من كردستان سورية والعراق، وأن كردستان المستقلة، إذا كان مقدراً لها أن تُقام فإنها لابد أن تكون فيما كان يعتبر حتى ذلك الحين أقليماً تركياً. وقد عقّد مفاوضات شريف باشا القصيرة حقيقة أخرى: أن ليس لديه تفويض حقيقي من الأمة الكردية، لذلك لم يكن لدى أحد فكرة واضحة عما يريده الأكراد ككل. رغم كل هذه القيود، كان ضعف السلطنة المتفسخة إلى درجة أن انتهى المؤتمر بصياغة معاهدة تضمنت شروطاً عن الدولة الكردية.

ففي العاشر من آب عام ١٩٢٠ تم التوقيع على معاهدة سيفر بعد مؤتمر حضره الحلفاء المنتصرون وتركيا والأمم التي كانت في السابق خاضعة للامبراطورية العثمانية. وكان للأكراد صفة المراقب في ذلك الجزء من المحادثات التي شملت كردستان وأرمينيا.

وبموجب المادة ٦٢ من المعاهدة تم تشكيل لجنة من بريطانيا وفرنسا وإيطاليا للمراقبة وتقديم خطة الحكم الذاتي الكردي في منطقة يحدها من الغرب نهر الفرات، ومن الشمال دولة أرمينيا المستقبلية، وفي الجنوب تركيا وسورية وبلاد مابين النهرين. وألزمت المادة ٦٣ الحكومة العثمانية بقبول قرارات اللجنة المتحالفة.

أما المادة ٦٤ فتستحق الإقتباس من غير حذفٍ أو اختصار:

((وإذا حدث، خلال سنة من تصديق هذه الاتفاقية أن تقدم الأكراد، القاطنون في المنطقة التي حددتها المادة (٦٢) إلى عصبة الأمم قائلين بإن أغلبية سكان هذه المنطقة يريدون الاستقلال عن تركيا، وفي حالة اعتراف عصبة الأمم أن هؤلاء السكان أكفاء للعيش حياة مستقلة، وأوصت بمنح الاستقلال، فإن تركيا تتعهد بقبول هذه التوصية وتتخلى عن كل حق في المنطقة. وستكون الاجراءات التفصيلية لتخلي تركيا عن هذه الحقوق موضوعاً لاتفاقية منفصلة تُعقد بين تركيا وكبار الحلفاء.

وإذا تم التخلي المذكور، فإن الحلفاء الرئيسيين لن يثيروا أي اعتراض ضد طلب أكراد ولاية الموصل بأن يصبحوا مواطنين في الدولة الكردية المستقلة الوليدة)).

إن الدولة المزعومة تجاوزت أكثر بقليل تلك المناطق الجبلية العديمة القيمة من جغرافية كردستان. فقد تمَّ بشكل طبيعي، إقصاء الأكراد التابعين للشاه الفارسي، كما تم إقصاء، أولئك الذين يعيشون في سورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. كما وكان القسم الأكبر من كردستان الشمالية مما كان منسوباً إلى الدولة الأرمنية المستقبلية، قد وُضع تحت حمايةِ الولايات المتحدة. علاوَةً على ذلك، كانت إقامة دولة مستقلة تتطلب الكثير من المؤهلات، فقد كانت تعتمد أساساً على حكم القوى الخارجية، كما على رغبة الأكراد وقدرتهم على الاستقلال وقد أُقصي الأكراد الذين يعيشون في ولاية الموصل المحتلة من قِبل بريطانيا، حتى تكون كردستان تركيا قد حصلت على استقلالها.

ولكن حتى هذه الدولة الكردية المبتورة والمفقرة لم يقدّر لها أن تكون، فلم يتم التصديق على معاهدة سيفر أبداً. إذ أقام القوميون الأتراك مجلس نواب في أنقرة الذي أعلنَ قبل أن يتم التوقيع على معاهدة سيفر بقليل، أنه لن يعترف بأية اتفاقية وُقعت من قِبل الحكومة العثمانية في القسطنطينية المحتلة. وقد تعزّز حكم القوميين عندما نجح مصطفى كمال في تحويل الهزيمة إلى نصر بطرد الجيش اليوناني المحتل من الأناضول وإقامة نظام قومي قوي. وفي تشرين الثاني ١٩٢٢ خلع المجلس القومي الكمالي السلطان محمد السادس وقضى على الخلافة، قاطعاً بذلك آخر رابطة إسلامية شاملة كانت توّحد قوميات الامبراطورية المسلمة وأعلن مصطفى كمال: ((إن الدولة التي بنيناها للتو، دولةٌ تركية)).

إن الأكراد الذين قاتلوا إلى جانب الكماليين على أمل الحصول على حكم ذاتي داخل إتحاد تم حقنه بدماء جديدة من الأكراد والأتراك قد قاتلوا عبثاً. كذلك خُدِع الذين اختاروا وعود الحلفاء من أجل الاستقلال التي شملتها معاهدة سيفر. إن معاهدة سيفر، التي كانت قد فُرضت على الإمبراطورية العثمانية المهزومة، قد سُحبت لصالح معاهدة لوزان التي عندما نشرت في ٢٤ تموز ١٩٢٣، اعترفت في حينه بدولة تركية حديثة تضم معظم الأراضي الكردية. لم تأتِ المعاهدة على ذكر الأكراد وتكلمت فقط عن حقوق الأقليات من غير المسلمين و هو نموذج أستُثني منه معظم الأكراد.

وهذا ما أبقى مستقبَل ولاية الموصل ومسألة من سيتحكم بإحتياطاتها من النفط مفتوحاً للنقاش. فقد كانت بريطانيا قد عُينت في عام ١٩٢٠ لتمارس تكليف عصبة الأمم بالانتداب على العراق وولاية الموصل، ولكن في الوقت الذي وُقع فيه على معاهدة لوزان في السادس من آب ١٩٢٤

كان على تركيا أيضاً أن تتخلى عن مطالبتها بالموصل.فقد حصلت بريطانيا على دعم الحلفاء لمطالبتها بالموصل وذلك بالتوقيع على إعطاء أكثر من ٢٥٪ من عائدات نفط المستقبل إلى فرنسا وحصة ٢٠٪ من البترول التركي الذي تملكه بريطانيا إلىالولايات المتحدة بعد أن تذمرت واشنطن من الأطماع الاستعمارية القوية في المنطقة. كان المساهم الرئيسي في النفط التركي [هو صاحب] الشركة التي كان مقصوراً عليها حقوق استغلال الحقول العراقية اللورد كيرزون Lord Curzon مفاوض بريطانيا الرئيسي في لوزان.

في المؤتمر أظهر كيرزون ونظيره التركي، عصمت (انيونو) اهتمامهما بأكراد ولاية الموصل واستغلا ذلك لتبرير مطالبهما المتضاربة في الأقليم. كانت بريطانيا تعمل اسمياً لصالح الدولة العربية الجديدة في العراق، حيث توّج فيصل ـ ابن شريف مكة ـ ملكاً عام ١٩٢٢ لدولةٍ تشمل كلاً من أقليمي ميزوبوتاميا (بلاد ما بين النهرين) وولاية الموصل الكردية. سبق إنشاء الملكية العراقية تعهد للحسين من قِبل البريطانيين عام ١٩١٥ بأنه سوف يتسلّم الولايات العثمانية في بغداد والبصرة عندما تنتهي الحرب، وذلك مقابل إعلانه الثورة على العثمانيين في شبه الجزيرة العربية. ولم يُطالب الحسين بمنطقة الموصل ذات الأغلبية الكردية، كما أنها لم تُعرض من قبل بريطانيا. حُرمَ الحسين من العرش الذي أصبح لفيصل، الذي قاتل جنباً إلى جنب مع ت . ي لورنس في الثورة العربية [الكبرى]، والذي طُرد عام ١٩٢٠ من دمشق من قِبل الفرنسيين بعد عهد قصير كملك لسورية.

عندما انتهت الحرب، لم يُبدِ الأكراد أية رغبة في ان ينضموا إلى الدولة العربية الجديدة وهو موقف عبّر عنه خير تعبير نجاح الثورة التي نظمها الشيخ محمود البرزنجي الذي انتحل لقب ملك كردستان[1] والذي نجح في انتزاع السيطرة على منطقة السليمانية من المحتلين البريطانيين و امتد تمرده

---

(١) ولد الشيخ محمود في السليمانية سنة (١٨٨١)، وهو ابن الشيخ سعيد بن محمد نجكولا بن كاك أحمد الشيخ بن الشيخ معروف النودهي الشهرزوري البرزنجي الحسني، وبلقب بالحفيد. درس علوم الشريعة ومبادئ الصوفية، وزار الاستانة برفقة ابيه سنة ١٩٠٤، فقابلا السلطان عبد الحميد الثاني، وقتل أبوه الشيخ سعيد مع أخيه أحمد في الموصل، وعلى أثر ذلك انتشرت الثورة في كردستان، وعاد إلى السليمانية في سنة ١٩١٠.

وقد تعززت مكانة الشيخ محمود وقوي نفوذه بين العشائر الكردية، فلما نشبت الحرب العالمية الأولى ونودي بالجهاد في العراق، هب إلى قتال الانكليز في الشعيبة على رأس المئات من اتباعه الفرسان الاشداء عام ١٩١٥، وعاد إلى السليمانية بعد ثمانية أشهر، ووقف مع رجاله سداً منيعاً دون مرور القوات الروسية التي وصلت إلى الحدود العراقية في الشمال، فحاربها في منطقة بنجوين حرباً لا هوادة فيها، وردها على أعقابها.+++

إلى إيران. تم قمع هذه الثورة الأولى، وبينما كان يقضي فترة السجن استمر الشيخ محمود في إثارة

++وقد اعتقله الأتراك وأرسلوه إلى الموصل بتهمة اقامة علاقات سرية مع الإنكليز، وحاولوا اعدامه في عهد صلاح الدين جولان، ولكن القائد علي احسان باشا اعفى عنه. و احتلت القوات البريطانية كركوك سنة ١٩١٨، وعينت الشيخ محمود حاكماً(حكمدار) على كردستان في تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة ولكنه بعد أن رأى النفوذ البريطاني يتمكن في بلاده ويستقر، ثار على الانكليز. وأعلن استقلاله في ١٩ أيار (مايو) سنة ١٩١٩ ودارت الحرب بينه وبين القوات البريطانية في مضيق ((طاسلوجة)) و ((دربندبازيان)) شهراً ونصف الشهر تمكن الانكليز بعدها من العودة إلى السليمانية، فاعتقلوا الشيخ محمود وأبعدوه إلى جزيرة ((هنجام)) قرب الهند، حيث الانكليز حيث قضى نحواً من سنتين ونصف السنة.

وسادت المنطقة الكردية في العراق في سنة١٩٢٢اضطرابات واسعة، وفي الوقت نفسه كانت بريطانية تحاول فرض معاهدة جديدة على العراق(عرفت بمعاهدة سنة١٩٢٢) فأعادت الشيخ محمود من منفاه للإفادة من نفوذه في تهدئة الوضع في كردستان من جهة، والضغط على الحكومة العراقية واجبارها على توقيع المعاهدة من جهة اخرى، وعلى أثر ذلك انسحبت القوات البريطانية من كردستان وأعيد الشيخ محمودحاكماً لها، فانتهز هذه الفرصة وأقام في السليمانية دولة كردية مستقلة وأعلن نفسه ملكاً عليها في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٢٢، ورفع فيها العلم الكردي وألف وزارة، وأصدر طوابع بريدية، وجريدة، وأرسل في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٢٢ كتاباً بتوقيع ((ملك كردستان)) إلى قنصل روسية السوفيتية في أذربيجان يطلب مساعدة حكومته للاعتراف بحقوق الأكراد القومية، والدخول في علاقات معها وتجهيزه بالأسلحة والمؤن. و لم توافق الحكومة العراقية، ولا السلطات البريطانية على هذا الوضع، فأرسلت قواتها لاحتلال السليمانية، فتمكن الشيخ محمود من صدها وأرجاعها إلى ما وراء مضيق دربند، وواصل قتاله للجيش العراقي، الذي كانت تسانده القوات البريطانية.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٩٢٦ ارسل الشيخ محمود مندوباً عنه إلى بغداد للاتفاق على شروط الصلح، فوقع في حزيران (يونية) سنة ١٩٢٧ اتفقاً يقضي بأن يعيش الشيخ محمود و أسرته خارج العراق، وأن يمتنع عن التدخل في الشؤون السياسية، وأن يرسل أحد أولاده إلى بغداد للدراسة، على ان ترد الحكومة أملاكه.

وأقام الشيخ محمود في جنوبي العراق في سنة ١٩٢٩، ثم سُمح له بالعودة إلى بغداد سنة ١٩٣٣، وبقي فيها حتى سنة ١٩٤١ وانتهز فرصة قيام حركة رشيد عالي الكيلاني في تلك السنة ففر إلى كردستان وبقي فيها، وبعد أن قاد انتفاضة أخرى، قصيرة الأمد، استسلم للحكومة نهائياً، واعتزل الحياة العامة.

كان الشيخ محمود شخصية محبوبة من الأكراد والعرب، وكان زعيماً روحياً ودنيوياً محترماً من الجميع، فيه كثير من صفات الزعامة، حلو الحديث ، حاضر البديهة، ذا لمام بالأدب ومعرفة بالشعر، وله شعر جيد باللغة الكردية، وقد عُرف عنه أنه كان فارساً مقداماً يخوض المعارك بجرأة وشجاعة فائقتين.

ذكر الدكتور سندرس، طبيب العائلة المالكة في العراق، في مذكراته المعنونة ((عشرة آلاف ليلة وليلة)) انه دعي لمعالجة الشيخ محمود في بغداد، فلما فحصه وجد أثر جرح صغير قديم في ظهره، وسأله عنه، فأجاب الشيخ محمود: ((انها رصاصة بريطانية، وهي مثلكم، أيها الانكليز، إذا دخلتم مكاناً فلا يز يحكم منه إلا الشيطان))

المتاعب للعراقيين وحُماتهم البريطانيين حتى عام ١٩٣٠. بعد توقيع معاهدة لوزان، أرسلت عصبة الأمم لجنة دولية للتقصي وتقييم الوضع ومعرفة رغبات سكان ولاية الموصل المتنازع عليها. وقد أعلنت اللجنة رسمياً عن عدم وجود أي شعور بين الأكراد، بأنهم جزء من الدولة العراقية، وأوصت بأنه بناءً على الأسس الإثنية (العرقية) فإن أفضل حل سيكون إقامة دولة كردية مستقلة. ومع ذلك وافقت اللجنة على الحجة البريطانية بأن الإقليم الكردي، لأسباب اقتصادية، يجب أن يُلحق بالدولة العراقية، وكان الشرط الوحيد هو أن تؤخذ بالحسبان مطالب الأكراد في إدارة المنطقة واستعمال اللغة الكردية كلغة رسمية وجاء من اللجنة حرفياً: ((يجب أن يؤخذ بالاعتبار رغبات الأكراد بان يُعين موظفون من أصل كردي لإدارة وطنهم، كما يجب أن تكون اللغة الكردية اللغة الرسمية في خدمات العدل والتعليم)).

وفي السادس عشر من كانون الأول عام ١٩٢٥ وافق مجلس عصبة الأمم على ضم ولاية الموصل إلى العراق. وكانت بريطانيا في حينه قد مُنحت الانتداب على العراق لمدة خمس وعشرين عاماً وسرت كثيراً أن تضمن أن الأكراد يطلبون نموذج الإدارة المحلية الذي أوصت به لجنة التحقيق. ودُعِم هذا المطلب كلامياً بنشر قانون اللغات المحكية، لكن على الصعيد السياسي، لم تكن ثمة أية محاولة لامن جانب الحكومة العراقية ولا من جانب شركائها البريطانيين بمباشرة تعزيز الحكم الذاتي لشعب كردستان.

خلال العشرينات، ورغم الثورات المتكررة التي شنها الشيخ محمود والبرزانيون وضع الأكراد ثقتهم التامة في النوايا البريطانية الطيبة وكانت هذه الثقة تثير الدهشة حتى بين الموظفين البريطانيين الذين كانوا متورطين في ذلك. إن الوثائق البريطانية التي تعود إلى الفترة لا تكشف عن التلاعب الساخر بالقومية الكردية فحسب، بل [تجسد] أيضاً موقفاً مناصراً للأمة الكردية.

فقد دُوِّن في تقرير سري أُرسل إلى لندن من مركز القيادة الجوية في بغداد أُرِّخَ في ١١ تشرين الثاني ١٩٢٤ ما يلي:

++ توفي الشيخ محمود في بغداد في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) من عام ١٩٥٦، ونقل جثمانه إلى السليمانية ودفن فيها. وكان عند وفاته في الخامسة والسبعين من عمره.
عن نجدة فتحي صفوة في جريدة (الشرق الأوسط) عدد...؟ ٩ تشرين الأول عام ١٩٩٢. المترجم

((إن الأكراد يتطلعون إلى الأمة البريطانية دون غيرها للمساعدة، إذ أنها تُعتبر مانحة الحرية، أو قدراً كبيراً منها، للأمم الصغيرة بعكس سياسة الاستعباد والصهر المتبعة عند الأمم الأخرى ... وحتى الوقت الحاضر، ورغم الغياب الكلي تقريباً لأية مساعدة حقيقية يستمر الأكراد في اعتقادهم الراسخ بأن بريطانيا في النهاية، عندما تسنح الفرصة ستتبنى قضيتهم وتحقق خلاصهم)).

لقد نجم التقرير عن استخلاص المعلومات من أربعة من الضباط الأكراد الذين فروا من الجيش التركي وكانوا متعاطفين مع الجمعية الوطنية الكردية بقيادة امين عالي بدرخان(١). ويختم التقرير بأنه ستكون حيلة فعّالة (مؤثرة) إذا ساندنا وزودنا الانتفاضات الكردية بالأسلحة في الجارة تركية، وذلك لتحقيق هدفين أولهما استعمال الأكراد كسلاح محتمل ضد الأتراك وثانيهما كسب الشعبية بين الأكراد العراق. وأكد التقرير على: ((إنه مما لاشك فيه أن الأتراك قلقون من الحركة، خاصة في هذه المرحلة، وستكون سلاحاً فعالاً جداً ضد تركيا في حالة الحرب)). واستمر التقرير قائلاً: ((إن هذا التهديد أصبح ذو قيمة كبيرة للحكومة البريطانية خلال السنوات الماضية، وخاصة بسبب العدد الكبير للسكان الأكراد داخل الحدود العراقية .. إنه لمن الوأضح بما فيه الكفاية بأن المعاملة الكريمة للعراقيين والنازحين الأكراد وتشجيع مشاعرهم القومية التي إذا كان من الممكن تحويلها إلى علاقات عملية متبادلة فإنها ستعود علينا بالفائدة مراراً. إن هكذا سياسة ستنجح نجاحاً عظيماً في تأمين سكان ودودين على طول كل الحدود الشمالية والثُلث الشمالي من الحدود الشرقية العراقية، وسوف تمدُّ حكومة العراق بسلاح ضد الأتراك على الصعيدين الديبلوماسي وفي حرب محتملة أيضاً)).

مرةً أخرى عُدَّ الأكراد أداةً مفيدة في النزاعات الدولية أما بالنسبة لتشجيع ((المشاعر القومية الكردية)) فقد برهنت بريطانية أنها أقل استعداداً للمساعدة.

في مذكرةٍ أخرى إلى عصبة الأمم عام ١٩٣٠ لم تستطع بريطانيا إخفاء سخطها من أن الأكراد كانوا لا يزالون يطمحون إلى دولة مستقلة وتشير إلى الإيمان الواسع الانتشار بكردستان: ((نظراً لوجود قرار خاص من مجلس العصبة يقضي بإقامة دولة مستقلة في كردستان الجنوبية بُعيد

---

(١) يقول الدكتور كندال: ((أول تنظيم سياسي كردي كان جمعية (نهضة وترقي كردستان) بقيادة الأمير عالي بدر خان بك والجنرال باشا والشيخ عبد القادر ابن الشيخ عبيد الله ورئيس المجلس العثماني وكان ذلك حوالي عام ١٩٠٨ وقد أصدرت الجمعية صحيفة باللغة التركية باسم الجريدة الكردية للتعاون و الترقي ... وقد انبثقت خلافات حول السيادة بين البدرخانيين من جهة والشيخ عبد القادر والأسياد من جهة ثانية وولدت الخصومات القديمة من جديد ودفعت بالزعماء الاقطاعيين إلى درجة الوشايات والاتهامات المتبادلة بالخيانة وانشق الشيخ عبد القادر واصدر صحيفته الخاصة (الشمس الكردية) لمزيد من الاطلاع على التنظيمات الكردية الأولى راجع كتاب الأكراد وكردستان (م.ت.ف) فتح (التعبئة والتنظيم والدراسات) المترجم.

إنسحاب القوة المنتدبة من العراق ... يبدو أن الاضطراب والسخط سوف يستمران في المناطق الكردية إلى أن يُرفض رسمياً هذا التقرير المتعلق بوجود قرار من مجلس العصبة يتعهد بدولة كردية مستقلة، حينها سوف يُجبر الأكراد على إدراك أن الاستقلال الكردي خارج عالم السياسة العملية)).

وتواصل المذكرة فتقول:

((على أسس سياسة ... تبدو الفكرة ضرباً من الخيال. رغم أن لديهم صفات من الطراز الأول، وباعتراف الجميع، فإن أكراد العراق يفتقرون تماماً إلى صفات الالتحام التي تُعتبر جوهرية للحكم الذاتي. إن تنظيمهم ورؤيتهم عشائرية بالدرجة الأولى وليست لديهم تقاليد الحكم الذاتي أو مؤسساته. إن أسلوب حياتهم بدائي، و هم في أغلب الأحوال أميّون وسُذّج، ساخطين على السلطة ويفتقرون إلى حس المسؤولية والانضباط)) في ظل ظروف كهذه، حسب المذكرة، فإنه ((سوف يكون من غير المناسب للأكراد أنفسهم أن يفعلوا شيئاً يساعد على تشجيع فكرة الاستقلال الكردي العقيمة)).

ولكن حتى المفوضية السامية في بغداد اعتبرت بعضاً من هذا التقرير غير ضروري و اعتباطي وطالبت بأن تُحذف الجوانب السلبية في المذكرة لاسيما تلك التي تتعلق بعجز الأكراد عن الحكم الذاتي. ((إذ يجب أن نكون مستعدين لجوابٍ سريع وحاسم بأن هذه [الجوانب السلبية] يمكن أن تطبّق على القسم الأكبر من العراق، وبأن الأكراد في وقت السيطرة التركية كانوا قد تقلدوا أعلى المناصب في الدولة)). ولم يكن لهذا أي تأثير على وزارة المستعمرات التي أهملت الطلب، وكتب موظف مجهول على هامش التقرير: ((وقتها تستطيع أن ترد على الحجة: ولهذا السبب يعيش العراق في حالة فوضى)).

ولكن لا تظهر السخرية والازدواجية البريطانية في أي مكان كما ظهرت في رسالةٍ إلى وزارة المستعمرات من القائم بمهمة المندوب السامي س.هـ بورديلون S.H.Bourdillon في شباط من عام ١٩٢٦ فنتيجة لقبول عصبة الأمم بدمج الأقليم الكردي إلى العراق أرادت لندن أن تذكّر بالوعود المتباينة والمتناقضة، بدون شك، التي أعطتها للأكراد في الماضي. فذّكر بورديلون من بين ماذكر، ببيانٍ صدر عام ١٩٢٢ جاء فيه:

((إن حكومة جلالة الملك وحكومة العراق تعترفان بحقوق الأكراد، الذين يعيشون ضمن حدود العراق، في إقامة دولة كردية ضمن إطار هذه الحدود وتأملان في أن تتوصل الجماعات الكردية المختلفة، بأسرع ما يمكن، إلى اتفاقية فيما بينها حول شكل الحكومة التي يرغبون فيها والحدود التي

يرغبون في أن تغطيها هذه الحكومة، وأن يرسلوا وفد مسؤول إلى بغداد لمناقشة العلاقات السياسية والاقتصادية مع حكومة جلالة الملك والحكومة العراقية)).

إن هذا البيان الاستثنائي يشكل تقريباً عرضاً لحكم ذاتي تام وكان، نظرياً، بأهمية وعد بلفور لليهود عام ١٩١٧. جاء هذا البيان عندما كان البريطانيون يحاولون تبني رأي معتدل لمواجهة ثورة الشيخ محمود التي تم قمعها أخيراً بحملة أُرسلت إلى السليمانية وروانـدوز. نُقل البيان إلى الشيخ عبد الكريم الذي كان مؤيداً سابقاً للشيخ محمود وقد قطعَ علاقاته معه الآن. فنُشر البيان في جريدة كردية في السليمانية، لكن، كما يشير بورديلون إلى وزارة المستعمرات، بدون شك، للتخفيف من توترها بأن البيان ((لم يلقَ الدعاية الكافية في أي مكان آخر)).

وقد فشل عبد الكريم بالعمل وفق البيان، رغم إنه كان هناك على الدوام خطورة من ازدياد أهميته في المستقبل. ومرةً أخرى حاول بورديلون أن يهدئ أعصاب وزارة المستعمرات فكتب:

((نظراً للدعاية المحدودة التي أُعطيت للبيان فإنني أشك في أنه قد يُذكر مرةً أخرى. وإذا كان هناك ذكرى حية، فربما لفتت عنايتنا إلى لجنة الحدود. وإذا طالبَ حزب قومي كردي مندمج بالعراق مرة أخرى بالحكم الذاتي المشروط الذي وعد به هذا البيان، فإننا سنجاوبه بالقول لقد سقط حقكم بالمطالبة بالحكم الذاتي بسبب فشلكم في صون ذلك الحق، عندما كان الاعتراف ممكناً وذلك بمساعدة الحكومة في مسعاها لإعادة القانون والنظام إلى البلد)).

في هذه الحالة لم يكن هناك أية حاجة لهذه السفسطة فلم تتم إثارة قضية بيان ١٩٢٢ أبداً بل سُمح لبريطانية أن تُفلت دون محاسبة من وعدها المنكوث. وفي عام ١٩٣٠ تم التوقيع على معاهدة انكليزية ـ عراقية أنهت الانتداب قبل واحد وعشرين عام من انقضائه وحصل العراق على الاستقلال اسمياً. لم تأتِ المعاهدة على ذكر الأكراد وهو خطأ حَث الشيخ محمود على تمرد جديد في السليمانية وكذلك البرازينيين في بادينان.

وباستقلال العراق نفضت بريطانية يدها من المسألة الكردية. ربما يكون البريطانيون قد أُعجبوا بصفات الأكراد الحربية وبرغبتهم الشديدة للاستقلال، ولكن لم تكن لديهم النية لمساعدة الأكراد لتحقيق طموحاتهم إذا ما تعارضت هذه الطموحات مع الهدف الأسمى في الحفاظ على سلامة الدولة العراقية الجديدة. لقد كان البريطانيون، في حقيقة الأمر، يزدرون القومية الكردية وزعمائها، فقد

وردَ في تقرير سري كُتب عام ١٩٤٦ يُعَلق فيه قسم الأبحاث في وزارة الخارجية على الثورات التي قادها الشيخ محمود وأحمد وملا مصطفى البرزاني:

((إن عدائهم للحكومة العربية جوهري، وبهذا المعنى، فقد يعدون أبطالاً للقومية الكردية، لكنها قومية مقتصرةٌ على تحقيق طموحاتهم الشخصية أكثر مما تُمليه الوطنية، بمعناها الواسع. إن هدفهم الرئيسي هو أن يُتركوا لوحدهم ليمارسوا استبدادهم على أكبر عدد ممكن من شعبهم الريفي ورسم الخطط للسيطرة)).

الفصل الخامس

جمهورية مهاباد

لقد قُدّر للأكراد في إيران التعامل مع ظرفين خاصين لم يتعرض لهما أشقائهم في الدول المجاورة، فمن جهة يجاورون الإتحاد السوفيتي ومن جهة أخرى هم جزء من دولة متعددة القوميات مُصَمِّمة [الدولة] على منع أي قومية منها الحصول على الحكم الذاتي مما قد يشكل سابقة للقوميات الأخرى وهذا قد يؤدي إلى تقسيم الدولة. في إيران تُقارن رغبة الأكراد في الاستقلال بالحركات الانفصالية في أذربيجان وبلوحستان وحتى بجماعات مثل البختاريين أو الجيورجيين أو عرب خوزستان الذين قد يتسببون في إثارة المشاكل للحكومة المركزية. لهذا كانت سياسة الحكومات المتعاقبة في طهران تنحصر دائماً في المركزية مع السماح للحكومة المحلية بممارسة السلطة إذا كان الحكام موالين لطهران، واتخاذ اجراءات صارمة ضد الحركات الانفصالية التي قد تظهر.

كذلك كان ينبغي على إيران، منذ عهد القياصرة وحتى يومنا هذا، أن تراعي الرغبات و النشاطات المحتملة لجارتها الشمالية، وان تتعامل بحذر مع سكانها في المنطقة الحدودية. ومنذ القرن التاسع عشر وما بعده كان يُعترف بأن لروسيا منطقة نفوذ في النصف الشمالي من إيران بينما كانت القوى الأوربية تتنافس من أجل السيطرة على الجنوب، حتى استطاعت بريطانيا والولايات المتحدة السيطرة عن طريق غزو المنطقة أثناء الحرب العالمية الثانية.

كل ذلك لم يمنع الأكراد في إيران من الاستمرار في العمل، مثل بقية الأكراد في الدول التي يعيشون فيها، للتخلص من نير الحكومة المركزية وإقامة نظامهم الخاص. ولكن في إيران، أكثر من الدول الأخرى، كان للكردية بمفومها الشامل مكاناً أقل في السياسة رغم أن أول اتفاق كردي عبر الحدود كان قد وُقع عليه نتيجة مبادرة من أكراد إيران. كان ذلك عام ١٩٤٤ بإقتراح من كوملة[1]

---

(١) يذكر وليام ايغلتن الابن في كتابه جمهورية مهاباد اسماء الاشخاص الذين اجتمعوا لتأسيس الحكومة لي وهم: عبد الرحمن حاوي، محمد أمين شرفي، عبد الرحمن ذبيحي، محمد نانة وازادة، حسين فروهر (رزكري) عبد الرحمن أميني، قاسم قادري، ملا عبد الله داودي، قادر مدّرس، أحمد علمي، عزيز زندي وكان معهم ميرحاج من العراق ص٦٦

(وتعني حرفياً: اللجنة) وهو حزب قومي كردي تأسس على يد مجموعة من أكراد مهاباد وممثلين عن الحزب الكردي العراقي هيوا (الأمل)[1]. لقد نجمت الكوملة عن اجتماع في عام ١٩٤٢ بين وفد من أكراد العراق ومجموعة من الرجال البارزين في مهاباد، المدينة الرئيسية في كردستان إيران. عملياً لم يكن حزب (خويبون) الذي تأسس في المنفى وكان نشطاً في العواصم الأوربية وذا تأثير معين في تركيا، معروفاً في العراق وإيران، حيث كانت الذهنية العشائرية مسيطرة على السياسات الكردية هناك، لذلك كان ينبغي على الأكراد المدنيين أن يسموا فوق الخلافات والمناورات العشائرية التافهة الرامية إلى زيادة نفوذ شيوخ القبائل. وكان هذا أصل هيوا، الحزب الذي تأسس في شمالي العراق خلال فترة الانتداب، لمعارضة البريطانيين والنضال من أجل كردستان الكبرى.

وبسبب صعوبة السفر من جهة، وتجنب ملاحظة الدولة من جهة أخرى، بقي نشاط هيوا مقتصراً على المدن الرئيسية في شمالي العراق، كركوك والموصل والسليمانية وزاخو وكانت العضوية محصورة في الأكراد المثقفين، تاركين العشائر مستمرة في معاركها الدائمة التي كانت في أواخر الأربعينات بسبب المراعي أكثر من أن تكون بسبب المعتقدات السياسية.

وفي عام ١٩٤٢ أحبر اندلاع الحرب السكان على التفكير بالمستقبل وتحديد مصيره لذلك أُتخذ القرار بتوسيع الاتصالات الأولية التي أجرتها هيوا على الحدود مع بعض القواد الأكراد في إيران وتركيا وتطويرها إلى شيء أكبر من ذلك. فأُرسل ميرحاج، وهو نقيب كردي في الجيش العراقي، وعضو في (هيوا) أيضاً، لإجراء الاتصالات مع القوميين في إيران، وخاصة في مهاباد، وكانت في حينه ضمن منطقة النفوذ السوفيتي وعُرِفت كعاصمة لكردستان إيران. قابل ميرحاج خلال زيارته تلك عدداً كبيراً من القياديين في مهاباد الذين كانوا معروفين بوطنيتهم وبسبب أجواء تلك الفترة لم يكن هناك حاجة لإخفاء معارضتهم لسيطرة طهران على السياسة المحلية.

لقد كان المبعوث العراقي أكثر من مُوْفَد أخوي فقد استطاع من وحي تجربة هيوا أن يعطي نصيحة عملية حول كيفية تأسيس واستمرار جماعة قومية كردية، مؤكداً إذا كانت الظروف يسيرةً

---

(١) تأسس في السليمانية عام ١٩٣٩ برئاسة الاستاذ رفيق حلمي .. وكان بجوهره حزباً قومياً وطنياً لا مكان فيه لليسار، لذلك تعرض لهجمات الشيوعيين العراقيين ووُصف باليمينيه المتأثرة بالأفكار النازية، انظر: جمهورية مهاباد، وليام ايغلتن، ترجمة جرجيس فتح الله.ط١- ١٩٧٢دار الطليعة.المترجم

نسبياً في ذلك الوقت، فإنها قد تتغير، لذلك ينبغي عليهم أن يكونوا مستعدين لأي اجراء رسمي قد تتخذه الحكومة. لقد أوصى بنظام [داخلي] و أوصى أيضاً بنظام الخلية حيث ينبغي للأعضاء الجدد أن يعرفوا اثنان أو ثلاثة فقط ممن يتصلون معهم أو توزيعهم على مجموعة أصغر. بعد الاستماع إلى محاضرة ميرحاج، قرر رحال مهاباد تشكيل لجنة خاصة بهم سمّوها Komela Ziyani Kurdistan أولجنة احياء كردستان.

ازدهرت الكوملة فانضم إليها الكثير من الأعضاء الجدد الذين أقسموا، مع الأعضاء الأصليين في بداية مراسم الإعلان، بالمصحف للنضال من أجل الحكم الذاتي لكل الأكراد[1]. إن امتزاج المنظمة بين السرية والاعتراف الشبه علني أعطيا كوملة نفوذاً أكبر وجذب إليها المزيد من الأتباع بحيث أصبحت كوملة في غضون سنتين قوة لا يستهان بها في شمالي إيران، وكانت قادرة على ردّ المساعدة التي تلقتها من الأكراد العراقيين، وذلك بإرسال مندوبين لزيارة أعضاء هيوا واقتراح توسيع الحركة. وفي عام ١٩٤٤ إنضم الكثير من زعماء العشائر إلى الكوملة، إذ كانوا يرونها قوة قومية فعالة وذات قدرة تنافس كبيرة من الممكن استغلالها، لاسيما وأن الحكومة المركزية في طهران ضعيفة وغير قادرة على تعزيز سلطتها في شمالي البلاد، بينما انخرط كل الأكراد، مثل معظم العراقيين في المعارضة ضد الاحتلال البريطاني لوطنهم. وهكذا خلال عام ١٩٤٤ كانت الزيارات تتم ذهاباً و إياباً من قِبل أكراد مهاباد إلى العراق، وفي تطور جديد، إلى سورية وتركيا أيضاً. لقد بدأ حزب (هيوا) يعترف بـ (الكوملة) على أنه الصوت الحقيقي للقومية الكردية، بينما تلاشى (خويبون) بهدوء بعد فشل التمردات في تركيا في الأعوام ١٩٢٠ و ١٩٣٠.

، وفي آب ١٩٤٤ وُضع أول اتفاق رسمي واضح للقومية الكردية عبر الحدود، لقد كان ذلك عبارة عن معاهدة مكتوبة بين ممثلين عن الأكراد في تركيا والعراق وإيران وقد سُميّ بـ Pemani Se Senur [2] أو ميثاق الحدود الثلاثة ووُقع عليه ؛ جبل دلانبار Dalanpar حيث تلتقي حدود إيران

---

(١) كان القَسم مؤلفاً من ستة بنود وهي ـ كما جاءت في كتاب جمهورية مهاباد (السالف الذكر):
١ـ ألا يخون الشعب الكردي ٢ـ أن يعمل لأجل الحكم الذاتي للكرد ٣ـ أن لا يكشف أي سر شفاهاً أو كتابةً ٤ـ أن يبقى في الحزب حتى الموت ٥ـ أن يعتبر كل الكرد ذكوراً أو إناثاً أخوة له وأخوات ٦ـ أن لا ينتمي إلى حزب أو كتلة أخرى بدون إجازة الكومة لي.
انظر جمهورية مهاباد ص ٧٠ المترجم.

(٢) كذا في الأصل والأصح Peymana Sê Sînor

والعراق وتركيا. لم يكن هذا الميثاق في الحقيقة سوى تفاهم رمزي ولكنهـا أعطـت الشـجاعة للأكـراد الذين كانوا قد تشجعوا من قبل بنشر أول خريطة مدّعيةً إظهـار كـل كردسـتان. واتّخـاذ علـم قومـي كردي ـ مثل العلم الإيراني الثلاثي الألوان معكوساً أي الأحمر والأبيض والأخضـر بـدلاً مـن الأخضـر والأحمر والأبيض. وبذلك أصبح من السهل على الأقل تغيير رموز القوة إذا ماتولى الأكراد السـلطة في شمالي إيران.

كانت بنية المجتمع الكردي في إيران حتى بداية الحرب العالميـة الثانيـة تعتمـد بالدرجـة الأولى على القبيلة والعائلة، أكثر مما كانت عليه الحال في العراق، و لم تكن الدعـوات للتعـاون عـبر الحـدود أو إقامة فدرالية كردية سوى حجج لإقناع القبائل الكردية العراقية أو التركية للإشتراك في العِداءات داخل المجتمع الكردي في إيران. ورغم إن اتفاقية سيفر المجهَضة لم تقدم إمكانيـة الحكـم الذاتـي أو الاسـتقلال لأكراد إيران، فقد شاركوا أكرادَ الامبراطورية العثمانية خيبة أملهم في عـدم التصديـق علـى شـروطها. لقد كانوا مهتمين لأنها حرمت القواد المحليين مـن إمكانيـة تعزيـز سـلطتهم أكـثر مـن أن يكـون ذلـك بسبب الالتزام باستقلال الأمة.

وقد بللور اندلاع الحرب العالمية الثانية ما كان قد حدث من ذي قبل ـ فتم تقسيم إيران فعلياً إلى مناطق سوفيتية وأخرى غربية حيث كانت بريطانيا وأمريكا تسيطران على طهران والجنوب وكـان السوفييت يحتلون الأقاليم الشمالية في أذربيجان وكردستان. لقد كان هَمّ السـوفييت الأول هـو صـون خطوط الإمداد من الخليج إلى الحدود، لذلك كانوا حذرين جداً من فعل أي شـيء لئلا يثيروا عـداوة القبائل التي تقطن تلك المنطقة وبذلك سيعرضون للخطر الطريق التي يتم من خلالها شحن المؤن الحربيـة من الغرب. لقد كان جواسيس الألمان المتمركزين في تركيا نشطين بـين الأكـراد، لكـن الـروس كـانوا مصممين على تجنب أي صرع محلي، وعزموا على ابقاء الأكراد، إلى جانبهم قدر الإمكـان عـن طريـق الديبلوماسية أكثر مما عـن طريـق القـوة. و لهـذا لم تسبب القـوات الكرديـة غـير النظاميـة أيـة صعوبـة للسوفييت، عندما استولت على الأسلحة والذخيرة من الجيش الإيراني المحطم والمتقهقـر، وعندمـا عـاد القواد الأكراد، الذين تم نفيهم من قِبل الزعيم الإيراني رضا شاه، إلى بيوتهم عُوملوا باحترام من جـانب الروس والأكراد على حدٍ سواء. وقد كان الضباط الإيرانيين، الذين بقوا في مواقعهم واثقين بالسوفييت من اجل سلامتهم، غير قادرين على فرض قرارات الحكومة الإيرانية بالقوة، هذه الحكومة التي أصبحت الآن عبارة عن لجنة غير فعّالة وضعيفة تحت القيادة الإسمية لابن رضا شاه العديم الخبرة، محمد رضا ـ أما رضا شاه نفسه فقد عُزل ونفي إلى جنوب أفريقية.

بصرف النظر عن السياسة العامة الهادفة إلى بقاء المناطق الكردية والأذربيجانية هادئة، لم يبدو لدى السوفييت فكرة واضحة عن كيفية التعامل مع المنطقة التي احتلوها، مع عدم ظهور أية علامة تدل على أنهم تحركوا بخطةٍ تمكنهم من الاحتفاظ بشمال إيران بعد الحرب. ولكن كان لدى بعض الضباط السياسيين من الروس فكرة عن مستقبل المنطقة ونتيجةً لنفوذهم دُعيت ثلاثون شخصية قيادية كردية إلى زيارة الاتحاد السوفيتي عام ١٩٤١. كانت هذه الخطوة الأولى لـ (قاضي محمد) على المسرح الدولي الذي أصبح بطلاً للأكراد في كل مكان، كما إنه كان من أوائل شهداء كردستان.

كان القاضي محمد، قاضياً بالمعنى الإسلامي للكلمة، يحسم المسائل حسب الشريعة الاسلامية وينحدر من أسرة يُعترف بأنها الأولى في مهاباد والتي - أي الأسرة - تمدّ المدينة منذ أجيال بالقضاة، لذا فقد ورث منصبه هذا أباً عن جد. لقد تعلم القاضي محمد في المساجد، حيث كانت القراءة والكتابة مقتصرة على حفظ القرآن غيباً، لكنه كان محظوظاً لأن والده كان قادراً على توسيع ثقافته، فقد عاش في بيت حافل بالكثير من الكتب وليس فقط القرآن المتوفر في معظم البيوت. لذلك عندما كبر قاضي محمد لم يكن مطّلعاً على الشريعة فقط بل كان تقدمياً في وجهة نظره ومتفتحاً على الأفكار الجديدة أيضاً. وكان على معرفة باللغتين الانكليزية والروسية اللتين تعلمهما من كتب أعطاها له والده وعن طريق اتصالاته المباشرة مع الزوار لبلدته. لقد كان شخصاً غير متحفظ وهذا لم يقلل من مكانته أو قدره، من حيث الواجب الاجتماعي الذي كان يعتقد أنها نتيجة مَنْبَته. كان محمد فرداً من أسرة مؤلفة من خمسة أشخاص، وقد تزوج متأخراً وله ابن واحد وسبع بنات. إن إحدى المواقف التي تدل على تفكيره الحر هو زواجه من مطلقَة وهو شيء كان يُنظر إليه باستنكار في مجتمع كهذا كما كان ثمة كلام من وراء الكواليس إبان رئاسته للأوقاف، المؤسسة الدينية التي لعبت دوراً هاماً في حياة المدن الإسلامية، حيث وفر المأوى والمساعدة للزوجات المهجورات أو لفتيات نبذتهن العائلة لسبب ما، كما كان بيته ملجأ لرجال يطلبون ملاذاً نتيجة ثأرٍ قبلي.

وللقاضي محمد أخ واحد هو (أبو القاسم صدري قاضي)[1] وابن عم (محمد سيفي قاضي) اللذين صعدا ونزلا معه. كان ابو القاسم نائباً في المجلس بطهران أما محمد حسين فقد كان ضابطاً. وقد أصبح القاضي محمد حاكماً لمهاباد بعد تولي الحلفاء للسلطة في آب ١٩٤١. في البداية تقدم

(١) في كتاب جمهورية مهاباد اسمه عبد القاسم صدري قاضي. المترجم.

الروس جنوباً حتى سنندج، حيث اتصلوا بالبريطانيين ولكن بعد اتفاقيةٍ بين الطرفين سحبت كل دولة قواتها، فتراجع الروس إلى خط شمال مهاباد تماماً، بينما بقي البريطانيون في كرمنشاه التي كان يُعترف بأنها الحد الجنوبي لكردستان إيران. كان الضباط السياسيون من كلا الطرفين يعملون بين هذين المكانين بالإضافة إلى البعثات التجارية والدبلوماسية، ولكن في غضون عدة أشهر بدأت تظهر إلى الوجود مناطق نفوذ واضحة حيث كانت مهاباد ضمن المنطقة السوفيتية. وفي نفس الوقت كان نفوذ طهران، حيث كان محمد رضا شاه قد تسلّم السلطة من والده المخلوع، يتناقص شيئاً فشيئاً عندما بدأ الجيش الإيراني بالتفسخ. في هذا الفراغ الذي نجم عن ذلك نصب الزعماء المحليون أنفسهم إما حكاماً أو قواداً أو كانوا قد أُقنعوا من قِبل المواطنين في المدن أو المقاطعات لتمثيلهم، وفي حالة قاضي محمد لم يكن هناك أدنى شك على الأطلاق بأنه المواطن المحلي الأبرر حيث كان محبوباً من الشعب. لقد أصبح في الواقع حاكماً لمهاباد وقادراً، بموافقة الأهالي، على الحفاظ على الأمن في المدينة رغم إنه لم يستطع السيطرة على القبائل التي عادت بالريف في الحال خمسين سنة إلى الوراء، حيث بدأ الأكراد بممارسة أساليبهم العشائرية القديمة مثل القتال ضد بعضهم البعض وفرض المكوس [الضرائب] على كل المسافرين والبضائع التي تمر عبر تلك الطرق والعيش بترف على حساب الفلاحين والمزارعين الفقراء. ولم تستطع الحكومة الإيرانية، التي لا تزال تحتفظ بضباطها في كل مدن الشمال، أن تفعل شيئاً إذ كان الروس سيمنعون دخول وحدات الجيش الإيراني إلى المنطقة.

وهكذا كان قاضي محمد ـ كقائد يأمل الروس بالاعتماد عليه لحفظ النظام ـ واحداً من بين مجموعة مؤلفة من حوالي ثلاثين شخصاً تمت دعوتهم لزيارة باكو و ذلك ليختبروا نمط الحياة السوفيتية وربما للتفاوض من أجل علاقة رسمية بين الأكراد والمحتلين. لقد كان رجاء الأكراد الرئيسي — إذ أنهم لم يكونوا في موقع يسمح لهم بالمطالبة ـ هو أن يُسمح لهم بالاحتفاظ بالذخيرة والأسلحة الخفيفة التي استولوا عليها من الجيش الإيراني المتقهقر بالإضافة إلى حديث غامض حول ((حرية الأكراد في تصريف شؤونهم القومية)) والأمل في أن تستعمل اللغة الكردية في كل مراحل الدراسة. وركزّ الروس من جانبهم على ضرورة المحافظة على الأمن والسلم في المنطقة، و وجوب احترام سلطة الحكومة في طهران ولكنهم كانوا مهتمين أكثر من أي شيء آخر بوصول مبعوثيهم آمنين.

إن الموقف السوفيتي المتناقض عموماً تجاه الأكراد، شجّع تنامي الشعور القومي لديهم وكثفت الكوملة من جهودها في التجنيد والتطويع وفي عام ١٩٤٤ أقنعت القاضي محمد بقرار الموافقة على الاشتراك في حفل شاهده أكثر من مائة شخص. لقد كانت الأحداث في أذربيجان المجاورة تدفع

الأكراد للتفكير في حكمهم الذاتي الخاص، حيث كانت كل الدلائل تشير بأن الروس يعمدون إلى استخدام المنطقة لمدّ نفوذهم إلى إيران إذا ما أُجبروا على الانسحاب ــ حيث كانت المعاهدة الثلاثية التي وضعت الأسس القانونية ووقعت عليها بريطانيا وإيران والاتحاد السوفيتي في التاسع والعشرين من كانون الثاني ١٩٤٢، تشترط اجلاء الجيوش الحليفة عن إيران في موعد أقصاه ستة أشهر بعد انتهاء الحرب. وفي عام ١٩٤٥ عزّز الروس مشاعر الاذربيجانيين القومية بإرسال ساسة محنكين من حزب العمال من أذربيجان السوفيتية الذين استغلوا تذمر الأهالي من حكومة طهران بسبب إهمالهم لمنطقتهم.

في أيلول ١٩٤٥ دُعي وفد كردي مرةً أخرى لزيارة الاتحاد السوفيتي، حيث تم اختيار اعضائه وقيادته رسمياً من قِبل قاضي محمد الذي فهم بوضوح أن الغرض من الزيارة هو لمناقشة مستقبل كردستان إيران. كان الموقف السوفييتي أولاً هو أن تكون كردستان أقليماً من أذربيجان، إذا ما قُدّر لتلك الدولة أن تقوم، فرفض قاضي محمد ورفاقه ذلك الاقتراح على الفور، وقد بدت السرعة التي قَبِل فيها السوفييت قيام كردستان مستقلة دليلاً على أنهم قد توّقعوا ذلك منذ البداية. فانتقلوا بسرعة إلى الأمور العملية التي عرّفها الأكراد بوسائل الدفاع عن دولتهم الجديدة وجعلها مزدهرة ــ بكلمة أخرى الدعم المادي والأسلحة[1].

فوعَد السوفييت بعبارات عامة إن المال آتٍ قريباً، لكنهم كانوا أكثر وضوحاً حول مسألة الأسلحة، وإن بدا عليهم الاهتمام الشديد في تمكين الأكراد بإقامة النظام السياسي الذي يريدونه. حيث كان الحزب الديمقراطي الكردستاني مُعَداً كمنظمة أمامية تسمح بالسيطرة السوفيتية على أقليمٍ إيراني ثانٍ [كردستان] وقد ردّ الأكراد بغموض مثل الروس.

---

(١) يجدر بنا أن نذكر هذه القصة الطريفة التي رواها قاضي محمد لـ (باقروف) رئيس وزراء أذربيجان السوفيتية، نقلاً عن ايغلتن: ((أهدى الآغا كلباً سلوقياً أصيلاً لقروي فقير فذهب في اليوم التالي إلى الآغا وراح يبالغ في شكره ويُبدي سروره بالهدية بكثير من عبارات التملق والمداهنة، فعجب الآغا لحالته وسأله لماذا صار يشعر بهذا الامتنان العظيم لهدية بسيطة؟ فأجاب القروي: ((مادمت أعطيتني كلب صيد، فلابد وأنك قررت أيضاً اعطائي حصاناً أركبه في القنص وبعد الحصان لابد وأنك ستؤمن له العلف، ثم المسكن للحصان وصاحبه بطبيعة الحال، ولذلك تراني أكثر الناس رضىً.)) "[ووضّح القاضي محمد قصدهُ] .. إنه مادام الكرد قد وُعدوا بحكومة ذاتية فهم يتوقعون الحصول على الوسائل المادية الضرورية للدفاع عنها. المترجم.

وفي النهاية كانت هناك نتائج مادية ملموسة: فقد وافق السوفييت على تزويدهم بمطبعة ودبابات ومدافع ورشاشات وبنادق كما وعدوا بتخصيص مقاعد للطلاب الأكراد في الأكاديميات السوفيتية العسكرية. وكان هذا كافياً لدفع الأكراد لإتخاذ قرارهم المهلك أي محاولة الحصول على الاستقلال. وحتى ذلك الحين كان قاضي محمد الحذِر يريد أن يضبط الموقف لكنه أُجبر على أن يباشر بالعمل، ومن أجل ذلك عندما هاجم حشد من الناس مخفر للشرطة، أحد آخر الرموز الباقية للسلطة الإيرانية، وكانوا على وشك اشعال النيران بدائرة العدل المحلية، أقنعهم القاضي محمد في النهاية بالاكتفاء بتهديم الرمز الامبراطوري الذي كانت يزيّن المبنى. وقد شجعهم على ذلك أيضاً أذربيجان التي أعلنت عن نفسها جمهورية متمتعة بالحكم الذاتي ضمن إطار إيران في كانون الأول من عام ١٩٤٥، بعد أن صد السوفيتيين كتيبتين أرسلتهما طهران لإعادة النظام إلى المنطقة. ولكن بناءً على نصيحة من السوفييت لم يُعلن الأذربيجانيون أبداً الاستقلال رسمياً، وبالتالي كانوا يمارسون قانونياً الحقوق الممنوحة في الدستور الإيراني. ولكن بإصدار سلسلة من القرارات الرسمية حول تأميم البنوك – وتوزيع الأراضي، وإعلان اللغة التركية لغة الثقافة والتعليم وكل المعاملات الرسمية، كان الأذربيجانيون يتفوقون بالممارسة على الأكراد. وكان هناك أيضاً مزيد من العنف حيث هوجمت مراكز الشرطة والدرك، وبنهاية السنة أُجبر كل ممثلي الحكومة المركزية على الفرار، وقطعت كلياً جميع الروابط مع طهران.

ربما كان قاضي محمد يريد تماماً تلافي هذا العنف الذي بدا للأكراد بانه بوحي من السوفييت عندما اعلنوا الاستقلال. كان الإعلان الرسمي عن جمهورية كردستان في الثاني والعشرين من كانون الثاني في ساحة جارجرا (جوارجرا) في وسط مدينة مهاباد عند ملتقى الطريقين الوحيدين المعبدين. ألقى قاضي محمد خطاباً قصيراً على حشد من أهالي المدينة وممثلي القبائل، تحدث فيها عن الأكراد كشعب قائم بذاته، وعن حقهم في تقرير المصير، وعن المساعدة التي تلقوها من أصدقاء أقوياء. وقد كان ضابط الاتصال، الجنرال يرماكوف Yermakov، الذي أتى من تبريز يراقب من سيارته الجيب الواقفة على مقربة من هناك.

بعد ذلك بشهر تلا قاضي محمد القَسَمْ كرئيس للجمهورية، وعَيَّن عشرة من أعضاء اللجنة المركزية في كوملة كوزراء[1]، بمن فيهم محمد حسين الذي عُيِّن وزيراً للحرب، وعُيِّن صيدلي درّب

القائمة الكاملة بأعضاء حكومة مهاباد: حاجي بابا شيخ رئيساً للوزراء ــ محمد حسين سيفي قاضي وزيراً للحرب، وكان كذلك مساعداً أو نائباً لرئيس الجمهورية، مناف كريمي وزيراً للتعليم و مساعداً خاصاً لرئيس الجمهورية، محمد أمين معيني المهابادي وزيراً للداخلية، سيد محمد أيوبيان وزيراً للصحة، عبد الرحمن ايلخانزاده، وزيراً للمواصلات، ++

نفسه وهذبّها وزيراً للصحة، كما عُيّن وزيراً للزراعة شاب درس عدة سنوات في كلية الزراعة. لقد أُرسل المبعوثون إلى كل أجزاء كردستان إيران التي يمكن الوصول إليها لدعوة الموالين للجمهورية الناشئة، ولكن لم تُبذل الجهود لجذب اهتمام الأكراد في كردستان الكبرى في العراق وتركيا أو في أي مكان آخر. كذلك لم تكن هناك أية جهود لإيصال أوامر جمهورية مهاباد إلى المناطق القبلية، بدلاً من ذلك اعتمد قاضي محمد على الزعماء القبليين لحفظ النظام هناك، معتقداً أن علاقاته الطيبة معهم كفيلة بأن يفعلوا ذلك.

ولكن لم تكن الأمور في أذربيجان أوكردستان هي التي تحدد المستقبل بل ما كان يجري في العواصم العالمية والأمم المتحدة التي تشكلت حديثاً. لقد كان الوضع في شمالي إيران أول مواجهة في الحرب الباردة، وقد فضّل السوفييت هذه المرة المصالح التجارية أكثر من الأيديولوجية وقد بدأ التضارب عندما اشتكت إيران إلى الأمم المتحدة بأن السوفييت لا يظهرون أية بوادر بالانسحاب في المدة التي اتفق عليها في المعاهدة الثلاثية، وبدلاً من ذلك يعززون تواجدهم وخاصة في أذربيجان. فأبدى البريطانيون ثم الأمريكيون ثم مجلس الأمن في الأمم المتحدة قلقهم وسلّموا مذكرات رسمية إلى موسكو حتى تراجع السوفييت فجأةً في السادس والعشرين من آذار ١٩٤٦، إذ أعلن وزير الخارجية أندريه غروميكو بأن القوات السوفيتية ستغادر إيران بحلول السادس من أيار. وبعد شهر وقع رئيس وزراء إيران (قوام سلطان) والسفير السوفيتي آي . حي ساد جيكوف I.G.Sadchikov على اتفاقية في طهران لتأسيس شركة نفط إيرانية ـ سوفيتية مشتركة، وهكذا تخلوا عن الأكراد والأذربيجانيين من أجل إمكانية الحصول على امتيازات نفطية جديدة [٢].

كان هذا واضحاً لكل الإيرانيين عدا الأكراد والاذربيجان الذين كانوا يعتقدون بأن السوفييت سوف يمنعون قوات الحكومة التي أُرسلت ضدهم ـ إذ كانت الحكومة السوفيتية قد حذرت

+++ أحمد ألهي وزيراً للاقتصاد، خليل خسروي وزيراً للعمل، كريم أحمد يان وزيراً للتلفون والبرق، وحاجي مصطفى داودي وزيراً للتجارة، وكان ملا حسين مجدي وزيراً للعدل، وأخيراً محمد ولي زاده وزيراً للزراعة وكان أصغر أعضاء الوزارة (٢٣) سنة.

انظر: جمهورية مهاباد ص ١٢٦ المترجم

(١) ليس الأمر بهذه البساطة فالانسحاب من شمال إيران كان أمراً لا مفر منه ضمن المعادلات التي حكمت علاقات السوفييت بالحلفاء الغربيين إبان الحرب، وليس في القضية تواطؤ أو غدر (هـ . ع).

طهران بأنها لـن تسـمح بـالقلاقل علـى حدودهـا ـ وهـذا مـا فُسـر في اذربيجـان و كردسـتان كتعهدٍ باستعمال القوة ضد تدخل الجيش الإيراني في أيٍ من الأقليمين. كان الساسة في طهـران يفكـرون ملياً بالوقائع المتصلة بالتدخل الغربي أو الروسي في وطنهم، وطالبوا بقوة مساندةٍ الغرب، بينمـا كـان ممثلو الروس في حزب تودة، الحزب الشيوعي الإيراني، يحاولون تنظيم معارضة فعّالة للقيـام بـاضراب موجه ضد الشركة الانجلو ـ إيرانية للنفط. لمواجهة ذلك قامت الحكومة المخادعة في طهران بإثارة الخصومات القديمة، وهكذا حدثت انتفاضة عشائرية ((عفوية)) ضد حزب تودة ومؤيديـه، بينمـا أرسـلت بريطانيا جنودها إلى البصرة في الجانب الآخر من الحدود مع العراق.

وبعد أشهر من المساومات استسلم الأذربيجانيون،حيث عادت أذربيجان إلى الدولة الإيرانيـة ـ واعتُبر مجلسها القومي كمجلس أقليمي ـ وقد تم تعيين جنرال ـ حاكم من قِبل الحكومة المركزيـة مـن بين قائمة قدمتها أذربيجان، وبدأت حكومـة طهـران تنشـر الشـرطة والـدرك لمراقبـة انتخـاب النـواب للمجلس في طهران. وفي الثالث عشر من حزيران ١٩٤٦ انتهى كـل شـيء بخصـوص أذربيجـان. وفي آب ـ وبكفالة سوفيتية لضمان جواز المرور ـ ذهب قـاضي محمـد إلى طهـران ليرى فيمـا إذا كـان مـن الممكن التفاوض حول شيء مماثل، لكنه فشل. ومرة أخرى عندما سافر الممثل الإيراني إلى الشمال بقي الأكراد مصرّين بأنّهم لن يلقوا الأسلحة التي استولوا عليها من القوات الإيرانية.

لو تُرك الأكراد لوحدهم، لربما توصلوا إلى تسوية مع طهران، لكنهم كانوا لا يزالون مدينين بالفضل للروس والاتحاد السوفيتي، الذي كان قد حُرِم من أذربيجان وظلت لديه الورقـة الكرديـة فقـط ليلعب بها في إيران. ومهما تكن رغباتهم الخاصة، فقد وجد الأكراد أنفسهم في هذا الوضع مكرهين.

وفي الثـالث عشـر مـن كـانون الأول دخلـت وحـدات الجيـش الإيرانـي الأولى إلى العاصمـة الأذربيجانية، تبريز، بينما انقلبت عامة الناس على المؤيدين و الشيوعيين الذين كانوا في السـلطة خـلال السنوات الماضية. وفي مهاباد استعدّ عددٌ من الموظفين البارزين للفرار شمالاً، لكن قاضي محمد أعلن أنه سوف يبقى فالعُرف الكردي يقضي بالقتال إذا كان ممكناً وبالاستسلام إذا لم يكـن ذلـك ممكنـاً. وفي اليوم التالي توجهت مجموعة من المواطنـين المهابـاديين، الذيـن لم يكونـوا متحمسـين كثـيراً للجمهوريـة المستقلة، إلى مياندواب للاستسلام للجنرال همايوني. وقد وجدت المجموعـة همـايوني في مـزاج طيـب متسامح، فعادوا إلى مهاباد لينصحوا الآخرين بأن يستسلموا للقائد الإيراني. وبعد يومين ذهـب قـاضي محمد مع سيفي قاضي وحاجي بابا، الذي كان رئيساً للوزراء، بالإضافـة إلى عـدد آخـر مـن المواطنـين للاستسلام. لقد كانت تلك نهاية الدولة الكردية المستقلة الوحيدة في العصور الحديثة.

لكنها لم تكن النهاية لأولئك الذين دافعوا عنها، ونعني بهم عملياً مقاتلي عشيرة برزان بقيادة زعيمهم الأسطوري ملا مصطفى. إن إحدى سخريات القدر في التاريخ الكردي هو أن النخبة المثقفة من الأكراد هي التي كانت تحلم دائماً بالحرية، وبدولة خاصة بهم، وبكردستان تتجاوز الحدود، ومع ذلك كانت القبائل هي التي لديها القوة الحقيقية دائماً، والقدرة على تغيير الأحوال، وكان هناك عداء دائم بين الطرفين. وربما يكون هذا سبباً آخر لعدم وجود كردستان حتى الآن. ولكن ربما يكون رجال من تلك المنطقة الصغيرة على نهر الزاب الكبير شمالي أربيل قد لعبوا دوراً رئيسياً طوال كل هذه السنوات العاصفة من هذا القرن. صحيحٌ أن البرزانيين ليسوا أكبر عشائر شمالي العراق، ولا أغناها، لكنهم كانوا ذوي تأثير أكبر من الجميع تقريباً، ويعود ذلك في جزء هام إلى صفاتهم القتالية التي عُلّق عليها من قِبل الكثير من الخاسرين الكثيبين.

إن البرزانيين خلاصةُ شعب جبلي شجاع، رُعاةٌ ينقلون قطعانهم إلى الوديان أو الجبال بحسب فصول السنة، ونظراً لعزلة موطنهم الأصلي فهم لا يعرفون سوى السلاسل الجبلية والأنهار التي تحيط بهم. انهم غير راغبين في أن يتحولوا إلى مزارعين رغم خصوبة أراضيهم. إنهم أناس عنيدون و مقتصدون[1] ولم تمسهم لعقود تلك التغييرات التي طرأت على المدن وهم مطيعون تماماً لزعمائهم، وذلك لأن السلطة القبلية مرتبطة، إلى حد كبير، بالسلطة الدينية. ففي القرن التاسع عشر قام السيد طه الشمزيني شمالاً وأهدى شيوخ البرزانيين إلى الطريقة الصوفية النقشبندية، وهي واحدة من أعظم مجموعات الدراويش في الإسلام، وهو ولاء ظلَّ حياً ينتقل من جيل إلى آخر، وهكذا تعززت السلطة الطبيعية لكل الشيوخ. يُضاف إلى تلك الميزات ـ وربما العيوب ـ أن البرزانيين كان لديهم نفورٌ فطري من قبول أية سلطة خارجية[2] وقد قادهم استقلالهم الشديد هذا إلى أن يدخلوا في معارك مع الحكومات المركزية، العثمانية والبريطانية والعراقية، بالإضافة إلى القبائل المجاورة وهذا بدوره أدى بزعمائهم إلى التمرد والنفي والسجن.

---

(١) يقول ايغلتن " ... أما الرز ولحم الغنم والبقر والدجاج فهي للقلة المتمكنة منها. وتعّد من نفيس الآكال وترفها..." انظر جمهورية مهاباد ص ٩٨ ـ ٩٩ المترجم

(٢) تشترك الأكراد مع العرب في هذا النفور من السلطة، وهو اللقاحية عند العرب الجاهليين وتعني عدم الإذعان للملوك وقد لعبت دوراً كبيراً في أحداث صدر الاسلام والدولة الاموية (هـ . ع)

وهكذا، بينما كانت حكومة بغداد تعجّل لإنهاء الانتداب البريطاني بتلّهف لبسط سلطتها على المناطق القبلية، أرسلت حملة عسكرية عام ١٩٣٠ ضد البرزانيين العنيدين. وكالعادة نصب المقاتلون القبليون المحنكون الكمائن وتمكنوا من هزيمة الجنود غير المتحمسين الذين تم تجنيدهم إلزامياً من السهول ولم يكن لديهم أي سبب أو رغبة في قتال الأكراد. ولكن تغيّر الوضع الآن، فبإمتلاك الحكومة المركزية للسلاح الجوي صار رجال القبيلة عاجزين عن ايجاد وسيلة لمقاومتها، وهكذا تم قصف البرزانيين بقصد الخضوع، واستطاعت من ثم قوة عراقية جديدة الوصول إلى قرية برزان الصغيرة، مجبرةً زعيم القبيلة الشيخ أحمد للفرار إلى تركيا. حيث قُبض عليه هناك وسُلّم إلى العراقيين الذين وضعوه تحت الإقامة الجبرية في مدينة السليمانية. كان معه شقيقه الصغير ملا مصطفى، الذي قدّر له أن يكون أشهر قائد كردي على الإطلاق في العصور الحديثة.

لم يحظَ ملا مصطفى، مثل معظم أبناء جيله من التعليم بغير ذلك الذي تلقاه في مدرسة القرية مع تأكيد [هذا التعليم] على القرآن. وربما لهذا السبب كان يكّن احتراماً شديداً للمفكرين، أو لأي شخص أكثر ثقافة منه. لكنه، مع ذلك، كان يتميز بالكثير من الصفات التي لا يوجد مثلها في المثقفين، فقد كان مقاتلاً شجاعاً إلى حد التهوّر و الطيش، وبارعاً في التكتيك الحربي ولم يستمر [بالعيش] في وضع لا يُطاق. لقد كان حريصاً جداً على حياة رجاله وهذا ما سهّل عملية التجنيد عند الضرورة وعلاوة على ذلك فقد كان دبلوماسياً ماكراً ومتمرساً جيداً في فنون الخداع والتمويه، وكانت هذه الصفات جزءاً لا يتجزء من العداءات القبلية التي كانت تقريباً تشكل هوايةً لدى الزعماء الأكراد.

لم يكن البرزاني، وهو مُبعَدٌ بمدينة السليمانية، قادراً أن يعيش الحياة الحرة و المنفتحة التي اعتاد عليها، ولذلك قرر الفرار. وقد نفّذ ذلك فعلاً في عام ١٩٤٣ فعبر الحدود إلى ايران وبعد ذلك عاد إلى مسقط رأسه في العراق على بعد ١٢٠ ميل فقط من شمال غرب السليمانية. فور عودته إلى برزان كان محطّ الأنظار ليس لأبناء قبيلته فحسب، بل أيضاً لشيوخ القبائل الصغيرة المجاورة حيث كان الجميع متلهفين لاستغلال الوضع الاقليمي والدولي المعقّد لصالحهم. كانت الحكومة في بغداد مخذولة بسبب فرار البرزاني وتحديه السافر للسلطة عند عودته، فإرتكبت خطأً بإرسال حملة تأديبية ضده، وقد مُنيت بهزيمة شنيعة، ولم يكن لدى البريطانيين في حينه لا الطائرات ولا الرغبة لمساندة السلطة الضعيفة في بغداد، فقرر نوري السعيد سلوك سبيل التفاوض، مما أدى إلى تقوية موقف البرزاني وتصلبه. لقد فشلت المحادثات، وفشلت الحكومة أيضاً وكانت النتيجة أن أصبح ملا مصطفى حاكماً على معظم كردستان العراق.

وقد تحسّن موقفه أكثر سنة ١٩٤٥ عندما أعلنت حكومة بغداد عن عفو عام ألغت بموجبه سِجّل أولئك الذين اشتركوا في التمرد قبل عام ١٩٤٤. لكن الملا مصطفى حاول هذه المرة أن يفعل أكثر مما يقدر عليه: لقد أصابه الغرور نتيجة نجاحه السابق، وربما أثرت عليه أيضاً مداهنات القوميين الأكراد الذين كانوا نشيطين بشكل زائد و كانوا متلهفين لكسب قائدٍ مشهور كالبرزاني إلى جانبهم. من أجل هذا كله استمر ملا مصطفى في رفضه قبول سلطة بغداد، وعندما أثارت الغارات المحلية ردة فعل قوية في الجانب العراقي، أعلن ملا مصطفى عن تمرد شامل. لكن الظروف تغيرت الآن، فقد أصبح للعراق سلاحه الجوي الخاص به لاستخدامه ضد المتمردين، واستغلت الحكومة المحنكة في بغداد الأحقاد الكردية القديمة وذلك بدعم أعداء البرزانيين الكُثُر، لذا كان ينبغي على ملا مصطفى أن يحارب دائماً على أكثر من جبهة.

وتحت الضغط المتزايد أُجبر البرزانيون على التراجع صوب الجهة الوحيدة التي يمكن الدخول إليها: إيران. وعندما ابتعدوا عن موطنهم سمعوا المزيد عن مكانٍ بدا وكأنه سوف يؤمن لهم ملاذاً آمناً، مكانٌ خالٍ من الإيرانيين أو السوفييت أو القوات المتحالفة، إنها مهاباد.

في تشرين الأول من عام ١٩٤٥ وصل ملا مصطفى إلى المدينة وأقام معسكراً في التلال الواقعة إلى الشمال من مهاباد، وكان معه شقيقه الأكبر أحمد، المرشد الروحي للبرزانيين، والذي تم تحريره من الاعتقال، بالإضافة إلى نحو عشرة آلاف شخص بينهم نساء وأطفال. كان هناك حوالي ثلاثة آلاف مقاتل، وكان أقل من نصفهم برزانيين أما البقية فقد كانوا من عشائر أخرى ربطوا مصيرهم بملا مصطفى عندما دخل العراقيون وحلفائهم القبليون إلى كردستان. ذهب ملا مصطفى لرؤية قاضي محمد وقد قيل إنه تأثر كثيراً بثقافة ووطنية وتقوى قائد مهاباد، وهو ما لم يلاحظه اتباعه بشكل خاص. وتعهد البرزاني بأنه ورجاله سوف يذودون عن قضية الحرية للشعب الكردي، وتعهَّد بشكل خاص الدفاع عن مهاباد، معتقداً بأن هذا سوف يؤدي بالتأكيد إلى تزويد رجاله بالأسلحة، ربما الثقيلة منها، وكذلك إلى مزيد من الدعم المادي من السوفييت.

ورغم الأساطير التي حيكت منذ ذلك الوقت، كانت العلاقة عبارة عن ريبة متبادلة، فقد كانت حكومة مهاباد تحاول إبقاء البرازنيين خارج المدينة، وتشكيل قوة لتوازنهم عند الحاجة، بينما كان البرزانيون مرتابين في قدرات ودوافع سكان المدينة. وقد ظهر هذا الالتفاف واضحاً عندما أقامت حكومة مهاباد جيشها الخاص بجندةً سكان المدينة والقرى المحيطة غير الأكفاء، ولم تبذل أي جهد لضم

المقاتلين الأشداء من القبائل الأخرى. ومع ذلك فقد مُنح كل الزعماء القبليين رُتباً في هذا الجيش الموقت، وحتى إلى يوم مماته، كان ملا مصطفى يستعمل بتباه لقب الجنرال الذي مُنح له.

في جنوبِ مهاباد، كان الإيرانيون لا يزالون يحتفظون بمواقع عسكرية أو بمراكز للشرطة في عدد من القرى وخاصةً في سَردَشت القريبة من الحدود. وقد هاجمت بعض الوحدات القبلية، المتلهفة للمعركة وللغنائم، هذه المخافر الأمامية الإيرانية وتم صدّهم، وأرسلت إيران على الفور مزيداً من الجنود لتعزيز سَردشت. ومع ذلك أبقت الحكومة [الكردية] البرزانيين في شمالي مهاباد لعدة أشهر، فقد كانت اذربيجان تُعتبر مصدر تهديد أكثر من الإيرانيين وبالرغم من كل المحادثات بشأن التعاون الأخوي، كان الأكراد قلقين حول ما يمكن أن يحدث في حال انسحاب السوفييت من أذربيجان أكثر من قلقهم من أي هجوم قد يشنه الإيرانيون.

وفي ربيع ١٩٤٦ قدّر الخطر الحقيقي حق قدره عندما أُعطي البرزانيون أفضل الأسلحة التي سلمها لهم الروس وأُرسلوا إلى الجنوب لمواجهة أقرب حامية إيرانية في ساقز. وكانت هذه فرصة رجال القبائل لتسجيل نصر كبير، فقبلوا بسرور ذلك التحدي، فقد سبق للإيرانيين الذين تم تسليحهم بشكل جيد أن صرحوا: بأنهم سوف يتقدمون شمالاً من ساقز ليثبتوا سيطرة الحكومة على المنطقة. و بأعلام مرفرفة ورجالٍ يلهون، تحرك حوالي ستمائة جندي في الوقت المناسب على طول الطريق شمالاً إلى مياندواب، لقد كان الهجوم هديةً للأكراد المسرورين دائماً لنصب الكمائن لأعداء غير متوقعين. وفي قرية قهراوة هاجم الأكراد الطابور الزاحف، فقتلوا واحداً وعشرين رجلاً وجرحوا سبعة عشر وأخذوا أربعين رجلاً أسرى، وفرّ البقية إلى ساقز. لقد كان ذلك بسبب خطأ شنيع من القائد الإيراني، العقيد كسرى، أكثر من أن يكون نصراً للبرزانيين، لكن ذلك الاشتباك الصغير أصبح بسرعة، في الأسطورة القبلية، معركة ملحمية وبدأ رجال القبائل يستبدون ببيروقراطي المدينة،وقد شجّعهم ذلك على مزيد من العمل فوضعوا خطةً للتحرك جنوباً ((وتحرير)) كل كردستان بالقوة حتى كرمنشاه.

في هذه الأثناء شغل البرزانيون مكاناً كانوا يتقنصون من خلاله المارة على طريق ساقز إلى بانه وسردشت وجعلوا الحياة صعبة للحامية العسكرية المنحّلة الأخلاق في ساقز، لكنهم لم يكونوا يعلمون بان الإيرانيين قد زُودوا بالأسلحة والعتاد لتمكين الحامية من التحرك إلى خارج المدينة. ولكن لم يكن التقدم في هذه المرة دعايةً بل هجوماً ضيق النطاق وحسنَ التنفيذ، ويهدف إلى الاستيلاء على جبل مامه شاه الذي كان تحت سيطرة الأكراد حيث كانوا يطلون منه على ساقز ويشنون غاراتهم المتكررة على العدو. وفي معركة دامت نهاراً بأكمله استولى الإيرانيون على الجبل وأجبروا المدافعين

عنه على الفرار، وقد أدّعى كلا الطرفين النصرَ، فقد كان الإيرانيون يعتبرونه نصراً لأنهم حققوا هدفهم، واعتبره الأكراد نصراً لهم لأنهم فقدوا رجلاً واجداً بينما أصابوا وقتلوا نحو أربعين جندياً من المهاجمين.

ونتيجة تحمسهم لانتصاريهما السابقين ـ كما اعتبروهما ـ استعدّ البرزانيون وحلفاؤهم للقيام بالهجوم الكبير، الذي تم التخطيط له، وذلك بالزّحفْ جنوباً حتى كرمنشاه، مجبرينَ الأيرانيين على الفرار، وبعد ذلك الانضمام مع القبائل الجنوبية حيث سيوّحدون كل كردستان إيران تحت قيادة قاضي محمد. ربما كان البرزانيون، بسبب الروح القتالية الكردية من جهة، وضعف معنويات الجنود الإيرانيين من جهة أخرى، قادرين تماماً على إنجاز ذلك المخطط، ولكن لم يُسمح لهم حتى بالمحاولة. فقد رفض الروس الفكرة من أساسها بسبب حرصهم على امتيازاتهم النفطية في إيران التي أعقبت التسوية الأذربيجانية مع طهران، وحذروهم بأن أي ضغط كردي قد يدخلهم في منطقة النفوذ البريطاني، وهذا سيُدخلهم بدوره إلى المواجهة مع قوة أكثر فعاليّة. أراد بعض الزعماء الأكراد تجاهل هذا التحذير الروسي، بينما وجده آخرون مبرراً كافياً لعدم القتال، وأراد آخرون الاستسلام والخضوع للحكومة الإيرانية. وقد وافق قاضي محمد على الهدنة مما فسح المجال للإيرانيين بتعزيز مواقعهم العسكرية المختلفة، بينما استمرت المفاوضات المتقطعة من أجل تسوية دائمة. وبدأ الكثير من المقاتلين العشائريين ـ حيث لم يعد هناك مبرر لوجودهم طالما أنهم لن يفعلوا شيئاً ـ بالرجوع إلى الشمال مع أن البرزانيين ورغم بعدهم عن منطقتهم الأصلية، ظلوا مرابطين على السلسلة المطلة على ساقز.

وفي آب ١٩٤٦ سافر قاضي محمد إلى طهران للتفاوض من أجل صيغةٍ للحكم الذاتي ضمن إطار إيران. ولكن بسبب حرمانهم من الدعم السوفيتي، لم يتم إحراز أي تقدم، لهذا كان الاستسلام هو السبيل الوحيد أمامهم. ولم يتم ذلك إلا في كانون الأول عندما دخلت القوات الإيرانية إلى مهاباد من الشمال والشرق. في هذه الأثناء احتشد البرزانيون قرب (نغَدة) شمال ـ غربي البلدة فأخذوا معهم أفضل الأسلحة من مستودع أسلحة الجمهورية القصيرة الأجل وقد كانت ـ هذه الأسلحة ـ عبارة عن ثلاثة آلاف بندقية ومائة وعشرين مدفعاً رشاشاً ومدفعي ميدان بالإضافة إلى عدد كبير من الرمانات اليدوية. كان القواد الإيرانيون مدركين بأنه ليس هناك أمل في تهدئة المنطقة ونزع أسلحة القبائل المحلية طالما بقي البرزانيون هناك، لكنهم كانوا يدركون أيضاً أن القوات الإيرانية المتواجدة هناك لا تستطيع أن تُلقي القبض على ملا مصطفى. ومرة أخرى، تم إعداد هدنة، فرحل ملا مصطفى وأعوانه الرئيسيين إلى طهران حيث تم استضافتهم لمدة شهر في نادٍ للضباط بينما كانوا يحاولون ايجاد حل دائم لوضعهم.

في البداية طلبوا ضمانان من أجل سلامة عودتهم إلى مواطنهم القبلية في العراق، ثم درسوا الخطة الإيرانية القاضية بإعادة توطينهم في منطقة همدان في الزاوية الشمالية ـ الغربية[1] من إيران.

ولكن في (نغَدة) كان الشيخ أحمد مصمماً على العودة إلى مسقط رأسه بينما لم يكن لدى ملا مصطفى أية رغبة في العيش بين القبائل المعادية في شمال غربي إيران، لذلك رفض قاعدة نفوذه المحلي في تلك المنطقة. في ذلك الوقت لم يكن البرزاني قادراً على التحرك في منتصف الشتاء حيث تكون الطرق مغلقة بسبب الثلوج، كما إنه كان قلقاً مما يمكن أن تفعله القوات العراقية في حال عودته ـ ولقد كان البرزاني بإيران في ذلك الوقت في وضع سيء كما كان في العراق ــ التي تركها كمتمرد بعد أن أجبرته القوات العراقية المتطورة على ذلك. لقد كان التأجيل بحكم الوقت. لهذا لجأ القواد القبليون إلى التسويف حتى شهر آذار، حيث تبدأ الثلوج بالذوبان. بعد ذلك تحركوا باتجاه الشمال، لكنهم كانوا محرومين من فرص النجاة حيث وقعت مشاجرة بعد أن طلبت مجموعة متقدمة من البرزانيين من العشيرة التي كانوا يمرون عبر أراضيها بتسليم أسلحتهم فأطلق أحد البرزانيين النار من بندقيته الآلية وأردى أحد عشر محارباً من تلك القبيلة قتلى. بعد ذلك وفي الرابع عشر من آذار من عام ١٩٤٧ شنّ الإيرانيون، بدعمٍ من بعض القبائل المحلية، هجوماً شاملاً على قوات ملا مصطفى ومع ذلك لم ينجح الإيرانيون، فقد استطاع البرزانيون الذين كانوا معتادين على القتال في تضاريس مثل هذه، على شنّ الغارات بل وصدّ الإيرانيين في عدة معارك نموذجية صغيرة. ومع ذلك فقد كان الضغط مستمراً وأُجبر البرزانيون، تدريجياً على التقهقر نحو الحدود العراقية حيث كان الجنود الذين أرسلتهم حكومة بغداد بانتظارهم. و مما زاد في شقائهم أن طائرات من سلاح الجو الإيراني كانت تقصف بشكل منظم مواقع البرزانيين وتقتل بذلك النساء والأطفال أكثر من قتلها للمحاربين.

أما الشيخ أحمد الذي تعب من الترحالِ بعيداً عن مسقط رأسه، حيث عاش بين القتال والمناورة، فقد رتّب تسليم الأسرى الذين وقعوا في قبضة البرزانيين، بعد ذلك في نيسان ١٩٤٧ قاد حشد العشيرة، نساءً وأطفالاً عبر الحدود إلى العراق فاستسلم مع القواد اللذين كانوا معه إلى السلطات العراقية، بينما سلك البرزاني وحوالي خمسمائة ـ ثمانمائة من الرجال العنيدين طريقاً آخر، فبقوا أحراراً. وحالما دخل ملا مصطفى أراضي العراق، وصلت إلى مسامعه الأخبار عن اعتقال وشنق أربعة ضباط

---

[1] في كتاب جمهورية مهاباد: " في الزاوية الجنوبية ـ الشرقية من كردستان في منطقة (الوند) قرب همدان المترجم

أكراد في الجيش العراقي ممن كانوا يرافقون الشيخ أحمد. عندها دعا إلى اجتماع قبلي فحذّر إنه بسبب إراقة الدماء دفاعاً عن مهاباد لم يكن هناك مجال للعودة إلى إيران، وأنباء الاعدامات تشير إلى أنه لامجال للرحمة في العراق، كما أن الجهود التركية لتهدئة المنطقة والقضاء على الروابط القبلية هناك يعني إنه لايمكن اللجوء إليها أيضاً، إذاً كان الاتحاد السوفيتي الملاذ الوحيد الذي يمكن أن يلجأوا إليه.

اتفق رجال القبيلة على ذلك، وفي السابع والعشرين من أيار ١٩٤٧ بدأوا بقتالهم الملحمي للانسحاب[1]. كان ملا مصطفى ومعظم رجاله راجلين ـ فقد كانت الدواب بالكاد تكفي للجرحى والمون ـ لقد كانت الرحلة شمالاً بطيئة إذ كان يجب إرسال العيون دائماً للبحث عن القوات العراقية أو الإيرانية، أو التركية، بينما يواصل طابور المقاتلين تحركهم عبر الحدود إلى الأمام والخلف لتفادي الأسر. لم يحرك العراقيون ساكناً لوقف البرزانيين، بينما كان الأتراك غير منظمين كما ينبغي، أما في إيران فقد أصدر الشاه ورئيس الأركان تعليمات مشددة حول صدّ البرزانيين وتوقيفهم فأرسلا كتيبتين من الجنود إلى وادي (قتور) لوقف مسيرهم تجاه الإتحاد السوفيتي. تنقل البرزانيون في الظلال و عند أطراف الجبال لتجنب الفخ الإيراني، وبعد عدة أيام شنّوا هجوماً مفاجئاً على أطراف (أحنحة) طابور آخر أُرسل لإيقاعهم في الفخ، بعد ذلك عبروا الحدود إلى تركيا وفي العاشر من حزيران كانوا على مرأى من الحدود السوفيتية. تم توقيفهم هناك، فذهب مبعوثان إلى الأراضي السوفيتية للتفاوض من أجل العبور بينما تحرك الجنود الإيرانيون مثبطي الهمم ببطئ للهجوم عليهم من المؤخرة ولكن سبق السيف العَذَل، فعندما وصل الإيرانيون في الثامن عشر من حزيران إلى موقع البرزانيين على نهر آراس وجدوا أنهم قد عبروا إلى الاتحاد السوفيتي قبل يومين بعد الحصول على موافقة موسكو. لقد تركوا وراءهم بعض البنادق المعطوبة وجثتي رجلين غرقا عندما كانا يعبران النهر. ولزم من الزمن أحدَ عشر عاماً[2] حتى يرى ملا مصطفى ورجاله كردستان مرة أخرى.

وبينما كان البرزانيون يشقون طريقهم إلى الحرية في الإتحاد السوفيتي، ملحقين الذل والخزي بالجيش الإيراني خلال ذلك، كانت حكومة طهران تأخذ بثأرها من الرجال الذين أقاموا الدولة الكردية الأولى. وعند الساعة الثالثة قبل الظهر [الثالثة ليلاً] في الواحد والثلاثين من آذار ١٩٤٧ نُفذ حكم الإعدام بـ (قاضي محمد وأخيه صدري قاضي وابن عمه سيفي قاضي) شنقاً بثلاثة مشانق موقته

---

(١) المقصود الانسحاب من العراق عبر حدود تركية وإيران وما رافق ذلك من قتال ((ملحمي)) واللجوء من ثم إلى الاتحاد السوفيتي، المترجم.

(٢) في كتاب جمهورية مهاباد احد عشر عاماً واربعة أشهر المترجم.

تم نصبها في ساحة حار جرا [المصابيح الأربعة] في نفس المكان الذي تم فيه إعلان الجمهورية قبل أربعة عشر شهراً. ولكن في هذه المرة، لم تكن هناك خطابات ولا حشود النـاس. فقـد أغلـقَ الجنـود المنطقـة بإحكام، وأُخليت البيوت المجاورة وفي الصباح فقط، أدرك سكان مهاباد ما قـد حصـل. لقـد صدمهـم الموقف حتى الخضوع. كان هناك حديث عن الانتفاضة، وعن خطط جسورة لتجنيد القبائل مـن أجـل تحرير قواد الجمهورية. أما الآن فهنـاك صمـت مطبـق. وبعـد أن رأوا تأثير أفعـالهم، لاحـق الإيرانيـون مصالحهم إثر الأيام الأولى للإعدامات حيث تم تشكيل محاكم مؤقتة حكمت على ثمانٍ وعشرين مواطناً كردياً بالسجن لُمدد تتراوح بين سنتين والمؤبد. وفي غضون أسبوع شُـنق خمسـة آخـرون. تلـك كـانت النهاية المرّة للجهود الكردية القوية لإنشاء دولتهم الخاصة.

وتبقـى الأسـئلة الـتي طرحهـا ولم يجـب عليهـا الدبلوماسـي الأمريكـي وليـام ايغلـتن الابـن، WILLIAM EAGLETON JR الذي كتب التاريخ الدقيق لمهاباد: ((ماذا تمثـل، في الحقيقـة، جمهوريـة ١٩٤٦ الكردية؟ أهي كفاح وطني يمتاز بالشجاعة أم هي ثورة انفصاليـة غـادرة؟ مـاذا كـانت أهـداف البرزاني من المشاركة فيها؟ أكانت مساهمة مخلصة في قضية نبيلة، أم محاولة شخصية أنانية لزيادة النفوذ الشخصي والقبلي[1]؟)). لا يعطي أيغلتن أية أجوبة، لكنـه يختـم بـالقول بـأن السـكان في شمـالي إيـران كانوا لايزالون يشعرون بالانعزالية الكردية ضمن إطار الأسرة الإيرانية رغم إنه لم تستهويهم الشيوعية. بدلاً من ذلك، كتبَ سنة ١٩٦٣ بأن الأكراد الإيرانيـين قـد اتحـدوا في تعـاطفهم مـع الحركـة الوطنيـة الكردية في العراق.

متحدثاً عن ذلك في الستينات يقول ايغلتن:

((إن الوضع الحالي في كردستان لا يذكّر كثيراً بالجمهوريـة الـتي تشـكلت في مهابـاد بعـد الزيـارة إلى ((باكو)) في عـام ١٩٤٥ الـتي حولـت الحركـة الكرديـة نحـو أهـداف سـوفيتية، كمـا لا يذّكـر بأيـام ((الكوملة)) في إيران، وحزب ((هيوا)) في العراق، بجمهرة القبائل وهـي تتـابع بكـل تحـدّ وجـرأة مثُلهـا الخاصة في الحرية على طريقتها التقليدية. مرةً أخرى رفعت قبائل جزء من كردستان السلاح بنضال محفوف بالمخاطر غامض النتائج تتجاذبه آمال مختلفة. في بعض الأحوال يمسـك بهـا شـيء أشـد قليلاً من المثل الكردي: ((شه رحاكتره لـه بـي كاريـه = القتـال خـير [أحسـن] مـن البطالـة)) ويمكـن التكهن بالمستقبل كما نعلم من الماضي بأن الكرد في جبالهم البعيدة ووديانهم المنفصلـة قـد يكونـون في

(١) ملا مصطفى قائد وطني شريف وليست له مطامح شخصية وزعامته لعموم الشعب الكردي في كردستان الجنوبيـة وليس لعشيرة برزان (هـ .ع)

أوقات منسيين أو متجاهلين. ثم عندما يدفعهم العزم والطيش[1]، فكن على يقين بأنك ستسمع مرةً أخرى عن بعض شخصيات ١٩٤٦ أو آخرين ربما أصغر سناً، لا تعرف عنهم مهاباد شيئاً)).

وكأن ايغلتن يكتب تماماً عن ١٩٩١.

(١) Temerity في اللغة الانكليزية تعني (الطيش أو التهور) وقد ترجمها الأستاذ جرجيس فتح الله المحامي - بالطبع ليس جهلاً باللغة الانكليزية، انما لابداء تعاطفه الزائد مع الشعب الكردي - بمعنى (الحنق = الغضب)

الفصل السادس

النضال من اجل الحكم الذاتي

بعد أحد عشر عاماً من قتاله الملحمي للانسحاب عبر حدود ثلاث دول ولتنتهي به إلى المنفى في الإتحاد السوفيتي، عاد ملا مصطفى البرزاني إلى مسقط رأسه وسط ترحيب حار. لقد كان قادراً على العودة من منفاه لابسبب الضغط الذي مارسه شعبه، بل كأحدى نتائج انقلاب الضباط الأحرار في تموز ١٩٥٨ بقيادة عبد الكريم قاسم. لقد رحّب الأكراد بثورة تموز التي أطاحت بالملكية العراقية، رغم إنهم لم يلعبوا أي دور فيها. وقد تشجعوا بإصدار الدستور الجديد الذي بدا وكأنه لأول مرة يمنح اعترافاً رسمياً بـ ((الاستقلالية)) الكردية، ويَعِدُ بدرجة ما من الحكم الذاتي حيث جاء في الدستور: ((إن العرب والأكراد شركاء في الوطن العراقي، ويُعترف بحقوقهم القومية ضمن إطار الدولة العراقية)).

ولتأكيد هذه العلاقة الجديدة، بعد ثلاثة أشهر فقط من تولي نظام قاسم للسلطة، أُطلق سراح سكرتير ح.د.ك، إبراهيم أحمد، من الإقامة الجبرية وأُرسل إلى براغ مع جوازات سفر عراقية للملا مصطفى والمرافقين المقرّبين للزعيم المنفي. وكان ضباط الجيش العراقي يراقبون بهدوء منظر تدفق أفواج من آلاف الأكراد إلى مطار بغداد للترحيب بالرجل الذي كان قد أصبح أسطورة في ذلك الحين.

ولكن شهر العسل كان قصيراً، حيث إمتد فقط إلى أن جلبت سفينة مرست في ميناء البصرة بأربعمائة[1] من رجال البرزاني من الاتحاد السوفيتي حيث توجهوا شمالاً لينضموا إلى المقاتلين الذين كانوا يزّيتون بنادقهم من قبلُ. وكانت المشكلة تكمن في أن قاسم أظهر نزعة عامة من التسامح تجاه الأكراد خلال الأشهر الأولى من حكمه، فضّم كردياً، هو خالد نقشبندي إلى مجلس السيادة المؤلف من ثلاثة أعضاء - بينما كان الكثيرون من الضباط الأحرار قد قضوا خدمتهم في الجيش وهم

(١) يقول الاستاذ جرجيس فتح الله المحامي، مُعرّب كتاب جمهورية مهاباد: ((عاد إلى العراق ٨٥٥ شخصاً يدخل فيهم الزوجات والأطفال)) المترجم

يقاتلون في الشمال، ولم تكن لديهم النية في منح الأكراد، وقت السلم، ما كانوا ينكرونه عليهم كل هذه المدة عندما كانت المعارك مستمرة. هذا بالإضافة إلى وجود تيارٍ قوميٍّ عربيّ قوي في الحكومة الجديدة، يدعو للإتحاد مع الجمهورية العربية المتحدة بقيادة جمال عبد الناصر، ولذلك لم تكن - الحكومة الجديدة - تستطيع أن تسمح بأية تنازلات. وقد لعبت استراتيجية قاسم دورها أيضاً: فبسبب افتقاره إلى قاعدة نفوذ حقيقية أراد أن يؤلب جماعة ضد أخرى معتمداً في البداية على ملا مصطفى لـ ((تسليم)) الأكراد له، مستخدماً إياهم لتوجيه ضربة إلى كبار مالكي الأرض في كردستان الذين كانوا مذعورين من إصدار قانون الإصلاح الزراعي الذي حدّد ملكية الأرض وفرض ضرائب جديدة.

كان ملا مصطفى رئيساً لـ (ح.د.ك) الذي تأسس في مهاباد خلال فترة الاستقلال القصيرة للجمهورية هناك. فقد قابلت مجموعة من الأكراد العراقيين ملا مصطفى وعدداً آخر من الشخصيات البارزة وقرروا تشكيل حزب مستقل للأكراد في العراق بدلاً من الانضمام إلى الحزب الديمقراطي الكردستاني القائم بقيادة قاضي محمد. فأُرسل سكرتير الحزب الجديد، حمزة عبد الله، إلى كردستان العراق للاتصال مع القادة هناك وحشد التأييد، لكنه ما أن باشر بالعمل تقريباً حتى ظهرت الإنشقاقات، إذ أصرّ حمزة عبد الله - رغم كونه شيوعياً - على انضمام كبار مالكي الأرض والزعماء القبليين، على أساس أن الرموز الاقطاعيين هم الوحيدون القادرون على ضمان ولاء رجال القبائل وبذلك سيزداد عدد الأعضاء والقوة المقاتلة للحزب الجديد، وانضم بعض المفكرين أو الساسة المدنيين إلى الحركة، التي كانوا يرونها رجعية ومتخلفة، بدلاً عن ابداء ولائهم لإبراهيم أحمد ممثل فرع الحزب الديمقراطي الكردستاني - إيران في كردستان العراق الذي ساند جمهورية مهاباد. وفي عام ١٩٥٠ حظرت الحكومة العراقية ح.د.ك في العراق واعتقلت عبد الله، وهذا ما جعل الطريق مفتوحاً أمام إبراهيم أحمد لتولي القيادة وحصل ذلك في مؤتمر سري وبعد ذلك فصل حمزة عبد الله وتولى القيادة بنفسه.

ألقت هذه المكايد المعقدة ظلالها وبقوة على سير الأحداث ونمو الشعور القومي الكردي، فقد أكدت بأن الأكراد في العراق سيطالبون بالحكم الذاتي بمعزل عن مشاركة الأكراد في الدول المجاورة. وبرز ملا مصطفى على الفور كقائد وحيد قادر على توحيد القبائل، وبذا تمكن من وضع قوة لا يستهان بها في ساحة المعركة، لكنه لم يكن كثير الملاءمة للنخبة المدنية التي كانت لنفوذ إبراهيم أحمد. إن الانشقاق بين هذين التيارين في المجتمع الكردي شكل على الدوام عاملاً نجحت الحكومات المتعاقبة في استغلاله.

بينما كان البرزاني في منفاه بالإتحاد السوفيتي، صادرت حكومات ما قبل الثورة الكثير من أراضي البرزانيين ووزعتها بين القبائل الموالية للحكومة المركزية، وخاصةً قبائل الهركي، و الزيباري وبرادوست، لهذا لم يكن البرزاني معنياً كثيراً ـ عكس الزعماء القبليين الآخرين ـ بالمحاولات العراقية لتطبيق قانون الإصلاح الزراعي ودفعته أكثر نحو الاتجاه القومي.

وفور عودته إلى بغداد أعلن ملا مصطفى دعمه ومساندته لـ (عبد الكريم قاسم) وطالب بأن يُمنح الأكراد في الدول المجاورة نفس الحقوق التي يتمتع بها أكراد العراق. كما أنه أدان الامبريالية، ومدح ((النضال ضد الاستعمار)) وعلى العموم قال كل ما كان النظام يرغب بسماعه، ومقابل ذلك مُنح سيارة وسائق وسكن في المنزل الذي كان يشغله في السابق نوري السعيد كل ذلك طبعاً على أمل إشراكه في أي نزاع مستقبلي مع المعارضين الداخليين.

كان الأكراد لايزالون منقسمين على أنفسهم خلال فترة الحرية السياسية الجديدة التي سمحت بها الثورة، ففي الشمال كانت **الأحقاد** القبلية لا تزال على حالها، فبينما كان إبراهيم أحمد يحاول استمالة ح.د.ك إلى جانب القوميين العرب المطالبين بالوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة بقيادة عبد الناصر، تبنى آخرون نفس وجهة نظر الحزب الشيوعي العراقي القوي الذي كان ينظر إلى العروبويين كمنافسين.

من بين الذين تبنوا الرأي الثاني كان الشيوعي السابق حمزة عبد الله الذي فُصل بأمر من إبراهيم أحمد وأعاده، فيما بعد ملا مصطفى. وكانت الغلبة لتياره وتيار الشيوعيين على المستوى القومي، وأُحبط مشروع الوحدة مع مصر، حيث لم يكن الرئيس عبد الكريم قاسم نفسه متحمساً لها. ولكن، بعد ذلك، انقلب قاسم على حلفائه الشيوعيين في محاولة منه للتخلص من معارضيه الواحد تلو الآخر. أدرك ملا مصطفى متأخراً ما كان يجري، و دعا عبد الله إلى اجتماعٍ كان سيطلب فيه الكف عن نشاطاته المؤيدة للشيوعية، فرفض عبد الله الحضور، عندها لجأ ملا مصطفى إلى الأساليب التي كان يلجأ إليها في شبابه فأرسل مجموعة من البرزانيين لقصف مركز قيادة الحزب بوابل من القبائل، وطردوا بالقوة عبد الله ومؤيديه. لكن ملا مصطفى لم يكن يعلم إنه سيكون الهدف القادم، فقد كان الكرد و ح.د.ك الوحيدين اللذين لهما بنية سياسية منظمة وشرعية وقادرة على معارضة النظام.

حاول قاسم أن يُظهر للملا مصطفى بأنه لم يَعُد يستحوذ على دعمه التام وذلك باعادة عدد من الزعماء القبليين ـ من قوم البرزاني ـ الذين فرّوا إلى إيران، بعد محاولتهم تحدي اجراءات الحكومة

من أجل الاصلاح الزراعي، آمنين إلى مناطقهم التي يتعذر الوصول إليها في اقصى الشمال، والتي لم تتضرر كثيراً بكل الأحوال من إجراءات مصادرة الملكية، وقد تم استخدام هؤلاء لقمع ذلك التمرد الذي قام به أعدائهم القبليين التقليديين، بإعادة هؤلاء الزعماء القبليين أمِلَ قاسم بأن يُظهِر للبرزانيين بأنهم ليسوا الوحيدين القادرين على وضع القوات في الميدان. ولكن ملا مصطفى لم يلتقط الرسالة. بدلاً من ذلك استمر في التصرف وكأنه رجل الدولة الكردية الأكبر، معتبراً نفسه بمستوى قاسم الذي كان بدوره يعتبر نفسه زعيم الوطن الأوحد.

إن محاولة اغتيال قاسم في تشرين الأول ١٩٥٩ - والتي اشترك فيها صدام - جعلت الرئيس يشعر بأنه كان متساهلاً ومتسامحاً جداً، وتوفيقاً أكثر من اللازم مع عناصر المعارضة، وكان عرض ملا مصطفى في حينه بتوفير حرّاس له من الأكراد مجرد عرضٍ لبق. وبدأ قاسم، شيئاً فشيئاً، يسحب كل الامتيازات التي منحها للبطل العائد، وحاول مصادقة خصوم البرزانيين التقليديين ولا سيما الزيباريين والسورجي. وبينما كان البرزاني في زيارة مؤقتة إلى الاتحاد السوفيتي عام ١٩٦٠ اندلع القتال بين العشائر، وبدا واضحاً أن التعاون بين ملا مصطفى والنظام قد أشرف على نهايته.

بدأت الثورة الكردية في صيف ١٩٦١ ودامت، بشكل متقطع، لمدة أربع عشرة سنة، مبتدأة بسلسلة من الصدامات القبلية، وزادت حدتها بالتدريج لتصبح انتفاضة شاملة ضد الحكومة ونالت دعم ومساندة جميع الأكراد تقريباً. فعندما أصبح واضحاً أنه ليس لدى قاسم أية نية في ترجمة أقواله التي تعبر عن التعاطف مع الأكراد إلى خطوات عملية بدأ البرزاني، وإبراهيم أحمد يزيدان من ضعطهما على الحكومة ليضمنا بذلك دعمَ ومساندة مؤيدهم بأنهم لن يقبلوا بالوضع الراهن. فهاجم ملا مصطفى ورجاله الجماعات الكردية التي تتعامل مع الحكومة، ولكن من الجلي أنها لم تكن غارة مخططة تلك التي شنّوها على طابور من الجيش وهو يقوم بالمناورات في ١١ أيلول ١٩٦١ والتي ادت أخيراً إلى قتال شامل. فانتقم قاسم بإرسال قوة جوية عراقية لقصف برزان ومدن أخرى بالقنابل وجرّت البرزاني على مضض إلى قتالٍ مباشر، وقد تكرر هذا النموذج عدة مرات في السنوات التي تلت ذلك.

لقد ورث ملا مصطفى عباءة الشيخ محمود، الذي قاد نضال الأكراد العراقيين منذ الانتداب البريطاني على العراق. وفي وقت هزيمته ونفيه كان البرزانيون يبرزون كقواد الأكراد الرئيسيين. لقد كان يُعترف بالشيخ أحمد البرزاني كرئيس للقبيلة ورجل دين بارز، لكن أخاه الأصغر هو الذي أصبح قائداً شعبياً. وبسبب عناده وأعماله البطولية ومهارته العسكرية، احتفظ بهذا الموقع حتى مماته في

المنفى سنة ١٩٧٩. ويضطلع اليوم ابنه مسعود بهذا الدور وهو يثبت أنّه سياسي واقعي ومرن أكثر من والده الصلب والعنيد الذي يخسر على طاولة المباحثات ما كان قد كسبهُ في المعركة[١].

عندما عاد البرزاني إلى العراق في نهاية ١٩٥٨ لم يكن الأكراد فقط مستاءين من قاسم. فقد تعاون مع الشيوعيين ثم تصادموا معه، أما البعثيون فقد عارضوا بشدة سياساته حتى أطاحوا به في شباط ١٩٦٣ في واحدة من أكثر الانقلابات وحشيةً و دمويةً في الشرق الأوسط. وقد أُعدم قاسم، بينما استمر الحرس القومي البعثي ـ وهم قطاع طرق اتخذوا شكل ميليشيا ـ بالاهتياج وتعقبوا الشيوعيين وقتلوا الذين وجدوهم. ويبدو أن قناصة البعث كانوا يعرفون الذين يبحثون عنهم من النشطاء الشيوعيين، وذلك بسبب اتصالاتهم ـ وطبقاً لعدد من المصادر ـ المباشرة مع الاستخبارات الأمريكية التي كانت متلهفةً في قصم ظهر أقوى حزب شيوعي في الشرق الأوسط وقتئذٍ. وقد قال الملك حسين وقتها بصراحة أن انقلاب شباط لاقى تأييداً من لدُن أمريكا، بينما أعلن المؤرخون ماريون فاروق ـ سلوكيت Marion Farouk - Sluglett وبيتر سلوكيت Peter Sluglett رسمياً عن اتصالات مباشرة مع وزارة الخارجية [الأمريكية] في اواخر الخمسينات قالوا: بأن حزب البعث كان يُعتبر في حينه ((القوة السياسية المستقبلية)) ولهذا فهو يستحق الدعم الأمريكي. وقد تلاشى هذا الموقف الأمريكي ولكن بعد عواقب وخيمة.

ويبدو أنه تم التغاضي عن أحد أهم مبادئ البعثية ألا وهو التزامها بالعروبة، وهذا ما جعل احتمال تقديم تنازلات للأكراد أكثر صعوبة من اسلافهم في الحكم. ومع ذلك أدرك البعثيون تماماً، مثل الضباط الأحرار، بأن أي جيش تقليدي لا يمكنه إلحاق الهزيمة بالأكراد في ملاحمهم الجبلية، مثلما كان الأكراد يدركون أنه لا أمل في النصر إذا ما تركوا الجبال ونزلوا إلى السهول. لذا كانت هناك محاولات تفاوضية كان الهدف منها كسب الوقت أكثر من التوصل إلى عقد معاهدة أو شيء من هذا القبيل.

إن الناطقين الرسميين باسم الأكراد يدعون اليوم بأن شعبهم كان متحداً، وبان ملا مصطفى كان زعيم حركة شعبية دون منازع، ولكن الحقيقة لم تكن كذلك، فقد قضى الأكراد من الوقت والقوة في قتال بعضهم بعضاً أكثر من قتالهم للحكومة العراقية، رغم إنه لا يوجد شك بأن السيرة الأسطورية والخبرة العسكرية الشخصية للملا مصطفى بالإضافة إلى هيمنته على أهم تحالف قبلي جعلته

---

(١) إقرار بمبدأية البارزاني الأب (هـ . ع)

أبرز قائد يجب أن تتم المفاوضات معه. ووفقاً لـ (هوشيار زيباري) عضو اللجنة المركزية وأحد المقربين من ملا مصطفى وابنه مسعود، كان أكراد العراق يدركون على الدوام أن هدفهم النهائي لابد وأن يكون الحكم الذاتي وأن استراتيجيتهم كانت تكمن في الضغط على بغداد من أجل قبول الجلوس على طاولة المفاوضات والاعتراف بأن الحكم الذاتي لابد وأن يكون النتيجة لكل تلك المفاوضات. لقد بُذلت المساعي السياسية والقتالية ولكن بسبب الشعور القومي في الجيش،والذي كان على الدوام ذا اعتبار خاص، فإن الكفاح المسلح أصبح أهم هذه الوسائل ((كنا واضحين دائماً بأنه يجب أن تتحقق الديمقراطية في العراق أولاً وبعد ذلك الحكم الذاتي الكردي)) هذا ما أخبرنا به هوشيارزيباري كتسويغ ١٩٩١ لإستراتيجية ١٩٧٠.

عندما بدأت سلسلة الغارات القبلية غير المنسقة بالتصعيد سنة ١٩٦١ حاولت شريحة من ح.د.ك المتمركزة في المدينة بقيادة إبراهيم أحمد أن تقف موقف المتفرج، واصفةً الانتفاضة بانها ((رجعية واندلعت بايحاء من الامبرياليين وموجهة ضد الجمهورية العراقية التقدمية)). واتفق الحزب الديمقراطي الكردستاني والحكومة على نقطة واحدة: النضال الصعب بشأن النزاع مع بريطانيا حول الكويت[1] في ذلك الوقت، ومع ذلك كان قاسم مقتنعاً بأن البريطانيين هم الذين أوحوا للأكراد بالتظاهر بذلك الدور. وكان أول اجراء له عندما بدأت الحرب هو طرد السفير البريطاني.

ونشب خلاف ضمن الحزب، فكان أحمد يفضّل بقاء ح.د.ك خارج القتال قائلاً أن إيران تتلاعب بالعشائر وإن الوقت المناسب للثورة لم يأتِ بعد، بينما ترأس جلال الطالباني الرأي القائل بالاعلان الفوري للحرب، معتقداً إنه إذا لم يشترك الحزب، فإن الزعماء القبليين هم الذين سيهيمنون على التمرد وهذا سيُطيل، في حالة نجاحهم، من عمر النظام الاقطاعي البالي. أراد جلال الطالباني إعلانها تمرداً قومياً ولكن في النهاية اتفق الطرفان على أخذ مشورة ملا مصطفى، الذي كان في تلك المرحلة المبكرة يفضّلَ التريث. وعندما حدث ذلك [التريث] لم يكن هناك أي فرق، فقد دفع قاسم ح.د.ك إلى تمرد مفتوح وذلك باعلانه إنه سيتم حظر الحزب.

---

(١) ينقل جمال مصطفى مردان في كتابه (عبد الكريم قاسم البداية والسقوط) المكتبة الشرقية ط١ ١٩٨٩ عن عبد الكريم قاسم قوله: ((إن الكويت قضاء تابع للواء البصرة وهو جزء لا يتجزأ من بلادنا وإن أهل الكويت واخوانهم في أرجاء العراق شعب واحد تربطهم وشائج الدم والقربى والصلات التاريخية...)) ويقول مردان: لقد أدى التهديد القاسمي إلى انزال القوات البريطانية في الكويت مرة أخرى ص ١٢٣ - ١٢٤

وهو ما كرره فيما بعد صدام حسين ١٩٩٠ المترجم

وهكذا دخل ح.د.ك في القتال في أيلول ١٩٦١ وكان أول قراراته هو تأسيس البيشمركة التي أُعِدت كجيش كردي، وذلك للتأكيد بأن القتال لم يكن يتم عن طريق القبائل، وخاصة البرزانيين الذين كانوا سيستحوذون على كل الفضل والسمعة فيما بعد. أبقى ح.د.ك قوات البيشمركة تحت سيطرة الحزب الصارمة ومتخذاً مركز القيادة في (ماوَت) شمال غربي السليمانية. بينما قاد الطالباني الجبهة الشرقية، وهكذا أصبحت كردستان مقسمة بين منطقتين حيث كان ملا مصطفى وحلفائه القبليين في الشمال و ح.د.ك في الجنوب.

دامت هذه المرحلة من التمرد حتى انقلاب شباط ١٩٦٣ الذي أدى إلى اعدام قاسم بعد خلعه وتلاه عبد السلام عارف في تولي السلطة. ومع أن الأكراد كانوا منقسمين في تقييمهم للإنقلاب، فقد وافقوا على وقف القتال ومحاولة التفاوض بتحريض من ملا مصطفى. ترأس جلال الطالباني الوفد المفاوض المتجه إلى بغداد، كما فعلَ بعد ثلاثين عام، وفوجئ الطالباني بان الوحدة العربية، وليس الحكم الذاتي الكردي يأتي في مقدمة جدول أعمال الإدارة الجديدة فأُرسل بسرعة إلى القاهرة ليُظهر الدعم الكردي لعضوية العراق في الجمهورية العربية المتحدة[1]. وفي السابع عشر من نيسان ١٩٦٣ وقعت أخيراً كلاً من العراق ومصر وسورية على اتفاقيةٍ لتشكيل جمهورية عربية فدرالية، و لكن النتيجة العملية الوحيدة، فيما يتعلق بالأكراد، هو أن سورية أرسلت بعد أربعة أشهر لواءً من خمسة آلاف جندي للقتال ضدهم.

---

(١) نص مذكرة الوفد الكردي إلى مفاوضات الوحدة.

((إلى السادة رئيس وأعضاء الوفد العراقي في مفاوضات القاهرة المحترمين، بمناسبة حضوركم اجتماعات القاهرة المعقودة بين ممثلي الجمهورية العراقية والجمهورية العربية السورية والجمهورية العربية المتحدة، وبالنظر لطبيعة المحادثات التي تجري اثناءها وشمول اثرها لعامة الشعب العراقي بما فيه الشعب الكردي المحادي بظروفه الخاصة المميزة له ولمشاكله، وجدنا من جنبنا نحن أعضاء الوفد الكردي المخول بالمفاوضة مع الحكومة العراقية حول تمكين الشعب الكردي من ممارسة حقوقه القومية على أساس اللامركزية أن ننور الوفد العراقي المحترم برأي الشعب الكردي...

أولاً- نقول ابتداء انه مما تقتضيه طبيعة الشمول لمباحثات القاهرة أن يكون الشعب الكردي ممثلاً على وجه من الوجوه لأنه قد تتخذ فيها قرارات حول تنظيم العلاقات بين الجمهوريات الثلاث ينسحب أثرها بداهة إلى الشعب الكردي وحقوقه في الجمهورية العراقية، ويمتد ذلك الأثر في رأينا إلى موضوع اللامركزية كما سيتضح لكم في سياق هذه المذكرة وقد يُقال إن وفد الجمهورية العراقية يمثل الشعب العراقي كله من الناحية الدستورية والقانونية إلا أننا، مع تقديرنا لهذا الاعتبار، نرى أن المشاكل القائمة من جهة والصفة المصيرية لمباحثات القاهرة من جهة أخرى تستدعي أن يكون الوفد الممثل للعراق أوفى شمولاً لمحتواه المتمثل في القوميتين الكبيرتين العربية والكردية... +++

لكن الطالباني تأثر بكل الذي رآه وسمعه في القاهرة، واعتقد إن الوقت قد أزِفَ للأكراد من أجل التفاوض، بينما كان ملا مصطفى، القلِق والبعيد عن طبيعة الأحداث، مصمماً على متابعة الحرب. كانت الحكومة الجديدة غير واثقة من إمكاناتها لذلك اختارت المحادثات وأرسلت الطالباني لتمهيد الطريق. كان ملا مصطفى في حالة غضب لذلك رفض الاجتماع بالوفد العراقي الذي كان يقوده رئيس الأركان الجنرال طاهر يحيى، في رواندوز، و طلب منهم القدوم إلى مركز قيادته في (كاني ميران) النائية. لم تكن البداية حسنة، و لكن بمرور الوقت تحسنت الأمور، وخُففت مطالب ملا مصطفى ((المستحيلة)) حتى إن التسوية بدت ممكنة. في هذه الأثناء بدأت الخلافات الكردية الداخلية تطفو على السطح، فقد كان أسلوب ملا مصطفى الاستبدادي في القيادة يختلف عن أسلوب جلال الطالباني المتسم بالواقعية والتوفيقية عندما كان يتكلم لمصلحة ح.د.ك. وفي أيار ١٩٦٣ أخفقت كل المحادثات بسبب كركوك، حيث أراد الأكراد، تماماً كما في ١٩٩١، أن يضموها إلى منطقة

+++ ثانياً - نوضح لكم أن الشعب الكردي لا يقف في يوم من الأيام بوجه ارادة الشعب العربي في نوع العلاقة التي يقيمها بين اجزائه وحكوماته، ومن دواعي اعتزاز الشعب الكردي أن يجد الفرصة ليكون له شرف الاسهام في تسهيل الصعب من موضوع العلاقة المراد ايجادها بين سائر أجزاء الوطن العربي....

ثالثاً - تفادياً لأي إشكال محتمل في المستقبل، ودفعاً لأي تعارض بين المقررات التي قد تتمخض عنها اجتماعات القاهرة وبين الحقوق القومية للشعب الكردي في العراق نلخص فيما يلي رأيه المنبثق عن طبيعة وجوده ومركزه في العراق، و عبر كفاحه وتجاربه خلال التاريخ في كيفية تنظيم العلائق بينه وبين الشعب العربي في الأحوال المختلفة:

أ - فيما إذا بقي العراق بدون تغيير في كيانه يقتصر الشعب الكردي في العراق على تنفيذ البيان الصادر من الجمهورية العراقية بشأن الحقوق القومية للشعب الكردي على أساس اللامركزية.

ب - إذا انضم العراق إلى اتحاد فيدرالي يجب منح الشعب الكردي في العراق حكماً ذاتياً بمفهومه المعروف غير المتأول والمضيق عليه.

جـ - فيما إذا اندمج العراق في وحدة كاملة مع دولة، أو دول عربية أخرى يكون الشعب الكردي في العراق اقليماً مرتبطاً بالدولة الموحدة على نحو يحقق الغاية من صيانة وجوده وينفي في الوقت نفسه شبهة الانفصال، ويضمن تطوير العلاقات الوثيقة بين الشعبين الشقيقين نحو مستقبل أفضل)).

وتقبلوا فائق الاحترام

عن الوفد الكردي المفاوض
رئيس الوفد
جلال الطالباني
٨-٤-١٩٦٣

عن القضية الكردية - محمود الدرة - ط٢ ١٩٦٦
دار الطليعة بيروت ص ٣١٥ - ٣١٧. المترجم

الحكم الذاتي. وبعد أن نفذ صبر الحكومة مع الأكراد، شنّ الجيش هجوماً ضخماً بعد إنذار لمدة ٢٤ ساعة، وبعد شهرين سقطت بلدة برزان نفسها بيد الحكومة.

في تشرين الثاني ١٩٦٣ تقرّب عبد السلام عارف من ملا مصطفى مباشرة، وتم انجاز وقف لإطلاق النار ظلّ ساري المفعول حتى العاشر من شباط ١٩٦٤. كانت لهذه النقلة أثرها في بدء الإنشقاقات المستترة داخل الحركة الكردية بالظهور علناً، حيث كان الطالباني وأحمد يشجبان الاتفاقية التي وقعّ عليها البرزاني واصفين إياها بـ ((الخيانة)). لم تكن الاتفاقية، في الحقيقة، سوى وسيلة من الطرفين لكسب الوقت، حيث كان عارف متلهفاً لإعادة بناء القوات العراقية بعد أن نُفذت حملة التطهيرات فيها، ونية البرزاني في سحق المعارضة لحكمه الديكتاتوري. وجاءت الفرصة المناسبة في السادس عشر من تموز عندما رفض أحمد والطالباني وأتباعهما في ح.د.ك تسليم محطة الإذاعة الكردية لقوات البرزاني. فقاد ابن ملا مصطفى، ادريس، الوحدة القبلية واستولى على محطة الإذاعة دافعاً بأحمد والطالباني ونحو أربعة آلاف من رجالهما إلى إيران. بعد تخلصه من معارضته الداخلية، كان ينبغي على ملا مصطفى الآن أن يحدّ من النقد الموجه ضد اتفاقه مع عارف وهكذا بدأ ثانية يقدم مطاليب جديدة ويرسل الانذارات إلى بغداد[1].

وبدت جولة أخرى من القتال تلوح في الأفق إلى أن اندلعت في نيسان ١٩٦٥، بعد أن قتل الأكراد ثلاثة ضباط في الجيش العراقي. ولكن بعد الانتصارات المبكرة تم صدّ هجوم الجيش بشكل غير متوقع بعد مقتل عبد السلام عارف في حادثة هليكوبتر، مما أدى إلى صراع جديد من أجل السلطة في بغداد. وكحلٍ وسط تولى السلطة شقيقه عبد الرحمن عارف الذي عيّن مدنياً هو عبد الرحمن بزّار رئيساً للوزراء. إن رئاسة الوزراء القصيرة للبزّار جلبت معها أهم نجاح للدبلوماسية الكردية قبل اتفاقية ١٩٧٠ التي شكلت أساس محادثات ١٩٩١ في بغداد. فعندما ألحقت قوات ملا مصطفى هزيمة ثقيلة بالجيش في حزيران ١٩٦٦ أعلن البّزار بإنه مستعد للاعتراف بالحقوق القومية للأكراد، وللدخول في المفاوضات التي أفضت إلى بيان التاسع والعشرين من حزيران ـ ممارساً الضغط على ملا مصطفى وذلك بعقد اتصالات متزامنة مع المنشقين الذين يقودهم الطالباني وأحمد.

---

(١) في جميع الانشقاقات على الملا مصطفى كان المنشقون يتعاونون مع الحكومة بينما بقي الملا يقود الثورة ضدها. الخطأ الوحيد الذي ارتكبه الملا هو تفريطه بالضابط الوطني فاخر ميركه سوري لسبب مجهول (هـ .ع)

إن بيان التاسع والعشرين من حزيران يُعد الأهم من بين كثير من التصريحات عن ((القضية الكردية)) في العراق، والذي أدى بعد أربع سنوات إلى اتفاقية مع البعث. فقد تعهدت الحكومة في البيان المذكور بالاعتراف بـ ((ميزة الدولة العراقية الثنائية القوميات)) وهي عبارة أعطت الأكراد الأساس لكل شيء أرادوا تحقيقه. لكن البزاز لم يكن قادراً على تقديم النتائج المتوقعة، فقد خُلعت حكومته، وكان الجيش يعارض بشدة أية تسوية مع الأكراد مما قد يؤدي إلى تقسيم العراق، لهذا أكد على عدم استمرار محادثات الحكم الذاتي. وبنفس الوقت كان الجيش ضعيفاً لاستئناف القتال فعملت السلطة بدلاً من ذلك إلى تشجيع الانقسامات الكردية حيث أسست ما سمي، بقوات الفرسان من بين العناصر الكردية المعادية للبرزانيين. كانت جماعة احمد ـ الطالباني مسلحةً ومدعومة مادياً أيضاً، لكن الملا مصطفى بقي مسيطراً. لقد طرد البرزانيون بازدراء الأكراد الذين يقاتلون مع الحكومة وأطلقوا عليهم اسم ـ الجحش ـ (الحمار الصغير) الذي يستطيع أي شخص أن يركبه. كانت تلك إحدى التناقضات الكلاسيكية في السياسة الكردية، ففي هذه المرحلة من الحرب، قاد الطالباني ـ أحد القوميين القياديين في ح.د.ك قوات ((الجحوش)) المؤيدة للحكومة للقتال ضد البرزاني. وقد اكتسب رجال الطالباني لقب ٦٦ ـ وهي سنة ((خيانتهم)) ـ ولا يزالون يوبّخون بهذا اللقب بعد خمس وعشرين سنة، من قِبل رجال البرزاني، حيث يقاتل الطرفان على نفس الجبهة.

رغم تقاطر القوات عليه كان من الواضح أن ملا مصطفى يسيطر ويوّسع من دائرة نفوذه وقادرٌ على صدّ الجيش ومهاجمة معارضيه متى ماشاء. فتعززت مكانته الشخصية، ولكن الطموحات القومية الكردية لم تحقق سوى تقدمٍ ضئيل.

وقد استمرت القلاقل السياسية في بغداد حتى عام ١٩٦٨ عندما انتصرت أخيرا الزمرة التي كان يترأسها الجنرال أحمد حسن البكر وكان صدام حسين الرجل الحقيقي القوي فيها. ولكن لم يكن حزب البعث في عام ١٩٦٨ متحد الصفوف كما أصبح فيما بعد، فقد كان في ذلك الوقت ممزقاً بالانشقاقات والتحّزبات، لذا كان عليه أن يبذل قصارى جهده من أجل التقليل من شأن المعارضة المتمثلة بالشيوعيين والأكراد بالدرجة الأولى. إن الأسلوب الذي تم اختياره كأن مألوفاً لدى البعث ـ كلمات معسولة وإمكانية التفاوض علناً، ووحشية في الشوارع. وقد كانت الأولوية في هذه المرة للبعث في تطهير الجيش وتعيين رجالهم في مراكز القوة، إذ كان الخوف من انقلاب عسكري ضدهم مصدر قلقهم الرئيسي، أما بشأن الأكراد فقد كانت سياسته تكمن في البداية دعم الجماعات المناوئة للبرزاني بقيادة الطالباني وأحمد. رأى ملا مصطفى في كل ذلك دليلاً على ضعف النظام الجديد

فاستمر في الهجوم ملحقاً هزائم نكراء بالجيش ومعطلاً التجهيزات النفطية في كركوك وهذا ما دفع الحكومة إلى شنّ هجوم مضاد نجح في البداية، ثم مُني بخسائر كبيرة في الجيش.

قرر صدّام حسين، الذي برز كرجل بارع في التكتيك الحربي، إنهاء القتال مدركاً تماماً أنه لا أمل في إلحاق الهزيمة بالأكراد، خاصةً وأن الشاه قد رفض سحب دعمه أو إغلاق الحدود. شرع صدام بالتعامل مع الأمور بأسلوب أصبح خاصاً به، فأعطى أهمية وإثارة للحدث بقراره الذهاب شخصياً إلى كردستان لزيارة ملا مصطفى، غير مبالٍ بالتحذيرات من الخطر على حياته محاولاً بمحض قوته الشخصية النجاح فيما فشل فيه الكثيرون في السابق. وقد ظهر فيما بعد إن محاولته لإيجاد تسوية لم تكن صادقة بل مجرد تكتيك، وكانت هذه أيضاً ميزة نموذجية عن الرجل.

ففي كانون الثاني من عام ١٩٧٠ سافر صدّام مع حاشية صغيرة إلى الشمال ليقابله مسعود البرزاني في رواندوز. ركب الرجلان سيارة مسعود للتوجه إلى (جومار) حيث مقر البرزاني. جالساً في المقعد الخلفي، وضع صدّام محفظة جلدية مسطحة بينه وبين مسعود ((أتدري ماذا وضعت في هذه المحفظة؟)) ـ سأل صدام ـ ((إنها أوراق بيضاء، فارغة. لقد أتيتُ لأرى والدك، وأوّقع اتفاقية معه. إنه يستطيع أن يكتب مايشاء على هذه الأوراق ونحن سنوّقع عليها. لن أعود إلى بغداد بدون اتفاقية، وإذا لم نتفق فليودعني في سجن كلالة.)) كانت كلالة هي المكان الذي يحجز فيه الأكراد معارضيهم السياسيين، أو أولئك الذين يعتبرون جواسيسَ أو متعاونين مع الحكومة. وهذا برهان واضح على معرفة صدّام بما يجري، وتلميح إلى أنه المتصرف الوحيد، لهذا يجب الترحيب بعرضه.

وقد تم التوصل، بالفعل، إلى اتفاقية وإن لم يكن في ذلك اليوم، وربما كان ذلك نتيجة لعمل صدام الجريء بالذهاب لرؤية ملا مصطفى، وكانت تلك المرة الأولى التي ذهبت فيها شخصية حكومية بارزة إلى مناطق الأكراد. ورغم إن المفاوضات كانت تجري عن طريق أعضاء آخرين من الحكومة وكبير مستشاري البرزاني، محمود عثمان،فقد ذهبَ صدام إلى هناك عدة مرات أخرى بعد تلك الزيارة. إن اتفاقية الحادي عشر من آذار، وثيقةٌ مؤلفة من خمس عشرة نقطة أساسية، كانت في الواقع مؤلفةً من جزأين، ونُشر الجزء الأول منها فقط في الحادي عشر من آذار عندما قرأها أحمد حسن البكر عبر الراديو معلناً بذلك نهاية النزاع بين الأكراد وبقية الشعب العراقي. أبدت الوثيقة ولاءً كلامياً كاذباً للمثل الأعلى المتمثل بالوحدة الوطنية العراقية، ولكنها أعطت للأكراد الحكم الذاتي المحلي، وأجازت استعمال اللغة الكردية في التعليم والتربية، ومشاركة الأكراد في الحكومة المركزية، والإدارة الكردية لمناطقهم. وكانت مساحة هذه المناطق الكردية العقبة الرئيسية التي واجهتهم، تماماً كما في محادثات

١٩٩١ دون محاولة لتحديد المناطق التي تم الإعلان عنها [في بيان ١١ آذار] بدلاً من ذلك اشترطت الاتفاقية اجراء إحصاء رسمي للسكان، واعدةً بأن المناطق التي يشكل فيها الأكراد الأغلبية سوف تُضمّ إلى ما أصبح يُعرف بـ ((منطقة الحكم الذاتي)).

في هذه الأثناء اشترطت البروتوكولات السرية بأن يُطبقّ الحكم الذاتي على أساس احصاء ١٩٥٧ وعرضت التفاصيل حول كيفية تطبيقه. إذ سيتم نزع سلاح ((الجحوش)) وتسريحهم، بينما ستصبح بيشمركة البرزاني قوات حدودية شكلياً تحت قيادة الجيش العراقي، وعملياً تابعين لقوادهم، وذلك كضمان للأكراد ضد أي نفاق من الحكومة. كما إنه سيُسمح للأكراد بإقامة اتحاداتهم وجمعياتهم الحرفية الخاصة، وأُعطيت رخصة رسمية لجريدة كردية في بغداد. بالمقابل كان على الأكراد أن يسلموا بعض الأسلحة الثقيلة ويقطعوا العلاقات مع إيران، التي كانت على الدوام الطريق الرئيسي للإمدادات، وغالباً المصدر الفعلي لمعظم الأسلحة المستعلمة. كل ذلك على أساس فترة انتقالية لمدة أربع سنوات حيث أصبح الحكم الذاتي التام ساري المفعول في ١٩٧٤ بعد أن بيّن الاحصاء المقترح أيُّ المناطق يجب أن يغطيها الحكم الذاتي.

استُقبل الإعلان بالترحيب والاستحسان وبحماس كبير ليس في كردستان فحسب بل على طول العراق وعرضه. فالحرب الطويلة في الشمال ـ وخاصة إثر هجوم الجيش في عام ١٩٦٩ ـ تسببت في مقتل وجرح الكثيرين، لهذا كانت عائلات المجندين والشباب الذين سيدعون للالتحاق بالجيش فرحةً بما اعتبرته نهاية للنزاع الداخلي. وفي كردستان تم تقدير الاتفاقية على نطاق واسع إذ إنها حققت أكثر من كل ما تم عرضه في الماضي، ووضعت كذلك حداً للانقسامات بين الأكراد أنفسهم، مجبرةً الطالباني وأتباعه على العودة إلى البيت الوطني الكردي ـ وهذا ما فعلوه، بعد أن منحهم البرزاني عفواً عاماً بشعور كبير من المسؤولية ـ و هذه الخطوة أخرجت سلاحاً هاماً من يد الحكومة التي كانت تطمع باستغلال النزعات الحزبية لتقويض الاتفاقية.

وسرعان مابدا واضحاً أن صدام حسين، على الأقل، لم تكن لديه النية في تنفيذ الاتفاقية نصاً أو روحاً. بدلاً من ذلك كان مصمماً على تقوية نفوذ حزب البعث، وكان بحاجة إلى توقف مؤقت لتلك الحرب المدمرة في الشمال. كانت تلك مناورة من صدام لكسب الوقت، بينما كان ملا مصطفى واثقاً من الاتفاقية التي تم التوّصل إليها فحدّ من علاقاته، إلى حد ما، مع إيران، وأرسل ممثلين إلى اللجنة المكلفة بمراقبة عملية الانتقال إلى الحكم الذاتي، باذلاً قصارى جهده لمنع وقوع أية اشتباكات بين رجاله والقوات العراقية. وبدا واضحاً، أنه ليس لدى بغداد أية نيةٌ لتنظيم الاحصاء

الجديد الذي وَعدت باحرائه في ١٩٧١ ليس هذا فحسب بل كانت تحاول جاهدة تغيير التوازن السكاني في المناطق الحدودية. و بدأت الحكومة ببرنامج لتوطين عرب الجنوب في كركوك بشكل خاص، قبل أن يجف حبر الاتفاقية تقريباً، وهو شيء استطاع الأكراد ملاحظته بأنفسهم – رغم إن شكاويهم كانت دائماً تواجه بالحقيقة المرة من إنه حتى قبل سنوات قليلة كان التركمان يشكلون الأغلبية في كركوك وإن انتقال الأكراد إلى المدينة بحثاً عن العمل هو الذي غيّر التوازن السكاني هناك.

وبالنسبة للأشهر المتبقية من سنة ١٩٧٠ فقد سارت الأمور بشكل حسن إلى حدٍ ما، رغم إنها لم تخلُ من بعض الاشتباكات، وأصبح واضحاً أكثر فأكثر إن الشرائح القوية في حزب البعث والحكومة كانت ضد الاتفاقية. ولكن الوسيلة لتحقيق ذلك لم تُعلن أبداً، لأن العروبيين في الحزب كانوا متخوفين من أن مقدار الحكم الذاتي الذي تم عرضه سوف يجلب النقد من الدول العربية المجاورة، ولأن الجيش لم يكن مسروراً من الحرية التي مُنحت لمجموعة من السكان الانفصاليين، ولأن البوليس، الذي برز بأنه العمود الفقري للنظام، رأى بأن سلطتهم في حالة اضمحلال. كاننصيب الأكراد من هذه الأتفاقية ، بالإضافة إلى منصب نائب الرئيس، الرمزي إلى حدٍ كبير، أربعة وزراء في الحكومة وهي وسيلة اعتقدوا بأنها كافية لممارسة سيطرة حقيقية.

وبعد أربع سنوات اعترفوا أن وزراءهم لم يُمنحوا قط أية سلطة حقيقية وبأنهم خُدِعوا بوعود صدام. وفي ١٩٧٠ أظهر البوليس السري بقيادة ناظم كزار - وهو رجل سيء الصيت متحجر الفؤاد أسلحته في ذلك الاغتيال والاعتقال العشوائي والتعذيب – الوجه الحقيقي للنظام بينما حدّد صدام حسين الإطار السياسي لاضمحلال الاتفاقية. كانت خطة صدام الجديدة تتمثّل في أن الحكم الذاتي ((هبة)) من الحكومة و ليس نتيجة الحرب التي شنّها الأكراد أو بسبب مفاوضاتهم السياسية. وإنه [الحكم الذاتي] جزء من عملية إعادة البناء الثورية التي يقوم بها حزب البعث. كان اسلوب كزار في إظهار سير الأحداث أكثر استقامة، فقد نظّم هجمات على مكاتب ح.د.ك على أمل استفزازهم للقيام بأعمال انتقامية مماثلة وسيكون هذا مبرراً للتخلص من الاتفاقية وعندما فشل في مسعاه هذا لجأ إلى الاغتيالات.

كانت أولى هذه المحاولات الخرقاء على حياة مسعود وإدريس البرزاني عندما ذهبا إلى بغداد للاحتفال بعيد الفطر فجُرح سائقهما، ولكنهما نجيا عندما فتح رجال مسلحون النار على سيارتهم،

ورغم إن الجميع كانوا يعرفون حق المعرفة إن العملية من تدبير البوليس، فقد قُيدت الحادثة ضد ((قطاع طرق))

وجرت محاولة اغتيال أخرى أكثرُ حبكة لملا مصطفى نفسه في أيلول ١٩٧٠. كان رجال الأمن الأكراد مدركين للمخاطر، لهذا كانوا يفتشون كل من يزور مركز قيادة البرزاني، كان هذا قبل اختراع الحواجز الالكترونية، لذلك كانوا يقومون بالتفتيش الجسدي. وعندما ذهب وفد من رجال الدين الشيعة[1] في الجنوب لتحية البرزاني و مناقشة الموقف، لم يسمح البرزاني لرجاله بتعريض ضيوف كهؤلاء للأهانة بـ ((التفتيش عن السلاح)). كان البوليس السري العراقي يدرك مدى احترام البرزاني لكل رجال الدين فاستغلوا ذلك وأقنعوا عدداً منهم - وبينهم ملالي معروفون ـ بحمل آلات تسجيل رُبطت بأجسادهم. وأخبروا هؤلاء بأنه مهم جداً للحكومة أن تعرف ما يقوله البرزاني بالضبط. واثناء استمرار اللقاء بين البرزاني والملالي، كان السائقون الذين نقلوا الوفد إلى حاج عمران، بسيارات الليموزين وتويوتا وشيفروليه التي زودتهم بها الحكومة، يتسكعون بسياراتهم في الخارج، وبعد أن جلس أعضاء الوفد في كراسيهم المواجهة للملا مصطفىً الجالس خلف طاولته، ضغط أحدهم زراً فأخذت المواد المتفجرة المحشوة بالمسجلات، التي كان يحملها بعض الملالي، بالاشتعال. فقُتل وأُصيب عدد آخر من الحاضرين، و رغم أن البرزاني كان قد أُصيب، إلا أنه أُنقذ لأنه في نفس لحظة الانفجار كان أحد الخدم منحنياً على طاولة البرزاني ليصّب له كأساً من الشاي. قضى الرجل التعيس نحبه وتمزق إرباً إرباً، لكن وجوده أنقذ ملا مصطفى. ورغم أن الحكومة تنصلّت من معرفتها بالحادثة ووعدت بالتحقيق فيها، لم يكن هناك أدنى شك بمن دبّر محاولة الاغتيال تلك، كما كان معروفاً تماماً إن (كزار) واقع تحت حماية صدام حسين.

كان هذا مؤشراً واضحاً للأكراد بأن تطلعاتهم بالسلم والحكم الذاتي كانت جوفاء، و قد تعزّز إدراكهم لهذه الحقيقة باعتقال النشطاء، والغارات المتكررة على مواقع البيشمركة وبمزيد من الهجمات على مكاتب ح.د.ك. ويتذكر هو شيار زياري تجربته الشخصية في هذا المضمار فيقول:

((كان ينبغي عليَّ الذهاب إلى بغداد لاجراء بعض الترتيبات للتسجيل في الجامعة، وبينما كنا هناك عرّجنا مع بعض الأكراد الآخرين على أحد وزرائنا. ولدى عودتنا إلى الفندق الذي كنا نقيم فيه

(١) كانوا رجال دين صغار اثنان منهم شيعة والثالث سني، (هـ . ع)

تم اعتقالنا. أخبرنا البوليس بأنهم يأخذوننا لأننا كنا نحمل مسدسات، لكننا استطعنا أن نقدم رخصاً من (كزار) تُجيز لنا أن نكون مسلحين لحماية أنفسنا. فلم يعيروا الرخص أي اهتمام، وكان ذلك مؤشراً كافياً بأن (كزار) نفسه قد أمر باعتقالنا. في الحقيقة كانوا يعتقدون أن باراستين (الاستخبارات الكردية) هي التي أرسلتنا لتنفيذ عملية قتل في بغداد[1]، انتقاماً لمحاولة اغتيال ملا مصطفى، ربما ضد صدام حسين الذي كان يُعرف على الدوام بـ ((السيد الوكيل))

وَصَلَتْ العلاقات المتدهورة بين العراق وإيران إلى ذروتها باستيلاء إيران على ثلاثة جزر في الخليج الفارسي في نفس الوقت الذي كانت بريطانية تسحب فيه جنودها، مما أجبر الشاه على إعطاء المزيد من الدعم للأكراد الذين بدأوا يدركون بأن صدام حسين ليس أهلاً للثقة. والسبب الآخر للنزاع الجديد كان رد الفعل العراقي تجاه استيلاء إيران على الجزر. وفي خطوة ستتكرر فيما بعد، اختار العراق ترحيل آلافٍ من الناس قيل أنهم من أصل إيراني. والكثيرون من الخمسين ألف الذين طُردوا كانوا من الأكراد الشيعة ممن هاجرت عائلاتهم من إيران قبل سنوات. وهو إجراء فسّره البرزاني بأنها محاولة مقصودة لتقليص السكان الأكراد.

بعد ذلك وفي عام ١٩٧٢ وقعَّت العراق معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتي، مسببةً تغييراً في موقف الشيوعيين - الذين كانوا أقوياء حتى ذلك الحين - لدعم البعث، تاركين الأكراد عرضة لمزيد من الخطر. وهذا يعني أيضاً دفع الأكراد أكثر فأكثر للإعتماد على الغرب، لأن المعسكر الشرقي كان يدعم بغداد ولأن إيران كانت تتقرّب أكثر من الولايات المتحدة. وفي عام ١٩٧٣ ذهب مسعود وادريس البرزاني بمهمة سرية إلى واشنطن، حيث قابلا ريتشارد هيلمز Richard Helms رئيس وكالة الاستخبارات المركزية (سي.آي.أ) في ذلك الوقت، وآل هيغ Al Haig رئيس أركان البيت الأبيض. ونتيجةً لهذه اللقاءات بدأ المستشارون الاسرائيليون يعملون في كردستان وبدأت المساعدات العسكرية الإسرائيلية تتدفق على البرزاني عبر إيران، وفي نهاية الأمر باشرت القوات النظامية الاسرائيلية القيام بمهمات عسكرية داخل العراق بالتعاون مع الأكراد، وحسب وزير خارجية اسرائيل في ذلك الوقت ديفيد كمحي David Kimche كانت هناك كتيبتان ونصف من المدفعية

(١) لم يكن لدى القيادة الكردية افق لتوسيع الحرب إلى العاصمة والمدن الداخلية الأخرى. وكانت هناك فرص واسعة لقصف القصر الجمهوري بالصواريخ عبر نهر دجلة فضيعها البرزانيون (هـ . ع)

والمدافع المضادة للطيران. كذلك أرسل الأمريكان الأسلحة ورجال الـ (سي.آي.أ) لتوجيه الأكراد، وهكذا عندما بدأت الحرب من جديد، كانت قوات البرزاني أفضل من أي وقت مضى، وشكلت تحدياً حقيقياً للقوات العراقية.

وجلبت الحرب العربية ـ الاسرائيلية معها فترة انقطاع في الحرب المتصاعدة بين العراق الأكراد، استُغلت من قِبل ملا مصطفى والإيرانيين لتحسين الدفاعات الكردية والإقدام على التدريب ـ فذهب عدد من المقاتلين الأكراد إلى إيران واسرائيل للتدريب على كيفية استعمال الأسلحة المتطورة التي كانت تُسلّم للأكراد باستمرار. ومع ذلك وحتى عام ١٩٧٤، السنة التي كان من المفروض أن يتّم فيها التوصل إلى الحكم الذاتي الكامل، استمرت المفاوضات المتقطعة بين الأكراد والحكومة، حيث لقاءات اللجنة المشتركة، وزيارات المسؤولين والمناقشات المطوّلة لم تفضِ إلى أي تقدم. وسرعان مابدا واضحاً أن حكومة بغداد مصممة على مواصلة تطبيق الحكم الذاتي ولكن حسب فهمها هي، ووفق شروطها هي وفي المناطق التي تختارها هي. وفي الحادي عشر من آذار من عام ١٩٧٤ أُعلن عن قانون جديد للحكم الذاتي، مُنِح الأكراد بموجبه أقل بكثير مما كانوا يريدون أو ماظنوا أنهم تفاوضوا من أجله في السابق، وقد مُنحوا مهلة لمدة خمسة عشر يوماً للقبول والانضمام إلى الائتلاف الحاكم (الجبهة الوطنية). بدلاً من ذلك، أدت الغارات والمناوشات الحدودية بين الطرفين إلى حرب شاملة.

لم يكن البيشمركة في هذه المرة مجرد مقاتلين في حرب العصابات الآمنين في جبالهم حيث يشنون بين الحين والآخر هجمات على الجيش العراقي في السهول مستخدمين أسلوب الكر والفر، لقد تحوّل الأكراد بعد الدعم الأمريكي والاسرائيلي علاوةً على الدعم الإيراني، إلى جيش قادر بل وراغب للدخول في معارك مستمرة وثابتة مع عدوهم. لقد كان خطأً مأساوياً وضعُ الأكراد تحت رحمة مناصريهم وخاصة تحت رحمة شاه إيران الأناني والساخر. كان ذلك شيئاً معروفاً تماماً لدى ملا مصطفى ومساعديه، وذلك لأن الأسلحة التي كانت تصلهم من إيران دفاعية بالدرجة الأولى لذلك كلما استمر البيشمركة في الهجوم رافقه استنفادٌ في المعونات. لقد كانت المساعدة، على حد تعبير هوشيار زيباري ((بالقطارة من إيران والولايات المتحدة)).

إن السبب وراء ذلك جليٌّ: كان على الشاه أن يتعامل مع مسألة حساسة: إعطاء الأكراد بما فيه الكفاية لصدّ الجيش العراقي أودعمهم بشكل جيد بحيث يستطيعون إلحاق الهزيمة التامة بالقوات العراقية. فقد كان لدى الشاه أيضاً أقلية كردية، ولا تزال ذكرياته طرية عن الاضطرابات التي سببتها

جمهورية مهاباد في بداية عهده، لذلك لم يكـن راغباً في أن يفعـل أي شـيء قـد يثـير المشـاعر القوميـة الكردية داخل دولته.

في عام ١٩٧٥ هدأت الحرب ولكن بنفس مأزقهـا السـابق، بحيـث لم يسـتطع أي طـرف أن يحقق نصراً صريحاً، فقد استخدم العراق كل جنوده تقريباً واستعملَ القوة الجوية لقصف المـدن والقـرى دون أن يستطيع إخضاع الأكراد، الذين كانوا مزوّدين الآن بالدفاعات المضـادة للطـيران، وبطاريـات من نوع رابيير لصواريخ أرض - جو التي اسقطت بعض الطائرات العراقية. في هذه الأثنـاء كـان صـدّام مهدداً بالقلاقل في الجنوب، إذ كانت إيران تثـير المشـاكل بـين الشـيعة، وتهـرّب لهـم الأسـلحة وتنشـر الاشاعات عبر منطقة الأهوار وتحشد الجنود في خوزستان بشكل تهديدي لعرض القوة الإيرانية.

وبقاء الأحواء متوترة بين العرب واسرائيل نتيجة حرب ١٩٧٣ واتفاقيـات الانسـحاب مـن المعركة التي رتبّها كسينجر، كان الوضعُ ينـذر بالانفجـار، وهـذا مـا أثـار قلـقَ دول المنطقـة ولا سـيما الاردن التي كانت تعتمد على علاقات حسن الجوار من أجل بقائها. فرتّب الملك حسين، الذي عـادت إليه ثقته بنفسه من جديد بعد انتصاره على الفلسطينيين في عام ١٩٧٠، اتصالات مباشرة بين مسـؤولي هذه الدول وأدت إلى لقاءات في تركيا بين وزراء العراق وإيران، وكذلك إثر جهود الوساطة الـتي قـام بها الرئيس الجزائري (هواري بو مدين) الذي كان يهمـه مـا سـيتركه الخـلاف مـن أثـر داخـل منظمـة الدول المصدرة للنفط (أوبك).

وقد كان التدخل الجزائري هو الذي أعطى ثماره في النهاية، فقد أُقنع كل مـن نـائب الرئيـس العراقي القوي في ذلك الحين، صـدام حسـين، وشـاه إيـران بحضـور اجتمـاع (أوبـك) في الجزائـر آذار ١٩٧٥. فتقابلا، وتعانقا، وقررا تسوية سبب الخلاف الرئيسي بين الدولتين، المتمثل في المنطقـة المحاذيـة للنهر في شط العرب. إن معاهدة الحدود الدولية وعلاقات حسن الجوار ووثيقة التفاهم الـتي تم التوّصـل إليها أكدت بأن حدود المصب ستتبع خط التالوك وهو خط الوسط في عمق مياه النهـر، موفـراً لإيـران بذلك السيطرة من مركز المجرى المائي، بدلاً من الوقوف عند الضفة كما كـان في المـاضي. حـين كـان العراق يدعي السيادة عليها ويفرض على السفن أن ترفع العلم العراقي عند المرور بها.

واستولى العراق على مساحات من الأرض لتسوية الحدود في الشمال، ولكن ذلك كان أمـراً طارئاً فالمهم والاستراتيجي هو أن العراق، مقابل تنازلاته في الجنوب حصل على وعد مـن الشـاه، بأنـه

سوف يُوقِفْ كل أنواع الدعم للأكراد في الشمال وبأنه سوف يقطع خط إمدادهم، وهذا أمر وضعَ على الفور نهايةً للتمرد.

وكما يُشير البروفيسور جَيمز بيل (James Bill) رئيس وكالة الاستخبارات المركزية، الذي كان ينظم مساعدة الأسلحة الأمريكية للأكراد، فإنه أدرك تماماً ماذا سيكون أثر ذلك. لهذا بعث في العاشر من آذار رسالة إلى المدير [مدير سي.آي.أ] وليام كولبي (William Colby) متسائلاً: ((هل مركز القيادة على اتصال مع وزارة كسينجر بخصوص هذه المسألة؟ إذا لم تتعامل حكومة الولايات المتحدة مع الوضع ببراعة وبطريقةٍ تتجنب فيها اعطاء الأكراد انطباعاً بأننا نتخلى عنهم فإن قضيتهم ستصبح في متناول الجميع. إن الإتفاق الإيراني لم يبدد تطلعاتهم السياسية فحسب بل إنها تعرّض حياة الآلاف للخطر)) ولم يكن هناك أي رد من لانغلي Langley أو من وزارة الخارجية أو من البيت الأبيض.

إن تعاون الولايات المتحدة مع الشاه كان قد خطط له هنري كسينجر كقوة مقابلة للنفوذ السوفييتي المتزايد في المنطقة عبر العراق، ولاقت استحساناً من قِبل الرئيس المخلوع ريتشارد نيكسون. لقد كان هدفهما إضعاف العراق وذلك بالابقاء على التمرد الكردي بمستوى ثابت، فلا يسمحان للجيش بالانتصار، أو للأكراد بالنجاح، وهكذا يستنزفان كلا الطرفين باستمرار وهو ما سرّ الشاه تحديداً الذي كان يُعَدُّ حليف أمريكا الأول في المنطقة، وأفضل زبون للأسلحة في العالم، والوكيل الأمريكي المنتخَب في الخليج. ولكن كان الشاه في الحقيقة، هو الذي يُدير سير الأحداث، فعندما أنهى نزاعه مع العراق عمل الأمريكيون بخنوع مع الشاه في هذه الصفقة الخيانية للأكراد الذين كانوا مشمولين أصلاً بالحماية - ورغم إن إيران كانت تزود الأكراد بـ ٩٠٪ من المعدات الحربية، كان هناك إحساس بأن الاشتراك الأمريكي وحده سوف يطمئن البرزاني المرتاب ويُبقيه في حالة حرب مع العراقيين. فإذا اعتمد على الإيرانيين وحدهم، فمن المحتمل أن يسعى ملا مصطفى إلى تسوية مع بغداد، مدركاً من تجربته الشخصية كيف يمكن أن تتغير السياسة الفارسية بسرعة.

وفي هذه المرة التزم الشاه بوعده لصدام حسين، بسخرية قاسية ومفاجئة من الأكراد وبطريقةٍ، وفقاً لـ (كمحي) - فاجأت حتى الاسرائيليين الذين كانوا في إيران. إذ قال القواد الإيرانيون بإن هناك مناورة للحنود، لكن الوحدات التي سُحبت بسرعة لم يتم تبديلها بوحدات أخرى، وهكذا عرف العراقيون في الثالث عشر من آذار سنة ١٩٧٥ بأن الأكراد سيُبلغون بنهاية الدعم الإيراني، وبانهم سيُمنحون مهلةً لمدة أسبوعين سيتم خلالها وقف إطلاق النار قبل أن تُغلق الحدود في وجههم.

وفي الثاني عشر من آذار انسحبت القوات الإيرانية مع الكردية، وفي اليوم التالي، حيث كان من المقرر أن يكون هناك وقف لإطلاق النار، بدأ العراقيون هجومهم الضخم في نفس الوقت الذي كان الزعماء يُبلغّون بما يجري.

في الأول من نيسان أُغلقت الحدود بإحكام، وفي غضون الأسبوعين التاليين تُرك الأكراد لوحدهم لمواجهة هجومٍ ضارٍ شنّه الجيش العراقي بأكمله، الذي كان قادراً على أن ينقل أكبر قوة ممكنة إلى الشمال متأكداً من أنه لن يكون هناك أي هجوم إيراني من مكان آخر. فرّ ملا مصطفى وابنيه، مسعود وإدريس، بالإضافة إلى مستشاريه إلى إيران. بينما قام الجيش في كردستان العراق بالحلقة الأولى من سلسلة الانتقامات الرهيبة ضد الناس الذين تحدّوه منذ وقت طويل. فقُتل الآلاف و أُسر آلاف آخرون تم ترحيلهم إلى مناطق حارة مجدبة وغير مُلائمة للعيش في الجنوب، كما أُجبر الآلاف أيضاً على عبور الحدود إلى تركية وإيران.

في هذه المرة فقط كان هناك تحقيق ونتيجة. فبعد قضية (وترغيب) عيّن الكونغرس لجنة مختارة للإشراف على دائرة الاستخبارات وأُسندت رئاستها إلى عضو الكونغرس النيويوركي (أوتيس بايك) Otis Pike. بحثت اللجنة تصرفات الـ (سي.آي.أ) تجاه عدد من القضايا خلال فترة إدارة الرئيس نيكسون، وعن علاقاتها مع وزارة الخارجية و عن سلوك موظفيها. ومن القضايا التي أثارت اهتمام اللجنة: الطريقة التي تمّ بها تزويد أكراد شمال العراق بالأسلحة وكيف أُجيز لتلك العملية السرية ومن قِبل مَنْ؟ وفيما إذا كانت أمريكا في موقع السيطرة أم لا؟ وقدمت اللجنة تقريراً عنيفاً ظهر للعلن بعد أن تسّرب إلى يد صحفي مشهور، وإذاك قررت صحيفة ((فيلج فويس Village Voice)) الراديكالية المحظورة، نشر مضمون التقرير.

لاحظت اللجنة بدقة ما حصل فكتبت:

"في عام ١٩٧٢ التقى الدكتور كسينجر مع شاه إيران الذي طلب من الولايات المتحدة مساعدة الأكراد في تمردهم ضد العراق، خصم الشاه. وقدّم كسينجر فيما بعد الاقتراح إلى الرئيس نيكسون الذي وافق على ما أصبح يُعرف ببرنامج الستة عشر مليون دولار. بعد ذلك أُوفِدَ جون، ب - كونولي John B. Connolly وزير المالية الأسبق للرئيس نيكسون إلى إيران ليُعلِمَ الشاه)).

((وأمِلَ الرئيس والدكتور كسينجر والشاه بأن أتباعنا [الأكراد] لن ينتصروا وفضّلوا بدلاً من ذلك أن يستمر المتمردون، ببساطة، في مستوى من الحرب كافٍ لاستنزاف موارد الدولة المجاورة

لحليفنا. ولم يُفصح عن هذه السياسة لأتباعنا الذين تشجعوا للاستمرار في القتال. حتى إن سياق العمليات السرية من قِبلنا كان عملاً مشؤوماً)).

وأشارت اللجنة إلى أن الدكتور كسينجر قد أمر الأكراد شخصياً بألا يشنوا أي هجوم على العراق خلال فترة الحرب العربية ـ الاسرائيلية في عام ١٩٧٣، فربما يكون هذا الهجوم ناجحاً، واتفق أيضاً في القرار بأن يقطع صلاته مع الأكراد عندما يتّوصل الشاه إلى اتفاقية مع العراق.

وأشار تقرير اللجنة إلى أنه عندما تم عَرض هذا القسم من نتائج التحقيق على ((موظف كبير)) ـ كسينجر ـ علّق بقوله: "يجب ألا يُخلط بين العمل السري والنشاط التبشيري".

وأوضح تقرير بايك بأن دعم أمريكا بالأسلحة للأكراد قد تم لصالح إيران ((ولأن مساعدة حليفنا قد قللت من اتفاقية التعاون بيننا فإن مساعدتنا تُعتبر رمزية إلى حدٍ كبير والوثائق التي أُتيح للجنة الإطلاع عليها تشير إلى أن الولايات المتحدة قد عملت في الواقع كَكفيل بأن المتمردين ـ الأكراد ـ سوف يتم التخلي عنهم بسرعة من قبل الشاه. ورغم كل الضمانات والتأكيدات الضمنية، قُضي على الأكراد بشكل مفاجئ من قِبل الشاه بعد ثلاث سنوات، وآلاف القتلى وستة عشر مليوناً من الدولارات.

ويبدو أنه لولا دعَمْ الولايات المتحدة وتحريض الشاه [للأكراد] لربما توّصل هؤلاء إلى تسوية مع الحكومة المركزية، ولحصلوا على نوعٍ من الحكم الذاتي متجنبين المزيد من سفك الدماء. بدلاً من ذلك واصل الأكراد القتالَ متكبدين آلالاف القتلى والجرحى ومئتي ألف لاجئ)).

ويشير تقرير بايك أيضاً إلى أنه ما أن توّصل الشاه إلى اتفاقية مع العراق فإنه لم يكلف نفسه عناءً ((إخبار شركائه الأمريكيين الأدنى منزلةً)) [من حيث المساعدة طبعاً] بأن برنامج الأكراد على وشك الانتهاء.

((لابد وإن الأكراد قد أخذتهم الدهشة أيضاً، بينما شنّ العراقيون، الذين كانوا على علم بالانقطاع الوشيك للمساعدة، حملةَ تفتيش وتدمير شاملة في اليوم الذي أعقب التوقيع على الاتفاقية. فإنتهت حركة الحكم الذاتي وتشتت أتباعنا السابقين أمام القوات المتفوقة للحكومة المركزية)).

إن حدوث هذه [الأمور] لم يكن يعني نهاية نضال أكراد العراق من أجل الحكم الذاتي، لم يكن ذلك سوى محطة في طريق بحثهم الطويل عن نوعٍ من الاستقلال. لكنها كانت النهاية لما

مصطفى البرزاني. فقد أضطّر للذهاب إلى إيران ليعيش في ضيافة الرجل الـذي خانـه للمـرة الثانيـة في حياته ـ فقد كان الشاه، رغم كل شـيء هـو الـذي أطلـق رصاصـة الرحمـة علـى الجمهوريـة الكرديـة المستقلة قبل ثلاثين عاماً. بقي ملا مصطفى في إيران حتى عـام ١٩٧٧، ثـم ذهـب ليقضـي السـنوات الأخيرة من عمره على أرض الدولة الأخرى التي تخلت عنـه بحقـارة والـتي وضعـت ببسـاطة مصالحهـا السياسية الكبرى أمام حياة الإنسان. توفي البرزاني في مكلين Mclean بولايـة فيرجينيـا آذار ١٩٧٩.

الفصل السابع

حلبجة

بعد السادس عشر من آذار ١٩٨٨ كانت كلمة واحدة تكفي كي ترمز إلى مأساة الأكراد: حلبجة. إن أحداث ذلك اليوم في تلك المدينة العراقية الحدودية فعلت أكثر من أي حادثة أخرى، خلال سبعين سنة من التمرد ضد الحكومة المركزية، في تذكير الأكراد في كل مكان، بهويتهم الكردية المستقلة. حيث تعد حلبجة نقطة التحوّل ويعتبرها الكثيرُ من الوطنيين الأكراد انبثاق وعي قومي يتجاوز الحدود التي تقسّم الشعب الكردي.

ففي أصيل السادس عشر من شهر آذار ظهر السرب الأول من الطائرات العراقية فوق المدينة لتقصفها بقنابل غاز الخردل وغاز الأعصاب والسيانيد. وفي غضون ساعات تحول خمسة آلاف شخص إلى جثثٍ هامدة وسقط الكثيرون محترقين ولاهثين تحت تأثير الهجوم الكيماوي. ورغم إنه لم يتم التحقيق من عدد الضحايا من مصدر مستقل أبداً فإن الأثر الذي خلّفه الهجوم أشار إلى حجم الكارثة، فقد كانت الجثث تفترش الشوارع لأن الضحايا سقطوا حيث كانوا يقفون عندما بدأ الهجوم. سقط الرجال، والنساء، والأطفال موتى دون أن تبدو عليهم آثار الجراح، لكن وجوههم كانت مشوهّة بسبب الاختناق. وقد كان سقوط رجلٍ على وجهه أمام عتبة بابه وهو يلف طفله الرضيع بذراعيه دليلاً على عدم جدوى الحماية.

إن الأكراد يطلقون على حلبجة اسم اوشفيتس[1] Auschwitz الكردية لا لأن حجم المجزرة يُقارن بالمجزرة النازية في معسكر الموت ذاكّ بل لأنه تم اختيار الضحايا فقط لكونهم أكراداً. لقد قُتل هؤلاء، ومعظمهم من المدنيين، على يد قوات صدام حسين عقاباً لهم على تعاونهم المزعوم مع إيران ومع البيشمركة المؤيدين للإيرانيين الذين استولوا على حلبجة من القوات العراقية قبل أقل من ثمانٍ وأربعين ساعة. كان ذلك إنذاراً بأن بغداد سوف لن تتورع عن فعل أي شيء لاستئصال ((الخيانة)) الكردية.

---

(١) أوشفيتس: مدينة تقع في جنوبي بولندا (بولونيا) أقام فيها النازيون معسكراً للإعتقال المترجم.

لم تكن تلك المرة الأولى التي استخدم فيها النظام البعثي الأسلحة الكيميائية ضد الأكراد – فقد تقدم الملا مصطفى البرزاني بشكوى إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٦٣ لاستخدام بغداد تلك الأسلحة، ولم تكن الأخيرة، ففي الأخيرة أيضاً السنة التي سبقت الهجوم على حلبجة كانت هناك هجمات كيميائية لواحد وعشرين مرة على القرى والمدنيين ووحدات البيشمركة في الوديان المنعزلة. فبعد الهجوم على وادي بالسان بمحافظة أربيل في السادس عشر من نيسان ١٩٨٧ توجه ٢٨٦ جريحاً كردياً إلى مركز المدينة للعناية الطبية، فأُلقي القبض عليهم جميعاً وقُتلوا على يد الجيش العراقي. لكن حلبجة كانت أقسى العمليات وأكثرها هلاكاً حتى ذلك الحين، فقد كانت موجهة ضد أهداف مدنية للمواطنين العراقيين دون أن تكون لها أي أهمية عسكرية.

ورغم حجم المجزرة وحضور صحفيين غربيين إلى المدينة في غضون أيام، كان رد الفعل الدولي تجاه العملية صمتاً مُطبقاً. صحيحٌ أن أحداً لم يُعر اهتماماً جدياً لمحاولات بعض المسؤولين العراقيين للتنصل من المسؤولية أو إلقاء اللوم على الإيرانيين، ومع ذلك بدا أنه ليس هناك أي رغبة من المجتمع الدولي للقيام بعمل تأديبي ضد بغداد. فقد دخلت حرب الثمانية أعوام بين العراق وإيران في مرحلتها الأخيرة، ولم تكن القوى العالمية راغبةً باتخاذ أي اجراء ضد العراق، لاستعمالها الأسلحة المحرّمة، بطريقة سيفُهم منها إنه تحيزٌ إلى جانب إيران.

بقيت الدول العربية إلى جانب العراق بحزم رغم إنها كانت متأكدة مما حدث[1] و عندما ناشد وفدٌ كردي الكويتَ لتحتج ضد رش المدنيين الأبرياء بالغازات السامة سألهم مسؤول كويتي: ((وماذا كنتم تتوقعون أن يُرش مع ماء الورد؟))

---

(١) نشير هنا إلى مواقف بعض " المثقفين" العرب من ذلك. فيشبه (بشير حمادي) رئيس تحرير جريدة (المساء) الجزائرية صدام بـ (زنوبيا)، فـ (زنوبيا) استطاعت تحويل تدمر من دويلة إلى امبراطورية حقيقية وكذلك (صدّام) جعل من العراق ((قوة رئيسية في المنطقة)) أما منظمة التحرير الفلسطينية فقد كانت تعتبر الحادثة ((تضليلاً غربياً)) لصرف الأضواء عن الانتفاضة. حتى وصل الأمر بـ (أبي عمار) ارسال خمسين ألفاً من شباب فلسطين ليكونوا عوناً لصدام ضد كل ((ما هو حق وشرف...)) كما يقول الكاتب الإسلامي المصري خالد محمد خالد. أما غسان الأمام – وهو فلسطيني – فنشر "قصيدة" في جريدة الشرق الأوسط (٩١/٦/١١) بعنوان "مداعبة بريئة للظاهرة الكردية" ويقول فيها:

ضع الشال على رأسك وارسم شاربا على شفتك
واحزم خصراً بزنارك وتبختر خافقاً سروالك

+++

نحن آغاتي" في الزمن الكردي

في ذلك الوقت كان هناك اهتمام بسلامة الملاحة في الخليج، أكثر من الاهتمام بقَدَر السكان الأكراد في امتدادهم الغامض على الخط الأمامي حيث عبرّت وزارة الخارجية الأمريكية عن اشمئزازها من صور المجزرة الواردة من حلبجة لكنها اقتصرت على إدانة استعمالِ الأسلحة الكيميائية من قِبل أي دولة كانت وفي أي زمان ومكان، قبل أن تتذمر بقولها إن إيران ربما تكون مذنبة أيضاً.

وبعد ستة أسابيع من الهجوم جاء في تقرير كُتب للأمم المتحدة من قِبل الدكتور العسكري الاسباني العقيد (مانويل دومينيك كارمونا Manuel Dominguez Carmona إنه من المستحيل أن نقول بالتأكيد مَنْ المسؤول عن استعمال الأسلحة الكيميائية في حلبجة، إيران أم العراق أم كلاهما. وفيما بعد اتخذ مجلس الأمن قراراً عجز فيه عن اتهام العراق أو فرض عقوبات ضد بغداد. لقد أُفلت منها صدام حسين.

ووجدت أحداث حلبجة طريقها بسرعة إلى الأسطورة الكردية، حتى إنها أصبحت موضوعاً لإحدى أغنيات رائد الأغنية الشعبية الكردية شفان بَرْوَرْ - المولود في كردستان تركيا - وأصبحت تتمتع بمنزلة النشيد الوطني [الكردي]. لقد كان لهذه المجزرة اللامبررة للمدنيين الأكراد تأثير عاطفيٌ بين الأكراد في تركيا والاتحاد السوفيتي والشتات كما في كردستان العراق. وقد عرف الأكراد في العراق بما جرى في حلبجة عن طريق الإشاعات فقط إذ تعمدت الرقابة العراقية بألا تمنحهم أي فرصة لمشاهدة أي شيء عن المجزرة، حتى ربيع ١٩٩١ عندما أخذت الأحزاب الكردية فيلماً عن حلبجة إلى مدن

+++

أدر القرص، واطلب شرطة النجدة يهبط الدجاج المثلج فاقداً رشده

وتهرع أمريكا وقد حشدت الحشدا وتركع أوربة فقد ذوبتها وجدا

وأغاني "البوب" تبني لك المجدا فنحن "آغاتي" في عصرك الكردي..

إلى أن يقول:

قضيتك مقدمة عند القاضي والداني "همبرغر" من أمريكا والتصفيق طلياني

والدنيا غارقة بهوى طالباني وبرزاني "وأنا حجارتي مصبوغة بالأحمر القاني

وقضيتي تراوح بين الأنس والجان.. نحن "آغاتي" مجانين حبك الكردي.

عن إبراهيم محمود، صورة الأكراد عربياً بعد حرب الخليج بتصرف.

أما الأستاذ هادي العلوي فقد بعث ((رسالة براءة إلى أطفال كردستان)) تخلى فيها عن هويته العراقية حتى لا يربطه شيء مع ذلك الطيار العراقي الذي "قصف الطفولة في كردستان". المترجم

وقرى المنطقة المحررة، وقد أُصيب من شاهده بالذهول والصمت أو انفجروا بالبكاء لا إرادياً. وفيما بعد سأل القوميون الأكراد أنفسهم، أكان صحيحاً عرض الفيلم للمدنيين الأكراد في هكذا وقت؟ وفيما إذا كان صدمة رؤيتهم لصور حلبجة قد ساهم في اصابتهم بالذعر والهروب إلى الجبال في وجه الهجوم العراقي المضاد الذي أعقب ذلك.

كان مستبعداً لجوء صدام إلى استخدام الأسلحة الكيميائية في عام ١٩٩١، بسبب رد الفعل الدولي الذي قد يتخذه الحلفاء، ولكن قوتها [الأسلحة] كانت كافية لزرع الرعب بين البيشمركة والمدنيين على حد سواء، لذا لم يكن صدام يحتاج إليها. والمقاتلون الأكراد الجسورين ظاهرياً ـ والذين كانوا يُغنّون عند ذهابهم إلى مواجهةٍ مع القوات البرية العراقية الأفضل تسليحاً ـ كانوا يتفرقون بسرعة عندما تظهر راجمة هليكوبتر خوفاً من أن تكون محملة بالمواد الكيميائية.

ورغم إن الهجوم على حلبجة يمثل بديهياً إهانة للقانون الدولي من قِبل العراقيين، وخرق واضح لمعاهدة جنيف لعام ١٩٢٥، فإن الحركة القومية الكردية لايمكن أن تنجو من اللوم تماماً بسبب حجم المجزرة والظروف التي نُفذت فيها.

ورغم إن الاستيلاء على حلبجة، في منتصف آذار، قد وُصفَ فيما بعد بأنه نصرٌ إيراني، إلا أنه في حقيقة الأمر، أُنجِزَ من قِبل البيشمركة، ولا سيما التابعين للاتحاد الوطني الكردستاني، الذين تولوا المهمة مقابل الدعم المادي والعسكري المستمر من طهران. لقد نفّذ الهجوم على المدينة خمسة آلاف من البيشمركة بقيادة شوكت حاجي مشير، وهو عضو بارز في الـ (أوك) من مواليد حلبجة. كما استولى البيشمركة التابعين لـ (ح.د.ك) بقيادة مسعود البرزاني على معسكرات إعادة الاستيطان شمال وجنوب المدينة. وهناك اعتقاد في كل مكان أن القوات الإيرانية دخلت المدينة حصراً بعد قصفها بالقنابل الكيميائية في السادس عشر من آذار. لذا فقد كانت القوات الوطنية الكردية مسؤولة عن سلامة سكان حلبجة المدنيين، رغم إنه من غير العمليّ إجلاء كل سكان المدينة لحمايتهم من الانتقام العراقي المحتوم.

هناك أيضاً وصمة عار في أُسطورة حلبجة، فبعد القصف الكيميائي أقدم عدد من البيشمركة على نهب بيوت المدينة.

ومهما تكن عيوب الحركة القومية، فإن صمت المجتمع الدولي لايمكن اغتفاره. فبعض النظر عن بعض الاستثناءات البارزة ـ الدول الإسكندينافية واستراليا وكندا و (لأسباب غَيْريّة بدرجة أقل)

اسرائيل وإيران ـ فشلت الحكومات في إدانة وحشية العراق بصراحة، رغم إن الأكراد ظلوا يحذرون منذ خمسة سنوات بأن صدام حسين يتعّمد استخدام الأسلحة الكيميائية ضدهم وبأن الغارات التي شنها في السنتين ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ ـ بما فيها غارة حلبجة ـ كانت تمثل أول استعمال عسكري لغاز الأعصاب، فمواد مثل تابيون اشدُ فتكاً وأصعب مواجهةً، وأصعب اكتشافاً من المركبات البسيطة. لم يكن البيشمركة مزودين بكمامات الغاز، لكنهم كانوا يأملون بالتخلص من أسوأ آثار غاز الخردل وذلك بتغطية وجوههم بعمامات مبللة أو بالاستلقاء على وجوههم بانتظار زوال الغاز، لكن أمام غاز الأعصاب السريع الفتك لم تكن الحماية لتجدي.

سمع الأكراد بان القوات العراقية قد استعملت الأسلحة الكيميائية ضد الإيرانيين في وقت مبكر من عام ١٩٨٢. ولكن في عام ١٩٨٤ عزّز اكتشاف كمامات الغاز من قبل البيشمركة أثناء إحدى غاراتهم على موقع عسكري عراقي في مدينة العمادية، البعيدة عن الخط الأمامي للجبهة، شكوك الأكراد بأن الحكومة كانت قد استعملت الأسلحة الكيميائية ضدهم. وبعد ذلك بكثير استولى الأكراد على عدد من الوثائق التي أشارت إلى استخدام الأسلحة الكيميائية، من بينها برقية سريّة من منطقة زاخو العسكرية على الحدود السورية ـ التركية، والتي أشارت إلى أن قوات ح.د.ك في بادينان استطاعت الحصول على أربعة آلاف كمامة، وأضافت بأن ((المخربين [البيشمركة] سيلبسونها عندما نستخدم المواد الكيمياوية في هجومنا على مواقعهم)).

لقد كان استعمال الأسلحة الكيميائية، والتي وصلت إلى ذروتها في حلبجة، إحدى وسائل القمع والإرهاب المستخدمة ضد أكراد العراق في الثمانينات. ولكي نفهم لماذا تبنىً صدام حسين سياسة قاربت حد الإبادة الجماعية ضد مجموعة من مواطنيه، فإنه من الضروري العودة إلى منتصف السبعينات في أعقاب دحر تمرد البرزاني.

فقد كانت مهمة حكومة بغداد الأولى بعد آذار ١٩٧٥ هو خَلْق انطباع بعودة الأجواء الطبيعية إلى المنطقة بعد طرد البرزانيين ((الاقطاعيين الخونة))، وقد كنا من الرعيل الأول من الصحفيين الذين أخذوا إلى الشمال في بداية ١٩٧٥ لنرى بأم أعيننا الهدوء والأمن اللذين يسودان مدن أربيل وكركوك والسليمانية وكيف تحترم الحقوق الثقافية الكردية. كان هناك الكثير من الكلام عن الأخوة العربية ـ الكردية وحقيقة أن الأكراد في العراق يتمتعون بقدر أكبر من الحكم الذاتي من أخوانهم في الدول المجاورة.

ولكن بغداد، في هذه الآونة، كانت قد شرعت بسياسة التعريب والتهجير القسري بقصد تغيير التركيب الاثني [العرقي] في كردستان. وحسب المصادر الكردية فإن حوالي مئتي ألف كردي قد قطعوا من جذورهم وأُرسلوا إلى مناطق عربية في جنوبي بلاد الرافدين، والهدف من ذلك هو تفريغ المناطق المتاخمة لكردستان تركيا وإيران من سكانها.

وكانت اللغة العربية، خارج مناطق الحكم الذاتي المحدودة، قد فُرضت كلغة التعليم للتلاميذ الأكراد. وفي اوائل ١٩٧٦ رُسمت الحدود المحلية بين المحافظات من جديد، وذلك لضم المزيد من الأراضي الكردية، في منطقة كركوك بشكل خاص، إلى العراق العربي. وبعد عدة أسابيع تباهت بغداد في تقرير إلى لجنة الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري، وبأنها تمكنت من ((إعادة السلم والوحدة الوطنية بعد حل المسألة الكردية في شمالي العراق)).

إثر هزيمة البرزاني غيّر معظم الزعماء القبليين مواقفهم وأصبحوا إلى جانب الحكومة وتخلوا عن فكرة التمرد من جديد. فاستخدم صدام بمهارة استراتيجيته المفضلة في الترغيب والترهيب لكسب ولاء الأغوات. واستُخدمت لأول مرة اعتمادات الحكومة المالية لتحسين البنية التحتية للريف. وبينما كان آلاف الأكراد يُهجّرون، سُمِح لآخرين بالعودة والمطالبة بتعويض عن الأراضي التي خسروها. وقد شكّل هؤلاء العائدون طبقة فلاحية مختلفة، فقد كانوا يدركون أنهم يدينون بثروتهم الضخمة، التي نزلت عليهم مؤخراً، للنظام في بغداد.

وفي السبعينات تدفقت عائدات النفط المتزايدة إلى كردستان حاملةً معها بنية اقتصادية مزدهرة لمدن المنطقة وفرص عمل أكثر للأكراد. ورغم نظام القمع العام، شهدت الأوضاع المادية تطوراً، ونتيجة لذلك ضعف الدعم للحركة القومية المهزومة وشكل ذلك تحدياً كبيراً للقوميين وحثّهم على إعادة تشكيل الحركة بعيداً عن القيادة المبنية على أساس قَبَلي والتوجه نحو هيئة حزبية أكثر حداثةً.

لكن إخفاق تمرد البرزاني واستراتيجية النظام العراقي في احتواء القومية الكردية عن طريق الوعيد والرشوة لم يكونا مؤشراً على نهاية التمرد المسلح في الشمال. ففي أيار من عام ١٩٧٦ استأنف البيشمركة عملياتهم ضد الجيش في مدن بادينان والعمادية ودهوك وزاخو التي كانت معاقل لقضية البرزاني. وبعد شهر نفذوا عملية جريئة وذلك بتفجير مستودع للأسلحة في كركوك وكان

الهدف منها البرهان على أن المقاومة الكردية لا تزال حية. هـذه العمليـات المتقطعـة للبيشـمركة كـان يُخطط لها من داخل العراق، وبقليل من التوجيه من القيادة السياسية المنفية.

إن التنظيم الوحيد المتمركز في الوطن حينذاك كان منظمة كوملة الماركسية المدنيـة الصغيرة المتمركزة حول السليمانية وهي منذ حزيـران ١٩٧٦ شـريك في الاتحـاد الوطـني الكردسـتاني بزعامـة جلال الطالباني الذي كان قد تشكل حديثاً. فقد أسس الطالباني (أوك) بعد هزيمـة البرزاني، كبديـل راديكالي للحزب القديم الذي اتهمه الطالباني بأنه حزب رجعي ومناوئ للثـورة بسـبب علاقاتـه مـع الشاه والـ (سي.آي.أ) والاسرائيليين.

وقد منحت علاقات الطالباني مع قوات الكوملة فائدة دعائية له أكثر من رفاقـه القدامـى في (ح.د.ك) مما أثار المزيد من التنافس بـين الحزبـين. وهكـذا بـدأ (ح.د.ك) بإرسـال رجالـه إلى العـراق أيضاً، ورغم الحديث عن التعاون الحزبي المتبادل، دخل الحزبان على الفور في حالـة قتـال. ففـي ربيـع ١٩٧٨ أرسل الطالباني ثمانمائة رجل إلى منطقـة الحـدود ظاهريـاً مـن أجـل تحريـر طريـق للإمـداد إلى تركيا، حيث وافقت جماعات الثوار الأكراد هناك على تقديم دعم لوجستي[1] لـ (أوك). ولكن ذلـك أدخل بيشمركة (أوك) إلى الأراضي التي يسيطر عليها تقليدياً (ح.د.ك) فتم تدمير قسم كبير مـن قـوة (أوك) على يد بيشمركة (ح.د.ك) بينما أسر الجيشان العراقـي والـتركي حـوالي ثلاثمائـة، وقـد أعـدم (ح.د.ك) فيما بعد بعضاً من القادة الذين أُسروا.

وبينما كانوا منهمكين في قتال بعضهم بعضاً، لم يبق لنشاطات البيشـمركة، تأثـير عسـكري كبير على نظام بغداد. ولكن ابقاء لهيب القوميـة الكرديـة متقـداً بـين السـكان المدنيـين، شـكلّ تحديـاً لاستراتيجية بغداد في تهدئة الأوضاع.

ومن اجل ذلك ذهب صدام حسين إلى كردستان في نهاية شهر حزيران، بعد أكثر من سـنة بقليل على هزيمة البرزاني، ليؤكد للشعب الكردي بأن أكثر الأجـراءات غـير الشـعبية الـتي تم اللجـوء إليها من اجل إعادة السلم، مثل الترحيل الإجباري للسكان من المناطق الحدودية قـد حققـت أهدافهـا ولهذا سيتم وقف العمل بها من الآن فصاعداً.

---

(١) لوجستي: سَوقيّ: ذو علاقة بنقل الجنود وإيوائهم وتموينهم، المترجم

ومرة أخرى عجزت وعود صدام أن تماثل الحقيقة على أرض الواقع فأعلن في غضون شهر عن سياسة جديدة تتمثل بإقامة حزام أمني في كردستان وذلك باجلاء كل السكان الواقعين ضمن خط ٢٠ كم على طول المناطق الحدودية. وكل من يُخطيء بالدخول إلى المنطقة سيُطلق عليه النار بمجرد رؤيته. كان الباعث على اتخاذ هذه الاجراءات هو خطة لحماية الأكراد من عمليات السلب لـ ((الانفصاليين الخونة)).

إن اتفاق صدام مع الشاه في عام ١٩٧٥ كان ظاهرياً حول النزاع الذي سببته السيادة على شط العرب، لكنه كان في الحقيقة ـ من وجهة نظر صدام ـ من أجل استمرار سيطرة بغداد على كردستان. ودعا صدام فيما بعد إدريس ابن ملا مصطفى، للمداولة حيث حذره:

((إذا حاربنا فلابد إننا سننتصر. أتعلم لماذا؟ ... أنتم تعتمدون على خلافنا مع شاه إيران. إن جذور النزاع الإيراني تعود إلى مطالبتها بنصف شط العرب، فإذا كنا قادرين على الاحتفاظ بكل العراق مع شط العرب فلن نقدّم أية تنازلات. ولكن إذا أُجبرنا على الاختيار بين نصف شط العرب وبين العراق بأكمله، فإننا سنتخلى عن شط العرب لكي نحافظ على كل العراق بالشكل الذي نريده.))

وهكذا تخلى صدام عن شط العرب في عام ١٩٧٥ للإحتفاظ بكردستان. وفي غضون خمسة سنوات اندلعت الثورة الإيرانية محدثةً خللاً في موازين القوى في الخليج، ومقدمةً الفرصة المناسبة ـ كما اعتقد صدام ـ لاستعادة ما خسره.

وفي كانون الثاني ١٩٧٩ فرّ الشاه من إيران في وجه موجة الإضطرابات الشعبية، ورجع آية الله الخميني ظافراً ليطبق عملياً حلمه في إعلان جمهورية إسلامية. وفي ظرف ستة أشهر تحوّل حليف الغرب الرئيسي في منطقة الخليج إلى ألدّ أعدائه، وقد تعزّز هذا التحوّل باستيلاء راديكاليين إسلاميين على سفارة الولايات المتحدة في إيران.

تحالف الأكراد في البداية مع الثورة على أمل الحصول على الحكم الذاتي، لكن العلاقات مع طهران تدهورت بسرعة، وفي صيف ١٩٧٩ كانت هناك حرب شاملة بين القوميين الأكراد و قوات الخميني.

وعلى خلفية الثورة والعنف في كردستان إيران، عقد (ح.د.ك) في العراق مؤتمره التاسع بعد وقت قصير من وفاة البرزاني في المنفى بالولايات المتحدة. حيث قرر المؤتمر مضاعفة الهجمات ضد النظام البعثي مستفيدين في ذلك من الاضطراب العام في المنطقة. وفي عام ١٩٧٩ نجح البيشمركة تقريباً في الاستيلاء على القاعدة العسكرية العراقية في حاج عمران، والتي كانت بمثابة مركز القيادة الرئيسي للعمليات العسكرية في منطقة الحدود الإيرانية.

قدّمت الثورة الإيرانية لنظام بغداد عدداً من التحديات والفرص وكان الوضع في كردستان يأتي في مقدمة الأولويات. فالبعثيون كانوا مسرورين لرؤية سقوط خصمهم السابق ولإضعاف القوة الأقليمية الوحيدة القادرة على كبح أطماع صدام في الخليج. لكن الاضطرابات في كردستان إيران لم تكن تطوراً سارّاً. فقد أظهرت اتفاقية الجزائر تفاهماً بأن المصلحة المتبادلة لإيران والعراق تقتضي إحتواء القومية الكردية في كل من الدولتين، لكن سقوط الشاه غيّر في ذلك التوازن الدقيق، فتمرد أكراد إيران ضد نظام الخميني قد يجتاز الحدود ويهدد العراق نفسه. فقد تتفكك إيران مابعد الثورة، ومن الممكن في هذه الحالة أن تتحول كردستان إيران المستقلة أو المتمتعة بالحكم الذاتي إلى قاعدة للثوار الأكراد في العراق.

وتدهورت العلاقات بسرعة بين بغداد وإيران في السنة الأولى لحكم الخميني، فقد كان العراق متخوفاً من تهديدات إيران بتصدير الثورة الاسلامية وخاصةً، من دعوته للشيعة في العراق. وقد تبين إن اعتقاد البعثيين بأن النظام الثوري سيكون مستعداً لتمزيق اتفاقية الجزائر التي فرضها الشاه ((الامبريالي)) ماهو إلا وهم، إذ كان الخميني قومياً مثل سلفه الملكي، عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن الحقوق الإيرانية الأقليمية، ومتفان، كما كان الشاه، في الحفاظ على السيطرة الإيرانية في الخليج.

وأدى التوتر في العلاقات بين الطرفين إلى حرب مفتوحة تقريباً في ربيع ١٩٨٠ وكانت شراراتها الأولى في كردستان، حيث ضرب العراقيون منطقة الحدود الإيرانية من مراكزهم القريبة من خانقين، وإتهّم الطرفان بعضهما بعضاً باختراق مجال السيادة الجوية. وبدأت بغداد بإبعاد عشرات الآلاف من المعارضين الداخليين المحتملين ـ من الشيعة والأكراد الذين أُجبروا على عبور الحدود في كردستان الجنوبية، حيث جمعتهم السلطات الإيرانية في معسكرات من الخيم.

ونجم قرار صدام حسين الأخير، في دخول الحرب ضد نظام الخميني، عن اعتقاده بأن الثورة قد أوصلت القوات المسلحة الإيرانية إلى درجة الانهيار. لكنه أجّل غزوه لإيران حتى نهاية العام،

جزئياً بسبب قلقه من رد فعل القوى العظمى[1]، بعد ذلك وفي الثاني و العشرين من أيلول ١٩٨٠ شنّ صدام هجوماً شاملاً بعرض ثلاثمائة ميل، وفي غضون أيام كانت القوات العراقية قد تقدمت في العمق الإيراني. وكان مسرح الأحداث الذي تم اختباره هو أقليم خوزستان في جنوبي إيران، بالإضافة إلى المنطقة المتنازع عليها: شط العرب.

وفقاً لبرنامج العراقيين كان يجب الانتهاء من الحرب في أربعين يوم: فالهدف من الحرب الخاطفة لم يكن وضع بغداد في موقع السيطرة على كل المدن الرئيسية في خوزستان [عربستان] فحسب، بل على ثلث كردستان إيران أيضاً ولاسيما الأقاليم الجنوبية في عيلام وكرمنشاه.

وقد عجز هذا الهجوم الأولي، في الحقيقة، عن التقدم في النزاع الذي دام لثمان سنوات جرت معظم معاركه، بعد عام ١٩٨٢، على أراضٍ عراقية وكردستانية. ومنذ البداية أدرك الإيرانيون وأكراد العراق أهمية تشكيل تحالفٍ استراتيجي، فإذا استطاع الأكراد عرقلة الجيش النظامي العراقي في الشمال، فإن هذا سيخفف الضغط على القوات الإيرانية التي تقاتل ضد الحملات الرئيسية في الجنوب. لقد كان معظم الأكراد راغبين في دعم الجهود الحربية الإيرانية، إذ بدت أنها سوف تؤدي إلى سقوط نظام بغداد لكنهم كانوا معارضين لأن تتحول كردستان الى ساحة الحرب الرئيسية. ولكن عندما تسلمت إيران المبادرة و دفعت بالحرب إلى الحدود العراقية في عام ١٩٨٢ كان حدوث ذلك محتّماً.

وبخلاف الاعتقاد الشائع بأن الإيرانيين لا يهتمون كثيراً بعدد القتلى والجرحى وبأن تكتيكاتهم تعتمد على أمواج الهجمات البشرية، كانت طهران قلقة من الثمن الغالي الذي تدفعه لإخراج العراقيين من المنطقة المحتلة. وكان ذلك بشكل خاص بعد أن لجأ العراقيون إلى استعمال الأسلحة الكيميائية لأول مرة عام ١٩٨٢ شرقي البصرة. ورغم الفرح العارم الذي سببه طرد الغزاة من الأراضي الإيرانية، فإن الإدراك الشعبي بحصيلة الموت على الجبهة خلقَ صعوبات متزايدة في انضمام مجندين متطوعين.

بعد طرد الغزاة، توجهت الجهود الحربية الإيرانية نحو الضغط على المعتدي وهي عملية إعتقدت طهران أنها ستؤدي بالتأكيد إلى سقوط صدام حسين. فغيّر الإيرانيون من تكتيكهم في هذه

---

(١) على عادة الإعلاميين الغربيين يجري التستر هنا على دور ((القوى العظمى)) في دفع صدام إلى غزو إيران (هـ . ع)

المرحلة وذلك بتوسيع نطاق الحرب لتشمل مناطق كردستان التي لم تكن قد تأثرت كثيراً حتى ذلك الحين. وهي خطة ستعود بعدة فوائد للجانب الإيراني: أولاً ستُضعِفْ الجبهة العراقية، ثانياً ستخلق مشاكل لوجستية للجيش العراقي للانتقال من الجبهة الى منطقةِ جبلية، وثالثاً ستقلل من عدد الإصابات بين الإيرانيين، علاوةً على ذلك، فإنها ستنقل الحرب إلى منطقة شهدت من قبل تمرداً ضد بغداد، وهكذا فإن العراقيين سيقاتلون في منطقة متسمة بالعداء لهم.

وباستنزاف قدرة العراق العسكرية في الجنوب، مكّنت الحرب، في ذلك الوقت، المقاتلين الأكراد لبسط سيطرتهم على نحو عشرة آلاف كم٢ على طول الحدود الإيرانية. وشجعت الحركة القومية الكردية المدنيين بالعودة إلى هذه المنطقة المحررة، والتي كانت في السابق جزءاً من حزام بغداد الأمني الخالي من السكان. إن خطورة إقامة جبهة إيرانية جديدة في كردستان تكمن في خوف الأكراد من أن تخلق صعوبات في وجه عملية إعادة التأهيل والإسكان في المنطقة، وفي أسوأ الأحوال قد تؤدي إلى خسارة المنطقة بأكملها. ولكن بحلول عام ١٩٨٢ لم يكن لدى الأكراد خيار آخر سوى التعاون مع حلفائهم الإيرانيين إذا ما أرادوا الحفاظ على الدعم اللوجستي والاساسي الذي كانت إيران تمحنهم.

وفي ربيع ١٩٨٣ شنت إيران على الجبهة الشمالية ما سُميّ بهجمات الفجر "ڤالي فجر" وتركزت على مناطق كردستان العراق في شمال وشرق السليمانية. وفي (هجوم الفجر) الثاني الذي شُنّ في العشرين من تموز وبعرض جبهة وصل إلى عشرين ميل بين المدن الكردية (سردشت وبيرانشهر) نجحت القوات الإيرانية في الاستيلاء على قاعدة حاج عمران ـ المهجورة الآن ـ والتي عجز البيشمركة في الاستيلاء عليها ١٩٧٩. واستولى الغزاة أيضاً على سلسلة جبال كادو ـ ارتفاع تسعمائة قدم ـ مما وضعهم في موقع استراتيجي قوي للتقدم نحو المدن الكردية العراقية مثل راوندوز وقلعة دزة. انضّم بيشمركة (ح.د.ك) إلى الهجوم، وتُركت القرى الثلاث والأربعين التي تم الاستيلاء عليها في المنطقة تحت سيطرتهم. كانت كردستان، حينها، في منطقة الحرب تماماً.

وشُنَّ (هجوم الفجر) الثالث في الثلاثين من تموز واستهدفت تحرير التلال المحيطة بمدينة (مهران) الكردية في إيران والتي سبق للعراقيين أن أخلوها [من السكان]. وبانتهاء الهجوم كانت إيران مسيطرة على الأقليم في جانبي الحدود. كانت الاستراتيجية الإيرانية تهدف إلى تحييد المرتفعات على طول الحدود لكي تحرر أكبر قدر ممكن من الناس وذلك من أجل هجوم متوقع على الجبهة الجنوبية.

وفي أواخر تشرين الأول بدأ الإيرانيون بهجوم جديد على طول الجبهة وبعرض تسعين ميل شرقي السليمانية. والهدف منه هذه المرة هو إغلاق طريقين جبليين كان العراقيون يستخدمهما لدعم مقاتلي الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران الذي يقاتل ضد نظام الخميني. فكما اعتمد (ح.د.ك) في العراق على طهران، كان أخوانهم عبر الحدود يتلقون الدعم من العدو في بغداد، وبينما كان لدى أكراد العراق قواعد في إيران، كان أكراد إيران يتمتعون بملاذ آمن داخل العراق حتى جاء الهجوم الإيراني المضاد. لقد كان هجوم تشرين الأول فعالاً إلى حدٍ ما إلا أن قوات (ح.د.ك) كانت تعود ـ إذا كان ذلك ممكناً ـ إلى معاقلها بمجرد انتقال قوات الحكومة الإيرانية إلى مكان آخر.

تحرك الهجوم الإيراني جنوباً صوب (بنجوين) حيث اشتركت قوات الحرس الجمهوري ـ التي تعتبر أفضل قوات صدام حسين ـ لأول مرة في دور قتالي زمن الحرب. وبذلك منع الإيرانيون من الاستيلاء على بنجوين وتبين بأن الحرس الجمهوري يشكل نقطة محورية في الجهود الحربية العراقية. فقد تم الاحتفاظ بهذه القوات في السابق لحماية بغداد والنظام. وفي عام ١٩٩١ اعتمد صدام مرة أخرى على الحرس الجمهوري لتأكيد سلطته في كردستان وذلك بقمع التمرد الكردي.

من الناحية السياسية، كان الإيرانيون يسعون لوضع الأراضي التي استولوا عليها تحت سيطرة المجلس الثوري الاسلامي الأعلى، وهو تنظيم أسسه الإيرانيون وأغلبه من جبهة الشيعة، والذي كانت إيران ترغب في وضعه بالسلطة عندما يتم الإطاحة بالبعثيين. وقد سعى الأكراد بالطبع لتأكيد سلطتهم على أراضيهم و لم تكن لديهم أية رغبة بتبديل قوات البعثيين بجماعة أخرى من الدخلاء.

وقد تقبل الأكراد في الواقع سلطة المجلس الثوري الأعلى طالما بقيت القوات الإيرانية في المنطقة. ولكن بعد هجوم تشرين الأول مباشرة تولت قوات البيشمركة مقاليد الأمور في القرى التي تم الاستيلاء عليها، وصرّحوا بأن ذلك من حقهم وحدهم دون أية قوة خارجية سواءً أكانت إيرانية أو عراقية.

وكان من بين الخيارات المفتوحة أمام طهران بعد سلسلة الانتصارات العسكرية في سنتي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤ هو هجوم كبير على كركوك والسليمانية الذي لو تم لوقعت مدن كردستان الرئيسية على الخط الأمامي للحرب. كان الهدف من ذلك هو قطع خط الأنابيب العراقي ـ التُركي الذي يمتد شمالاً من كركوك والذي يعتمد عليه العراق لتصدير نفطه. لكن الفكرة رُفضت، على أساس أنها ستسبب جفاءً للأتراك ولسبب آخر، بنفس أهمية الأول، وهو أنهم سيعتمدون كثيراً على تعاون الأكراد الذي

يبقى دائماً موضع شك بالنسبة للإيرانيين. بدلاً من ذلك اختار مجلس الدفاع الأعلى الإيراني هجوماً كبيراً على مدينة (الفاو) في أقصى جنوب العراق، وبذلك تجنبت كردستان المزيد من المعاناة.

وبتقدم الحرب، وأخذ إيران للمبادرة، كانت الأحزاب الكردية أقل من متحدة في أهدافها الحربية. ففضّل (ح.د.ك) ممارسة المزيد من الضغط ضد بغداد على أساس أن ذلك سوف يسرّع من السقوط المحتّم لصدام حسين، لكن كانت هناك مصاعب لوجستية. فقد قُدّر أنه فرّ نحو مئة وعشرين ألف شاب كردي من مدن السهول إلى الجبال خوفاً من التجنيد الإلزامي في جيش صدام. وقد كان هؤلاء عالةً على البيشمركة، فالمنطقة المحررة كانت تحت حصار اقتصادي من قِبل بغداد والطعام قليل، كما أن هناك حاجة لمزيد من الأسلحة، لذلك ناشدت الحركة الكردية كلاً من سورية وليبيا وإيران لتزويدها بأسلحة جديدة لمواصلة قتالها في الحرب، ولكن ما تم تقديمه كان قليلاً باستثناء معدات التسليح الخفيفة، مثل صواريخ ذاتية الدفع والرّمانات [القنابل اليدوية] ومدافع خفيفة مضادة للطيران التي زوّدهم بها العقيد معمر القذافي وصادر الإيرانيون معظمها.

ونشأت علاقة ثلاثية غريبة بين الجماعات الكردية التي اتخذت من الحدود العراقية ــ الإيرانية مستقراً لها. فالحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق كان حليف طهران في النضال لدحر صدام حسين، بينما تمركز الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران داخل العراق لكي يستمر في مواصلة نضاله ضد نظام آية الله الخميني، وفي هذه الأثناء سيطر (أوك) بقيادة جلال الطالباني على المناطق التي اتخذها الثوار الأكراد في إيران قواعدَ لهم، وكان (أوك) متحالفاً معهم في نفس الوقت الذي يعارض فيه نظام بغداد، وبينما انضمت قوات مسعود وادريس البرزاني إلى جانب الإيرانيين في هجومهم على كردستان العراق عام ١٩٨٣، صرّح (أوك) إنه على العكس من ذلك، سيقاتل من أجل صدّ الغزاة الإيرانيين.

كانت معاقل (ح.د.ك.ع) في منطقة بادينان المجاورة للحدود التركية التي تتكلم اللهجة الكرمانجية، بينما توجد قواعد (أوك) في المناطق التي تتكلم السورانية شمال وشرق السليمانية. وبينما كان الطالباني حليفاً (ح.د.ك.إ) شهرَ (ح.د.ك.ع) السلاحَ مرات عديدة في وجه إخوانهم بإيران لمصلحة طهران، وفي عام ١٩٨١ طردوا الثوار الأكراد الإيرانيين من المناطق التي سيطروا عليها.

ولتعقيد العلاقات الكردية المتبادلة أكثر فأكثر دخل (أوك) في نزاع مع الاحزاب اليسارية الصغيرة لإعلان تفوقه داخل منطقة نفوذه. واقتضى ذلك هجمات عنيفة من قِبل قوات (أوك) على

قواعد مقاتلي الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي الكردستاني، اللذان تحالفا مع (ح.د.ك.ع) منذ عام ١٩٨٠ تحت مظلة الجبهة الوطنية الديمقراطية (جود). وفي أيار ١٩٨٣ هاجم (أوك) على مقرات الحزبين الشيوعي والاشتراكي فقتلوا الكثير من الأعضاء البارزين في كلا الحزبين. وفي صدامات متقطعة لاحقة قُتِل مئات أخرى. وقد فَقَدَ اليساريون في هذه المعارك معظم أراضيهم لصالح (أوك).

وتصرّ مصادر (ح.د.ك.ع) حتى بعد وقت طويل من الحادثة، بأن هجوم أيار ١٩٨٣ على حلفائة اليساريين في قواعدهم بـ (بشتاشان) لم تكن سوى محاولة من جماعة الطالباني لإبداء حسن نيتها تجاه صدام حسين. لكن موقف (أوك) من الحرب و من صدام متناقض بالتأكيد مع موقف (ح.د.ك) فقد حاول الطالباني أن يبرهن بأنه ما دام صدام تحت ضغط كهذا فإنه الوقت الأنسب لعقد اتفاق مرضٍ معه.

وعن طريق الزعيم الكردي الإيراني عبد الرحمن قاسملو الذي كان يقوم بدور الوسيط، دخل (أوك) في مفاوضات مع بغداد على أساس أن تساهم قواته ـ مقابل اتفاق حكم ذاتي جديد ـ في استتباب الأمن في المنطقة الحدودية ضد الإيرانيين والـ (ح.د.ك) أيضاً إذا ما قرر مواصلة القتال. واقتضت الخطة تشكيل تحالف من (أوك) وحزب قاسملو (ح.د.ك.إ) بالإضافة إلى بغداد، لمواجهة التحالف الموجود من ذي قبل (ح.د.ك.ع) وحلفائه اليساريين و طهران.

واستجاب (ح.د.ك)، الذي رأى نفسه كضحية محتملة للاتفاقية المقترحة، بتشجيع المظاهرات العنيفة المناوئة للنظام في كردستان خلال عام ١٩٨٤ وكان الهدف منها ظاهرياً للاحتجاج ضد تشكيل وحدات من الميليشيا التابعة للحكومة في كردستان، لكنها كانت تهدف في الحقيقة إلى لفت نظر صدام إلى حدود سيطرة (أوك) على كردستان.

كانت بغداد مسرورة بما فيه الكفاية لأنها استطاعت أن تخدع (أوك) فبذلك أزالت معارضاً محتملاً من بين الأعداء الداخليين والخارجيين الذين تجمعوا ضدها. بالإضافة إلى ذلك وافق الطالباني على وضع وحدات الجيش في تلك المناطق تحت سيطرة حزبه.

وفي منتصف الثمانينات وبوجود فترة هدوء مؤقت في الحرب على الجبهة الشمالية حيث ركز الإيرانيون على هجماتهم في الجنوب، لم تكن الأمور تبشر بالخير لإتفاقية صدام ـ الطالباني. فقد كان سير المعركة لا يزال يجري لصالح إيران، لكن صدام كان أكثر ثقة بموقفه على الصعيد الديبلوماسي، فأمريكا، خوفاً من نصر إيراني صريح، بدأت تغيّر سياستها المُعْلَنة بالحياد تجاه المعسكر

العراقي، واستأنف الروس مبيعات الأسلحة، التي كانت قد أُوقفت طالما بقي الجنود العراقيون على التراب الإيراني، وكان الفرنسيون يلبون معظم حاجات العراق الأخرى من التسلح، بالإضافة إلى ذلك، كان الأتراك يمارسون الضغط على صدام لكي لا يَوقع على اتفاقية الحكم الذاتي مع الطالباني، مما قد يؤثر سلباً على مشكلتها الكردية.

وكان صدام أكثر ثقة حول موقفه في كردستان أيضاً. فقد زار المنطقة عام ١٩٨٣ ليعرض اتفاقاً مع أولئك الذين أبدوا معارضتهم للقتال في حملته العربية ضد الإيرانيين. وبدلاً من التجنيد في وحدات نظامية سُمِحَ للأكراد بالانضمام إلى وحدات الدفاع الوطني للدفاع عن أنفسهم ضد الإيرانيين وحلفاءهم من البيشمركة المتمردين. كان من المفترض أن تكون هذه الوحدات تحت سيطرة قواد عسكريين، ولكن شريطة السماح للمتطوعين الذين يخدمون في مناطقهم بارتداء ثيابهم القومية الكردية.

وبنهاية عام ١٩٨٤، وعند تأسيس هذه الوحدات، شعر صدام حسين بأنه لم يعد بحاجة إلى اتفاق مع الطالباني لاستتباب الأمن في الشمال، وفي اللحظة الأخيرة، رفض التوقيع على اتفاقية الحكم الذاتي المقترحة. فأوقف (أوك) من جانبه المحادثات فجأةً ونفذ ثأره ضد صدام بمهاجمة وحدات الجيش المتمركزة في الأقليم الذي يسيطر عليه (أوك) وهي خطوة اعتبرها البعثيون في بغداد خيانة.

بعد قطع الأمل من التواصل إلى اتفاق مع بغداد، استطاع (أوك) تسوية خلافاته مع (ح.د.ك) وواصل جهوده لإعادة إقامة تفاهم مع طهران. واستطاع الحزبان في لقاء عُقد في إيران سنة ١٩٨٧ تطبيع العلاقات بينهما، رغم أن (ح.د.ك) انتقد الطالباني فيما بعد، بسبب انضمامه بصدق إلى جانب الجهود الحربية الإيرانية وذلك لأنه يقود الحرّاس الثوريين الإيرانيين في عمليات بالعمق العراقي، وهي تهمة وُجهت في السابق إلى (ح.د.ك) من قِبل منافسه. ففي عام ١٩٨٧ مثلاً رافق (ح.د.ك) القوات الإيرانية حتى مدينة كركوك للهجوم على التجهيزات النفطية هناك، و بدا أن سياسة (أوك) ترتكز على إثبات اعتمادها على الإيرانيين بعد فشل الاتفاقية التي وُلدت ميتة مع صدام.

وأخذ الديكتاتور العراقي بثأره في نهاية عام ١٩٨٥ عندما أصدر الأوامر بموجة جديدة من الاعتقالات الكيفية، والتعذيب والاعدامات، والتي تركزت في الدرجة الأولى بمنطقة السليمانية، حيث كان (أوك) الأكثر نفوذاً. وبلغّت منظمة العفو الدولية لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة بأنه تم تجميع وتعذيب حوالي ثلاثمائة طفل في السليمانية في خريف ١٩٨٥، كعقاب لأولياء زُعِم تورطهم مع

البيشمركة. إضافة إلى ذلك، أُعدم ثلاث وعشرون رجلاً رمياً بالرصاص في تشرين الأول من نفس العام، ودُفن ثمانية أحياءً في المقبرة الرئيسية بالمدينة، وفرض العراقيون حظر التجول على المدينة وأطلقوا النار على مئتي شخص أثناء مسيرة في شوارع المدينة، كعمليات إعدام عاجلة.

واستمرت حملة القمع حتى السنة التالية حيث نقلت منظمة العفو بأنه تم إعدام أحد وعشرين شخص في السليمانية وأربيل خلال شهري آذار ونيسان سنة ١٩٨٦، بعد محاولة اغتيال محافظ أربيل. كان ستة من هؤلاء الذين أُعدموا بسرعة عصرَ التاسع من نيسان من المتعاطفين الشباب ـ تحت سن الثمانية عشر سنة ـ للاتحاد الوطني الكردستاني حيث أُطلق عليهم النار علانيةً خارج سجن السليمانية المركزي.

إن حجم القمع لم يكن ليشير إلى أن التمرد الكردي المسلح في تراجع - بل على العكس. ففي أيار شنّ البيشمركة هجوماً جديداً فاستولوا على (مانكيش) وهي مدينة استراتيجية صغيرة قرب الموصل، وحاصروا (دهوك) وصرّحوا بأنهم أسروا في عملياتهم تلك، كتيبة عراقية مع كل اسلحتها الحديثة وذخيرة تكفي لدعم المنطقة عاماً كاملاً. وقد قدّر خبراء في الاستخبارات الأجنبية بأن الأكراد كانوا يشكلون، في حينه، تهديداً لصدام بحيث كان بمقدورهم الحدّ من حرية ربع قواته المسلحة.

وفي آب استأنفت إيران نشاطاتها [الحربية] في الشمال حيث وَجهت هجوم (كربلاء الأول) إلى منطقة شمال السليمانية فاستولى الإيرانيون على بعض المرتفعات الاستراتيجية، لكن العملية في الأساس كانت تمويهاً لصرف أنظار العراق عن الهجمات الأهم على الجبهة الجنوبية. وجرت عمليات أخرى في كردستان في شهر أيلول، لكن الرغبة الإيرانية بالهجوم على مدينة السليمانية ذاتها لم تُترجم إلى حقيقة.

وفي ربيع ١٩٨٧ كان الأكراد يسيطرون على منطقة شاسعة من شمال العراق. فسيطر (أوك) على معظم مناطق السليمانية وأربيل ماعدا المدن، بينما سيطر (ح.د.ك) على بادينان والكثير من مناطق دهوك والموصل. لكنه تعرّض لضربة قاسية بفقدان قائده المشترك إدريس البرزاني الذي توفى إثر نوبة قلبية، رغم أن العراقيين ادّعوا بأنه هم الذين قتلوه في هجوم على مقره في إيران.

ولدى مواجهة صدام لإحتمال سقوط جبهته الأمامية شرقي البصرة في الجنوب، بدا وكأن وقوع مدن الشمال بيد الثوار أمر ممكن. وخاصة بعد أن حصل الأكراد على صواريخ سام ـ ٧ أرض

ـ جو عن طريق ليبيا، وكان هذا عاملاً هاماً في ابقاء العراقيين في وضع حرج للدفاع عن أنفسهم، إذ أسقط البيشمركة طائرة من ذوات الأجنحة الثابتة وعدداً من طائرات الهليكوبتر.

وفي مواجهة هذا الوضع المؤلس وبفشل جهوده السابقة لكبح التهديد القومي الكردي، عيّن صدام حسين ابن عمه علي حسن المجيد حاكماً على شمالي العراق و خوّله سلطة مطلقة لإخماد التهديد الكردي. وسيُمنح المجيد، وهو ضابط جيش سابق[1]، مهمة مماثلة في ١٩٩٠ عندما عيّنه صدام حاكماً على الكويت المحتلة. كانت مهمته في كردستان هو قمع تمرد الحركة بأي وسيلة يراها ضرورية، وبكل الأسلحة التي في حوزة النظام بما فيها الأسلحة الكيميائية.

دّشن المجيد عمليات قتل ثأرية، آمراً بإعدام جماعي للشباب الأكراد كلما قُتِل فرد من أفراد النظام على يد البيشمركة. وأمر بترحيل كل المدنيين الأكراد من المناطق التي كانت جزئياً تحت سيطرة الحكومة ودُمرت قراهم حتى سوّيت بالأرض. ولم يكن يُسمح لكائن حي بالعيش في هذه المنطقة المحظورة. وقد جاء في مذكرة بتاريخ الرابع عشر من حزيران ١٩٨٧: ((إنه من واجب القوات العسكرية قتل أي انسان أو حيوان يعيش في هذه المنطقة التي تعتبر محرمة تماماً)) وفي قرار أصدره المجيد في نفس الشهر أمر القواد باستعمال المدفعية وطائرات الهليكوبتر والنفاثة لطرد أي شخص يتحدى أمر مغادرة هذه المناطق. أما الذين أُسروا فتم استجوابهم ومن ثم اعدامهم. دمرت القوات كل شيء المحاصيل، المزارع والمواشي، ولوثت كذلك مصادر المياه.

إن هذه التكتيكات الهادفة إلى انكار ما سُميّ بمناطق ((رمادية)) كقواعد محتملة للبيشمركة، كانت مجرد مقدمة للمرحلة الرئيسية في استراتيجية المجيد باخضاع المناطق المحررة، و تعريب مناطق واسعة من كردستان. وبمرور الأيام تم تدمير نحو أربعة آلاف قرية وفُرض حصار اقتصادي تام على المنطقة. وفي الخامس عشر من نيسان، أي أقل من شهر بعد تعيين المجيد، بدأت هجمات الأسلحة الكيميائية على شعب كردستان.

---

(١) لم يدخل حسن المجيد الكلية العسكرية وانما حصل على الرتبة العسكرية بمرسوم من صدام (هـ . ع)

بقي حجم التدمير الذي أحرزه برنامج المجيد لتهدئة المنطقة مجهولاً إلى حدٍ بعيد للعالم الخارجي حتى ربيع ١٩٩١[١]، عندما كان الأكراد قادرين، لأول مرة منذ أربع سنوات، بالدخول ثانيةً إلى المناطق التي كانت مغلقة في وجوههم. وعندما كنا نتجوّل برفقة مرشد من قوات (ح.د.ك) في نهاية شهر آذار ١٩٩١، مررنا بعدد لاحصر له من القرى المدمرة جنوب زاخو وبادنيان، حيث تمت تسويتهابالجرافات ونُسِفت بالديناميت على يد القوات المجيد. وفي بعض الأماكن كان يمكن تمييز القرى السابقة عن طريق صف من أحجار الأسس، وفي بعضها الآخر تُرك الركام في مكانه دون محاولة لإخفاء التدمير. وفي إحدى القرى كان الشيء الوحيد الذي بقي مشيّداً هو قاعدة تمثال تحمل صورة مألوفة لصدام حسين كمَعْلَم لدوره في تدمير المنطقة.

وفي الطريق الترابي بين شقلاوة والعمادية غرزت سيارتنا في الوحل بجانب ما كان في السابق قرية كبيرة، حيث بقيت حجارة الأسس القاسية التي لم يستطع الديناميت العراقي إزالتها. وقد امتنع بعض الفلاحين عن سحب [سيارتنا] بجراراتهم مجاناً. كان هؤلاء الأوائل في الهجرة الجماعية الضخمة المتجهة صوب الجبال لتفادي الجولة القادمة من القمع العراقي، وأخبرنا هؤلاء إن هذه الآثار التي نراها ماهي إلا مدينة برزان، مقرّ البرزانيين.

وبمحاذاة السهول، جنوبي زاخو، شاهدنا حقول الحبوب المعطاء والقرى الصغيرة الاستراتيجية وقد نقل إليها العراقيون مستوطنين عرب كجزء من سياسة التعريب. وفي كل كيلومتر واحد على طول اتوستراد بغداد العام، كان هناك موقع محصّن ـ عبارة عن مَعْقَل ذو ست مواقع للحراسة على حدود الموقع ـ خلف ساتر ترابي. وقرب الطريق كانت هناك مصاطب لبيوت من طابق واحد مصنوعة من البلوك الخفيف (الكتل) ومحاطة بالأسلاك الشائكة. بين هذه المستوطنات المصطنعة، كانت توجد بقايا للقرى الكردية التي كانت تزّين السهول في السابق. وفي قرية (سومِل) الكردية مئة في المئة قبل تعريبها تماماً، كان يوجد مركز قيادة أكبر، محاطٌ بالاسلاك الشائكة وحقل ألغام ليمنع تحرك أي شخص من وإلى الجبال.

---

(١) هذا كذب وتضليل فالمخابرات الغربية ولاسيما الأمريكية كانت تعرف كل شيء وظل الغربيون صامتين حتى اختلفوا مع صدام مع مسألة الكويت فبدأوا بالكشف عن هذه الجرائم وتوظيفها (هـ . ع)

وقد مثلت سياسة التعريب، مترافقةً مع التهجير القسري، وتطهير المناطق ((الرمادية)) بالإضافة إلى استعمال الأسلحة الكيميائية أزمة خطيرة للحركة الكردية. لكنه لم يكن تهديداً خطيراً عندما كانت الحرب العراقية ـ الإيرانية مستمرة. وفي أوائل ١٩٨٨ تلاشت آمال إيران و (ح.د.ك) بأن تؤدي الحرب إلى سقوط صدام حسين، فقد انتقلت إيران لأول مرة منذ ست سنوات إلى حالة الدفاع. وقد شارك الأكراد في عملية الاستيلاء على حلبجة باصرار من إيران. وقد كان الانتقام الذي نفذه صدام تهديداً لما سيحصل إذا ما انتصر العراق في الحرب.

وبعد حلبجة اقتنع الإيرانيون بأن الحرب يجب أن تنتهي. فعمليات التزويد بالأسلحة والذخيرة تجري ببطئ، ويصعب ايجاد بدلاء في السوق الدولية، و كان لدى إيران وسائل دفاع قليلة ضد استعمال العراق الوحشي للأسلحة الكيميائية، و الأسطول الأمريكي في الخليج يزيد من ضغطه على القوات الإيرانية.

وفي السابع عشر من تموز ١٩٨٨ أجتمع (ح.د.ك) في مقرّه بقرية (راجان) داخل الحدود الإيرانية، لمناقشة تكتيكاته المستقبلية. لقد كانت الخيارات قليلة: فهناك أمل ضئيل بالأستمرار في القتال إذا ما أستسلم الإيرانيون، ويتوقع الأكراد أنتقاماً جماعياً من بغدادعندما تتفرغ قواتها من عبء القتال ضد إيران، والإمكانية ضئيلة لتسوية سلمية مع صدام. آخذين بعين الإعتبار الدور الكردي في دعم محاولة إيران للإطاحة به. ومن السخرية، إن القيادة الإيرانية أحتشدت بطهران في نفس اليوم ، للإجتماع الذي سيقرر إنهاء حرب الثمانية أعوام. وقد وصلت أنباء قبول إيران بقرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨، وكذلك بوقف رسمي لإطلاق النار إلى (راجان) بينما زعماء (ح.د.ك) لايزالون مجتمعين. وفي اليوم التالي أُعلن القرار الإيراني رسمياً للعالم.

وقد قرر (ح.د.ك) تحريك قواته ـ خمسة عشر ألفاً من البيشمركة الدائمين وثلاثون ألفاً من ميلشيا القرى في حالة احتياط ـ للدفاع عن كردستان. وبينما أستمر العراق في القتال لعدة أسابيع أخرى، منتهزاً فرصة اللحظة الأخيرة للأنهيار الأيراني، بقي الوضع في الشمال هادئاً نسبياً. وأرسلت بغداد مبعوثين ليُخبروا الثوار الأكراد بإمكانية التسوية، وأخبر المجيد رئيس قوات الجحوش، الموالية للحكومة، في دهوك إنه يعتبر المشكلة الكردية ـ شأناً داخلياً وعلى الأكراد إيجاد حل لها. لكن هذه الرغبة الواضحة في الصلح تعارضت مع تقارير الأستخبارات التي جمعها الأكراد والتي أكدت بإن العراق يحشد قواته للهجوم على الشمال. فركّز الأكراد قواتهم في المثلث الحدودي العراقي ـ الأيراني ـ التركي ـ بإنتظار أسوأ الاحتمالات.

وقد جاء الهجوم المتوقّع فور أنتهاء الحرب مع إيران ودام حتى الأول من أيلول حيث لجأ العراقيون إلى تعميم أستعمال الأسلحة الكيميائية الواسعة الأنتشار وذلك لأنها الوسيلة الأكثر فعالية في تطهير المناطق التي يسيطر عليها المتمردون ولأن الستين ألف جندي من القوات البرية المشتركين في العملية، كانوا محطمين معنوياً بإمكانية القتال في حملة داخلية بعد ثماني سنوات من الحرب ضد إيران ولا يمكن الأعتماد عليهم كلياً.

كان رأس الحربة في هذا الهجوم العراقي هو الجيش الخامس يدعمه قاذفات القنابل وراجمات الهليكوبتر المنتشرة شمالاً عبر الأربعة آلاف ميل التي كان يسيطر عليها القوميون الأكراد. ووجدت معاقل المتمردين، في عمق المنطقة المحررة، نفسها فجأة في الخط الأمامي. وفي الثاني من آب نجح العراقيون تقريباً في ضعضعة البرزاني وقيادة (ح.د.ك) بغارة جوية بالإسلحة الكيميائية على مدينة (أوشنوية) لكنهم أصابوا أهدافاً في الجهة الأخرى من المدينة. وبعد ثلاثة أسابيع، من الخامس والعشرين من آب إلى الأول من أيلول، أستعملت الطائرات العراقية المواد الكيميائية في هجومها على سبع وسبعين قرية في منطقة بادينان بالدرجة الأولى. وخلال هجوم الصيف هذا دمر العراقيون ٤٧٨ قرية أخرى لتُضاف إلى ضربة علي حسن المجيد المستمرة. وبدا واضحاً إن هذا القتال اللامتكافئ يمكن أن يؤدي فقط إلى تدمير الحركة القومية وإلى مزيد في المعاناة لشعب كردستان الذين كانوا قد أجبروا على الهروب إلى الجبال منذ الآن. وأُتخذ القرار بانسحاب منظم.

وفي غضون أسبوع من الثامن والعشرين من آب إلى الخامس من أيلول فرّ خمسون ألف كردي، وقد كان رحيلهم ثمرة غارات الخامس والعشرين من آب. وقد قال الذين هربوا بإن الخوف من الأسلحة الكيميائية هو الذي أجبرهم على ذلك . وبنهاية الهجرة الجماعية تمكن مئة وخمسون ألف كردي من الحصول على اللجوء في تركيا حيث لاقوا البرد والجوع وعداء الأتراك الذي كان يصعب أخفائه. وكان هؤلاء المحظوظين فقد وقع الآخرون في الفخ داخل العراق، إذ أُجبروا على ترك بيوتهم بسبب الغارات الجوية ولكن دونما وسيلة للنجاة. فقد جُمعوا في مخيم بسهول أربيل المفتوحة ليعيشوا في برد الشتاء القارس في أحسن الأحوال.

وفي الرابع من أيلول كان وزير الخارجية العراقي، طارق عزيز، قادراً على التأكيد لأولئك الذين تجمعوا في جنيف من أجل الجولة الأولى من محادثات السلام بين العراق وإيران بأن التمرد الكردي المسلح قد أنتهى، والمتمردون في حالة هروب. وألقى باللوم على الطالباني ومسعود البرزاني لمحاولتهما خلق شعبية لهما وذلك بتشجيع النساء والأطفال بالهروب من العراق وأضاف، ليعلن رسمياً

((ليس هناك أستعمال للأسلحة الكيميائية ولا يوجد ضرورة لإستعمالها)) وكان هذا لا يتناقض مع شهادة الأكراد الفارين فحسب، بل مع ما قاله مراقبون مستقلون ذهبوا لتقدير الوضع هناك، ومن بين هؤلاء كان بيتر كالبريث Peter Galbraith وكريستوفر فان هولن Christopher Van Hollen عضوا لجنة مجلس الشيوخ الأمريكي للعلاقات الخارجية اللذان أعلنا رسمياً لدى عودتهما إلى واشنطن بإن الأسلحة الكيميائية قد أستُعملت.

وبعد ثلاثة أشهر من الهجوم، قام منتج بريطاني للإفلام الوثائقية، كوين روبرتس Gwynne Roberts بزيارة سرية إلى كردستان العراق وجلب معه عينات من التربة وأُخضعت لتحليل مستقل من قِبل شركة بريطانية خاصة، فوجد المحللون آثار ثلاث مركبات تشير إلى وجود كبريتات غاز الخردل وتوصلت منشأة الدفاع الكيميائية البريطانية إلى نتائج مماثلة من تلك العينات واصفة أياها بإنها: ((ملوثة إلى حد خطير نسبياً))

وقد أجرى روبرتس أيضاً مقابلات مع الناجين من الغارة الجوية، في الثامن و العشرين من آب، على المدنيين الأكراد الذين لجأوا إلى ممر (باسي) على بعد عشرين ميل جنوب الحدود التركية. إن وصفهم للأحداث لم يترك أدنى شك حول استعمال الأسلحة الكيميائية، وقد أخبره أحد الناجين ويدعى رمضان محمد: ((كان هناك بالتأكيد ثلاثة آلاف جثه وآلاف من الحيوانات الميتة. كانت توجد غشاوة على عيون الموتى وتخرج مادة لزجة كريهة من أنوفهم وأطراف أفواههم، والجلد منسلخ وتكسوه الفقاعات)).

وأبدت الصحافة العالمية أحتجاجاً عنيفاً ضد مجزرة صدام بحق الأكراد، والتي كان لها صدى أقوى من تلك التي أثارتها مجزرة حلبجة على المستوى الحكومي. وقد ساندت الدول العربية العراق روتينياً ضد ما أعتبرته أشاعات صهيونية ضد العرب، بينما تجاهلت وسائل الأعلام الشرقية، والسوفيتية[1] الرسمية أحداث كردستان. لكن حلفاء أوربا الغربية والولايات المتحدة أستجابت بقوة

---

(١) يقول الأستاذ جلال الطالباني: " ... أنه عندما كان وفد الحزب الشيوعي العراقي يجمع تواقيع على برقية أُرسلت إلى صدام حسين ووقع عليها حوالي ٤٦ حزباً شيوعياً في الحكم وخارج الحكم أثناء اجتماع مجلة (قضايا السلم والإشتراكية) في براغ، رفض مندوب الحزب الشيوعي السوفيتي التوقيع على هذه البرقية التي كانت أيضاً برقية إدانة، ولكن لم تكن عنيفة..."

أنظر: جلال الطالباني حول القضية الكردية في العراق ط١ ، ١٩٨٨ المترجم

أكثر من ذي قبل، فأخبر جورج شولتز، وزير خارجية الولايـات المتحـدة، العراقيـين بـأن لديـه دليـلاً قاطعاً بأنهم قد استعملوا الأسلحة الكيميائية، وقال البريطانيون بأنهم مقتنعون على حد سواء، وقال الرئيس الفرنسي فرانسو ميتران بأنه يرى من واجبه، كصديق للعراق، أن يعبر عـن قلقـه العميـق ضـد الأساليب المستخدمة لقمع الأكراد.

ورغم هذا الضغط الدولي، رفض العراقيون إرسال فريق تحقيق من الأمم المتحدة على أسـاس إن ما يجري في كردستان شأن داخلي. ورغم وجود قرار ساري المفعول من مجلس الأمن بأن أي دولة تستخدم الأسلحة الكيميائية ستواجه على الفور بالعقوبات، لم يُفرض بالقوة إجراء كهذا.

فإغراء إعادة الإعمار لمرحلة مابعد الحرب والازدهار الاقتصادي الـذي يرافقـه، مـن ناحيـة، ووجود رغبة عامة بعدم خلق علاقات متوترة في الخليج مباشرة بعـد وقـف إطـلاق النـار، مـن ناحيـة أخرى كانا كافيين لإقناع معظم الدول بالتقليل مـن شـأن المشـكلة الكرديـة. ومـا أن خـفّ صخـب الهجرة الجماعية القسرية إلى تركيا، حتى سُمح للقضية بأن تخمد. ويبدو هذا الأسلوب المتسـم بـاللين في تقرير موجز عن وزارة الخارجية [البريطانية] في أيلول ١٩٨٨ والذي يُعلن: ((نعتقد إنه من الأفضل أن نحافظ على الحوار مع الآخرين، إذا كنا نريد أن نؤثر في افعالهم. إن إجراءات تأديبية مثل العقوبات من طرف واحد لن تكون فعّالة في تغيير موقف العراق من الأسلحة الكيميائية، وستُسـيء إلى المصـالح البريطانية على غير طائل)).

وبناءً على تقرير كالبريث وفان هولن، عضوي لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، قـدّم رئيس اللجنة كليبورن بيل Claiborne Pell قانون منع الإبادة الجماعية لعام ١٩٨٨ والـذي [القـانون] حاز على دعم واسع من الكونغرس لصالح فـرض العقوبـات علـى العـراق. وفي النهايـة خسـر المجلـس التشريعي في وجه معارضة البيت الأبيض وحلّ الكونغرس بسرعة قبل الانتخابات الرئاسية.

وربما بسبب ضعف رد الفعل الخارجي، استأنف صدام حسين سياسـته القمعيـة خـلال عـام ١٩٨٩ حيث رحّل السكان الأكراد ليس من المناطق الحدودية الاسـتراتيجية فحسـب، بـل مـن مـدن وقرى داخل العراق أيضاً، مستخدماً حجة واهية لإقامة حزام أمني جديد. و بحلول شهر حزيران كان الجيش قد أجلى بالقوة كل سكان قلعة دزه ـ حسب المصـادر الكرديـة نحـو مئـة ألـف نسـمة ـ قبـل تحويلها إلى ركام.

بالنسبة للأكراد تكرر ١٩٧٥ مرة أخرى. فبعد أن كانت بموقع قوة، وجدت الحركة القومية نفسها محطمة تقريباً نتيجة أحداث فوق طاقتها. وتعهدها بالتحالف مع إيران أثبت عدم جدواه، عندما ناشدت إيران السلم مع العراق، تماماً كما في عام ١٩٧٥ عندما هُزم البرزاني نتيجة اتفاقية الجزائر بين صدام حسين والشاه، وتماماً كما في ١٩٧٥ ـ وفي ١٩٩١ أيضاً ـ توجه الأكراد طلباً للمأوى، صوب الجبال صديقهم الثابت والدائم.

الفصل الثامن

"أتراك" الجبال

إن الهجرة القسرية، والعقاب الجماعي، والضرب، والتعذيب، والاعتقالات الكيفية، والتواجد العسكري الكثيف، وكل أدوات القمع التي ساهمت في تشويه سمعة النظام العراقي لها ما يماثلها في تركية أيضاً. فقد استطاعت سلطات أنقرة، بهدوء، ووراء ستار الإنكار الرسمي والرقابة السرية، من ابقاء معاملتها للأكراد سراً من أسرار الحكومة ولسنوات دون أية معلومات عن محنة عشرة ملايين كردي يعيشون في تركيا، أي خُمس عدد السكان، سوى تلك التي تظهر في تقارير منظمات حقوق الإنسان عن طريق بعض الصحفيين الذين استطاعوا الدخول إلى المقاطعات الشرقية، وكذلك عن طريق الجهود المخلصة والشجاعة لأكراد تركيا الذين حازفوا بحريتهم للفت الأنظار إلى انعدام الحرية التي يعاني منها مواطنيهم.

وفي عام ١٩٩١ بدا وكأن الوضع يتغير بصورة دراماتيكية. فخوفاً من استغلال الوضع الناشيء عن حرب الخليج، دعا الرئيس تورغوت أوزال ممثلين عن الأكراد للاجتماع به في أنقرة، وأعلن بعدها بأنه سيتم رفع الخطر عن استعمال اللغة الكردية، وإطلاق سراح المعتقلين السياسيين. وأقرّ البرلمان التركي (بمجلس الأمة الأعلى) في حينه القوانين الجديدة التي أرادها الرئيس في جلسة استغرقت ثلاث عشرة ساعة، ولأول مرة ـ منذ أن فرض مصطفى كمال الحظر سنة ١٩٢٤ ـ كان بمقدور الأكراد أن يتكلموا بلغتهم علانيةً وفي معاملاتهم مع السلطة. إن إلقاء القوانين ضد استعمال اللغة الكردية وانهاء حظر الشيوعية، كان معناه إطلاق سراح ثلاثة وأربعين ألفاً من أصل ستة وأربعين ألف سجين في شرقي تركيا، وتخفيف عقوبة مئتين وسبعين سجين ينتظرون حكم الإعدام. وبدا ذلك تحولاً ملحوظاً في الموقف الرسمي.

لكن الخطوات التركية كانت أقل مما بدت. وقد أشار الدبلوماسيون الأتراك الساخرين، والمستعدين لتقديم المعلومات على غير عادتهم بسبب معارضتهم لأسلوب إدارة رئيسهم للسياسة الخارجية، بأن التخفيف في القوانين قد أضفى الشرعية على ما كان يحدث من قبل. فمئات الآلاف من الأكراد (الأتراك) كانوا لا يتكلمون أية لغة سوى الكرديّة، لهذا فإن القانون الجديد قد منعهم فقط من خرق القانون كل يوم. وقد منحهم القانون الجديد عدة حريات جديدة: فقد ظلت اللغة الكردية

المكتوبة ممنوعةً، لذا لم يكن ممكناً إصدار الجرائد، ولا طبع الكراسات السياسية، كما بقيت اللغة التركية لغة التعليم و البث [الإذاعي والتلفزيوني]

كل ما جرى، في الواقع، هو أن تورغوت أوزال قد رأى الفرصة مواتية لتحسين صورة بلده في أمريكا و الغرب. وقد كان شيئاً ذا معنى كبير أن قرار التغيير قد اتخذه الرئيس بمفرده وأجبر البرلمان للموافقة عليه من قِبل أحزاب موالية، وليس من البرلمان نفسه أومن خلال قرار للجماعات السياسية. ومنذ بداية أزمة الخليج سنة ١٩٩٠، تولى أوزال بنفسه إدارة السياسة الخارجية مسبباً، خلال تلك الفترة، استقالة ثلاثة وزراء ورئيس للأركان. لقد كان هدف الرئيس أوزال ببساطة مضللاً: آخذاً بعين الإعتبار فرصته الضئيلة بالانضمام إلى الوحدة الأوربية بسبب تحامل الدول الأعضاء الإحدى عشر، التي لم تكن متحمسة لقبول دولة مسلمة في الوحدة الأوربية وخوفاً على اقتصادها بسبب هجرة العمال الأتراك، صمّم الرئيس أوزال على مواصلة جهوده لإقامة علاقات خاصة بين تركيا والولايات المتحدة التي بقيت، القوة العالمية الوحيدة [بعد انهيار القوة السوفيتية]. وأراد أوزال إقامة علاقة تضاهي العلاقة التي كان شاه إيران قد أقامها مع واشنطن في أوج قوة طهران الحديثة ـ وليكون من ثم الشرطي الأمريكي، لتَلقي أفضل رعاية في كل علاقاته مع الولايات المتحدة، بالإضافة إلى بروزه كقوة مهيمنة في منطقة تمتد من البلقان إلى الخليج.

كان من أوائل المستفيدين من التغيير في الأسلوب التركي هم السكان العاديين في شرقي تركيا، أكرادُ لمان مقاطعات على طول الحدود والذين حققوا بين عشية وضحاها ما كانوا يطالبون به لأجيال. وبالنسبة للسلطات أيضاً كان هناك كسب مبكر فنفس القوانين، التي سمحت بالتكلم باللغة الكردية، شدّدت العقوبات ضد أولئك الذين يشنون الحرب ضد الدولة، في هذه الحالة تلك الجماعة الماركسية المتطرفة العنيفة المسماة **pkk**. وبالسماح بحق أساسي للسكان للتعبير عن أنفسهم بلغتهم الأم، أزالت الحكومة وبقوة إحدى الأسباب الرئيسة للاضطراب في المناطق الكردية، كما أنها وسعت الهوّة بين قوات **pkk** وبين الشعب الذي كانت تنفذ في فضائه عمليات تلك القوات.

إن **pkk** تمثّل آخر المجموعات المسلحة التي حاولت طوال سنين الحصول على حقوق الإنسان الأساسية للأكراد، الذين كانوا يُوصفون حتى عام ١٩٩١ بأنهم ((أتراك الجبال ممن نسوا لغتهم الأم)). لقد اتخذت الحركة من سورية قاعدة لها حتى تطورت العلاقات بين دمشق وأنقرة، مما اضطرها للانتقال، بشكل دبلوماسي، إلى وادي البقاع ولكنها ما تزال تحت السيطرة السورية. إن **pkk** بقيادة عبد الله أوج آلان واحدة من أعنف التنظيمات الكردية. وقد كان حزب العمال الكردستاني المدعوم

من الإتحاد السوفيتي تارةً، ومن إيران تارةً أخرى، قاسياً في تعامله مع ((شركائه)) الأكراد كما في هجماته على الجيش التركي. وهكذا فإن حرّاس القرى، الذين زوّدتهم السلطات بالأسلحة، ومالكي الأرض (الاقطاعيين) و موظفي الدولة وأي شخص تدعمه الحكومة أكراداً أكانوا أم أتراكاً، أصبحوا أهدافاً رئيسية لعمليات pkk.

وهذه القسوة تعكس موقف أوج آلان، ساحر الجماهير، المبتسم، سريع الكلام وحاضر البديهة. ويُعرف بين أتباعه بلقب ((آبو)) ونادراً ما يراه الغرباء، حيث يقضي معظم وقته في مركز قيادته وقاعدة (معصوم قورقماز) التدريبية في وادي البقاع، ويقود أحياناً المجموعات المقاتلة إلى تركيا. كان أوج آلان قبل انضمامه إلى pkk، عضواً بارزاً في الحزب الشيوعي التركي السري، ولا يزال يتبع حتى الآن أسلوباً ستالينياً في التفكير، مطبقاً المبادئ الماركسية على كل المسائل - فلا بريسترويكاولاغلا - سنوست بالنسبة لـ "آبو"

ومثل كل ((المناضلين)) فإن يعمد إلى المبالغة: فيصّرح إنه قائد لعشرين مليون كردي في تركيا، رغم أن العدد الإجمالي للأكراد هناك لا يتجاوز بالتأكيد الاثني عشر مليوناً كأقصى حد، والأغلبية تعارض خطه الشيوعي المتشّدد، حيث تفضل [هذه الأغلبية] وضع آمالها في أحزاب كردية أكثر ديمقراطية على النمط الغربي. إنه حانق من عدم الإهتمام - كما يرى أوج آلان - بالحرب الدائرة في شرقي تركية: ((الصحف مليئة بالأخبار عن حرية الليوانيين أو عن الوضع في ألبانيا. إنها ترى الأقليات في بلغاريا واليونان وتتحدث عن انتهاكات حقوق الإنسان، لكن كردستان منسية تماماً، حيث لا يتم التعامل معنا كبشر)). ومثل معظم الشيوعيين، يعتقد أوج آلان بأنه هو وحزبه فقط يمتلكان الحقيقة، فالبنسبة له البرزاني عميلٌ تركي و الطالباني أداةٌ بيد العراق.

والسؤال هو ماذا حقق pkk حتى الآن؟ في هذه المرة هناك توقف مؤقت للحرب ـ وإذا لم تخنا الذاكرة فإن عدد الإصابات يزيد عن ثلاثة آلاف من كلا الطرفين - و الجواب الذي يأتي هو نفسه تقريباً الذي يعطيه ياسر عرفات في معرض إجابته عن أسئلة مشابهة، فيقول: أوج آلان: ((إن أهم شيء هو أننا قمنا بإيقاظ الشعور القومي لدى الشعب كله. إن هدفنا ليس تغيير الحدود، بل تغيير الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي. نحن نُطالب بكردستان مستقلة، وهذا لن يؤدي إلى تفتيت الشرق الأوسط، بل على العكس ستكون ضمانة للحكم الذاتي وحرية كل شعوب المنطقة)).

ويعتقد أوج آلان بأن التحركات التركية إبان الحرب مع العراق، بوضع مئة ألف جندي تركي على الحدود، وفتح الأراضي التركية لقوات التحالف، لها علاقة بالانتفاضة الكردية وطموحات أوزال أكثر من أن تكون رغبة صادقة في مساعدة الحلفاء ضد بغداد. ولم يتأثر أوج آلان بقرار أوزال في السماح لأكراد شرقي تركيا باستعمال لغتهم، فيقول في هذا الصدد:

(ليس هناك أي تحرر، إنه إذلال أن ((يُسمح)) لنا بالتكلم بلغتنا فحتى الحيوانات لا تُمنع من التحدث بلغتها ولا تستطيع أن تخيط أفواه الناس. وليس هناك سابقة في التاريخ البشري بأن مُنِع شعب من التحدث بلغته الأم، ولا تنسوا بأننا، حتى بعد هذا القرار، محرومون من القراءة والكتابة بلغتنا، أما مسألة التعليم في المدارس باللغة الكردية فبيساطة لم يتطرق إليه القرار المذكور. ليس هناك أية حرية للأكراد)).

وكما وجدنا، فإن الموظفين الأتراك يتفقون مع أوج آلان بأن المرسوم الذي تم التبجُح به كثيراً بالسماح للأكراد للتحدث بلغتهم ليس له في الواقع دلالة كبيرة، فقد كان الإجراء جزءاً من حملة [لخدمة] العلاقات العامة مع الولايات المتحدة والغرب ومع الأكراد في الدول الأخرى، الذين قد يقتنعون يوماً باختيار الحكم الذاتي في ظل السيادة التركية وهو اقتراح قابل للتفكير فيه بالنسبة لقادة من أمثال جلال الطالباني.

إن التكتيكات المتصلبة التي تبناها كلا الطرفين فيما أصبح من أعنف حروب العصابات تُعزى، جزئياً، إلى انعدام المعلومات عما كان يحدث. فوحشية الجيش والأساليب العنيفة أكثر فأكثر التي يلجأ إليها pkk جعلا المدنيين في شرقي تركيا بين فكي كماشة، فيقول رئيس قرية (توبتيب) يوسف آجو: ((نحن أما أن نقدم الطعام للغريلا[1] ونواجه اضطهاد الجيش، أو أن نرفض تقديم أية مساعدة فنقتل)) وقد كتب عضو البرلمان التركي جنيت جانفر Cuneyt Canver ((لقد تحولت منطقة شرق وجنوب شرق الأناضول إلى معسكر جزائي ضخم فكل واحد يخاف الآخر. الناس، هناك لايستطيعون التكلم أو الانتقاد، فعندما يُعطي القرويون الطعام للإرهابيين بدافع الخوف، تأتي قوات الأمن فيما بعد وتدعوهم لتفسير أعمال كهذه)).

---

(١) الغريلا: الداغر: المشارك في حرب العصابات سنشير إليهم فيما بعد بـ (قوات pkk). المترجم

ربما لا يكون سفك الدماء اليومي في شرقي تركيا، منذ عام ١٩٨٦ فصاعداً، شيئاً جديداً، ولكنها الأسوأ والأطول من كل النزاعات ـ التي كانت مستمرة منذ مئات السنين ـ بين الانفصاليين الأكراد والحكومة المركزية. إن القومية الكردية في تركيا بشكلها الحالي، نتيجة مباشرة لقرار مؤسس تركيا الحديثة، مصطفى كمال، بجعل دولته متجانسة تماماً. وربما تكون مراسيمه القاسية الجلّية سبباً في الموقف الانتقامي للحلفاء المنتصرين [تجاه دولته] في أعقاب انتهاء الحرب العالمية الأولى. فلم يكن هدف فرنسا وبريطانيا على الخصوص تفتيت الامبراطورية العثمانية عقاباً لها على وقوفها إلى جانب ألمانيا في الحرب فحسب، بل أيضاً الحصول على مناطق نفوذ وسيطرة تم تعيين بعضها قبل الحرب بسنوات.

وكان الرئيس وودرو ويلسون بمبادئه المثالية الأربع عشرة، مفيداً جداً للقواد الفرنسيين والبريطانيين الأنانيين، الذين اعتقدوا بإمكانية تجسيد اهتمام ويلسون بالأقليات على شكل إقامة مناطق عازلة والتخفيف من أية عدوات محتملة: وذلك باعطاء أو وقف الدعم، واعتقدوا أيضاً بأنهم سيضمنون الدعم المستمر من أصدقائهم.

وقد كان رد فعل مصطفى كمال والقوميين الأتراك إزاء هذا التقسيم الاستعماري، هو شنّ حربهم الخاصة للاستقلال، والتي وضعت نهاية للجمهورية الأرمنية الناشئة، كما منعت ظهور الدولة الكردية إلى حيّز الوجود. فقد دحر الأتراك اليونانيين وطردوهم خارج تركيا، وفي التاسع والعشرين من تشرين الأول ١٩٢٣ وبعد ثلاثة أشهر تماماً من توقيع معاهدة لوزان، أُعلنت الجمهورية التركية برئاسة مصطفى كمال ـ وهو منصب احتفظ به لخمسٍ وعشرين سنة لاحقة ـ وبسيطرة حزب الشعب الجمهوري ـ الذي أسسه مصطفى كمال ـ على البرلمان تبنت تركيا دستوراً برلمانياً ولكن كان يحكمها عملياً شخص واحد لربع قرن.

وقد واجه مصطفى كمال متاهة من المشاكل، أكثر من معظم الذين وصلوا إلى السلطة فجأةً. فقد كانت تركيا تُعرف منذ عقود بـ "رجل أوربا المريض" فاقتصادها لم يكن يجاري الحياة الحديثة، وامبراطوريتها في حالة تقلص، وتكنولوجيتها متخلفة عن منافساتها. ولكي تلتحق بالقرن العشرين كان الأمر يقتضي تغييرات و إصلاحات كبيرة وهو ما كان مصطفى كمال مستعداً لاجرائها. وكان لابد من تهيئة الوضع الداخلي أولاً، فلا تزال المشاكل التي سببتها الأقليات في بلده حية في ذاكرته، لذلك كان مصطفى كمال مصمماً على تجنب مشاكل كهذه في المستقبل، ليس فقط بتثبيط همة الأقليات، بل مؤكداً أنها سوف تخرق القانون إذا ما حاولت الحفاظ على هوياتها المستقلة. وهكذا كخطوة أولى على طريق تركيا الحديثة، التي كانت في مخيلته، أعلن عن دستور جديد بعد سنة تماماً من معاهدة لوزان

التي ضحّت بالضمانات الدقيقة للأقليات. وكانت أكبر هذه الأقليات، الكرد، يشغلون ثلثاً من أراضي الدولة التركية الجديدة ويؤلفون خمساً من مجموع السكان. إن معاهدة لوزان، التي وُقع عليها مباشرة بعد المجازر الدموية للأرمن، والحرب المريرة بين الأتراك واليونانيين اشترطت على:((ألا تُوضع أية قيود على الاستعمال المطلق لأية لغة [يتكلمها] المواطن التركي، لافي العلاقات الخاصة ولا في التجارة، ولا في أمور الدين، أو الصحافة أو النشر أو حتى في الاجتماعات العامة. ورغم وجود لغة رسمية، فإن المواطنين الأتراك الذين لا تُعتبر التركية لغتهم، سوف يمنحون حق استعمال لغتهم الأم أمام المحاكم)).

وحتى عندما استولى مصطفى كمال على كل شيء ماعدا الاسم، وافقت تركيا بأن هذا البند والبنود الأخرى المشابهة لها التي تحمي حقوق الأقليات، يجب أن تصبح جزءاً من القانون الأساسي للدولة، حتى لا تستطيع القوانين والمراسيم اللاحقة إبطالها. كان الأتراك، مجازياً، يضعون أيديهم على قلوبهم ويتساءلون هل يمكن أن يشك برغبتهم في التلاعب بهكذا قوانين وهناك خمس وسبعون عضواً برلمانياً كردياً في مجلس الأمة الأعلى في انقرة، وهي دلالة واضحة أنهم يتكلمون باسم جميع [أكراد] تركيا. وهؤلاء سوف يؤيدون، بكل تأكيد، الفقرات التي تضمن حرية الكلام للأقليات.

كان ذلك في عام ١٩٢٣. وفي الثالث من آذار ١٩٢٤ وبعد أن حُلَّ مجلس الأمة الأعلى، أصدر مصطفى كمال مرسوماً يمنع استعمال اللغة الكردية، ويحظر التعليم بها، ويجعل من كل المنشورات باللغة الكردية غير قانونية. كان هدفه من وراء ذلك واضحاً ألا وهو توحيد دولته، ووضع كل شعوب تركيا، على قدم المساواة اثناء شروعهم بمغامرتهم الجديدة ـ عَلْمَنَة الدولة، وحظر كل طقوس الدراويش والصوفية وتبديل الابجدية العربية بالأبجدية اللاتينية، والتخلص من الطربوش والحجاب تلك الرموز التي تدل على الخضوع للإسلام والقضاء على امتيازات الدول الأوربية، وتبني سياسة اقتصادية براغماتية. وقد أثبت هذا الإجراء نجاحاً عظيماً في تحويل تركيا، قلب الامبراطورية المريضة والمفلسة، إلى دولة حديثة قادرة على منافسة جاراتها الأوربيات[1]. ولكن بتجاهل أكبر

(١) لم تصل تركيا إلى هذه المنافسة وما تزال متخلفة بالقياس ليس إلى دول أوربا الغربية بل وبالقياس إلى دول أوربا الشرقية بما فيها اليونان (هـ . ع)

أقلياتها، وضعت ـ بنفس الوقت ـ بذور المشكلة التي تندلع اليوم بالعنف وسفك الدماء في قرى المقاطعات الشرقية.

وهكذا أصبح الأكراد في غمضة عين مواطنين من الدرجة الثانية في وطنهم. فبالإضافة إلى عيشهم في أفقر مناطق تركيا، تُفرض عليهم نفقات إضافية في كل مرة يضطرون فيها إلى التعامل مع الدولة، إذ بسبب منع استعمال لغتهم الأم، يلجأ الأكراد إلى المترجمين ليتكلموا باسمهم في كل معاملاتهم مع الدولة. وأصبح الأكراد بمندين جاهزين للجيش التركي، ليس فقط لكونهم فقراء ويحتاجون إلى مورد للعيش، بل لأن الشباب كانوا يُقنعون، أحياناً، بأنه سيكون مفيداً إذا ما تعلموا مهارات أعدائهم في كيفية استعمال الأسلحة وزرع الألغام. وقد زاد الإجحاف بحق أولئك الأكراد الذين انخرطوا في الجيش بتحريض من الوطنيين والانفصاليين: فقد كان عليهم تحمّل الكثير من السب والشتم، تماماً مثلما تحملوها عندما تركوا وطنهم وذهبوا إلى المدن الغربية، فكان ضابط النظام في التجنيد يسألهم عن خاناتهم عندما تسلموا مهماتهم، وقد أمضوا وقتاً عصيباً في الاستعراض الأرضي والجبلي حتى تعلموا قليلاً من التركية للاستجابة بسرعة للأوامر. كان الجيش على الدوام الوريث والوصي على أفكار مصطفى كمال، والحامي لقيَمِهِ، لكن الأكراد في ذلك الجيش كانوا من الدرجة الثانية، ونادراً ما يرقون إلى رتب عالية ما لم ينصهروا تماماً في البوتقة التركية.

واستمر السخط والاضطراب طوال سنوات، فقد كانت هناك تمردات صغيرة سُحقت بسهولة على يد الجيش التركي الذي إزداد وحشيةً أكثر فأكثر، فكان هناك تدمير وعمليات نفي وإبعاد أبقت شعلة النضال متقدة في الخارج. ولكن لم يبرز قائد قادر على توحيد الجماعات المتنافسة، التي كانت تعتمد، كما في مناطق أخرى من كردستان، على الأسرة والقبيلة والعشيرة. وكانت الغالبية الساحقة تسعى لحياة هادئة ومسالمة، متحملين معاناة الحكومة لهم، متجنبين أي تعامل رسمي ، على أمل البقاء في مناطقهم. وقد أدى الفقر وانعدام التطور حتى الثمانينات إلى تشتيت مئات الآلاف من الأكراد، وقد لعب وجود جاليات كردية كبيرة في أنقرة واستانبول وأزمير وفي مدن تركية أخرى، دوراً في قرار الحكومة بتطوير المناطق الشرقية من تركيا. فقد بدأ مشروع جنوب ـ شرقي الأناضول كمشروع صغير للسقاية و الطاقة في عام ١٩٦٠ هادفاً فقط إلى تحسين أوضاع الفلاحين، ولكن تحت تأثير تورغوت أوزال، الاقتصادي المثالي والسياسي الذكي، تحوّل المشروع إلى برنامج ضخم لتغيير شامل لشرق تركيا. ورغم ذلك، أثّر وجود جاليات كردية كبيرة في المدن التركية على موقف الأتراك العاديين الذين، سيراً على نهج الحكومة، بدأوا ينظرون إلى هؤلاء الأكراد كأعضاء محتملين في الطابور

الخامس. وفي السبعينات التي تميزت بالعنف قضى الأكراد حياتهم وفق هذه السمعة وذلك بمناصرتهم اليسار الثوري الذي أدى بالبلد إلى حافة حرب أهلية، حتى تدخل ضباط الجيش فوضعوا نهاية لمشاحنات الساسة وفرضوا سلامهم.

وبحلول ١٩٧٠ كان الأكراد يشكلون ٥٪ من عدد سكان المناطق غير الكردية، وبعيداً عن كونهم ((أتراك جبال نسوا لغتهم التركية)) كان الكثيرين منهم في الحقيقة نسوا لغتهم الكردية ـ على الأقل نصف أولئك الأكراد الذين كانوا يعيشون خارج المنطقة الشرقية، في حينه ـ وانصهروا تماماً في الحياة التركية ويتكلمون اللغة التركية فقط.

ومع ذلك ورغم كل هذه السنوات الطويلة من القمع، استطاع أكراد تركيا حتى الآن الاحتفاظ بهويتهم القومية وثقافتهم المختلفة، وإبقاء نار الأمل متقدة من أجل الحكم الذاتي، على الأقل، لأقاليمهم الثمانية. وفي السنوات الأخيرة لعبت قسوة بيئتهم، والحرمان الاقتصادي الذي يعانونه بالإضافة إلى جغرافية المنطقة، دوراً كبيراً في التصعيد المفاجئ للقومية والتي تجد تعبيراتها العنيفة في الحرب التي يشنها pkk.

ووفق تقديرات كريستيان مور CHRISTIANE MORE لعام ١٩٨٤ وبسبب سهولة السفر، نسبياً، أراد أكثر من مليون كردي العمل خارج تركيا. فذهب إلى ألمانيا الغربية وحدها حوالي الثلاثمائة ألف تقريباً، وعلى شكل مهاجرين عَمَدَ هؤلاء إلى تشكيل جماعات خاصة بهم، منعزلة تماماً عن الدول المضيفة ومختلفة عن الجماعات الأخرى من العمال المهاجرين بمن فيهم الأتراك. في ألمانيا، ،كما في دول غربية أخرى، وجد الأكراد الحرية في ممارسة الأشياء التي كانت محرّمة عليهم في الوطن، فلم يستطيعوا التكلم بلغتهم الكردية علانية وحسب ، بل في تعليم أطفالهم أيضاً لغتهم الخاصة ، ونشر المجلات والكراسات السياسية ،وأداء الرقصات الفلكلورية وحضور عروض للفلكلور الكردي . كانت كل هذه الأشياء محظورة في تركيا ، حيث كان يُعتقد إنه حتى الأغاني الكردية الفولكلورية بأفكارها القديمة عن المقاومة البطولية للظلم والمعارك الملحمية وقصص الحب المحكوم عليه بالاخفاق ، يمكن أن يكون لها تخريبي.

وقد لعبت هجرة الأكراد الداخلية في تركيا دوراً في ذلك القرار أيضاً . فبسبب تخلّف الأقاليم الشرقية اضطر الكثير من الشباب ـ وقلة من النساء ـ الأذكياء و الطموحين للذهاب إلى المدن التركية من أجل التعلم. وكان من بين هؤلاء أبناء وبنات الأغوات القادرين على دفع التكاليف أكثر

من غيرهم. وفي المدارس والجامعات رأوا الحرية والرخاء الاقتصادي التي تتمتع بها المدن التركية،وقارنوها مع قمع وفقر مناطقهم الكردية فتشرّب الكثير منهم أفكار اليسار التركي، أكبر المجموعات [المعارضة] وصاحب البرنامج الأكثر تأثيراً خلال سنوات ضعف الحكومة في الستينات والسبعينات. وكانت النتيجة في أدنى حدودها، عندما عاد الأكراد إلى قراهم كمدّرسين أو مدراء، بدأوا ينقلون إلى الجيل الجديد مشاهداتهم الخاصة عن التفاوت في الحياة الأجتماعية في تركيا، ويغرسون في مستمعيهم مشاعر قومية جديدة.

وقد تمرد أبناء الأغوات على دورهم كسند للنظام الإقطاعي الذي وُلدوا في ظله إذا حاول البعض منهم تعليم مستأجري أراضيهم بالطرق الجديدة التي تعلموها، فقط ليجدوا الضغوطات الأقتصادية التي تواجههم الآن وقد عادت إلى سابق عهدها. وكانت هناك بعض المحاولات لتشكيل فروع من المنظمات التركية الثورية في الأقاليم الكردية، لكن تنظيمات مثل ديف كنج (الشبيبة الثورية) وديف يول (الطرق الثوري) كانتا منظمتين مدنيتين ولم تقبلا الازدراع في الأقاليم الريفية حيث لا تزال الحياة هناك تتطلب الولاء للقبيلة وتشكل القرية قلب المجتمع . ولم تستطع النشاطات السرية والمنظمات الشيوعية ترسيخ جذورها في مجتمع كهذا حيث لا يبقى شيء مخفياً.

وكان الجيش معلماً مفيد أيضاً، ليس فقط في الفنون العسكرية التي يمكن أن تُستخدم ضد الدولة التي علمتهم، بل ايضاً في إعطاء المهارات الإبتدائية لأولئك الذين لم يكونوا قادرين على الاستمرار في المدرسة ـ إذ لم يكن باستطاعة الكثير من العائلات في المناطق النائية الاستغناء عن أبنائهم لرعي الماشية والمساعدة في الحقول ـ وفي هذه الأماكن لم تكن مسألة تعليم البنات شيئاً قابلاً للتفكير فيه. في الجيش ، ورغم كل القسوة، تعلم الجنود القراءة والكتابة، وأصبح ذوو الكفاءة سائقين أو ميكانيكيين. وبعد انتهاء خدمتهم لن يعودوا رعاة أو عمال قرويين، وإذا لم ينضموا إلى الهجرة التدريجية إلى المدن في الغرب، فإنه سيكون من الصعب السيطرة عليهم مثل باقي أبناء الريف.

وأخيراً، عندما تدخلت القوات المسلحة التركية مرة أخرى عام ١٩٨٠ لإنهاء القتال الأخوي بين اليمين واليسار الذي كان يمزق تركيا، ظهر إلى حيّز الوجود الوسيلة التقليدية [للحدّ من نشاط] الثوريين: السجن. في هذا السياق يتذكر نزيل سابق خطبة مدير السجن لدفعة جديدة من السجناء:((أنتم لستم أكراداً، بل أتراك، ونحن سوف نُريكم ذلك. فأنتم لن تتكلموا الكردية أبداً، فقط اللغة التركية مسموح بها، وإذا لم تستطيعوا التحدث بالتركية، حينها لن يسمح لكم بالكلام قط.

أنتم أعداء للدولة وينبغي القضاء عليكم، ولكن بدلاً من ذلك قررت الحكومة تعليمكم وجعلكم أتراكاً صالحين وكماليين طيبين سوف نجعلكم ملائمين للمجتمع)).

وكان ذلك تباهياً أجوف. فبدلاً من إعداد الأكراد للمجتمع التركي، أصبح سجن دبار بكر جامعةً للقومية الكردية. كان مكاناً يتسم بالوحشية، ولكن ما أن يتخرج منه المرء حتى يكون متأكداً من احترام شعبه له، وسيكون واحداً من الزعماء الجدد الذين سيتكلمون عن أفكار القومية والحكم الذاتي أو الاستقلال التي كانت تُناقش باستمرار.

كان ينبغي أن يكون حزب بولونداجويد حزب الشعب الجمهوري[1]، رغم إنه وريث التقاليد الكمالية، ملجأ الأكراد الطبيعي في السبعينات بعد أن أصبح يسارياً تحت الضغط الشعبي، وكردّ على أفكار سليمان ديميريل اليمينية التي فرضها على الجماعة السياسية الرئيسية الأخرى، حزب العدالة. وحزب العدالة هو حزب مالكي الأراضي والأغوات، وعندما كان في السلطة شجّع الحزب هؤلاء الرجال ليلعبوا دور الوسطاء بين الدولة والشعب، تماماً كما في أيام النظام الاقطاعي في الامبراطورية العثمانية.

وقد انضمّ بالفعل بعض الأكراد في الأقاليم الكردية وفي المدن التركية إلى حزب الشعب الجمهوري، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا بأن هذا الحزب ليس لديه ميول في تقديم أية تنازلات أكثر من الأحزاب الأخرى. وشكلّ هذا عاملاً في تَحول الشباب المدنيين نحو الجماعات الثورية التي أفرزت في النهاية pkk، بينما وجد المزارعون الصغار والفلاحون في الريف الحزب الديمقراطي الكردستاني في تركيا أكثر جاذبية. وبسبب اعتماده على البنية القبلية القديمة، كان يربط الحزب الديمقراطي الكردستاني في تركيا علاقات حميمة مع حزب ملا مصطفى في العراق، وكان هناك قدر كبير من التعاون عبر الحدود قرب هكاري حتى أغلق الجيش التركي الحدودَ. وحتى الآن، فإن أكراد العراق وتركيا وإيران مستمرون في عمليات التهريب بشكل منظّم وأثناء ذلك يتعلمون من التطورات السياسية التي تحدثُ في كل دولة.

---

(١) حزب الشعب الجمهوري هو حزب عصمت انيونو (هـ ـ ع)

واليوم فإن تجاوزات pkk تدفع الأكراد في تركيا باتجاه الجماعات المعتدلة حيث يتقدم حزب الوطن الأم، بقيادة تورغوت أوزال في المقاطعات الشرقية، رغم الصعاب. ويُعارض العديد من المثقفين الأكراد هذا الاتجاه قائلين ـ كما في مجلة رزكاري (الحرية) قبل اغلاقها في ١٩٧٩ ــ بأن شعب دولة محتلة يجب أن لا يُشغل نفسه بسياسة المضطهِدين ولكن ينبغي التركيز على كيفية الحصول على حريته.

وباستمرار الحظر على الحياة السياسية الكردية، يضطر النشطاء إما الانضمام إلى المتطرفين، أو التخلي عن أي دور في استمرار النضال من أجل الحكم الذاتي، أو على الأقل لتحسين الأوضاع في المناطق الكردية. ويزداد هذا التراخي والرغبة في البقاء خارج [الحركة] وضوحاً، بتحسين مشروع جنوب ـ شرق الأناضول لاقتصاد المنطقة وتوفير فرص عمل أكبر وزيادة مردود المحاصيل الزراعية. ولكن الحلم لا يزال حياً في احتفالات الأعراس القروية، وفي المقاهي وفي النشاط السري لأولئك الذين تخرجوا من سجن ديار بكر، وكما قال شفان، المغني الكردي العظيم، عندما أُخبر بأن أغنياته تخضع للرقابة: ((إن الموسيقا مثل الريح هل بإمكانهم منع الريح وأيقافه؟))

ويتهم الأكراد الحكومة التركية-بأنها تطبق أساليبها القديمة، وتلجأ إلى حجة الحاجة إلى الأرض لبرنامج السقاية الجديد لإزالة قرى بكاملها، وخلال ذلك تنقل الشعب إلى أماكن يمكن التحكم به ـ وهذا تبني للسياسة العراقية. ولكنها استُعملت في وقت سابق في تركيا بعد نهوض مصطفى كمال وتوليه للسلطة مباشرة، فقد كان هناك برنامج مدروس من أجل نقل الأكراد من مناطق بكاملها، وإزالة القرى من الخارطة، كوسيلة للاحتواء والقضاء على المقاومة للحكومة ولكبح جماح الغضب الكردي بسبب الخرق الدولي لوعودهم في إقامة دولة لهم والتأكيدات التركية بالحقوق الذاتية الثقافية.

وفي أوائل ١٩٢٥ اندلع التمرد الأول والذي وَحد أكراد سورية مع أكراد جنوب شرقي تركيا. فتم تشكيل ميليشيا وقام القرويون والمدنيون بطرد أو قتل كل ممثلي الدولة، وطلبوا مساعدة خارجية ـ ولكنها رُفضت. وكان الجيش التركي، الواثق من نفسه بعد نجاح كفاحه ضد اليونانيين، قادراً على قمع الانتفاضة السيئة التنظيم رغم أنه تم زج أكثر من خمس وثلاثين ألف جندي وسرب من الطائرات لإنجاز ذلك. وقد ظهرت الأهداف المتواضعة والمشوشة لهذه الثورة المبكرة في البيان الذي نشرته بأن هدفها هو كردستان مستقلة تحت حماية تركيا وإعادة السلطنة وفي النهاية حُكم على خمسة وثلاثين زعيماً بالإعدام، وقد كتب جواهر لال نهرو: ((إن الأتراك الذين كانوا يقاتلون حتى وقت قريب من أجل حريتهم، يسحقون الأكراد الذين يطالبون بنفس الشيء [الحرية]. إنه شيء غريب أن

تتحول القوميـة المضطَهـدة إلى قوميـة مضطهِـدة وأن يصبـح القتـال مـن أجـل الحريـة إلى تسلط على الآخرين)).

وقد رأت صحيفة تركية ذلك بطريقة مختلفة، فكتب أحدهـم: ((ليس هنـاك مشـكلة كرديـة حين تظهر الحربة التركية)) وبدا أن حكومة انقرة تتبنى نفس الرأي فلم تكن هناك أيـة محاولـة للتسوية أو التنازل للقومية الكردية. بدلاً من ذلك اتخذت السلطات مـن تمـرد ١٩٢٥ حجـةً لفـرض اجـراءات صارمة على الشيوعيين والاتحادات التجارية والأقليات الأخـرى بالإضافـة إلى الأكـراد. فكـانت هنـاك اعتقالات جماعية وتهجير من منطقة إلى اخرى، وتطبيق صارم للقوانين ضد الأكراد بشكل خاص.

وفي داخل تركيا كانت نتيجة كل ذلك هو قبول مرفوض ضمناً، وإدراك بأنـه لا يمكـن فعـل شيء في هذه اللحظة. ولكن، كالعادة، ظل الذين خـارج تركيـا متلهفـين لإبقـاء نـار الثـورة مشـتعلاً، واستطاعت أخيراً توحيد معظم القومية الكردية، وتشكيل تحالف مع الأرمـن واسـتطاع هـذا التحـالف الذي عُرف باسم (خويبون)[1]، عقدَ مؤتمر في (بحمدون) بلبنان، وباشر باتصالات مع القوى الخارجيـة التي بسبب مصالحها المتضاربة، كانت غير سعيدة بسير وتطـور الأحـداث في تركيـا ولاسيما بريطانيـا وفرنسا والاتحاد السوفيتي. و في هذه المرة كانت المساعدة السرية في المتناول واندلعت ثورة جديدة عـام ١٩٣٠ حول جبال آرارات في القسم الشمالي من كردستان (التركيـة) علـى حـدود المنطقـة التي تُعد أرمنية. إن اختيار هذا المكان للانتفاضة يعود في جزء منه إلى حاجة الأكراد في كسـب رفـاقهم الأرمـن إلى جانبهم، لكنه أُعتبر أيضاً محاولة من الأرمن لتولي زمام القيادة من الحركة الكردية المنقسـمة ومحاولـة استخدام الأكراد كجنود مشاة. وكان هناك أيضاً أمل تكتيكي لإتخاذ الأراضي الإيرانية قاعدة، ولكـن ذلك الأمل تلاشى بسرعة عندما سمحت إيران للأتراك باجتياز الحدود وملاحقة المتمردين، ومرة أخرى قُضي على الانتفاضة بسرعة.

وأصبح وضع أكراد تركية الآن أسوأ من أي وقت مضـى، وذلـك بـتراجع العـالم عـن [دعـم انتفاضـة ١٩٣٠ بالإضافة إلى الفقر وقسوة قمع الدولة. وبسبب ثقل الضرائـب والعيـش تحـت أنظـار جندرمـة الأتراك اليقظـين لم يسـتطع الأكـراد فعـل الكثـير، ولكـن عندمـا يُضغـط عليهـم كثـيراً، تثـور، أحيانـاً

(١) خويبون: معناها بالكردية تكوين الذات أو الحكم الذاتي: على أثر ثورة ١٩٢٥ الفاشـلة في كردستان تركية عُقد مؤتمر كردي كبير في سنة ١٩٢٧ كان من جملة مقرراته تأسيس هذا الحزب المترجم.

جماعات بكاملها. وعندما يحصل ذلك يأتي العقاب مباشرة: فيتم إعدام الزعماء المحليين، وسجن آخرين بتهم ملفقة، و تُنقل أُسَرٌ بكاملها إلى المناطق التركية، وتُتلف المحاصيل. وفي عام ١٩٣٧ تلقت عصبة الأمم رسالةً من سكان ديرسم ـ تسمى الآن تونجلي ـ طلبوا فيها المساعدة ضد الأعمال الوحشية لحكومة أنقرة ((التي تغلق المدارس الكردية، وتمنع استعمال اللغة الكردية، وتحذف كلمتي ((كرد)) و ((كردستان)) من الأعمال الجادة، وتستعمل أساليب همجية حين تُجبر الأكراد، بما فيهم الأطفال والنساء العمل في المشاريع العسكرية في الأناضول، وترّحل الأكراد في مجموعات مؤلفة من عشرة أشخاص إلى مناطق تركية)). وقد أظهرت دلائل أخرى، فيما بعد، أن عمليات التهجير في المجموعات المؤلفة من عشرة أشخاص قد أدت أخيراً إلى ترحيل أكثر من مليون شخص من كردستان تركيا، التي تُعرف بالأقاليم الجنوبية الشرقية الثمانية.

وقد قتل، وفق المؤرخين الأكراد، مئات الآلاف في الثورات التي استمرت خلال العشرينات والثلاثينات، ليس في القتال فحسب، بل أيضاً في الإعدامات الجماعية التي نفذها الجيش التركي. ولكن كما تُشير مذكرة كردية أخرى ـ هذه المرة إلى الأمم المتحدة ـ فإنه: ((وكنتيجة لمشاعر الاحباط والحرمان المتأصلة التي يعانون منها بسبب عدم الحصول على دولتهم القومية الخاصة بهم، فإن الشعب الكردي في كل أجزاء كردستان لم يتوقف أبداً عن التمرد، فما أن يتمكن المحتلون مؤقتاً من سحق تمرد في القسم الشرقي من كردستان حتى يندلع تمرد آخر في القسم الغربي أو الجنوبي أو الشمالي من كردستان. ولا يعني هذا أن الأكراد شعب مولع بالحرب. لكنه يعني رفضهم التام لأن يخضعوا للعبودية)).

وبقي السخط والاستياء في تركيا، لكن الموقف أصبح صعباً جداً للأكراد لإشهار السلاح بشكل متواصل. وخلال سنوات الحرب العالمية الثانية كان ينبغي على حركات [التي تناضل من اجل] الحكم الذاتي المحلية ومن كل الأشكال أن تأخذ المكانة الثانية بالنسبة للنضال الأكبر الذي ما يزال مستمراً، وبقي الأكراد، مثل البقية هادئين. وفيما بعد بدأ الجيش في تركيا يظهر بشكل أقوى فأقوى حتى أضحى أقوى آداة في الدولة، وهكذا بدأ يتدخل مباشرة في الحكم متى ما شعر بأن هناك خيانة للمُثل الكمالية. ومن الواضح أن النشاط الكردي في الستينات كان في حده الأدنى، ولكن في هذا العقد من الزمن تشّرب الأكراد، الذين أُجبروا على ترك منازلهم، بالأفكار الراديكالية لأولئك الذين عاش الأكراد بين ظهرانيهم. إن الأكراد الذين اختاروا أن يكونوا جزءاً من تركيا لم تكن لديهم مشاكل، إذ كانت سياسة الحكومة تقبل كل الأكراد الذين أعلنوا تركيّتهم وتخلوا عن لغتهم وعاداتهم

وانضموا إلى الاتجاه السائد، على حد تعبير الأتراك. أما أولئك الذين حافظوا على كرديتهم فكانوا يجدون التفاهم والتعاطف والمساندة من الراديكاليين فقط، الذين كانوا في السبعينات، يتمثلون بالدرجة الأولى باليسار المتطرف مثل الثوريين الشباب لـ (ديف يول) وحزب الشعب الثوري التركي، والجيش الثوري ومجموعات كثيرة أخرى منشقة عن اليسار المتطرف والتي كانت تتركز في الجامعات، أما النشطاء فكانوا ينحدرون بالدرجة الأولى من النقابات المهنية.

حتى أن بعض الأحزاب الرسمية [المرخصة] التي سمح بها الدستور التركي بدأت تتكلم عن الحاجة لحماية حقوق الأقليات، وكان هناك ميل متزايد باتجاه الاعتراف، على الأقل، بأن هناك مشكلة كردية. وكانت النتيجة من مجموعة المناقشات في الجامعات و النشاطات العنيفة للجماعات الإرهابية المتطرفة أن بدأ النشطاء الأكراد بلعب دور مكشوف في الأقاليم الشرقية، وانتشرت الفوضى رويداً رويداً في بقية أنحاء القطر، مما جعلت مهمة السلطات عسيرة في تركيز قوتها في الأقاليم الكردية الثمانية.

وفي عام ١٩٧٧ أنتُخِب مهدي زانا، اشتراكي كردي وانفصالي مُعتَرف به، محافظاً لمدينة دبار بكر، العاصمة غير الرسمية لكردستان تركيا. وبينما دخلت بقية تركيا في قتال أخوي، إذ كان الجيش والشرطة يحاولان كبح الهجوم الضار لمناضلي الماركسية، والذين تمت مقارنتهم بفاشية الذئاب الرمادية بقيادة (ألب أرسلان توركيس Alparslan Turkes) حصلت ديار بكر على فترة قصيرة من التحرر. ولكن لم يكن ذلك ليدوم. فعندما تدهور الوضع أُعلنت الأحكام العرفية في المناطق الشرقية، وعندما زار أحد المؤلفين مدينة ديار بكر سنة ١٩٧٩ كانت تشبه زيارة لمدينة في ظل الاحتلال. حيث كان أفضل فوج تركي للمظليين يخفر المدينة مثنى مثنى، والأصابع على زناد البنادق والتعزيزات تكون قريبة دائماً وكانت السيارات المصفّحة والدبابات متمركزة في أماكن استراتيجية. وكانت اللغة الكردية لا تزال تُستخدم في الشوارع والبيوت، ولكن الأهالي كانوا يصمتون عندما يمر البوليس أوضباط الجيش. وكان بالإمكان شراء أشرطة للموسيقى الكردية سراً من بعض المحلات، رغم إنه أُخبرنا بأن الجنود الأتراك كانوا يهشّمون بأعقاب البنادق المسجلات التي تستعملها. وكان الجميع تقريباً راغبين في الحديث، مع أي شخص أجنبي، حول تطلعاتهم للاستقلال، ومستقبل النضال وقسوة الحكومة.

وفي مقابلة مطولة، أعدها مندوبون خارج تركيا وأدارها سراً وبشيء من الخطورة على حياة كل المعنيين بعد سلسلة من اللقاءات الفاصلة، أعلن احد قيادي الحزب الديمقراطي الكردستاني المحظور في تركيا بأنه تم تشكيل جيش شعبي جديد وبأن النضال الحاسم لتحرير كردستان تركيا ليس ببعيد.

ولكن ذلك لم يكن مقدراً له أن يحدث. ففي عام ١٩٨٠ بدأ صبر الجيش التركي ينفذ أخيراً من النزاع بين ساسة أنقرة الذين حالت مشاحناتهم دون إيجاد أي حل للفوضى المتنامية في الدولة. وتولى الجيش زمام السلطة في انقلاب أبيض ووسّع فرض الأحكام العرفية من كردستان إلى جميع أنحاء القطر، ووسط دهشة الجميع تقريباً، استطاع بسرعة توطيد السلم والنظام وهذا يعكس ضجر الشعب التركي من النزاع أكثر من أن يكون بسبب خبرة الجيش الايديولوجية.

وبفرض الخطر، وبشدة، على كل الأحزاب السياسية وسيطرة الجيش المباشرة والواضحة على كل مظاهر الحياة، بدا وكأن التمرد الكردي قد وصل إلى نهايته. وكانت إحدى عوامل هذا الاستقرار هو أن الجيش لم يحافظ على النظام في الداخل فحسب، بل مارس، ولأول مرة منذ سنوات، مراقبة شديدة على الحدود، وذلك بخفرها ولذا منعوا عمليات الدخول والخروج اللارسمية [من و إلى تركية] والتي كان يتمتع بها أكراد تركيا وإيران والعراق وسورية، وهو ما ساهم إلى حد كبير في العصيانات المسلحة في مختلف مناطق كردستان. وعندما سُدت الطرق، وجد أكراد تركيا أنفسهم منقطعين عما يجري في الدول الأخرى. وقد جعل اندلاع الحرب العراقية ـ الإيرانية في عام ١٩٨٠ الأمور أسوأ من ذلك، رغم إن الأكراد في كل من العراق وإيران، حتى قبل اندلاع الحرب، كانوا يهتمون بما يجري في الدول التي يعيشون فيها أكثر من اهتمامهم بقضايا كردستان الكبرى.

لكن المعارضة كانت قد جمدت ولم يتم تصفيتها والهدوء الذي أعقب تولي الجيش للسلطة في ١٩٨٠ لم يدم طويلاً. فالاجراءات الصارمة التي أُتخذت بعد الإنقلاب جمعت شمل الكثير من الراديكاليين اليساريين، ولا سيما في النقابات العمالية، لكن عدداً ضخماً من هؤلاء استطاعوا الفرار من تركيا. وكان عبد الله أوج آلان واحد من هؤلاء والذي كان في حينه طالباً في كلية العلوم السياسية بجامعة أنقرة، وانضم إلى ماسمي بـ (جمعية انقرة الوطنية للتعليم العالي) التي تأسست في عام ١٩٧٤ للمطالبة بالاعتراف بالثقافة واللغة الكرديتين. وبحلول عام ١٩٧٨ عندما أصبح أوج آلان أحد النشطاء، قدّمت الجمعية حزب العمال الكردستاني وهو فرع أكثر راديكالية ممن جمع الماركسية والقومية وكانت لديه اتصالات مباشرة مع الجماعات الثورية التركية المختلفة. وفي عام ١٩٨٥ انشق باقي قرار، وهو واحد من الأعضاء الأتراك الأوائل في الجمعية، عن PKK بسبب أساليب الحزب المتسمة بالعنف ومنذ ذلك الحين وهو يُدين أوج آلان وأولئك الذين لا يزالون يؤيدونه.

ذهب أوج آلان ورفاقه المقربون إلى سورية حيث كانت هم اتصالات مباشرة مع الأكراد هناك. وقرروا مواصلة نشاطاتهم من الخارج، وأعتبروا على الفور أداة يمكن الاستفادة منها بيد أجهزة

الاستخبارات السورية اليقظة دائماً. وكانت دمشق تستضيف من قبل عدداً من المتطرفين الأتراك كوسيلة لتقويض حكومة أنقرة الموالية للغرب.

وبعد أربع سنوات تدرّب وانتظم خلافها أوج آلان ونوابه، فأصبحوا يرحبون بالنشطاء الفارين من تركيا، ويخلصون آخرين ممن يواجهون المصاعب هناك، وكذلك شجعوا المناضلين الأكراد في سورية للإلتحاق بهم. وأعطى السوريون بأنفسهم الأسلحة و الألبسة العسكرية النظامية والدعم المالي الكافي للأكراد ودربوهم على تقنيات حرب العصابات وشرّبوهم بفلسفتهم العنيفة: حرب لاهوادة فيها. لم تكن هذه فرصة للسوريين لاستخدام الحزب ضد الأتراك فحسب، بل ضد الأهداف الأمريكية في تركيا وكذلك ضد العراق أيضاً. فقد كانت سورية في تلك المرحلة تدعم طهران في حربها ضد بغداد، وقد أُضيف حافز جديد لرغبتها في إرباك عدوها التقليدي [العراق][1]

وبحلول عام ١٩٨٤ أصبح Pkk جاهزاً وأمر أوج آلان رجاله بالشروع في المعركة. في ذلك الحين ربما لم يكن لدى PKK إجمالاً أكثر من خمسمائة رجل، لكنهم سدوا هذا النقص في العدد بالقسوة ليس فقط ضد عدوهم بل أيضاً ضد أي شخص يُشتبه في وقوفه إلى جانب الأتراك. وللحفاظ على الانضباط ضمن قواته، حذّر PKK كوادره من أن عقوبة الانشقاق هي الموت. وأحد أولئك الذين حُكموا بالموت بعد تَرْكْ الحركة اشمئزازاً من تجاوزاتها هو الفنان الفلكلوري شفان برور. ولكن صُفِح عنه بعد تدخل مباشر من مسعود البرزاني رئيس (ح.د.ك)

لقد كانت الهجمتان الأوليتان لـ Pkk في تركيا آب ١٩٨٤ وفي قرى أروخ وشمدينلي تحديداً قرب الحدود العراقية ربما بإيحاء سوري في محاولة لايهام الحكومة التركية بأن التمرد الجديد موجه ضدهم من قِبل العراق وحده. وكانت مواقع البوليس ومخافر الدرك والحاميات العسكرية من ضمن الأهداف الأولى، ولكن PKK أظهر بسرعة كيف ينوي إدارة حملته: إذ بدأ يطلب الطعام والمأوى وكل انواع المساعدة من سكان القرى النائية في تلك المنطقة الكردية الجبلية حيث تلتقي حدود تركيا و العراق وسورية. وأي رفض يقابله إعدام زعيم [القرية] أو حتى أسوأ من ذلك: قتل أُسر زعماء القرى بكاملها. وفي بعض المرات كان الفلاحون يؤخذون كأسرى، في حين يُجبر الشباب على

(١) العراق ليس عدواً تقليدياً لسوريا وانما حدثت القطيعة في السنوات الأخيرة لوجود صدام في السلطة (هـ . ع)

الالتحاق بـ pKK بالإضافة إلى الكثير من حالات الاغتصاب. وهكذا أصبح الأغوات المحليين مكرهين على إعطاء النقود والطعام والأسلحة.

وبمرور السنين، تضاعفت الحوادث المشابهة، وكانت هناك أحياناً معارك ضارية بين قوات pKK والدوريات العسكرية. وأصبح العصيان المسلح حقيقة حياتية يومية، وقد سماها بعض الأتراك بالانتفاضة السرية. وتختلف تقديرات الحكومة كثيراً عن عدد المتورطين، فكان العدد الأولي لايزيد عن خمسمائة ((إرهابي)) و وصل الآن إلى أربعة آلاف مقاتل يقومون بالعمليات داخل تركيا. وقد كان الضغط على تركيا كبيراً بحيث عقدت اتفاقيتين مع جيرانها، الأولى بعد تولي الجيش لزمام السلطة في أنقرة مباشرةً وكانت تسمح رسمياً، كما قيل، للجيش التركي بحق المطاردة الساخنة في شمالي العراق، بكلمة أخرى كانت تخول الأتراك حق عبور الحدود إذا ما كانوا في مواجهة مباشرة مع مجموعة من المتمردين، بدلاً من توقيف الاشتباك عند الحدود. وذهبت المعاهدة، عبر بنودها السرية، إلى أبعد من ذلك فأعطت الجيش التركي عملياً حرية مطلقة ضد الأكراد في شمالي العراق مقابل وعدٍ من تركيا بالمساعدة إذا ما هددت إيران المنطقة أو خط النفط الحيوي الذي يمر من كركوك عبر الأراضي التركية إلى البحر المتوسط. وجاء أول دليل على الهدف من الميثاق عندما قصفت الطائرات التركية مواقع المتمردين داخل العمق العراقي، وبعد ذلك في عام ١٩٨٣ أُرسلت قوات برية للعراق حتى دون ذريعة ملاحقة المغيرين.

أما الاتفاقية الثانية فكانت مع سورية، ولكنها لم تكن بمستوى طموح المعاهدة التي عُقدت مع العراق، فقد نصت المعاهدة على تحسين العلاقات، وتطوير التجارة وتبادل المعلومات فقط. و قد علّق الأتراك، علنياً، أهمية كبيرة على تلك الاتفاقية، ربما لإقناع الأكراد بأن Pkk قد فقد سنداً مهماً، لكن سورية لم تفعل الكثير لمساندة السياسة التركية. بدلاً من ذلك أعلنت على الملأ بأنه طُلب من عبد الله أوج آلان ورجاله مغادرة دمشق، لكنهم لا يزالون يقومون بعملياتهم من المنطقة التي تسيطر عليها القوات السورية في وادي البقاع شرقيّ لبنان.

إن إحدى أهم الأسلحة الفعالة بيد الحكومة التركية هو التنافس بين Pkk وبعض الأحزاب الكردية الأخرى التي تقوم بعملياتها هناك. وقد ساهمت القسوة التي رافقت عمليات Pkk وسياسة الانتقام بالقتل، ليس فقط ضد الذين عارضوهم، بل كذلك ضد الذين لم يقدموا المساعدة، في إبعاد الناس عن الحزب. وبدلاً من استخدام ذلك السلاح فضلّت السلطات التركية، بحماقة، تجاهل الانقسامات الممكنة في صفوف المعارضة وشرعت بسلسلة منظمة من الأعمال القمعية والتي ماثلت

على الأقل وحشية Pkk. والمثال النموذجي على ذلك هو تجميع المشتبهين بصلتهم مع Pkk وكانت النتيجة محاكمة جماعية لحوالي خمسمائة شخص في ديار بكر، واستمرت المحاكمة على نحو متقطع لمدة خمس سنوات، وفي النهاية حُكم على ثلاث وعشرين من المدّعى عليهم بالموت، ولكن خلال سير المحاكمة توفي اثنان وثلاثون شاباً أما بسبب التعذيب، أو الإضراب عن الطعام أو الانتحار.

جامعاً ما بين العنف غير المبرر والقمع الشديد، أقسم المؤتمر الثالث لـ Pkk على ((التخلص من كل الأعداء)) قاصداً بوضوح الجماعات الكردية المنافسة بالإضافة إلى الشرطة والجيش التركيين. تلا ذلك مباشرةً موجة من عمليات القتل في أوربا حيث يوجد معظم تمثيل Pkk الخارجي. ففي هولندا وألمانيا، قُتِل عدد من النشطاء الأكراد الذين أُتهموا ـ أحياناً قبل اغتيالهم ـ بالخيانة في جريدة [مجلة] Pkk سرخبون (الاستقلال) وقد وصلت سمعة Pkk المتطرفة إلى حد أنهم كانوا المتهمين الرئيسيين عندما أُغتيل أولف بالمة Olof Palme رئيس وزراء السويد، عام ١٩٨٦. ويُعتقد أن الباعث وراء ذلك الاتهام لم يكن سوى حكم البوليس السري بأن Pkk منظمة إرهابية ونتيجة ذلك رُفض إعطاء تأشيرة لـ (أوج آلان) لزيارة السويد التي يوجد فيها جالية كردية كبيرة ومتزايدة.

وفي عام ١٩٩١ تبنى البوليس السري وأجهزة الاستخبارات التركية نفس الأساليب: حيث أُطلق النار على عدد من النشطاء الأكراد، وكانوا يُعدون أعضاءً في الجماعات اليسارية المتطرفة، وأُردوا قتلى. ومعظم هؤلاء قُتلوا بطلقة واحدة في قفاهم وهو دليل أكيد على ((حكم الإعدام)) الذي نفذته فرق الموت التابعة للحكومة.

إن أسباب نجاح Pkk، إذا كان هذا نجاحاً، يمكن إيجادها في بنية التنظيم نفسه، فمعظم المتطوعين من الشباب وينتمون إلى أفقر الأُسَر في المجتمع. ويكون هؤلاء عادة بين الخامسة عشر والثانية والعشرون، ويتلقون مبادئ وأفكار الحزب بسهولة، ويمكن جعلهم مخلصين بشدة لحزبهم وأفكاره وأيدولوجيته.

العاملُ الثاني هو أن لدى Pkk، مثل الجيش الاسرائيلي، تقليدٌ يقضي بالقيادة من قِبل الزعماء فالقواد والمسؤولون الحزبيون لايقون في المؤخرة بقاعدة المعسكرات، بل يذهبون مع رجالهم لمواجهة الجيش التركي، ونتيجة ذلك قُتِل مالايقل عن خمسة أعضاء من اللجنة المركزية، وتقول الشائعات أن عبد الله أوج آلان نفسه قد نجا عدة مرات وبشق الأنفس من الموت أو الأسر.

وبسبب وقوعها بين الشرق والغرب كان ينبغي على تركيا دائماً أن تحافظ على التوازن، وخلال السنوات الثمان للحرب العراقية ـ الإيرانية أصبحت لعبة التوازن هذه أكثر صعوبة. فبإبقاء خط النفط العراقي مفتوحاً، وحمايته عملياً، مكّنت تركيا العراقَ لكسب عائدات كافية لمواصلة الحرب، ولموازنة ذلك، أكد الأتراك بأن الطريق البري إلى إيران سيبقى مفتوحاً أيضاً، مفسحةً المجال لأخذ الأسلحة والذخائر وسلع حيوية أخرى إلى طهران.

وكان هدف الأتراك من التعامل مع الأكراد، في نفس الوقت، هو إبقاء الأمور هادئة داخل أراضيهم غير مبالين كثيراً بما يحدث في الدول المجاورة، إلا إذا أثّر ذلك على المناطق الشرقية. ونجحت تلك السياسة لسنوات حتى بعد أن بدأ PKK حملته. وعلى إثر اتفاقها مع العراق شنّت تركيا هجمات تأديبية [ضد Pkk] في ذلك البلد ولكن ليس في إيران أو سورية التي لم تكن تسمح بأية غارات تتجاوز حدودها. وفي داخل تركيا أبقت السيطرة العسكرية الصارمة الحظر على الأحوال العامة حتى بعد أن سلم الجيشُ السلطةَ إلى المدنيين عام ١٩٨٢ وضمنت بذلك بأن الانتفاضة ستظل مقتصرة على جنوب ـ شرقي الأناضول.

وقد أصبحت الأمور خارج سيطرتها فقط عند انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية عام ١٩٨٨ فإثر الهجرة الجماعية المذعورة التي سببها استعمال صدام حسين للأسلحة الكيميائية في هجوم ما بعد الحرب ضد الأكراد العراقيين، حيث فرّ مائة ألف كردي إلى تركيا وإيران. وفي تركيا لم يكن هناك ترحيب بهم، فقد كان الجيش متخوفاً من أن يكون هناك بين اللاجئين نشطاء ((مثيرين للمتاعب)) والذين سيقومون بتنظيم وتسييس الأكراد (الأتراك) إذا ما سُمِحَ لهم الدخول بحرية إلى تركيا. فأقام الجيش مخيمات للاجئين في مناطق نائية ولا ضيافيّة [ذات صفات لا تساعد على العيش أو التماس المأوى] وكانت مساعدته في حدها الأدنى لوكالات الإغاثة الدولية، وتلك التي كانت تسعى للإعلان دون أدنى شك، بأن العراقيين قد استعملوا بالفعل الغازات ضد المدنيين ـ إذ لم تكن تركيا راغبة في معاداة العراق الذي لا يزال قوياً حتى بعد انتهاء الحرب. ولم يفعل شيئاً كثيرون غيرها، فقد كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تفكران، بحذر، وبطريقة مغايرة. فلم تكونا راغبتين في جرح مشاعر دولة لم تكن فقط شريكة تجارية هامة، بل أيضاً معقلاً دائماً ضد الإسلام الثوري، وهي إضافةً إلى المعسكر المعتدل في الشرق الأوسط.

وبقيت أحوال المعسكرات على الحدود سيئة، وعندما أعلن صدام عفواً عن الأكراد الراغبين في العودة إلى الوطن، رجع الكثيرون فاختفى المئات منهم على الفور. وذهب آخرون إلى إيران، أما طوعاً أو بتحريضٍ تركي، ولم يكن أمام **الإيرانيين** من خيار سوى قبولهم.

وبعد ثلاث سنوات، حينما أُجبر أكراد العراق على اللجوء إلى تركيا مرةً أخرى، كان لدى أوزال فكرة واضحة عن أين تكمن مصالح بلاده. وقد كتب المعلّق التركي ألتمور كيليج Altemur Kilic في حينه، ما يلي:

"إن مضامين المأساة التي تجري على الحدود، بالنسبة لتركيا، لا تنحصر فقط في المصاعب الإدارية والاقتصادية والمالية. إن سلامة ومستقبل تركيا تعتمدان على حل المشكلة. فإذا ما استوطن مليون كردي عراقي في تركيا، فإن توازنها وأمنها سوف ينقلب رأساً على عقب،"

ويدّعي كيليج أن القضية الكردية في تركيا مختلفة تماماً عن المشكلات الكردية في العراق وإيران، إذ يُعطى للأكراد في هاتين الدولتين بين الحين والآخر "وضع الأقلية" بينما أُعتبروا في تركيا دائماً على أنهم "جزءٍ من فسيفساء القومية التركية" ويستطردِ فيقول:

"إن أي تلميح إلى حكم ذاتي أو انفصال كردي، أو حتى إمكانية [إقامة] منطقة حماية قد تتطور إلى كردستان مستقلة، والتي قد تتحد مع أجزاء من تركيا، شيء مقيت بالنسبة لتركيا حكومة وشعباً. وهذا هو السبب الرئيسي في أن يكون الرئيس أوزال ضد تقسيم العراق وإقامة كردستان مستقلة أو دولة شيعية. وهناك تخوف تركي آخر، يمثل أهمية الأول، وهو أن كردستان المستقلة سوف تبتلع نحو ثلاثة ملايين شخص من أصل تركي في العراق، والذين يشكلون الأغلبية في منطقة كركوك الغنية بالنفط)).

وأراد أوزال بالإضافة إلى محاولته لمنح بلده حظوة لدى الأمريكيين أن يضمن بأن تركيا في موقع جيد إذا ما تم تقسيم العراق، والذي بدا ممكناً أحياناً. وتحدّث أوزال في عدة مناسبات وكأنه مستعدٌ لإحياء قضية الموصل وإعادة تلك المنطقة إلى تركيا بعد ستين سنة من تسوية القضية من قِبل [لجنة] تحكيم دولية. وعلى حد سواء، قرر أوزالِ ان يتخذ لنفسه موقعاً بحيث تكون تركيا القوة الوحيدة القادرة على ممارسة السيطرة المطلقة على الدولة الكردية إذا ما أُقيمت بسبب سوء الحظ.

الفصل التاسع

جريمة في فيينا

وجد رجال الشرطة في فيينا (الذين طلبوا الى لينكبانكاس Linkebahngasse رقم ٥ في مساء الثالث عشر من تموز ١٩٨٩) باب شقة الطابق الخامس مفتوحاً. كانت الغرفة في حالة فوضى شديدة كما لو أن قتالاً عنيفاً قد جرى فيها. ووجدوا في غرفة الجلوس في نهاية الممشى عبد الرحمن قاسملو ـ زعيم (ح.د.ك)ايران، المفكر والمرشد المخلص لجيل من القوميين الأكراد ـ جثةً وقد فارق الحياة.

كانت ترقد بجانبه على أرضية الغرفة جثث ممثل الحزب في أوروبا عبد الله قادري آزار، وفاضل رسول الصحفي والباحث الكردي البارز في جامعة فيينا. لقد أُطلق الرصاص على رؤوس الرجال الثلاثة وكأنه تنفيذ لحكم الإعدام. ولم يكن الباب مكسوراً مما قادَ رجال الشرطة النمساوية الى الاستنتاج بأن الضحايا كانوا على معرفة بمهاجمهم

كان الدكتور قاسملو قد وصل الى فيينا قبل يومين آملاً بنهاية مثمرة لسلسلة المفاوضات السرية مع ممثلي النظام في طهران، الرامية الى تسوية سلمية للقضية الكردية في ايران.

كان الدكتور قاسملو، كسكرتير للحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران وقائد لقوات البيشمركة، في حالة حرب مع آيات الله منذ عقد من الزمن. إذ بدأت الجمهورية الإسلامية حملتها لقمع النزعة الانفصالية الكردية مباشرة بعد انتصار ثورة الخميني في عام ١٩٧٩ مما دفع الأكراد إلى ثورة مفتوحة ضد طهران. ومع بداية حرب الخليج في السنة التالية استطاعت قوات البيشمركة في كردستان أن تحدّ من حرية المائتي ألف جندي التابعين للحكومة الإيرانية على طول الحدود مع العراق، تماماً كما فعل أكراد العراق في الطرف الأخر من الحدود وذلك بشن غارات متكررة على قوات صدام حسين

ورغم الدعوات المتكررة للدكتور قاسملو لوضع حد للحرب العراقية ـ الإيرانية فإن وقف إطلاق النار بين العدوين صيف ١٩٨٨ شكلّ تهديداً كبيراً لحركته كما للأكراد في العراق. صحيحٌ أن الأكراد الإيرانيين نجوا من هجمات الأسلحة الكيميائية والهجرة الجماعية القسرية التي تعّرض لها إخوانهم الأكراد في العراق، ومع ذلك فإن انتهاء الحرب أعطى فرصة لطهران لإعادة تأكيد سلطتها

على الأقاليم الشمالية الغربية. كان قاسملو - رغم إنه قائد عسكري ناجح وقوي - يفضّل دائماً الحل السلمي للقضية الكردية، وعندما انتهت الحرب رأى قاسملو أنه لامناص من المفاوضات. وكانت وجهة نظره التوفيقية والمعتدلة هذه قد أبعدته عن جماعة مجاهدي خلق وهي جماعة إيرانية معارضة سرية متشددة كان قد سبق له أن تحالف معها تحت مظلة المجلس الوطني للمقاؤمة.

كان الوسيط في عملية التسوية المزعومة هو جلال الطالباني زعيم (أوك) الذي يتخذ من طهران مقراً، وله تأثير على الجانب الإيراني - إذا أُخذ بالاعتبار دور حزبه في القتال ضد بغداد خلال فترة الحرب - كما تربطه صداقة قديمة العهد مع قاسملو. وقد قدّم الإيرانيون عرضاً بإمكانية التسوية مع الثوار الأكراد عن طريق الطالباني زعيم (أوك) الذي عرضه بدوره على قاسملو في لقاء بباريس خريف ١٩٨٨. وطبقاً لمبادئه المُعلَنة بأن المفاوضات وليست الحرب هي الطريق الوحيد لحل القضية الكردية، شرع قاسملو بسلسلة من اللقاءات مع المندوبين الإيرانيين في كانون الأول ١٩٨٨ وكانون الثاني ١٩٨٩ تحت رعاية وحماية الطالباني.

جرى الإتصال المباشر الأول في فيينا في الأسبوع الأخير من عام ١٩٨٨ ولقاءات أخرى في النصف الثاني من شهر كانون الثاني ١٩٨٩. كان يرافق قاسملو في جميع اللقاءات قادري آزار وبحضور الطالباني الذي اتفق عليه الطرفان كمسؤولٍ عن تنظيم وأمن المفاوضات. فكان مكان الاجتماع يتغير من لقاء لآخر يختارهُ الطالباني ويحميه أعضاء من الاتحاد الوطني الكردستاني. بينما كان حارس المندوب الإيراني، أمير منصور بوزركان الذي يعرف فيينا تماماً، مكلفاً بإحضار الطعام للمشاركين، ولم يكن يُسمح له بالظهور في مكان الاجتماع إلا برفقة شخص من (اوك). كان الإيرانيون الذين جاءوا الى اللقاء ممثلين عن رئيس المستقبل علي أكبر هاشمي رفسنجاني والذي كان يدير عملياً الشؤون اليومية في إيران خلال الأشهر الأخيرة من حياة الخميني.

كان يمثل الجانب الإيراني في الجولة الأولى من المحادثات كل من: محمد جعفر سهرروردي المعروف بـ (رحيمي) ونائبه حاجي مصطفاوي: كان الأول ضابط استخبارات في فيالق الحرس الثوري و مكلفاً بالاتصال مع الأحزاب الكردية العراقية، ونائب شعبة الفيلق الخامس عشر في كردستان وهو خبير معروف في الشؤون الكردية. وكان الآخر موظفاً حكومياً كبيراً في مكتب الإعلام ورئيس الجهاز السري في المناطق الكردية الواقعة في أقليم أذربيجان. لقد وصل الرجلان بجوازات سفر ديبلوماسية، بينما كان بوزركان الذي يحمل جواز سفر من السلك الإيراني يعمل حينها كحارس شخصي(سهرروردي).

أظهرت محادثات فيينا في ذلك الشتاء تقدماً ملحوظاً حيث ناقش قاسملو خلالها مسألة الحكم الذاتي الكردي ضمن إطار إيران دمقراطية، ومسألة الحقوق الثقافية وحق البيشمركة في الحفاظ على الأمن في المنطقة. وبدا أن الأيرانيين يسلّمون بمبدأ الحكم الذاتي و تأجلت تسوية كل ذلك إلى [حين انعقاد] مفاوضات مشروطة في المستقبل.

في هذه الأثناء كان الإيرانيون منزعجين من أن خبر الاتصالات المباشرة السرية قد افتضح أمره، وألقوا باللوم على الثرثار والطائش أحياناً جلال الطالباني. وعلى هذا الأساس منعوا الطالباني من حضور المفاوضات. وفي بداية شهر تموز اتصلوا بـ (فاضل رسول) - وهو كردي عراقي المولد ـ ليلعب دور الوسيط الجديد. أعلن فاضل رسول بأنه كصحفي وأكاديمي متواضع ليس مؤهلاً للتوسط في لقاء هام كهذا، واقترح بدلاً عنه زميله في مجلة الحوار العربية، الرئيس الجزائري الأسبق أحمد بن بلة.

وافق كل من الإيرانيين وبن بلة على الاقتراح، وفي عشية محادثات تموز إلتقى قاسملو ورسول وبن بلة في فيينا لبحث الترتيبات. وبسبب إصرار الجانب الإيراني على أن يبقى اللقاء في غاية السرية، لم يعلم الطالباني ولاحتى رفاق قاسملو المقربين في إيران شيئاً عن الترتيبات. حتى أن الأكراد رضخوا لطلب الإيرانيين في ألاّ يحضر بن بلة شخصياً تلك المباحثات. نتيجةً لذلك ـ وبخلاف مباحثات الشتاء السابق - جرى اجتماع تموز بدون أية ضمانات أمنية لقاسملو ورفاقه، في شقة غير محمية لأحد المتعاطفين.

وحتى آزاد مصدر معلوماته الموثوق في فيينا، الذي كان من المفروض أن يلتقي به في فندق هيلتون المجاور في السابعة والربع من مساء الثالث عشر من تموز، بقي دون علم عن طبيعة المحادثات ومكانها.

كان الجانب الكردي في تلك الأمسية مؤلفاً من قاسملو وقادري آزار وانضّم إليهما فاضل رسول، بينما كان الجانب الإيراني ممثلاً، كما في السابق، بـ (سهرروردي ومصطفاوي و بوزركان، الذي قام بمهمة الحرس. كان أول تلميح من رفاق قاسملو بأنه إذا كان ثمة خطأ فهو تخلّف قاسملو عن الذهاب إلى موعد السابعة والربع مع آزاد. ولكن ما لم يكن لدى آزاد علم به هو أنه في تلك اللحظة بالذات، وعلى بُعد مئات الياردات فقط، كان الجيران ينبّهون الشرطة بوجود رجل ينزف بغزارة قرب مدخل لينكبانكاس رقم ٥ نتيجة جرحٍ في الرأس. كان ذلك الجريح هو المفاوض الإيراني سهرروردي،

وقد وصلت الشرطة في وقتٍ لترى رجلاً ثانياً ـ بوزركان ـ وهو يأخذ طرداً منه وُجِدَ فيما بعد إنه يحتوي على وثائق ومبلغ ٩,٠٠٠ دولار نقدي. أُخذ سهررودي إلى المستشفى لإجراء عملية مستعجلة، بينما أُخذ بوزركان إلى مركز قيادة الشرطة حيث أخبر المحققين بأنه ترك الاجتماع ليشتري الطعام وليس لديه أي علم بما جرى في الشقة.

وعندما عاد سهررودي إلى وعيه بعد العملية بيومين، أعطى تقريراً عن الأحداث للشرطة التي رفضت إعلانه، ولكن أنباءً تسربت من التحقيق أوحت بأن سهررودي ادّعى بأنه دخل الشقة رجل أو ربما رجلان مسلحان وفتحوا النار وبسبب جراحه لم يكن قادراً أن يقول ما جرى بعد ذلك.

يمكن تقديم عدة فرضيات حول اغتيال قاسملو: فربما كان قاسملو ورفاقه ضحايا لفرقة الموت التي أرسلها مجاهدو خلق، غاضبين منه بسبب قراره عقد اتفاق سري مع طهران، وربما كان العراقيون وراء العملية خوفاً من التقارب بين آيات الله والثوار الأكراد، وربما كان منفذوا العملية يعملون لصالح زمرة من المتشددين في نظام طهران لإرباك رفسنجاني خارجياً. يُفترض في هذا السيناريو أن سهررودي مفاوض مخلص يمثّل رفسنجاني، بينما كان مصطفاوي موظفاً في خدمة وزير الإعلام الراديكالي ورئيس دائرة الاستخبارات الإيرانية محمد ريشاري. فرضية أخرى تقول بأن الاغتيالات قد تمت بناءً على أوامر رفسنجاني نفسه وبأن المفاوضات لم تكن سوى فخ لـ (قاسملو)، رجّح الإيرانيون من جانبهم فرضيتي تورّط العراقيين أومجاهدي خلق، بل اقترحوا أن المعارضيين في حزب قاسملو ربما كانوا مسؤولين عن ذلك. لقد كان هناك بالفعل انشقاق في (ح.د.ك) بين الذين دعموا استراتيجية قاسملو المعتدلة في المفاوضات وأولئك الذين اعتقدوا بأن الكفاح المسلح يجب أن يستمر بالاشتراك مع الجماعات الإيرانية المعارضة الأخرى.

في مؤتمر صحفي عُقد في طهران فيما بعد سألنا رفسنجاني عن أية معلومات يُمكن أن يعطيها من اجل تحديد هوية القتلة، فأخبرنا بأن كل أجهزة الدولة قد تعهدت بحل المسألة. ولكنها بقيت سراً حتى الأن!

كذلك لم يتمكن النمساويون ـ علانيةً على الأقل ـ من تقديم جواب عن الجريمة. ورغم إن مذكرات قد نُشرت فيما بعد لإعتقالهم إلا إن الإيرانيين كانوا قد غادروا النمسا. لم يتم تقديم أحد للمحاكمة من أجل جرائم القتل، ولكن كل الدلائل كانت تشير إلى إيران، رغم إنه لم يُبرهن أبداً على أي مستوى تم إعطاء الأوامر لتنفيذ الجريمة.

إن السرية التامة التي أحاطت بإجتماع تموز، يجعل من المستبعد أن تكون أية قوة خارجية قد نفذت العملية. وربما تكون جراح سهررودي ـ كان قد أُصيب برصاصة في ساعده و ارتدت إلى فكه ـ سببها رصاصة طائشة أو ربما صُوبت عليه عمداً للإيهام بأنه لم يكن طرفاً في مؤامرة القتل.

اختفى مصطفاوي في مساء الثالث عشر من تموز، بينما لجأ بوزركان إلى السفارة الإيرانية حالما أُطلق سراحه من الحجز في غضون أربع وعشرين ساعة من تنفيذ جرائم القتل. و لم يُكتشف مكان مصطفاوي قط. وبعد ذلك سُمح لـ (بوزركان)بالعودة إلى الوطن لترك السفارة وإعطاء المزيد من التفاصيل والأدلة. كذلك خرج سهررودي من المشفى في الثاني والعشرين من تموز وعاد مباشرة إلى طهران.

زعمت المصادر الكردية بأن السلطات النمساوية لم تبذل جهداً كبيراً في ملاحقتها للقتلة، إثر تهديدات إيرانية بأنهم سوف يحتجزون رهائن نمساويين أوسيهاجمون المصالح النمساوية في الشرق الأوسط. كانت الحكومة في فيينا و قتئذٍ تواجه أيضاً في قاعة المحكمة فضائح مربكة عن قضية نوريكوم(NoriCom)حيث كان كبار الموظفين والمستخدمين في شركة الأسلحة الحربية الحكومية متهمين بتزويد المتحاربين في حرب الخليج بالاسلحة.

وبعد ساعات من عملية القتل وجد رجال الشرطة في فيينا سترة رياضية ملطخة بالدماء في حاوية القمامة عند أحد المواقف مع ثلاثة أنواع من الأسلحة استُخدمت في ارتكاب الجريمة وهي: بندقية أوزي نصف آلية ومسدسين مزودين بكاتمات الصوت. ووجدوا أيضاً فاتورة بيع دراجة نارية من نوع سوزوكي، وقد عُرفت هوية المشتري فيما بعد بأنه سهررودي.ربما استُخدمت دراجة السوزوكي من قبل القتلة أو كأداة نقل لفرار مصطفاوي، رغم إنه عُرِفَ كمسافرٍ استأجر سيارةً لتأخذه إلى مطار فيينا قبل أن ينحرف إلى السفارة الإيرانية.

في الثامن والعشرين من تموز تجمع متظاهرون أكراد في المطار احتجاجاً على رحيل رجلٍ رابع كان يُعتقد بتورطه في مؤامرة القتل. وكان هذا الرجل يُعرف باسم ماكابي Magaby او مظفر، وكان رفيقاً دائماً للرجال الإيرانيين الثلاثة في الأيام التي سبقت اجتماع الثالث عشر من تموز. وكانت الشرطة النمساوية قد زُودت بمعلومات سرية عن ماكابي واعتقلته بالفعل للاستجواب فتم توقيفه لمدة ثمان واربعين ساعة قبل ترحيله على متن الطائرة المتوجهة إلى طهران.

لقد تجاوز الدكتور قاسملو كل القوانين لتحقيق مطلبه في السلام مع طهران، ففيما يمكن اعتباره مجازفة مقصودة، وضع قاسملو ثقته التامة في إخلاص أولئك الذين كانوا يسعَوْن منذ عقد من الزمن إلى سحقه، وذلك لخلق أرضية من الثقة مع اعدائه السابقين. ربما كان ينبغي عليه أن يفكر ملياً بمصير سمكو القائد العسكري الكردي الإيراني الكبير في العشرنيات والذي كتبَ عنه قاسملو: ((في الحادي والعشرين من حزيران ١٩٣٠ دُعي سمكو لحضور المفاوضات مع ضباط الجيش الإيرانيين في أوشنو حيث أُغتيل هناك)).

كان قاسملو شخصية فذة في الحركة القومية الكردية، ويتكلم ثمان لغات شرق أوسطية وأوروبية، ودرّس اللغة الكردية والاقتصاد في جامعات باريس وبراغ، وقاد انتفاضات ضد كل من الشاه والخميني وكان في نفس الوقت يدعو وبإصرار إلى حل سلمي للمسألة الكردية. كان يشجب ويُدين الإرهاب في كل مناسبة واعترف :

((إنهم لا يتحدثون بما فيه الكفاية عن الأكراد لأنهم [الأكراد] لم يحتجزوا أية رهائن، ولم يخطفوا أبداً طائرةً، ولكنني فخور بهذا))

كان قومياً متقد الحماسة ممن جَمَعَ البراغماتية[1] السياسية تجاه أعدائه، مع الانزعاج المتواصل من حلفائه الأكراد الذين بسبب اخفاقهم في الاتحاد ضعفت الحركة القومية. ملتفتاً بأفكاره إلى هزيمة العصيان الكردي المسلح في العراق في بداية السبعينات، كتب قاسملو: ((إن النهاية الحزينة للحركة التي قادها البرزاني في العراق، تُظهركم هو خطير بل ومأساوي أن يتبنى المرء الميكافلّية[2] كعقيدة سياسية وأن يُضحي بمبادىء التحرر القومي من أجل مصالح تكتيكية سريعة الزوال))

---

(١) البراغماتية [الذرائعية]: المذهب العملي، فلسفة الذرائع، فلسفة أمركية أسسها سي . س . بيرس ووليام جيمز تتخذ من النتائج العملية مقياساً لتحديد قيمة الفكرات الفلسفية وصدقها وبان وظيفة الفكر هي توجيه العمل المترجم.

(٢) الميكافلّية: السياسة التي لا تتورع عن استخدام أي وسيلة لتبلغ أهدافها، وأن كل وسيلة مهما تكن لا أخلاقية أو غير قويمة مبررة من أجل تحقيق السلطان السياسي. وقد جاء المصطلح من اسم الكاتب والفيلسوف الإيطالي نيوقولا مكيافلي (١٤٦٩ ـ ١٥٢٧) الذي نصح في كتابه ((الأمير)) حكام إيطاليا بألا يتحرجوا في اختيار أية وسيلة توصلهم إلى أهدافهم وهو صاحب مقولة: ((الغاية تبرر الوسيلة)) المترجم

وُلد قاسملو في اسرة ملاكين قرب المدينة الإيرانية أورمية سنة ١٩٣٠ وكان لايزال تلميذاً خلال الفترة القصيرة والمضطربة لجمهورية مهاباد التي انتهت بإعدام قاضي محمد عام ١٩٤٧. انتقل بعدها إلى العراق ثم إلى براغ وباريس قبل عودته إلى كردستان إيران ليشارك في ـ وعملياً ليقود ـ النضال ضد طهران من أجل الحكم الذاتي.

إن النضال من اجل الحقوق القومية الكردية في إيران مرتبط أساساً بنضال مماثل في جارتها العراق، ولكن التنافس المستمر بين الدولتين من أجل السيادة في المنطقة أدى إلى أن تبحث كل دولة منهما عن تحالفات مؤقتة مع الجماعات الكردية المختلفة في الطرف الأخر من الحدود. تماماً كما قاتل الأكراد بعضهم بعضاً في القرن السادس عشر خدمةً للامبراطوريتين المتنافستين الفارسية والعثمانية، كذلك فعل الأكراد في عام ١٩٨٠عندما اتخذ كل منهما الطرف المعاكس في الحرب العراقية ـ الإيرانية. إنه وضعٌ لم يكن يُسر الدكتور قاسملو الذي تكلم كثيراً ضد حماقة حرب الخليج. ومع ذلك قَبِل قاسملو المساعدة العراقية ليستمر في ثورته ضد الخميني حتى عندما كانت الحرب لاتزال مستمرة.

لقد ورث قاسملو، كزعيم لـ (ح.د.ك.إ) قيادة الحركة القومية الكردية التي نشأت خارج الحدود السابقة للامبراطورية العثمانية. فقد أدت معركة جالديران سنة ١٥١٤ إلى تقسيم كردستان بين الامبراطوريتين الفارسية والعثمانية وأصبحَ[التقسيم] رسمياً في معاهدة ١٦٣٩ بين الشاه عباس والسلطان مراد. ولكن بقي الأمراء المحليون، كما في كردستان العثمانية، محتفظين بحقوقهم في الحكم الذاتي على مناطقهم حتى جاءت السياسات المركزية في القرن التاسع عشر ووضعت أقاليمهم تحت سيطرة الحكومة. وقد تسببت محاولات موظفي الشاه لحَمْل الأكراد على التعاون معهم في عدة ثورات، كما فعلت نفس المحاولات من قِبل العثمانيين والتي وصلت إلى ذوروتها في ثورة الشيخ عبيد الله وهي أول ثورة جعلت هدفها تحرير وتوحيد كردستان.

كانت للحرب العالمية الأولى وانهيار الأمبراطورية العثمانية مضاعفات كثيرة على كردستان إيران حيث أعلن زعيم قبيلة الشكاك، سمكو،ثورته في عام ١٩٢٠ واستولى على كردستان إيران برمتها شرقي أورمية في مسعى منه لتحقيق مطالبه في دولة مستقلة.

لقد جلبت الحرب معها القتل والتدمير إلى كردستان إيران وبشكل خاص إلى تلك المنطقة المحيطة بأورمية. فقد كانت روسيا قد احتلت المنطقة المحيطة سنة ١٩١٢ وأورمية نفسها في عام ١٩١٥ بعد الصدامات الروسية العثمانية الكبرى في السنة الأولى من الحرب. وبدأ كلا الطرفين

يترددان إلى القائل ـ المسيحية منها والكردية ـ في محاولة لكسب حلفاء محليين. كان المسيحيون منقسمين إلى أقنان مُفقرين للإقطاعيين الأكراد ومحاربين مستقلين من رجال القبائل الذين كانوا ينافسون جيرانهم الأكراد على السيادة المحلية، وكان لهذين العاملين [تشجيع روسيا والإمبراطورية العثمانية من جهة والتنافس من جهة أخرى] صلة في تشجيع حالة العداء المستمر بين الجماعتين. فالتقى البطريرك الآشوري مارشمعون بنيامين ـ الذي يتفاخر بلقب بطريرك الشرق والهند ـ بمبعوثين من بتروغراد والقسطنطينية، ورغم إن شروط العثمانيين كانت أفضل، فضّل بنيامين إعطاء دعمه لروسيا القيصرية. وفي العاشر من أيار سنة ١٩١٥ أعلن الحرب رسمياً ضد الأمبراطورية العثمانية حيث أمر بالتعبئة العامة للقوات المسيحية، ولكن الروس فشلوا في الايفاء بوعودهم بإرسال التعزيزات والمؤن لحلفائهم المسيحيين وأصبح الأشوريون على الفور تحت رحمة القوات العثمانية والكردية.

لدى انتصارها حثّت الثورة الروسية لعام ١٩١٧ على انسحاب قواتها من الجبهة العثمانية ولذلك كانت هناك حاجة ماسة بين بقية الحلفاء لحشد قوات محلية لمنع تقدم الأتراك إلى بلاد ما بين النهرين. وقد رشّح الفرنسيون، والبريطانيون والروس البيض الآشوريين لسلطة منطقة أورمية. إن قسوة احتلال الروس ـ الذين أبعدوا السكان المسلمين المحليين وبذلك خلقوا شعوراً معادياً لكل المسيحيين ـ لم تكن شيئاً إذا ما قُورنت بعهد الارهاب الذي أقامه المسيحيون المحليون، وفي مقدمتهم القبائل النسطورية التي تُعرف في إيران باسم (جيلوس) Jelos. لقد كانت القوات المسيحية المجنّدة إسمياً تحت قيادة ضباط من روسيا البيضاء، ولكنهم عملياً كانوا يفعلون ما يشاءون غير متقيدين بأوامر مارشمعون الذي بدأ يفقد مكانته أكثر فأكثر لصالح المحتال السابق آغا بطرس الذي كان قد سُجِن مرة في كندا في قضية احتيال قبل انتقاله إلى روما حيث تلّقى هناك ميدالية من الفاتيكان جراء خدماته للكاثوليكية. أشرف هذا القائد العسكري البغيض على خلق ميليشيا عشائرية متعطشة للدماء قضت معظم وقتها بسلب ونهب قرى المسلمين الأكراد والآذريين، واستغل هذا الموقف بعض المسيحيين ممن هاجروا إلى الولايات المتحدة فعادوا لتصفية حساباتهم القديمة مع جيرانهم المسلمين السابقين. وزاد الطين بلةً انتشار المجاعة والأوبئة في أورمية، حيث كانت جماعات من اللاجئين الأكراد الذين يموتون جوعاً يلتمسون حماية مضطهِديهم المسيحيين.

في شباط من عام ١٩١٨ إتخذ السكان المسلمون قرارهم المشؤوم بمواصلة الهجوم على المسيحيين الذين نصبوا في الضواحي أربعة مدافع روسية الصنع. وعندما هاجمت قوات المسلمين ترك آلاف المسيحيين ممتلكاتهم المسلوبة في الأرياف المجاورة وتدفقوا أفواجاً إلى المدينة حيث انتصروا

وبسهولة على مقاومة المسلمين. ورغم ترتيبات وقف إطلاق النار من قبل الحلفاء، دخل المسيحيون المدينة وذبحوا الرجال والنساء والأطفال حيث كانوا يقفون.

رغم إن الأكراد عانوا الكثير على يد المسيحيين إلا أن الفرسَ و الأذريجانيين كانوا الأهداف الرئسية لميليشيا حيلوس. وانتهز الأكراد عامةً ذلك العهد من الفوضى بسرقة ما كان يهمله المسيحيون. وبدا أن سمكو ميال إلى قبول الرأي البريطاني القائل بانضمامه إلى المتحالفين، حتى إنه عبّر عن تعاطفه مع الآشوريين وطلب توقيع ميثاق معهم.

قرر مارشمعون الذي كانت سيادته تحت تهديد آغا بطرس دعوة سمكو لمناقشة تحالف كردي آشوري ضد العثمانيين، وسافر برفقة خمسين فارس إلى مقر قيادة سمكو، وتوّصل أثناء مأدبة الترحيب إلى اتفاق مع الزعيم الكردي حول تعاون مستقبلي، بعد ذلك، وبانتهاء المأدبة فتح رجلان من رجال سمكو النار فقتلا البطريرك ومعظم حراسه.

لا تزال دوافع سمكو وراء هذه الخيانة غامضة[1] لكن من المعروف أنه نفذ خطته تلك بناءً على أمر من السلطات الفارسية في تبريز حيث كان هناك ابتهاج عام بأخبار موت مارشمعون و نتيجةً لذلك احتشد المتطوعون وجُمعت الأموال تأييداً لسمكو، و ربما يكون قد دُفع له مقدماً من أجل ارتكاب جريمة القتل. لكنها لم تحقق نتائج ايجابية أخرى. على العكس من ذلك أثارت على الفور برنامجاً مضاداً للأكراد في أورمية حيث ذبح المسيحيون خمسمائة لاجىء. وبدأ آغا بطرس برحلة متقدماً طابورين من المسيحيين لملاحقة سمكو ونجحوا تقريباً في أسره. وللتعويض عن فشلهم في ايقاع سمكو بالفخ، حرق المسيحيون القرى الكردية وذبحوا سكانها.

كان قناصل الحلفاء يتذمرون دائماً من أنهم يجب أن يأخذوا على عاتقهم مسؤولية تجاوزات حلفائهم المسيحيين، الذين رغم نجاحهم الكبير في مقارعة قوات العثمانيين دخل الأتراك الأراضي الفارسية وطوّقوا أورمية. هاجم المسيحيون قوات العثمانيين في الثاني عشر من حزيران على أمل

---

(١) عندما يسأل مصطفى باشا يا مولكي ـ أحد قادة الحركة الكردية من السليمانية في مقابلة تاريخية فريدة مع سمكو ـ لماذا قتلت الآثوريين وخاصة المارشمعون السلمي والموالي للأكراد؟ يرد سمكو بقوله: ((إن المار شمعون كان ينوي استغلالنا لتصفية بقايا القوات الإيرانية في آذربيجان الغربية ليعلن دولة آثورية ثم ليلتفت إلى الكرد ليتخلص منهم ... وهو كان مدعوماً في مسعاه هذا من قبل بعض الضباط الروس، وبعض المسؤولين الأوربيين وكنا واثقون من ذلك..))
انظر مجلة تالاي تيسلام السنة السابعة ـ العدد الأول ـ كانون الأول / شباط ١٩٩٣ ص٣٥

الأنضمام للقوات الأرمنية المتجهة جنوباً صوب الأراضي الفارسية، ولكنهم انهاروا بعد أسبوع من هجومهم في وجه كتيبة من الفرسان الأكراد والعثمانيين قرب سلماس (salmas). وفي الثامن عشر من تموز دخلت القوات العثمانية مدينة أورمية، وفرّ المسيحيون في المدينة إلى الخطوط البريطانية الآمنة في همدان ولكن ليس قَبْل قتل الكثيرين منهم على يد رفاقهم المدنيين المسلمين. وقد عانى أولئك الذين نجوا دون طعام أو مؤن الكثير من القبائل الكردية اثناء مرورهم عبر أراضيها. فمن أصل ثمانين ألف لاجيء عادروا أورمية في ذلك الصيف، وصل ستون ألفاً فقط إلى همدان. وكانت تلك نهاية السيطرة المسيحية في المنطقة.

بعد انتهاء الحرب نظمّ سمكو القبائل الكردية في محاولة لإقامة كردستان مستقلة والتي أُجهضت باغتياله.

وقد أظهرت اورمية في وقت الحرب أن القبائلية واللصوصية لم تكون أبداً حكراً على الأكراد، لقد كانوا إحدى الجماعات التي تطالب بحقها في محيط حدود متسم بالفوضى و العداء. ولم يكونوا هذه المرة ضحايا ـ كما كانوا كثيراً ـ بقدر ما كانوا مضطهِدين لجيرانهم. ولكنهم كانوا ضحاياً أيضاً للعداء الديني الذي أثارته القوى الخارجية التي كانت تأمل بالسيطرة على المنطقة بنفسها.

بعد موت سمكو استمرت الثورات العشائرية في أقصى شمال ـ غرب إيران تحت تأثير الأنتفاضات الكردية في الجارتيين تركيا والعراق. وبسبب عدم قدرته على اخضاع الثوار الأكراد بالقوة، دخل رضا شاه في مفاوضات معهم وتوصّل أخيراً إلى اتفاقية ألقى الأكراد بموجبها أسلحتهم. وفي اليوم الذي نفذ فيه الأكراد الاتفاقية قصفت القوات الجوية الإيرانية قواعدهم.

كان رضا شاه ينظر إلى نفسه كمَنْ يقوم بدور فرض السيطرة المركزية في إيران ويقيم دعائم دولة حديثة على أنقاض امبراطورية تغيرت قليلاً منذ العصور الوسطى والتي كانت دائما تحت تهديد مكايد القوى الخارجية. بدت هذه النزعة للتجديد نقمة من قِبل ابن رضا شاه، محمد بهلوي، الذي بإندفاعه الطائش لتحويل إيران إلى عالم غربي بالإضافة إلى استبداده، أثار امتعاض القوى الدينية المحافظة والتي انضمت إلى المعارضة لخلعه.

كانت سياسة كلا الرجلين ـ [رضا شاه وابنه] ـ تشمل قمع العصبية القبلية بشكل عام وليس العصبية الكردية فقط. بخلاف تركيا الحديثة والعراق، تعتبر إيران دولة متعددة القوميات أكثر

من كونها دولة ثنائية القوميات.إذ أن المجموع الكلي للأعـراق الأخـرى ـ الأكـراد والأذربيجـانيين، والبلوج و العرب والتركمان ـ يفوق عدد الفُرس. وقد كانت كل هـذه المجموعـات العرقيـة باستثناء الأذربيجانيين يعيشون على شـكل مجتمعـات قبليـة وحتى بين الفـرس أنفسـهم كـان يوجـد عـدد لا يستهان به من القبائل البدوية والشبه بدوية التي كانت مستعدة غالبـاً لإعـلان العصيـان علـى السـلطة المركزية من أجل الاحتفاظ بحقوقها القبائلية.

لذلك كانت إحدى تكتيكات الشاهات البهلويين في بناء دولتهم الحديثة هـو التخلـص مـن هذا الموزاييك العرقي والثقافي وتأكيد الشخصية الفارسية في الدولة الإيرانية.

بعد سقوط جمهورية مهاباد دشّنت الدولة الملكية نظاماً من القمع في كردسـتان دام بشـكل متواصل تقريباً حتى مجيء الثورة الإسلامية وتخللتها فترة فاصلة اثناء حكومـة مصـدق في الخمسـينات حيث بدا بأن الديمقراطية قد تتحقق. وفي استفتاء قومـي جـرى سـنة ١٩٥٣ حـين سُـمح للإيرانيـين بالتصويت على تجديد صلاحيات الشاه صوّت اثنان فقط مـن خمسـة آلاف مقـترع في مهابـاد لصـالح الملكية.

وحتى بعد أن خُلع مصدق في انقـلاب نظمتـه وكالـه الاسـتخبارات المركزيـة (سـي.آي.أ) استمرت بعض جيوب المقاومة بالبقاء في كردستان. وصمدت عشيرة جوانرو، التي تتخذ مركـزاً لهـا تلك الجبال التي يصعـب الوصـول إليهـا في شمـالي كرمنشـاه قـرب الحـدود العراقيـة، في وجـه الجيـش الإيراني حتى عام ١٩٥٠. وقد وقعت عشيرة جوانرو أخيراً ـ مثل الكثير من العصيانات المسلحة قبـل وبعد ذلك ـ ضحية للتعاون بين دول المنطقة لفترات عرضية. ففي شباط من عام ١٩٥٥ شكلت كـل من إيران والعراق ، وتركيا وباكستان حلـف بغـداد هـذا الحلـف الـذي رعتـه بريطانيـا وانضمت إليه فيما بعد، للوقوف في وجه التغلغل الشـيوعي في الشـرق الأوسـط. وبعـد ذلـك شنّـت إيران الواثقة من مساندة حلفائها الجدد، هجوماً شاملاً مستخدمةً الدبابات والطائرات لإخضاع قبيلـة جوانرو، حيث قُتِل أو جُرح آلاف من الكرد وأُجبرت القبيلة على تـرك قراهـا والانتقـال إلى الجبـال، وتحوّل معقلهم ـ قلعة جوانرو ـ إلى ركام من الحجر.

استأصلت الثورة العراقية لعام ١٩٥٨ حلف بغداد وعصر التعاون بين بغداد وطهـران. وقـد لعبت وعودها في تحرير أكراد العراق دوراً في إثارة أكراد إيران فكـان ازديـاد النشـاط القومـي نتيجـة طبيعية لذلك، وردّ عليه الشاه بالقمع أيضاً فزُودت المنطقة بالوسائل العسكرية بشكل كثيف ووُضعت

تحت مراقبة شديدة من قبل السافاك أو البوليس السري للشاه الذي حدّ من حركة الأكراد من قرية إلى أخرى. ومُنعت الكردية كلغة للدراسة والتعليم، وكان التلاميذ مجبرين على تعلم الفارسية كجزء من محاولة الشاه لإنكار الهوية المستقلة للأكراد.

بدأت عملية القضاء على العصبية القبلية في ظل والد الشاه الذي أجبر القبائل البدوية على الاستقرار وهجّر قبائل بأكملها إلى أجزاء أخرى من إيران ليحل محلهم الفرس أو الأذربيجانيين وقد تبنت هذه السياسات أيضاً كل من تركيا والعراق. كانت تتم حراسة الحدود الدولية ـ التي قسّمت في كثير من الأحوال عشائر قائمة بذاتها عن كثب حتى انتهاء نمط الانتقال العشائري التقليدي. و كانت النتيجة بحلول النصف الثاني من القرن العشرين انقراض كل القبائل الكردية في إيران التي كانت رحل أو شبه رحل في نمط معيشتها.

ورغم القمع ومحاولات تقويض بنى المجتمع الكردي، لم تنجح الملكية قط في استئصال الطموحات القومية للأكراد. فعندما أعلن الأكراد تمردهم على نظام عبد الكريم قاسم سنة ١٩٦١، عبرَ الحدود الكثير من الأكراد الإيرانيين للإنضمام إلى طوابير البرزاني من البيشمركة وساعد آخرون في تهريب المواد الغذائية والذخيرة إلى كردستان العراق.

ولكن هذه المشاعر لم تكن متبادلة. فعندما وقع البرزاني تحت تأثير ومناصرة الشاه، رضخ الأول للضغط الإيراني في الحدّ من نشاطات أكراد إيران. وأقنع الأكراد في العراق الحركة القومية عامةً بأن توقف كل نشاطات (ح.د.ك) في إيران، آخذين بعين الاعتبار مدى أهمية نجاح الثورة الكردية في العراق. ومنذ ذلك الوقت فصاعداً كان يُعَدُّ أي عمل عدائي متسم بالجدية ضد الشاه هجوماً على الثورة الكردية. كانت سياسة الشاه إلى حد ما مرسومة لتحييد الأكراد في وطنه، وذلك بالتهديد بسحب دعمه للبرزاني إذا ما استمرت أعمال التمرد في إيران، وقد نجح مؤقتاً في هدفه ذاك.

لكن بعض مقاتلي الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران رفضوا قبول الحكم ورجعوا من منفاهم في العراق لتنظيم انتفاضة جديدة قوامها الفلاحون في شتاء ١٩٦٧ودامت ثمانية عشر شهراً. ولكن مع عدم وجود قواعد خارجية ـــ حيث كانت المناطق التي يسيطر عليها الأكراد العراقيين مسدودة في وجههم ـ كان هناك أمل ضئيل في نجاح الثورة. أما مصير قواد الانتفاضة فأما القتل في المعركة أو القبض عليهم من قِبل رجال البرزاني وتسليمهم فيما بعد للإيرانيين.

وجاءت نهاية سلالة البهلوي الحاكمة مع بداية ١٩٧٩ بعد سنة من الاضطرابات الشعبية والمظاهرات والتي عجزت أدوات القمع التابعة للدولة عن احتوائها. كان المتظاهرون يسيرون تحت راية الإسلام، متأثرين بخطابات آية الله الخميني، التي كانت تُهرّب على أشرطة كاسيت من الخارج للإطاحة بالنظام الفاسد. ولكن الكثيرين ممن اشتركوا في الأضطرابات كانوا من اليسار أو من الليبراليين أو الذين رأوا الحركة انتفاضة تقدمية وعلمانية ضد الملكية الأوتوقراطية. وكان عبد الرحمن قاسملو و (ح.د.ك.إ) جزءاً في هذا المعسكر العلماني، ولم يَر الأكراد عموماً ـ رغم إنهم مسلمون ورعون ـ جاذبية كبيرة في خطط الخميني من أجل جمهورية إسلامية آخذين بعين الاعتبار بأن الخميني شيعي بينما هم في الدرجة الاولى من السنة.

ومع ذلك رأى الأكراد مثل بقية الأقليات العرقية في الحركة الثورية فرصة لضمان الحكم الذاتي الذي تم رفضه أثناء حكم الشاه. عاد قاسملو من منفاه في فرنسا إلى كردستان قبل خمسة أشهر من ثورة شباط، وبدأ ينظم خلايا الحزب في كل من أقاليم كردستان وأذربيجان الغربية وكرمنشاه. وفي المراحل الختامية للإنتفاضة كانت القوات والمجموعات اليسارية في طهران قد استولت على العاصمة من القوات المسلحة [التابعة للشاه] وأعلن الضباط والجنود المتمركزين في مهاباد تأييدهم للثورة واستولى أتباع قاسملو على كميات ضخمة من الأسلحة من المواقع العسكرية ومخافر الشرطة في الشمال. وعلى الفور أصبحت المنطقة الشمالية الغربية برمتها تحت سيطرة البيشمركة وكانت الإدارة اليومية ـ كما في أماكن أخرى من الوطن ـ بيد اللجان الثورية.

في الثالث من آذار اجتمع الحزب الديمقراطي الكردستاني في مهاباد ـ وأمام حشد مؤلف من مئتي ألف في الساحة التي أُعدم فيها قواد جمهورية مهاباد في ١٩٤٧ أعلن عن نفسه قانونياً بعد أن بقي أكثر من ثلاثة عقود في السر. وقرر الحزب الحصول على اقرار رسمي من إيران بالحكم الذاتي الكردي الذي كان قائماً منذ سقوط الشاه. وكان أول اتصال رسمي مباشر مع مهدي بازركان رئيس الوزراء المؤقت في حكومة الخميني الذي جاء في الأيام الأولى من عمر النظام الجديد، عندما غادر وفد من طهران إلى مهاباد للإستماع إلى المطالب الكردية من أجل ((حكم ذاتي كردي ضمن إطار إيران ديمقراطية))

وبدا على الفور بأن النظام الجديد لم يكن راغباً أكثر من سلفه في الاعتراف بحقوق الأقليات. ففي اجتماع بمدينة (قُمْ) في الثامن والعشرين من آذار، أي قبل ثلاثة أيام من الاستفتاء الذي قضى على الملكية وأقام جمهورية إسلامية، أخبر الخميني وفداً كردياً برئاسة القائد الكردي الروحي

الشيخ عزالدين الحسيني بأن المطالبة بحكم ذاتي أمر مرفوض وأخبر الشيخ عز الدين :((أريد هدوءاً في كردستان. لا أريد المشاكل)) وأجابه الشيخ الكردي : ((أريد حكماً ذاتياً)). نهض الرجلان وقبض الخميني على ياقة ثوبه وكرر بغضب قلت: ((لا أريد مشاكل في كردستان)). ورد الشيخ عز الدين وأنا قلت :((أريد حكماً ذاتياً))

قاطع ثلاثة أرباع الناخبين في كردستان ذلك الاستفتاء. وانضم الجناح اليساري والجماعات الليبرالية وليس مجاهدي خلق (الشعب) - إلى الأكراد في دعمهم للمقاطعة على أساس أن الاستفتاء لم يترك خياراً لإنشاء دولة دمقراطية علمانية.

وقد كان للمطالب الكردية في الحكم الذاتي تأثير على الأقليات الإثنية الأخرى؛ ففي الشهور الأولى من الثورة بدأ العرب والبلوجيين والتركمان والآذريين يديرون الحملات من أجل حقوقهم القومية وكان رد الخميني على هؤلاء - بقصد الحفاظ على إيران ما بعد الثورة متحدةً - كما كان رده على قاسملو الذي طالب بالحكم الذاتي بأن الجميع متساوون في الجمهورية الإسلامية وكل المسلمين إخوة لذلك ليس هناك أية حاجة لوضع خاص للأقليات.

وبحلول الصيف الأول للثورة أُرسل المزيد والمزيد من قوات النظام من الأراضي الفارسية لقمع القلاقل في الأقاليم ففي الثامن عشر والتاسع عشر من آذار اندلعت أولى الاضطرابات في كردستان وشملت صدامات عنيفة بين البيشمركة والقوات الموالية للخميني. وقد أُرسل آية الله محمود طالقاني - وهو المستشار الديني الخاص لمجاهدي الشعب (خلق) ووسيطٌ دائم في الخلافات التي نشبت في الأشهر الأولى من الثورة إلى الشمال - لترتيب وقفٍ لإطلاق النار فتوّصل إلى اتفاقية مع الأكراد بعد أن وعدهم بأن النظام سيمنح الحكم الذاتي للأقليات العرقية.

ولكن بعد شهر من ذلك كشف النظام عن وجهه الحقيقي في مدينة (نغدة) الكردية. ففي العشرين من نيسان نظمّ (ح.د.ك.إ) مظاهرة جماعية أُطلق عليها الرصاص و نشبت معركة بين الأكراد والقوات الآذرية المحلية، ورفض الطرفان دخول وحدة من الجيش أُرسلت من أورمية. وامتد القتال إلى المدن والقرى المجاورة مثل باوه وصادق ومهاباد واستمر طوال فصل الصيف.

وبينما كان آية الله طالقاني وعدد من الزعماء السياسيين مستمرين في رفضهم الإذعان لإمكانية الحكم الذاتي، شُنتّ حملة على الأكراد لتصّورهم كأعداء للثورة و الإسلام وعملاء للشيوعية والصهيونية والامبريالية. وفي السابع عشر من آب أعلن الخميني عن حرب مقدسة على المتمردين

الأكراد، حيث أرسل جيش الشاه السابق إلى الشمال لقمع الثورة. كان هجوماً شاملاً استُخدمت فيه الدبابات والطائرات، وقد باغتت ضراوة الهجوم الحركة الكردية. وفي الخامس من أيلول نجحت قوات النظام في احتلال المدن الرئيسية في كردستان التي تولت الحركة الكردية إدارتها منذ انتصار الثورة وتوجه قاسملو وبيشمركته مرةً أخرى إلى الجبال.

كان آمرالنظام هو الكولونيل [العقيد] سيد شيرازي وهو واحد من القواد الذين استحقوا طوال سنين لقب ((سفاح كردستان)) حيث ترقى فيما بعد إلى قائد للقوات البرية ـ تقديراً لانتصاره على الأكراد ـ كان نصراً ثمنه مئات القتلى وقرى مدمرة ومدن من ركام بعد قصفها بالقنابل.

في مؤخرة جيش شيرازي كان يتحرك حجة الإسلام صادق خلخالي رئيس المحكمة الإسلامية في حكومة الخميني، والذي بدأ بإعادة فرض سلطة طهران على المتمردين الأكراد بوحشية كان ستؤثر على نفسية الشاه ذاته. وفي غضون أيام حكم بالموت على مئتي شخص في مدن كردستان التي فتحها. كان الكثير منهم يُصفّون وتُطلق عليهم النيران بسرعة من بنادق الحرس الثوري الذي كان برفقته. كان يتم تنفيذ أحكام الإعدام بعد محاكمات وجيزة حيث كان المشتبه بهم يُجلبون إلى خلخالي وبعد سؤال أو سؤالين كان يُعلن ـ وعلى أساس نزواته الشخصية فقط ـ براءتهم او كونهم مذنبين. ولم تفعل السلطات الإيرانية شيئاً لإخفاء طبيعة القمع في كردستان فقد كان مسموحاً للصحفيين الأجانب بالدخول إلى المنطقة، وكانت الصحافة في طهران تحمل صوراً يومية عن الإعدامات السريعة، صور مفرغة لرجال معصوبي العينين وهم بثيابهم القومية الكردية بانتظار الموت على أيدي زُمر الحرس الثوري المكلفة بتنفيذ أحكام الإعدام.

وبتقدم الحملة العسكرية نحو الشتاء أرادت إيران فترة راحة فأعلن الخميني لجنة وزارية مؤلفة من أربعة أعضاء لبحث تسوية الأزمة عن طريق المفاوضات، وأعلن الزعماء الأكراد على إثرها وقف إطلاق النار في الثالث من تشرين الأول. وفي اليوم التالي استولى راديكاليون موالون لرجال الدين على سفارة الولايات المتحدة وأخذوا هيئتها الدبلوماسية وهو حدث سيطر في الأشهر المقبلة على التغطية الدولية للأحداث في إيران مما تسبب في ابعاد الاهتمام عن مأزق الأكراد. لقد سقطت الحكومة التي كان يقودها علمانيون وحلّ محلها المجلس الثوري وهيمن عليه رجال الدين المتشددين. وفي الشهر التالي مثّل تدخل السوفييت في أفغانستان المجاورة أزمة خطيرة أخرى في المنطقة وهكذا تم نسيان المشكلة الكردية التي هددت في السنة الأولى بتمزيق إيران ما بعد الثورة.

وقد بدأ البيشمركة في ظل اتفاقية وقف إطلاق النار بالعودة إلى مدن كردستان لاستئناف سيطرتهم، ولكن حدثت بعض الاشتباكات خلال فصل الشتاء. وقد أعطى استمرار الاضطراب حجة للحكومة الإيرانية لتأجيل الانتخابات البرلمانية في المنطقة.

في انتخابات المجلس التأسيسي عام ١٩٧٩ انتُخب قاسملو بأغلبية ساحقة لتمثيل كردستان، لكنه رفض المجيء إلى طهران خوفاً من أن لا يُسمح له بالمغادرة ثانية. وصرّح الخميني عندما سمع بذلك: "ياللعار! اكان بإمكاننا أن نأخذه معتقلاً أو جريحاً"

في ربيع عام ١٩٨٠ قرر الرئيس المنتخب حديثا أبو الحسن بني صدر مرة أخرى حل المشكلة بالقوة لهذا أمر بهجوم جديد ضد الأكراد فحُوصرت مدينة سنندج بأربعة فرق عسكرية وهوجمت أرضاً وجواً طوال فترة خمسة وعشرين يوماً. كذلك هوجمت وأُخضعت مدن صادق، بانيه وماريفان، أما مهاباد فقد قُصفت بالقنابل لمدة أسبوعين، رغم أن البيشمركة كانوا قد تركوها من قبل.

كان قلق بني صدر من الاضطرابات المستمرة في شمال غرب إيران مايبرره، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التوتر الذي نشأ عن أزمة الرهائن الأمريكيين وجنون الارتياب(١) العام داخل النظام بأن هناك مؤامرات خارجية تُحاك ضده لإرباكه. فقد كان هناك تمردٌ بين الأذربيجانيين من أتباع آية الله كاظم شريعتْ مداري الذي عارض المشاريع الدستورية للخميني كما كان هناك توتر متزايد مع جارتها العراق، حيث تمركز الإيرانيون المنفيون من المؤيدين للنظام الملكي ليبدأوا بثورة مضادة. وقد تعززت صحة مخاوف بني صدر في شهر حزيران عند ما تم الكشف عن مؤامرة في قاعدة الجيش في بيرانشاهر بكردستان، وإثر ذلك أُعتقل المئات من الضباط والقوات المسلحة وأُعدم عدد منهم، بينما تجنب حوالي المئتين نفس المصير عندما أُنقذوا على يد البيشمركة التابعين لقاسملو.

لقد كان لسير الأحداث في كردستان إيران تأثير هام على سياسة صدام حسين تجاه إيران. فقد كان صدام مطمئناً من رؤية إيران وقد أضعفتها الثورة وتراجع جيشها عن مجده السابق إلى تطهيرات وانقسامات داخلية، ولكن يبدو نظام الخميني الآن عاجزاً عن السيطرة على الأكراد. لقد كانت إحدى دوافعه في اتخاذ القرار باللجوء إلى الحرب في أيلول ١٩٨٠ ـ بالإضافة إلى رغبته الانتهازية في محو عار اتفاقية الجزائر لعام ١٩٧٥ ـ هو حماية جناحه الكردي. وبتقدم الحرب، انتهج صدام سياسة دعم حركة قاسملو وهو تكتيك ابقى الحركة الكردية مقسمة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار

(١) جنون الارتياب: نزعة عند الأفراد والجماعات تجعلهم شديدي الشك الارتياب في الآخرين. المترجم

دعم إيران للبرزاني في العراق.

لقد منحت الحرب أكراد إيران فرصة إعادة سيطرتهم - على الريف على الأقل - و إعاقة عدد كبير من القوات الإيرانية التي لولا ذلك لكانت موجودة على الجبهة الجنوبية. وبعد عام ١٩٨٤ عاد بيشمركة قاسملو المؤلفة من اثنى عشر ألفاً إلى تكتيك حرب العصابات في الكرّ و الفرّ متجنبين المواجهات المباشرة التي تسببت في إصابات كبيرة وخطيرة في السنوات الأولى للحرب. وأصبحت السيطرة على المنطقة صعبة أكثر فأكثر عندما طردت إيران القوات العراقية المحتلة من أراضيها عام ١٩٨٢ وأصبحت كردستان مركزاً للعمليات في المرحلة القادمة من الحرب العراقية الإيرانية، ولكن البيشمركة كانوا لا يزالون قادرين على الاستيلاء على المدن ساعةَ ما يشاءون ولكن ليس لفترة طويلة: فقد هوجمت مهاباد في عام ١٩٨٢ وبانيه ١٩٨٥ .كان البيشمركة يتمركزون في أغلب الأحوال في الكهوف والوديان الخالية والتي يتعذر الوصول إليها على طول الحدود فكانوا ينزلون ليلاً إلى المدن والقرى التي كانت في ذلك الوقت تحت سيطرة الحرس الثوري. فكان عشرات الآلاف من المجندين الإيرانيين يُرسلون إلى الحدود ظناً منهم بأنهم سيحاربون العراقيين وكانوا ينتهون بمفارز البيشمركة المغيرة. وقد قدّر الحزب الديمقراطي الكردستاني في إيران خسائره حتى عام ١٩٨٦ بثلاثة آلاف من البيشمركة لكن (ح.د.ك.إ) لم يكن القوة الفعالة الوحيدة في شمال - غرب إيران. فقد طلب أعضاء مجاهدي خلق بعد حظره - الذي كان قاسملو قد تحالف معه حتى عام ١٩٨٥ - ملاذاً في كردستان للاستمرار في نضالهم ضد الخميني. بالإضافة إلى ذلك كانت (كوملة) وهي منظمة كردية ماركسية ناشطة في منطقة (ح.د.ك) وكانت تنصح دائماً بالاعتماد على الذات وتشجب السياسات التي يتبناها منافسة الكردي والتحالفات التي يدخلها. وقد أدى هذا الأتفاق إلى صراع مفتوح بين الحزبين، وعندما كان من الممكن أن يتحدا في معارضتهما المشتركة لنظام طهران دخلا في حرب شاملة من أجل السيادة على المنطقة حتى منتصف الثمانيات عندما أُعلن عن هدنة متقلقلة.

في بداية ١٩٨٨ أصبح واضحاً للأكراد في إيران ــ كما كان واضحاً لأولئك الذين في العرق - بأن الحرب في طريقها إلى الانتهاء وربما بورطة، ويكون السكان الأكراد في كلا الدولتين أول من يعاني من تبعاتها. ومع ذلك اتخذ (ح.د.ك) في مؤتمره الثامن الذي عُقد في كانون الثاني، قراراً يُدين فيه الحرب ويدعو لقبول قرار مجلس الأمن رقم ٥٩٨ رغم معرفته التامة بأن الانتهاء المفاجىء لحرب الثمانية أعوام قد يُفرز مشاكل خطيرة جداً لموقعه [كحزب] في كردستان.

كان انتهاء الحرب والهجوم الإيراني المضاد على كردستان الذي أعقب ذلك هما اللذان دفعا قاسملو إلى سلوك طريق المفاوضات واستشهاده في النهاية. ففي الأشهر التي أعقبت وقف إطلاق النار أمر نظام طهران بموجة من الإعدامات طالت حتى السجناء الذين كانوا يقضون أحكاماً بالسجن وذلك انتقاماً من مجاهدي خلق الذين قاموا بغزو فاشل لغرب إيران في فترة نهاية الحرب. ورغم إن المقاتلين الأكراد كانوا قد عارضوا ذلك الغزو إلا أنهم وقعوا ضحايا للقمع العام.

باغتيال قاسملو تكون الحركة الكردية قد فَقَدَت واحداً من أبرز الناطقين باسمها اعتدالاً وفصاحةً. كان ديمقراطياً حقاً وواحداً من زعماء الأكراد القلائل المتحررين من الارتباك والتكلف مع العالم الخارجي. لهذا كان، نسبياً، يُعرف قليلاً على المسرح الدولي، فالتماساته من أجل الاعتدال ومعارضته الشديدة لكل أنواع الإرهاب لم تلفت إليه الأنظار كما لفتت إلى زعماء آخرين لحركة التحرر الوطني الذين ينتهجون سبلاً قاسية من أجل الإعلان عن قضيتهم. إنها سخرية أدركها قاسملو بنفسه فقد قال مرة :

((باختطاف الرهائن ووضع القنابل تستطيع منظمة صغيرة جداً أن تكتسب سمعة سئية أما تنظيمات التحرر الوطني التي لاتمارس الإرهاب فيتم تجاهلها)) كان قاسملو في شبابه شيوعياً ولكنه قطع علاقاته مع الحزب والمعسكر الشرقي سنة ١٩٦٨ عندما عبّر عن رأيه بصراحة دفاعاً عن ربيع براغ القصير الأمد بقيادة الكسندر دوبتشك وأجبره التدخل السوفيتي على مغادرة تشيكوسلوفاكيا مقابل منفى جديد في فرنسا.

كانت فلسفته السياسية، فيما يتعلق بالقضية الكردية، تتخلص بالاعتماد على الكفاح المسلح إذا لم يكن هناك سبيل آخر، ولكن يجب البحث عن مفاوضات سلمية مع السلطة المركزية ـ أنىّ كان ذلك ممكناً ـ تمهّد السبيل لحكم ذاتي ضمن إطار الحدود القومية الكائنة.

بعد وفاة الخميني في الثالث من حزيران ١٩٨٩ وقبل شهر واحد من وفاته هو عبّر قاسملو عن تفاؤل يشوبه الحذر من أن يُظهر خلفاء الخميني أية توفيقية تجاه المشكلة الكردية، رغم إنه رأى أملاً قليلاً في اسقاط مبكر للنظام بغياب أية معارضة حقيقية منظمة. وعندما قال: ((إنهم ليسوا مع الملكية ولا مع جمهورية إسلامية،أنهم يريدون جمهورية ذات مؤسسات ديمقراطية. إنهم يريدون السلم والأمن)) لم يكن قاسملو يتكلم باسم الأكراد فقط بل باسم أغلبية الإيرانيين.

خلال فترة الحرب العراقية الإيرانية كانت هناك انتفاضات متزامنة بين الأكراد في العراق وتركيا وإيران وهو ارتفاع مفاجىء للكفاح المسلح ساعدَ في إنعاش فكرة الهوية القومية الكردية بين الأكراد في الشرق الأوسط و الشتات. ولكن كانت هناك دولتان فيهما سكان أكراد لم يستطيعوا - بسبب الظروف السياسية والضعف النسبي للحركة القومية - النهوض وإعلان العصيان ونعني بهما سورية والاتحاد السوفييتي.

ربما يشكل الأكراد واحداً في العشرة من عدد سكان سورية البالغ سبعة ملايين ونصف[1] رغم إنه يصعب اعطاء احصائيات موثوقة في ظل السيطرة المُحْكَمَة للدولة البعثية بقيادة الرئيس حافظ الأسد. يعيش ثلثاً من هؤلاء في العاصمة دمشق والبقية موزعون بين كرداغ والجزيرة. كما توجد مقاطعة كردية في منطقة عين العرب، شمال - شرق مدينة حلب.

تقع كرداغ في أقصى غرب كردستان، ذات مناخ معتدل مناسب لنمو أشجار الزيتون، وفيها قلاع كردية تعودإلى العصور الوسطى. إنها أرض زراعية خصبة تطل على انطاكية وقريبة من البحر المتوسط. لقد كانت أهم المناطق في كردستان خلال القرون الوسطى. ومن هناك تولى الأمراء الأكراد زمام السيطرة على أتباعهم العرب. كان ذلك في تلك الفترة التي سيطر فيها صلاح الدين وحنرالاته على السلالة الحاكمة للسكان المسلمين في الشرق اثناء نضالهم لطرد الصليبيين.

أما الجزيرة فقد كانت تقليدياً منطقة مشتركة بين الأكراد الذين يعيشون في قرى ثابتة وقبائل من العرب الرحل، وكانت توجد أيضاً بعض القبائل الكردية شبه الرحل التي كانت تشتّي هناك مع قطعانها. وبعد هزيمة الثورات الكردية في تركيا، انتقل أكراد آخرون إلى هناك في العشرينات وساعدوا على تحويل المنطقة إلى إقليم مهم لانتاج الحبوب وامتدت حقوله الخضراء إلى الأراضي المرتفعه وراء الأراضي الحراجية المتفرقة غرب الفرات

رغم إن هذه المناطق الثلاث تشكل جزءاً متمماً لكردستان، فإنها منفصلة عن بعضها البعض بمناطق عربية. إنها في الحقيقة امتداد لكردستان تركيا، رغم إن لسكان الجزيرة صلات حميمة مع الأكراد في منطقة سنجار بكردستان العراق. ويبدو أن واضعي الخرائط بعد الحرب العالمية الأولى لم يهتموا كثيراً بالبنية الإثنية للشرق عندما رسموا الحدود بين الدولة التركية الحديثة وسورية الواقعة تحت الانتداب الفرنسي. فبموجب شروط اتفاقية لندن لعام ١٩٢١ أصبحت المناطق الكردية الثلاث تابعة

(١) تشير احصائية عام ١٩٩٥ أن سكان سورية يبلغ حوالي ١٩ مليون نسمة المترجم

لسورية، بينما وجدت جاليات عربية نفسها على الجانب التركي من الحدود.

لقد عُومل الأكراد بنوع من التسامح، في العقود الأولى لسورية ما بعد الأستقلال، ومُنحوا قدراً من الحرية الثقافية في هذه الدولة ذات الأغلبية العربية. وفي عام ١٩٥٧ تشّكل (ح.د.ك) في سورية على هدى الحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق، لكنه كان تنظيماً مقتصراً على المفكرين ومكرساً لحركة ديمقراطية أوسع ضمن إطار سورية ولم يشكل تهديداً للدولة.

ومع بروز الوعي القومي العربي في المنطقة وحتى قبل الوصول إلى السلطة في كل من العراق وسورية، أصبح الأكراد هدفاً لقمع الدولة من قِبل النظامين البعثيين الشوفينيين. وكانت ثورة الأكراد العراقيين سنة ١٩٦١ والتي كانت تُعتبر ـ بلغة القوميين العرب ـ هجوماً على العروبة، مصدرَ ومبررَ هذا التغيير في السياسة. وأصبح يُنظر إلى الأكراد كطابور خامس ممن يدينون بولائهم لرفاقهم الأكراد في العراق الذين كانوا يهاجمون دولة عربية شقيقة. فأُعلن بسرعة أن ١٢٠,٠٠٠ كردي في الجزيرة ليسوا سوريين وجُردوا من حقوقهم المدنية.

وأصبح الوضع أسوأ في عام ١٩٦٣ بوصول حزب البعث إلى السلطة بقيادة ميشيل عفلق وهو قومي متطرف والمعلم الأيدولوجي الخاص لصدام حسين. يقتبس الكاتب الكردي مصطفى نازدار تقريراً من ذلك الوقت كتبه رئيس الأمن [السياسي] في الجزيرة محمد طلب هلال يحاول [هلال] من خلاله أن يُضعف من مكانة الأكراد في الدولة السورية. والبرهان على أن الأكراد لا يشكلون أمة واحدة ويقول: ((هذا هو الشعب الكردي، شعب بلا تاريخ، شعب بلا حضارة، بلا لغة، بلا أصول عرقية، إنه لا يملك سوى صفات البطش، القوة الهدامة والعنف، صفات تلازم من جهة أخرى الشعوب الجبلية كافة[1])).

---

(١) ويستطرد هلال فيقول: ((فإن الأكراد يعيشون على حضارة وإرث أمم أخرى و لم يسهموا باي نصيب في هذه الحضارات ولا في تاريخ هذه الأمم)) وكقومي متعصب، اقترح هلال خطة من إثني عشر نقطة ينبغي تطبيقها قبل كل شيء ضد أكراد الجزيرة، وهي:

١ـ سياسة البتر: وذلك بترحيل الأكراد وتشتيتهم.

٢ـ سياسة التجهيل: بحرمان الأكراد من كل ثقافة حتى باللغة العربية

٣ـ سياسة التجويع: بحرمان المحتين من كل إمكانية للعمل

٤ـ سياسة تبادل المجرمين: بتسليم الحكومة التركية كافة الذين نجوا من ثورات كردستان الشمالية.

٥ـ سياسة ((فرق تسد)) بتحرض الأكراد بعضهم ضد البعض الآخر.

٦ـ سياسة الحزام: وهي السياسة ذاتها التي اتبعت في أواخر الستينات.

٧ـ سياسة الإسكان: بزرع عرب أقحاح وقوميين في مناطق الأكراد قبل تشتيتهم. +++

كانت الحكومات السابقة من جهتها قد اقترحت طرد الأكراد من المناطق الحدودية التركية،ولكن خطة هلال لم تكن فقط لتشتيتهم بل لحرمانهم من الثقافة و التوظيف. إذ سيتم استبدالهم بمستوطنين مسلحين في مزارع الدولة التعاونية. ومع أن الأكراد قد أُعفوا من بعض أسوء النقاط في برنامج هلال وذلك بسبب دخول سورية الحرب ضد اسرائيل سنة ١٩٦٧، فقط انطلق برنامج التعريب واستمر حتى ١٩٧٦ وذلك ببناء مزارع وقرى نموذجية يقطنها مهاجرون عرب من غرب الفرات. ووُضع الحظر على الثقافة الكردية وأُعطيت المدن والقرى الكردية اسماءً عربية.

رغم كل هذه الأجراءات تبقى الجزيرة وعاصمتها القامشلي كردية الصفات وبشكل جليّ. وقد أُعفي الأكراد السوريون من التشيت الكامل والإبادة بسبب السياسة البراغماتية والواقعية للنظام البعثي. فبعد الانشقاق بين البعث السوري والبعث العراقي في سنة ١٩٦٨ لم يبق مبرر لدى السوريين في مساعدة خصومهم في العراق لقمع الأكراد، علماً إن البعث السوري كان قد أرسل الطائرات والجنود لمساعدة أول نظام بعثي عراقي في قتالهم ضد تمرد البرزاني المسلح، ولكن بعد سنوات دعم الرئيس الأسد وبقوة الأكراد العراقيين ضد بغداد.

السبب الثاني لسياسة الرئيس الأسد المعتدلة نسبياً تجاه الأكراد هو التحدي الذي مثّله تنظيم ((الأخوان المسلمين)) لنظامه العلماني في بداية الثمانينات. عندها باشر الرئيس الأسد بسياسة تسامح نسبي تجاه الأقليات بمن فيهم الأكراد الذين - رغم كونهم سنة - لم يكن لهم أي صلة مع تنظيم الإخوان الذي كان العرب يشكلون العنصر الأساسي فيه. وضمن هذا الاطار سُمِحَ للاكراد ليعيشوا حياتهم[1].

+++

٨- سياسة عسكرية بمركزة قطعات عسكرية في منطقة الحزام تكون مهمتها السهر على تشتيت الأكراد وعلى إقامة العرب بحسب الخطة التي تتبناها الدولة.

٩- سياسة تطبيق ((الاشتراكية)) بانشاء مزارع جماعية من أجل العرب المقيمين في المنطقة وبتسليح وتدريب هؤلاء العرب.

١٠- منع كائن من كان ويجهل اللغة العربية فيما يسمى بالمناطق الكردية من مزاولة حقوقه المدينة في الترشيح والانتخاب [وهو ما حصل إثر أحصاء ١٩٦٣]

١١- ترحيل علماء الدين الأكراد إلى الجنوب وإرسال علماء دين عرب إلى مكانهم

١٢- إثارة حملة واسعة معادية للأكراد بين العرب.

عن بحث مصطفى نازدار (أكراد سورية) نُشر هذا البحث في كتاب (الأكراد وكردستان) منشورات فتح (التعبئة والتنظيم والدراسات) المترجم.

(١) للأمانة الأدبية نشير إلى أنه تم ترجمة هذا المقطع بتصرف. المترجم

ولكن لم يمنع هذا من نشوب اضطراب خطير في عام ١٩٨٦ بعد أن وقعت سورية عدداً من اتفاقيات التعاون مع تركيا التي كانت قد بدأت من قبل بحرب العصابات ضد pkk.إن هذه الترتيبات التي شملت اتفاقية حماية الحدود هددت بالحدّ من الحرية النسبية لأكراد سورية.

ففي الواحد والعشرين من آذار والذي يصادف رأس السنة الكردية، احتشد أربعة آلاف كردي في منطقة الغوطة بدمشق للاحتفال السنوي بعيد نوروز الذي كان حتى ذلك الوقت مسموح به من قِبل النظام. ولكنهم أُخبروا بأنه تم حظر الاحتفالات هذه السنة وبأن هناك أوامر بتفريقهم. مما أدى إلى صدامات بين الأكرادِ و رجال الأمن الذين أطلقوا النار فأردوا شخصاً قتيلاً وجرحوا عدداً آخر. فتشكل وفد كردي لمقابلة الرئيس ولكنهم ضُربوا بشكل مبرّح وأحتجز المئات منهم. وجرت أحداث مماثلة في عفرين شمال حلب حيث قُتل ثمانية أشخاص[1] وفي القامشلي أُغلقت المحلات احتجاجاً على حوادث القتل.

وبعد خمس سنوات تماماً، كان يوجد أكراد مسلحون في شوارع القامشلي يخفرون بحذر تحت أنظار المخابرات السورية اليقظة. لم يكن هؤلاء من الأكراد السوريين بل عراقيين من أعضاء (ح.د.ك)و(أوك) يمارسون حقهم في حمل الأسلحة وهو شيء لم يكن مسموحاً به لنظائرهم السوريين. ففي الجانب الآخر من الحدود كانت الثورة الكردية ضد صدام حسين في أوجها، وقد قرر الرئيس الأسد البراغماتيكي [العملي] دائماً دعم المتمردين على منافسه العربي. كانت المساعدة محدودة فقد سمح الرئيس الأسد للأكراد باستعمال نقطة عبور نهرية لنقل المون والذخائر بالمراكب إلى الجانب العراقي وسمحَ كذلك بإجلاء جرحى البيشمركة بالاتجاه المعاكس. وكان مسموحاً لقواد البيشمركة بالعبور لتقييم الوضع العسكري من الشاطىء السوري ومناقشة التكتيكات مع القواد السوريين. ولكن المساعدة لم تكن كافية أبداً لتُتيح للأكراد فرصة تعزيز ثورتهم ودحر صدام. بدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم مرةً أخرى أداةً في التنافس بين الدولتين الجاريتين.

كانت واحدةً من أكثر اللحظات إثارة المشاعر الأكراد الذين حضروا مؤتمر باريس لحقوق الانسان الكردي في تشرين الأول ١٩٨٩ هو الخطاب الذي ألقاه نادر نادروف المندوب عن جالية قُطعت من جذورها منذ سبعة عقود أي عن أكراد السوفييت. حيث وصف نادروف وهو يتكلم

---

(١) للحقيقة والتاريخ نقول بأن هذا الرقم مبالغ فيه، إذ من المعروف إن شخصاً واحداً قد استُشهد هو سليمان محمد أمين آدي المترجم

باللغة الكردية ـ كيف إنه رُحل بالقوة مع أمه الأرملة وأطفالها التسعة إلى وسط آسيا في جمهورية كازاخستان عام ١٩٣٢ كجزء من حملة ستالين لتشتيت الأكراد والأقليات الأثنية الأخرى. كان ستالين متخوفاً من وجود أكراد مسلمين قرب الحدود الجنوبية الحساسة للاتحاد السوفييتي، لذلك وزّعهم بين تسع جمهوريات سوفيتية ومناطق تبعد آلاف الأميال عن مساكنهم التقليدية.

لقد استغرقت رحلة عائلة نادروف شهراً ونصف الشهر. وقد كانوا مقيدين في العشرين سنة القادمة بقراهم الكازاخية حيث أنهى نادروف تعليمه، وقد مُنع من السفر حتى إلى المستعمرة المجاورة. كان نادروف مصاباً بالاحباط لعدم تمكنه من متابعة دراسته في مكانه الخلفي المنغزل ذاك، فاتخذ إجراءً شجاعاً بالكتابة مباشرة إلى ستالين ليلتمس مساعدته. ونتيجةً لذلك سُمح له بالانتقال إلى موسكو ليتابع دراسته، وقد عيّن فيما بعد في أكاديمية العلوم في ألما آتا بآسيا الوسطى.

كانت زيارة نادروف لباريس جزءاً صغيراً ـ ولكن هاماً ـ من سياسة العلنية (غلاسنوست) التي بدأت عام ١٩٨٠ .إنها مكّنت الأكراد الآخرين من أن يعلموا مصير هذه الجالية المنسية، وأيضاً من أن يسمعوا من نادروف بأن [مأساتهم] كانت أكبر بكثير مما كانوا يظنون من ذي قبل. تختلف الاحصائيات عن السكان الأكراد في الاتحاد السوفيتي من إحصاء إلى آخر وبشكل كبير. فقد كان الاعتقاد العام هو أن عددهم يصل إلى حوالي ٣٠٠,٠٠٠ تقريباً لكن أظهر نادروف بأن عددهم يزيد عن المليون، أي مثل عدد الأكراد في سورية.

لقد تفاوت مصير أكراد الاتحاد السوفيتي بإختلاف تقلبات السياسة القومية السوفيتية. فأحياناً كان يتم حظر الثقافة والمعاهد الكردية، وأحياناً أخرى كانت تلقى الدعم والتشجيع. لقد نسي الكثيرون منهم لغتهم وتقاليدهم بينما احتفظ آخرون، من أمثال نادروف، بطريقة حياتهم في المنفى.

إن الأكراد في الإتحاد السوفيتي ليسوا وحدة متجانسة. فبعضهم ينحدرون من القبائل التي انتقلت إلى أرمينيا والقوقاز اعتباراً من القرن الثامن عشر فصاعداً، إما على شكل رعاة رُحّل أو على شكل مرتزقة في الحروب الروسية العثمانية. وينحدر آخرون من القبائل التي انتقلت إلى الأطراف الشمالية الشرقية للامبراطورية الفارسية من أجل حماية حدودها وآخرون إيزيدون ممن فرّوا إلى روسيا القيصرية الآمنة تجنباً للإضطهاد الذي لا قوه من جيرانهم المسلمين الأكراد وغير الأكراد. وفي أعقاب

الثورة الروسية [ثـورة أكتوبـر] شُيدّت جمهوريـة كردسـتان المتمتعـة بـالحكم الذاتـي، ولكـن تنـافس الأقليات المحلية الأقوى أدى إلى انحلالها.

لقد لاحظ المؤرخ الكردي كندال نزان خلال زيارة له إلى الاتحاد السوفيتي بـأن الكثـير مـن الأكراد كانوا لا يزالون غيورين علـى هويتهـم القوميـة ويتـابعون عـن كثـب الأخبـار في بقيـة أجـزاء كردستان. وقد رأى صور الملا مصطفى في بيوت الكثيرين، بمن فيهم أعضاء في الحزب الشيوعي.

كانت الدولة تتسامح بهـذه التعبـيرات عـن الشـعور القومـي. ولكـن حتـى في ظـل رئاسـة ميخائيل غورباتشوف لم يكن مسموحاً للاكراد المشتتين بـالعودة مـن المنفـى إلى الوطـن والتجمـع في منطقة مستقلة بإمكانهم أن يعتبروها ملكا لهم.

الفصل العاشر

الأمة والقبيلة

إن الأكراد شعب مولع بالجدل والخصام، ويشير تاريخهم القديم والحديث إلى حقيقة مفادها :أن الأتحاد قوة ويُعبّر عن ذلك المثل الكردي القائل: ((يد واحدة تغسل الأخرى، والاثنتان تغسلان الوجه)) وأن الانقسام يحطمّ التطلعات القومية.

هذه الانقسامات، بالاضافة إلى انعدام الحنكة السياسية، عموماً، التي لا بد منها لتعزيز قضيتهم، كانت تعني حتى - السنوات القليلة المنصرمة - استمراراً لمأساتهم دون كثير اهتمام وألا تُسمع اسغاثاتهم للنجدة. إن معاناة الأكراد من نواحٍ كثيرة، أكبرمن معاناة أي شعب آخر مضطَهد منذ الحرب العالمية الثانية. فهم الشعب الوحيد الذي عانى من القصف بغاز الأعصاب منذ أن تم اختراع تلك الأسلحة المحظورة. فقد استخدم البوليس السري العراقي الغازات السامة للتخلص من معارضين معينين من الأكراد داخل وخارج العراق، وحتى في المخيمات حيث لجأ الأكراد المدنيون. لقد فَقَدَ الأكراد الآلاف منهم على يد جيوش الدول التي يعيشون فيها بالاضافة إلى الحروب الأهلية بين الأكراد أنفسهم والتي أمدّها أولئك الذين يسعون لابقاء الأمة الكردية مستعبَدة.

في عام ١٩٨٣ فقدت عشيرة البرزاني وحدها ثمانية آلاف رجل في عملية انتقامية مفاجئة من قبل صدام حسين والتي قلما يوجد لها نظير في التاريخ الحديث، ومع ذلك مرت عملياً دون أن يلاحظها العالم الخارجي.

وفي منتصف شهر تموز من ذلك العام، وفي ذروة الحرب بين العراق وإيران تقدّم الإيرانيون في أراضي أعدائهم بكردستان العراق، فألقى صدام حسين اللومَ على الأكراد ليس فقط لمشاركتهم في الهجوم، بل أيضاً لإرشادهم الجنود الإيرانيين، ولذلك أرسل صدام قواته، في الثلاثين من تموز، لتطويق مخيمات اللاجئين في (قشتابا وديانا) قرب أربيل. كانت لدى القوات أوامرَ بجمع كل رجل يضع عِمامة حمراء على رأسه، وهي إشارة إلى كونه فرد من عشيرة البرزاني، فأُلقي القبض على الذكور بين الثانية عشر إلى الثمانين عاماً، سواءً أكانوا أصحاء أو مرضى، سليمين أو معاقين وشحنوا في شاحنات وتوجهوا، برفقة حماية عسكرية إلى بغداد. وتم نقلهم فيما بعد إلى جنوبي العراق وأخيراً إلى معسكرات

صحراوية قرب الحدود الأردنية. ولم يراهم أحدٌ قط مرة أخرى. لقد تم القضاء على معيلي الثمانية آلاف أسرة وتُركت لتدبر أمورها بنفسها، دون أن يخبرهم أحدٌ قط بما جرى لمعشر الرحال.

ولم يتم الإفصاح عن مصير الثمانية آلاف برزاني أبداً. وخلال مفاوضاته المجهَضة مع بغداد، أثار الطالباني القضية مع صدام حسين الذي سأله لماذا يسأل طالبانيّ [من عشيرة طالباني] عما جرى لشخص من عشيرة البرزاني. فأجابه الطالباني بأنه رغم خلافاتهم، فانهم جميعاً أكراد. ويبدو من المؤكد أن البرزانيين قد قُتلوا فور إلقاء القبض عليهم. وفي كردستان أخبرونا بأنهم قد دُفنوا في مقابر جماعية،وفي بعضها تُركت الأوصال مكشوفةً لتدل على أماكن الدفن.

إذا كان الهدف من هذه المجزرة إنهاء الثورة الكردية فإنها فشلت. فرغم كل المظالم الموجهة ضد الأكراد، فإنهم يستمرون في العودة إلى القتال، رغم اليأس الواضح من القضية. ولكنهم لم يقتربوا من تحقيق هدفهم النهائي في الدولة ـ الأمة مثل اليوم. فرغم كل الذي حصل سيكون أغلبية الأكراد في العراق مسرورين بالموافقة على الحكم الذاتي، على الأقل في المستقبل القريب، وليس الاستقلال، وفي إيران أيضاً فإن اعترافاً أوسع من الحكومة سوف يُرضي الشعور القومي الكردي هناك، وفي تركيا فقط تبدو قوات ال pkk مصممة على إقامة دولتهم الخاصة، وهم يواجهون معارضة من شعبهم بقدر ما يواجهونه من الأتراك.

إن المواقف الكردية تجاه إقامة الدولة تعود في جزء منه إلى الجغرافية، فكردستان قاريّة وجبلية وقد هيمنت عليها تاريخياً شعوب متسمة بالعداء. فلم تكن هناك أبداً دولة صديقة لتكون نصيراً دائماً للدولة الكردية الناشئة. ويُعد التاريخ الكردي إحدى النقاط التي استغلها المحتلون والامبراطوريات المتنافسة والتي استخدمت الأكراد كشرطة لحدودهم أو كأداة لتحذيرهم من الغزو. فالسجلات الممعنة في القِدم التي يوجد فيها ذكر للأكراد تشير إليهم دائماً إما كقبائل أو كإمارات، ولكن ليس إلى الأكراد كأمة أو كمجموعة عرقية، أو حتى إلى ما يعد الأن كردستان بأكملها[1].

ورغم إن الأكراد يشكلون بكل وضوح أمة مستقلة، وحسب كل المعايير المعروفة من لغة وثقافة مشتركتين وكذلك من حيث أسلوب العيش، فإنه كثيراً ما يبدوا أن حقيقة كونهم مختلفين

---

(١) المصادر الاسلامية تتحدث عن الكرد كشعب متمايز وتتعامل معه على هذا الأساس، انظر مثلاً صورة الأرض ـ اقليم الجبال ـ لابن حوقل وكذلك الفصول المتعلقة بصلاح الدين في (البداية والنهاية) لابن كثير (هـ . ع).

عن حيرانهم هو الشيء الرئيسي الذي يوّحدهم. فقد بوشر في السنوات الأخيرة فقط بإجراءات تجريبية لإقامة تفاهم كردستاني - [نقول تفاهم لأن] كلمة ((حركة)) ستكون قوية جداً ـ وقد جرى هذا تحت تأثير الكوارث التي أصابت كردستان العراق في السنتين ١٩٨٨_١٩٨٩. وقد كان المؤتمر الدولي عن الأكراد والذي عُقد بباريس في شهر تشرين الأول ١٩٨٩ المناسبة الأولى في العصور الحديثة التي التقى فيها ممثلون عن الأكراد من الدول الخمسة و من أكراد الشتات. لقد كان اللقاء الذي عقد تحت رعاية منظمة فرنسا-الحريات France-Libertèsبرئاسة السيدة دانيال ميتيران، يهدف أساساً إلى دراسة وضع حقوق الانسان في شتى مناطق كردستان، ومناقشة الطرق الكفيلة للفت الأنظار إلى محنة الأكراد. أما بالنسبة لمحتواه السياسي، فلم يكن عملياً موجوداً. وفي الوقت الذي تكلم الكثيرون في قاعة المؤتمر لصالح تعاون أوسع بين الأكراد في مختلف الدول، كان رفاق pkk في الخارج يدينون ((البرجوازيين الصغار الاصلاحيين)) في الداخل بسبب تحديد مطالبهم في الحكم الذاتي الثقافي.

ومع ذلك وبسبب تسامحها لعقد هذا الاجتماع المتواضع على أراضيها أثارت الحكومة الفرنسية غضب ثلاثة دول قوية على رأسها. إذ اتهمت تركيا الفرنسيين بمحاولة زعزعة دولة صديقة ومنعت أعضاء برلمان يساريين من السفر لحضور المؤتمر، وأشارت إيران إليه بعمل فرنسة ((العدواني)) بينما أستجمعت العراق كل موارد اللوبي الموالي للعراق في فرنسا من أجل تعليق انعقاد المؤتمر لأنه يمثل ((مخططاً امبريالياً وصهيونياً ضد بغداد)). فإذا شكلّ اجتماع ضم مئتي كردي تهديداً بهذا الشكل، فماذا سيكون فعلُ الأمة الكردية إذا توحدت؟

إن ردود الفعل العنيفة تجاه مؤتمر باريس تعطينا فكرة واضحة عن المأزق الدائم الذي يواجه الأكراد عندما يحاولون الوصول إلى اتفاق فيما بينهم :فَهُمْ يواجهون باستمرار ردَفعل متحد من أولئك الذين يدّعون بأنهم حُماة لهم. وإذا كان ثمة سياسة مشتركة بين حكومات إيران والعراق وتركيا وبدرجة أقل سورية، فهي الإبقاء على الشعب الكردي في حالة استعباد ثقافي وسياسي، وأحياناً حتى الاستعباد الجسدي. والوجه الآخر للمأزق الكردي هو أنه عندما تواجه القوى الخارجية بخيار دعم الأكراد أو المجازفة بإبعاد قوة إقليمية، فإنها تميل دائماً إلى الاحتفاظ بعلاقات طيبة مع القوة الإقليمية. وهكذا رضخت الولايات المتحدة للضغط عندما احتجت العراق و تركيا على زيارة الطالباني في نيسان ١٩٨٨ إلى وزارة الخارجية، وأمرت بسياسة ((لا إتصالات مباشرة)) والتي بقيت سارية المفعول حتى وقت طويل بعد غزو الكويت.

إن ردود الفعل قاسية حتى تجاه إجراءات مؤقتة من أجل وحدةٍ كردية، ولذلك فإن الأكراد يبذلون جهداً مضاعفاً ليوضحّوا لكل دولة، بأنهم يديرون حملات مستقلة ضد أعداء مختلفين وهذا أدى بالحركة القومية غالباً إلى الدخول في صراع مع نفسها [في صراع داخلي] كما حدث في أواخر الستينات عندما ساهمت قوات الملا مصطفى البرزاني في القضاء على تمرد الفلاحين الأكراد في إيران لصالح الشاه[1].وكذلك حاول أكراد العراق في عام ١٩٩٠ تحسين علاقاتهم مع تركيا في وقتٍ كان اشقاؤهم الأكراد في pkk يشنون حرب عصابات عنيفة ضد حكومة أنقرة.

في أوج تمردها ضد صدام حسين ١٩٩١ حاولت القيادة الكردية في العراق جاهدةً التأكيد بأن تمردهم ما هو إلا خطوة نحو الحكم الذاتي، وليس الاستقلال. لم يتم إعطاء هذا التأكيد لمصلحة حكومة العراق، بل للدول المجاورة التي كانت متخوفة من أن تتجاوز الانتفاضة الحدود وتنتقل إلى أراضيها. وحتى قبل بداية الانتفاضة حذر (ح.د.ك.ع) قوات pkk من مغبة تعكير حالة الأمن على طول الحدود التركية قرب منطقة نفوذه.

وإذا كانت النتائج علامةً يمكن أن يُهتدى بها عندها يمكننا القول بأن هذا الفَصْل المفروض ذاتياً ضمن الحركة القومية الكردية لم يخدم القضية الكردية الكبرى، بل إنه أعطى الفرصة للقوى الأقليمية لإثارة جماعة كردية ضد أخرى وفي نفس الوقت يُبدي الأكراد، في إحدى هذه الدول، رغبتهم في تجاهل حقوق اخوتهم في الدول الآخرى لأجل الاستمرار في نضالهم.

لقد أبقى الدخلاُء الأكرادَ مقسمين، لكن الأكراد أيضاً ظلوا منقسمين على أنفسهم. نتيجةً لذلك، وبخلاف نضالات التحرر القومي للأمم الأخرى لم تنبثق حركة سياسية [شاملة لكل أجزاء كردستان]. وقد سعى أكراد العراق غالباً لتصوير أنفسهم كمثال للأكراد في الدول الأخرى للأحتذاء بهم، وذلك بسبب نجاحاتهم المؤقتة والدور الذي لعبوه في إبقاء الحركة القومية حيةً، ولكن هذا بعيد عن الادعاء بكونها حركة كردستانية. وتطلعّ pkk لأن يكون حزباً طليعاً لكل الأكراد وذلك بادعائه بأنه يقاتل من أجل الاستقلال التام لكردستان، لكنه حركة تتركز في تركيا بشكل أساسي، حيث رأت بشكل انتهازي في هزيمة الثورات الكردية في العراق فرصةً لمدّ نفوذها.

---

(١) كما حصل أيضاً عندما اتحدت قوات الطالباني والبرزاني في توجيه ضربة لحزب العمال (هـ . ع).

وفق التعريف الضيق لمفهوم الأمة ـ أي مجموعة من الناس يشتركون في تطلعاتهم وأهدافهم ـ ربما يخفق الأكراد، حيث يُدانون دائماً لأنهم يعيشون بقلق كأقليات ضمن حدود أمم أكثر تقدماً. ومع ذلك فإن مرارة واستمرار نزاعاتهم ضد الحكومة المركزية تُظهر بأن هدفاً مشتركاً يكمن في الوعي الكردي إذا ما وُحدت الهيئات السياسية القادرة على إبرازه [ذلك الهدف المشترك].

إن إحدى المشاكل التي تواجه الأكراد هي أنهم - رغم موروثهم الثقافي المشترك ـ مجبرون على العيش بشكل مستقل [عن بعضهم البعض] بسبب النزاعات التاريخية التي انصرفت إلى ابراز خلافاتهم. ولهذا السبب لم تبرز ثقافة تتجاوز الحدود، والتي بدورها، ساعدت على استمرار الخلافات بين الجماعات المختلفة. وربما يكون أكبر هذه العوائق لمفهوم الأمة الكردية هو عدم وجود أبجدية تلقى قبول الجميع للغة الكردية المكتوبة، فأكراد العراق وسورية وإيران لا يزالون يستخدمون الأبجدية العربية[1]، بينما يستعمل الأكراد في تركيا الأبجدية اللاتينية التي أدخلها أتاتورك إلى اللغة التركية الحديثة. ومن السخرية بمكان أن طبقة المفكرين الأكراد التي برزت في السنوات الأخيرة من عُمْر الأمبراطورية العثمانية هي التي ساعدت في خلق هذا التقسيم اللغوي. ورغم إن منشورات القومية الكردية المبكرة كانت تُطبع في القسطنطينية في منقَلَبْ القرن، عندما وفرّت حركة تركيا الفتاةمناخاً إصلاحياً، فإنها كانت باللغة التركية، وحتى إذا كان ممكناً نقل هذه الكراسات إلى كردستان فلم يتم انجاز شيء يُذكر. فأول جريدة كردية سُميت ببساطة كردستان[2] صدرت في القاهرة ١٨٩٨ ونُشرت فيما بعد ـ هكذا كانت تقلبات السياسة العثمانية ـ في جنيف وفوكستَنْ Folkstone [جنوب شرقي انكلترة] قبل أن تنتقل أخيراً إلى القسطنطينية إثر انقلاب تركيا الفتاة.

---

(١) هذا خطأ وقع فيه المؤلفان، فالأكراد في سورية وتركيا يستخدمون الأبجدية اللاتينية التي وضعها الأمير جلادت بدرخان عام ١٩١٨، ولكن لم يستعملها الا في عام ١٩٣٢ في مجلته هوار بعد العدد (٢٢). ونضيف بأن الأكراد في الاتحاد السوفيتي (السابق) يستخدمون أبجدية خاصة بهم أيضاً هي أقرب إلى الروسية منها إلى الأبجديتين المذكورتين. المترجم

(٢) أسسها مقداد مدحت بدرخان واستطاع أن يصدر خمسة أعداد بنفسه، ومن ثم سلمّها إلى أخيه عبد الرحمن بدرخان وأشرف على صدورها بعد عبد الرحمن بدرخان ابن أخيه ثريا بدرخان. وجدير بالذكر أن (كردستان) كانت تُكتب بالأحرف العربية. وقد صدر آخر اعدادها (العدد ٣١) في نيسان ١٩٠٢ بمدينة جنيف، وقد جاء في العدد الأول ٢٢ نيسان ١٨٩٨ ما يلي: "ألف حمد وشكر لله تعالى الذي خلقنا مسلمين، وأعطانا العقل والذكاء من أجل المعرفة والعلم. إن الكثير من الآيات الجليلة والأحاديث الشريفة تحض على وجوب اكتساب العلم والمعرفة. يوجد في العالم الكثير من المسلمين، وفي قرى و مدن الجميع توجد المكاتب والمدارس والصحف.+++

إن دعاوى الساسة الأكراد كانت دائماً في المدن حيث يُمكن ترويج الكتابات السرية وتوجد فيها أيضاً النخبة المثقفة القادرة على قراءتها. إن نسبة الأمية بين الأكراد مرتفعة أكثر من أغلبية الدول التي يعيشون فيها،وهذا يعود إلى الطبيعة الجغرافية القاسية لمناطقهم. ولأن التعليم القليل الذي يتلقونه عادة تكون بلغة غير لغتهم أما العربية أو الفارسية أو التركية. ولذلك حتى إذا ما تم التغلب على التوزيع والرقابة، فلن تكون هناك فائدة كبيرة من توزيع الكراريس السياسية في أي جزء من كردستان.

ومع ذلك فقد كان هناك تقدير دائم للمعرفة بين الأكراد،ورغم أن كردستان كانت بعيدة عن المركز وبجرد أقاليم تسودها العلاقات القبلية، فقد برزت طبقة من المفكرين من بين العائلات النخبة في أواخر القرن التاسع عشر،تماماً كما برزت حركة مماثلة بين العرب والمسيحيين من رعايا الباب العالي.وقد كان الأكراد والألبانيون بارزين في الحركة السياسية التجديدية في الأمبراطورية بالأشتراك مع الأصلاحيين الأتراك الذين اتجهوا في النهاية نحو سياسة قومية تركية.وقد كان الشباب الأكراد ،ولاسيما في عهد السلطان عبد الحميد الثاني،يسجلون في الأكاديميات العسكرية والمدارس القبلية التي أنشئت خصيصاً من أجل أن يندمج الأكراد في الهيئات الاصلاحية العثمانية الجديدة. وبالنتيجة،عند أندلاع الحرب العالمية الأولى، كان الأكراد يشغلون مناصب هامة في الجيش والدولة.

فما يحدث في العالم تدونه الصحف. إنني أشعر بالحزن والأسى على الأكراد الذين رغم إن ذكاءهم وطاقاتهم العقلية والعضلية تفوق الكثير من الشعوب الأخرى، فإنهم مع ذلك ليسوا مثل الأقوام الأخرى أغنياء ومتعلمين ...

بإذنه تعالى سأكتب من الآن فصاعداً جريدة كل خمسة عشر يوماً. وقد أسميتها (كردستان). سأكتب في هذه الجريدة عن مزايا العلم والمعرفة، وسأظهر لكم، أيها الأكراد أين يتعلم المرء، وأين توجد المدارس والمكاتب. سأقص عليكم ما يحدث في كل مكان، وماذا تفعل الدول الكبرى، وكيف تحارب، وكيف تتم [العمليات] التجارية، سأروي لكم كل ذلك.

حتى الآن لم يكتب أحد ما جريدة كهذه، فصحيفتي هذه هي الأولى، لذا لابد وأن توجد فيها الكثير من الأخطاء. لذلك أرجو أن تتفضلوا بالكتابة عن نقاط الضعف فيها.

فكل الأشياء، عندما تُخلق حديثاً تكون ناقصة، وبعد مرور قليل من الوقت، تصبح في الطريق الصحيح، وبهذا أبدأ بمقصدي.

ومن الله التوفيق

عن كلاويز ـ السنة الثالثة عشر ـ العدد الرابع ـ حزيران ١٩٩٢.

المترجم

ومثل معظم الجماعات السياسية والفكرية في الأمبراطورية العثمانية،أخذت التنظيمات الكردية قدوتها من أوربا ـ فالنسبة لرعايا السلطان، كانت أوربا تعني الحضارة و التقدم ـ وتبنت طابعاً وثقافةً غربيتين، وقامت بحملة لإدخال الألفباء اللاتيني محلّ الألفباء العربي.وبعد ثورة١٩٠٨ كانت الحركة الكردية والحركات الأخرى المبنية على أساس عرقي،حرة نسبياً في التنظيم ضمن إطار الأمبراطورية. فقد تأسست جمعية (تعالي وترقي كردستان) أو نهضة وترقي كردستان[١] في القسطنطينية من قِبل أحد سليلي البدرخانيين. وقد حاول المفكرون الذي يسكنون في المدن مدَّ رسالتهم السياسية والثقافية القومية إلى كردستان نفسها وذلك بتأسيس أندية[٢] في مدنها الرئيسية، لكن الحكومة العثمانية أثبتت أنها أقل تساهلاً في الريف منها في العاصمة، ولهذا بقيت القومية الكردية مقتصرة بالدرجة الأولى في القسطنطينية.

وعلى أية حال لم تدم فترة التسامح والحرية أكثر من الوقت الذي احتاجه أعضاء تركيا الفتاة لترسيخ أقدامهم، وإعلان منهج لتوسيع [نفوذ] الأتراك والتي شكلّت على الدوام لُب حركتهم التي لم تأخذ بعين الاعتبار مصالح سكان الامبراطورية من غير الأتراك. وإثر ذلك أُوْدِعَ بعض من النشطاء الأكراد في السجن بينما طلب آخرون، البدرخانيون بشكل خاص، اللجوءَ الى أوربا.

---

(١) نهضة وترقي كردستان أسسها الأمير عالي بدرخان بك والجنرال شريف باشا والشيخ عبد القادر ابن الشيخ عبيد الله ... وقد أصدرت الجمعية صحيفة باللغة التركية باسم الجريدة الكردية للتعاون والترقي. وكانت أول جريدة شرعية ذات توزيع عام. و أصبحت منبراً لمناقشات واسعة حول مسائل اللغة والثقافة والوحدة الوطنية الكردية، فاكتسبت بهذا العمل وبشكل سريع شعبية عريضة بين المهاجرين الأكراد في استنبول. كانت الجمعية تضم في صفوفها مثقفين وطنيين من بين المهاجرين ذوي أفكار و طموحات متباينة وكانت لها سمة غير متجانسة.
لمزيد من التفاصيل حول التنظيمات الكردية الأولى راجع الأكراد في ظل الامبراطورية العثمانية للدكتور كندال نزان) وكذلك الأكراد وكردستان مرجع سابق.

(٢) يقول الدكتور كندال في المصدر السابق: ((... ولدى افتتاح نادي بتليس في نهاية عام ١٩٠٨ كان يضم أكثر من ٧٠٠ عضو، وبعد بضعة شهور بلغ تعداده بضعة آلاف. وكانت للأندية تنظيمات نصف عسكرية مستوحاة من تنظيمات الشباب ـ الأتراك الذين اقتبسوا أنماطها من الكاربوناري الايطالية. وقد حددت هذه الأندية بصورة أكيدة بداية الصراع السياسي المنظّم في الوسط الكردي وأقامت أول بادرة من التنظيم الحديث للسلطة في كردستان. المترجم

ولم يكن لهذه التطورات السياسية في العاصمة العثمانية نتائج كبيرة فيما وراء الجبال. ففي نفس اللحظة التي كان فيها المثقفون الأكراد مهتاجين بالخلاص الزائف في القسطنطينية، كان البرزانيون وآخرون في حالة تمرد ضد تدخل السلطات العثمانية المستمر في الشؤون القبلية.

ويُعدّ الدين عاملاً آخر للشقاق والخلاف، رغم أن أغلبية الأكراد من المسلمين السُنة. هذه الخلافات أقل أهمية في الوقت الحاضر مما كانت عليه في الماضي عندما أثّرإعلان (الجهاد)، الذي أصدره السلطان، على موقف الأكراد ليقاتلوا مع الأتراك والألمان ضد الحلفاء، أو عندما أوحى التعصب الديني للأكراذ بالاشتراك في مذابح الأرمن. ولكن يبقى الدين عاملاً في الأنقسامات المستمرة ضمن المجتمع الكردي، الذي يشتمل على الكثير من الطوائف التي تُعتبر ـ حسب تعبيرات المسلمين السنة ـ (أهل بدعة) ولهذه الأختلافات الدينية معنىً طبقي أيضاً حيث تميل الأقليات المحرومة ضمن المجتمع الكردي للأنضمام إلى الطوائف السرية وغير التقليدية. ورغم أن قيادة الثورات الكردية منذ القرن التاسع عشر فصاعداً كانت من أرستقراطيي القبائل السنية، فإن الأقليات الدينية عموماً قد أظهرت بأنها أشدُّ الجماعات تحمساً للتمرد ضمن المجتمع الكردي.

وحتى بعد قرون من ارتدادهم عن الزراد شتية لاتزال بعض عادات الدين القديم باقية مثل عيد نوروز وتأكيده على النار. وقد اتبعّ الأكراد، الذين اهتدوا إلى الاسلام، المذهب الشافعي المتسامح من الطائفة السنية، وهم بذلك يتميزون عن جيرانهم العرب والأتراك الذين يتّبعون غالباً المذهب الحنفي. لكن المسلمين الأكراد في المناطق الكردية أقصى شماليّ إيران، من الشيعة على الأغلب حيث يشتركون في الدين مع جيرانهم الفرس.

وفي القرون الأولى من ميلاد السيد المسيح كان هناك مهتدون إلى المسيحية حيث توجد مخطوطة عن تنصّر قبيلة كانت تعبد الأشجار وألهّت فيما بعد، أيقونة من النحاس ـ ولا تزال توجد جاليات كبيرة من المسيحيين خاصة حول مدن زاخو والعمادية في شماليّ العراق ـ هاتين المدينتين اللتين كانتا في قلب طرق القوافل القديمة وملتقى الطرق، والهجرات السابقة. وقد كان مسيحيوا المدينتين دائماً من أوائل الذين انضموا إلى الانتفاضات الجديدة ضد الحكومات القمعية ويتميزون بحماسهم القومي.

إن إحدى أهم الأقليات الدينية والتي تقتصر على الأكراد حصراً هي الطائفة اليزيدية[1].إن معتقدات الإيزيديين تدينُ ببعض الشيء لكل الأديان الرئيسية في المنطقة من الزرادشتية[2] والاسلامية والمسيحية واليهودية والمانوية[3].وقد كان عددهم يصل إلى مليون نسمة من الأقوياء فيما يُعرف الآن بالعراق، لكن عددهم انخفض إلى سبعين ألف و - يتركزون بشكل رئيسي في منطقة الموصل وذلك بسبب المجازر - المنظمة التي نفذها العثمانيون السنة. ويُقال أن كتاب الإيزيدين المقدس، الذي لا يُسمح لأحد من خارج الطائفة بالأطلاع عليه، مكتوب باللغة الكردية، فالايزيدون ينكرون وجود الشر ويؤمنون بمثنوية الإله والملك طاووس[4] أو الشيطان، الذي يعتقدون بأنه رسول الارادة السماوية. لهذا السبب،ونتيجة لدعايات جيرانهم المحافظين جرى اضطهاد هؤلاء الناس الخلوقين جداً بدعوى أنهم عبدة الشيطان.

---

(١) يقول الباحث الأثري والخبير باللغات القديمة لوفري نابو Lauffrey Nabo بأن الايزيدية تعني في اللغة السومرية الروح الخيرة وغير المتلوثين والذين يمشون على الطريق الصحيح وحسب اعتقاده فإن تاريخ الإيزيدية يرجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وهم من بقايا أقدم ديانة كردية من منطقة الحضارات العظمى.
عن (نحو معرفة حقيقة الديانة اليزيدية) بتصرف. المترجم

(٢) حول التشابه بين الزرداشتية واليزيدية.
عندما أصبحت الزرداشتية الديانة الرسمية للامبراطوريات الميدية - الأخمينية و الساسانية أي اعتباراً من القرن السابع قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي، طلب شابور الثاني (٣٠٩ - ٣٧٩م) من الديانة الزرداشتية إجراء تغيرات في مبادئها الدينية وذلك باستيعاب مبادئ ومعتقدات الأديان الإيرانية القديمة، لذا اتخذت الزرداشتية من آلهة الرعاة وسكان الجبال الذين يمثلون القوة و الظواهر الطبيعية، ملائكة لها، وهنا ظهرت بعض العادات والمعتقدات المشتركة بين الديانتين الإيزيدية القديمة والزرداشتية الحديثة حيث عبدت الأخيرة بعض آلهة الإيزيدية واتخذت الكثير من معتقداتها ومبادئها الدينية، ومع ذلك لم تنصهر كامل الإيزيدية في الزرداشتية الجديدة، بعبارة أخرى لم تنصهر في الديانة العصرية التي عُرفت بـ (المزدانية) وعندما ظل الإيزيدون أوفياء لدينهم اتُهموا بـ DEIVA YASANA أي عبدة العفريت، واستُبدلت فيما بعد بـ SHIDA YEZEKY أي عبدة الشيطان وبالتالي فإن اعتبار الإيزيدية امتداد للديانة الزردشتية خطأ فادح.
عن نحو معرفة حقيقة الديانة اليزيدية (بتصرف) المترجم

(٣) المانوية: دين النبي ماني (٢١٦؟ ٢٧٦؟) الذي دعا إلى الإيمان بعقيدة.ثنوية قوامها الصراع بين النور و الظلام.

(٤) حول مفهوم الملك طاووس: يقول الدكتور بيرموفرمان في مجلة لالش (العدد ٤ السنة ١٩٩٤:" إن طير الطاووس يمثّل إله الشمس ... إن تعدد الألوان عند طير الطاووس وجمال منظره هو المنبع الرئيسي الذي أدى بالايزيديين إلى جعله رمزاً وتشبيهاً لممثل الله على الأرض آلا وهو طاووس ملك ... إن اوجه الخلاف بين المانوية و الإيزيدية تنحصر في+++

ويشكا, العلويون، وهم فرع متطرف من الشيعة، حالياً. أكبر [في المجتمع الكردي]. والعلويون في تركيا بملايينهم الثلاثة يتحدّرون من تلك القبائل الكردية والتركمانية التي حاربت إلى جانب الامبراطورية الشيعية الفارسية ضد العثمانيين في القرن السادس عشر. وعندما طرد العثمانيون الفرس خارج شرقي الأناضول، في بداية القرن السادس عشر، وجد العلويون وطنهم وقد أُلحق بالخلافة العثمانية فقاوموا العثمانيين، ولكنهم سُحِقوا، إذ تم قتل أربعين ألفاً من العلويين سنة ١٥١٤ على يد العثمانيين المنتصرين.

ولم يُفهم العلويون الذين أُعتبروا منبوذين في المجتمع السني بسبب اتباعهم لدين يشتمل على عقائد ليست بإسلامية، وقد بُوشر بحملة طعن وتشهير ضدهم والتي طالت في فترة أخرى اليهود. وقد أطلق عليم جيرانهم السُنة ((مطفئو الضوء)) وادّعوا بأنهم يشاركون في طقوس العربدة الليلية. ويعتبر الأتراكُ كل شخص من شرقي الأناضول علوياً ويُعامل بناءً على ذلك بشيء من الريبة وأحياناً باحتقار

+++ رؤيتها إلى فكرة طاووس ملك ومغزاه، فالمانوية ترى بأن طاووس ملك يمثّل فكرة السوء والشر، أما عند الإيزيديين فإنه يمثل الله.

أما عبير بسام، في بحثها (عبده الشيطان ما هي حقيقة ديانتهم ومعتقداتهم) فتقول حول"طاووس ملك" بأن الاختلاف بين الايزيدية وباقي الديانات السماوية هو قول الإيزيديين بأن الذي رفض السجود لـ (آدم) هو طاووس ملك (الذي خلقه الله من نوره) وليس إبليس، كما في الديانات السماوية، وعند رفضه هذا كرّم الله "طاووس ملك" وجعله رئيساً لملائكته واسماء هؤلاء الملائكة هم درادائيل واسرافيل وازرائيل وشمائيل وطورائيل .. ففي الديانة الايزيدية لايوجد شيطان أو أبليس ملعون من الأصل، ورفض "طاووس ملك" السجود لآدم .. دليل على الاختيار، الاختيار بين الخير والشر.

وأخيراً، فيما يتعلق باليزيدية، نورد هذه الفقرة (بتصرف) من مجلة لالش بعنوان بوشكين والكرد الايزيدون: كتب بوشكين في كتابه (رحلة إلى ارضروم) بأنه زار الكرد الايزيديين وسأل أحد رؤسائهم:

- هل صحيح بأنكم تعبدون الشيطان؟

- لا، ليس صحيحاً، إن ذلك مجرد كلمات فارغة يقذفوننا بها زوراً، فايماننا بالله لا يقل عن ايمانكم به، لكننا لا نلعن الشيطان ولا نرى ذلك صحيحاً لأن الشيطان نفسه يعيش وضعاً لايُحسد عليه، فليس جميلاً أن نثقل كاهله أكثر، ورحمة الباري واسعة لا حدود لها وليس بعيداً أن تشمله في النهاية رحمة الله الواسعة. المترجم

وهم يشتركون في ذلك مع المتصوفة الذين أعادوا الاعتبار لابليس (هـ - ع).

وحتى الأكراد ينأوون بأنفسهم عن الأكراد العلويين الذين يتكلمون لهجة مستقلة: الززائية،والتي توحد إلى جنب مع اللهجة الكرمانجية الأكثر استعمالاً، ويتميزون أيضاً برفضهم للطقوس الاسلامية المعتادة.فنساؤهم يخرجن دون حجاب، ولا يتقيدون بأركان الاسلام الخمسة ـ الشهادة، والصلاة، وإعطاء الصدقات،والصوم والحج - ولا يذهبون إلى المساجد. بدلاً من ذلك تصبح الأشجار غالباً موضع تبجيل في مناطق العلويين، ويُمكن رؤيتها وقد رُبطت أغصانها بقطع من القماش دلالةً على النذر.

والعلويون في تركيا موضع كره سياسي وديني على حد سواء، تقريباً بنفس الطريقة التي يُنظر فيها إلى الشيعة في أصقاع كثيرة من الشرق الأوسط. وهكذا وبسبب كونهم طبقة محرومة خارج الاتجاه السائد، فأنهم اتجهوا دوماً إلى سلوك السياسات المتطرفة والانضمام إلى الجماعات المتمردة و الساخطة. فالثورات المناوئة للكمالية التي نشبت في العشرينات كانت دائماً في مناطق العلويين الذين يتكلمون الززائية. وفي السبعينات شارك الكثيرون منهم في أنشطة الجناح اليساري، ونتيجة ذلك كانت هناك سلسلة من الهجمات البغيضة ضدهم من قِبل الذئاب الرمادية، الجناح اليميني للقوات المسلحة، التي قادها ألب أرسلان توركيس Alparsalan Turkes وقد كان نتيجة ذلك الكثير من القتلى، إذْ كانت (الذئاب الرمادية) حسنة التسليح بينما كان العلويين من القرويين الذين لم يكن لديهم وسيلة للدفاع عن أنفسهم سوى السكاكين. فأرسلت الحكومةُ الجنودَ لإعادة النظام إلى المنطقة، ولكن بعد أن قُتِل سبعمائة شخص في (قهرمان) مرعش karamanmaras

إن الطبيعة الانتقائية للدين الكردي يمكن أن تكون انعكاساً تاريخياً لمقاومتهم الاهتداء إلى الدين الجديد في العصور الإسلامية الأولى. فلم يكن الأكراد في معاقلهم الجبلية المنعزلة، بطيئين في اعتناق الدين الجديد فحسب بل أيضاً كيّفوا هذا الدين ليتناسب وعقائدهم الوثينة والزرادشتية القديمة. وتُظهر معتقداتهم الدينية في بعض الحالات، براغماتية هازلة حيث يؤدون ولاءً كلامياً للإسلام، ويتجنبون قيوده الصارمة. فأهل الحق في إيران، على سبيل المثال، يصومون ثلاثة أيام فقط بدلاً من صوم شهر رمضان بأكمله ويعلّل فولكلورهم ذلك بالقول أن النبي محمد كان ثقيل السمع وعندما أخبره الله - من الواضح إنه كان يتكلم الكردية - بأنه يجب على المؤمنين أن يصوموا sê roj (ثلاثة أيام) لكن محمد سمع الكلمة خطأً فظنها sî roj ثلاثين يوماً. ولحُسن الحظ نقلت الرسالة على مراحل إلى (أهل الحق) على يد وليّ الشيعة علي، وبذلك أُعفوا من التقيد بالصوم لمدة شهر كامل. ويشكلّ هذا

الدين إيماناً للفقراء والفلاحين المحرومين وهذا ما يعكسه اعتقادهم بأنه سيتم معاقبة الاغنياء في يوم القيامة.

ورغم إن الأغلبية الساحقة من الأكراد من المسلمين السنة، فأنهم يتبعون [تعاليم] ديانتهم بطريقة متحفظة، وقد روى الرحالة عبر السنين بأن الأكراد مسرورون بأداء صلواتهم في الكنائس أكثر منها في الجوامع. وتشكلّ الصوفية الاسلامية جزءاً هاماً أيضاً حيث تتواجد بكثرة جماعات الدراويش التابعين للطريقة النقشبندية والقادرية. ويقع جامع الشيخ عبد القادر الكيلاني وسط حيّ كردي في بغداد، ويبقى دائماً بحالة جيدة نتيجة الهبات التي تقدمها الحكومة كرشوة لتجنب الشقاقات. وقد كانت تنظيمات الدراويش في وقت ما عاملاً هاماً في الحركة القومية، فقد مارست نوعاً من المشاركة الوحدانية توّحدت بموجبها مناطق مختلفة من كردستان. ونفوذ البرزانيين في منطقة بادينان يرتكز وبقوة على موقعهم كزعماء دينيين وراثيين أكثر من أن يكون بسبب كونهم ملاكين كبار.

وحتى بين الأكراد السنة، تُوجد بعض الآثار المبكرة للديانة الوثنية والطقوس المعربدة [العربيدة][1] والتي تطفو إلى السطح بين الفنية والأخرى،وتميزّهم عن إخوانهم المسلمين. ففي الريف لا يزال هناك اعتقاد بالجن والعفاريت[2] وبعض مبادىء عبادة الحيوان، وحتى وقتٍ قريب كانت الشيوخ تتصرف كأطباء مشعوذين فكانوا يقومون بطقوس ويتلون التعاويذ، لدفع الجنون والشفاء من المرض. وقد وصل هذا الأسلوب الوثني في الدين القديم إلى أوجه على يد الشيخ (نبي) وهو كاهن عاش في القرن التاسع عشر وأوصى بوصفات داعرة ترافق الصلاة وذلك من أجل كبح الكبرياء وتمجيد التواضع في سبيل الله. وتم تشجيع اللواطة والإباحية حيث قيل أن جوهر الانحراف يعكس الاخلاص والتوبة. وكان للشيخ (نبي) أربعون زوجة، وهذا لم يمنعه من فضّ بكارة الكثير من العذراوات التي قُدّمنَ مِنْ قِبل آبائهن تكفيراً عن سبعة أجيال من نار جهنم.

ويظهر تفسير الأكراد المتسامح (الليبرالي) للإسلام في موقفهم تجاه المرأة. فالحجاب غير

---

(١) الطقوس العربيدة: طقوس سرية كانت تقام في أعياد آلهة الأغريق والرومان وتتميز بالغناء النشوان والرقص المعربد، المترجم.

(٢) الاعتقاد بالجن والعفاريت موجود في الديانات السماوية كلها وهو ليس من آثار الوثنية (هـ.ع)

معروف عملياً في مناطق كثيرة من كردستان[1]، وليس شيئاً غريباً أن تبلغ المرأة مكانة عالية من السمو فأثناء الانتداب البريطاني تولت امرأة زمام القيادة في القبيلة[2] بعد أن قُتل زوجها، وبقي الناس مخلصين لها، وكان البريطانيون يعترفون لها بحكم تلك المنطقة العشائرية. وإذا ما حققت المرأة الكردية شهرةً ما فإن أطفالها يتخذون اسمها اكثر من اسم والدهم.

إن هذا المزيج الديني في كردستان أصبح أقل غنىً وأهمية عما كان عليه منذ جيلين أو ثلاثة فحتى عام ١٩٤٨ مثلاً ،كانت هناك جالية كبيرة من اليهود في كردستان، وكان هؤلاء يشتركون مع الأرمن في صياغة الحلي الذهبية والفضية والصيرفة. وتشير التقديرات انه كان يعيش ثمانية عشر ألفاً من اليهود في كردستان لكن الأغلبيّة منهم هاجروا إلى اسرائيل عند إنشائها. وكذلك تناقصت الجاليات المسيحية منذ الحرب العالمية الأولى.

وقد تسببت انتهاكات العالم الحديث [لكردستان] وانتقال الأكراد من وطنهم إلى الخارج في اضمحلال الكثير من العادات القديمة. ولكن تبقى هذه الاختلافات الدينية ذات شأن كبير ليس فقط من الناحية الانثروبولوجية، فلا يزال الدين يشغل مكانة عالية في التسلسل الهرمي للولاءات الكردية، وبالنسبة للكثيرين، ولاسيما أولئك الذين اضطهدوا بسبب معتقداتهم كأقلية، لايزال إيمانهم يشغل مكانةً أهم من مفهوم القومية الكردية التي يمكن تعريفها بسهولة أكثر.

ورغم كل العوامل المسببة للشقاق كالدين واللغة وحواجز الحدود الدولية فإن الأكراد بكليتهم يناضلون في العصور الحديثة من أجل نوع من الاستقلال عن الدول التي وجدوا أنفسهم فيها، ومن أجل شيء يعين هويتهم كشعب مستقل حتى وإن لم يستطيعوا أن يحققوا طموحاتهم كاملة. ورغم إن أفضل أمل سنح للأكراد كان قد جاء بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، فإن الدولة التي وُعدوا بها في ذلك الوقت ربما لم تكن لتعمّر كثيراً فمثلما قضى كمال على الجمهورية الأرمنية كان سيقضي على الكيان الكردي أيضاً." ومع ذلك [فيما لو أُقيمت تلك الدولة] لكانت سابقة قيّمة للتأكيد على المطالب الكردية الراهنة. وفي الحقيقة لم تُنشأ الدولة أبداً بسبب الجيو سياسية الاستعمارية بالدرجة الأولى، ولكن أيضاً، وكما يعترف معظم القواد الأكراد بسبب الافتقار إلى القيادة المحنكة.

---

(١) الحجاب غير معروف أيضاً في الريف العربي في العراق وغيره. والمرأة هناك تساهم في الزراعة بقسط مماثل للرجل (هـ.ع).

(٢) مثل (عادلة خان) التي ترأست قبيلة الجاف قبل الحرب العالمية الأولى. المترجم.

وهذا ما يفتقده الأكراد أيضاً، فكل القواد الكبار الذين برزوا من بينهم كانوا يتحدرون من القبائل مثل الشيخ محمود، والشيخ سعيد، وسمكو،وملا مصطفى أيضاً. وفي العصر الحاضر تتجه النخبة المدنية المثقفة إلى ازدراء تلك الشخصيات، وتعتقد أنها لم تكن قادرة على إيجاد بؤرة لكل الأكراد أوحتى بؤرة لكل الأكراد في إحدى الدول التي تقتسم كردستان. وبالمقابل كان رجال القبائل الذين يوفرون الدعم والمساندة للنضال القومي يحتقرون الساسة المدنيين، و يصرفون النظر عنهم ويعتبرونهم ثرثارين غير عمليين. وربما كان قاضي محمد الاستثناء الوحيد عن هذه القاعدة، لكن جمهورية مهاباد كانت أكثر بقليل من دولة قروية حيث كانت تجلب الدعم والمساندة من الضواحي القريبة منها فقط. وحتى هذه الدولة الكردية الأولى فشلت في إثارة الحماسة لدى الأكراد عبر الحدود الذين أبدوا مواقفهم بوضوح وذلك بإقامة تنظيمات خاصة بهم بنتائجها الكارثية التي رأيناها.

وفي هذه الأيام تؤدي النزاعات الكردية، التي يدرك أسبابها القليلون، إلى التجزئة والانقسامات المفرطة وإلى المناورات بين الزعماء من أجل السلطة المحدودة المقترحة. وقد كانت الجبهة الكردستانية التي أسسها مسعود البرزاني وجلال الطالباني وبقية الزعماء في نهاية الحرب العراقية الإيرانية أول مرة تجتمع فيها الجماعات الكردية المختلفة.

وقد ضَمِنَ القمع الحكومي في كل من تركيا وإيران بأنه لن يظهر إلى حيزّ الوجود حركة قوية. وقد كانت النتيجة في إيران هو اعتماد الأكراد فيها على أنفسهم، والتركيز على شؤونهم وقضاياهم، وإلى قليل من التعامل [مع الأكراد] من أجل تعاون عبر الحدود. أما في أنقرة فقد بدأت قسوة الحكومات المتصلبة المتعاقبة إلى إبراز رد فعل أعنف وأكثر اشتباكاً، حيث وصل إلى أوجه في نضال pkk المرير الذي يدّعي بأنه يتحدث باسم الأكراد في الدول الأخرى بالإضافة إلى أكراد تركيا، ولكن قليلون جداً في إيران والعراق يعترفون بهذه الجماعة الماركسية كممثلة عنهم.

وربما تكون منظمة التحرير الفلسطينية ـ التي لم تنجح[1] في تحرير انش واحد من أرض فلسطين، لكنها أبقت القضية الفلسطينية بثبات في طليعة الاهتمام الدولي ـ مثلاً يحتذى به الأكراد. ولكن يجب ألا يُغالى في رسم التشابه بين محنة الفلسطينيين ومحنة الأكراد. فلدى الأكراد على الأقل ميزة العيش على أراضيهم، وإن كانت معرّضة للانتهاكات التي سببتها سياسات التعريب والتتريك.

---

(١) صدر الكتاب قبل التوقيع على معاهدة أوسلو التي منحت (م.ت.ف) حكماً ذاتياً محدوداً على قِطاع غزة. المترجم

وعلى العكس من ذلك يعيش معظم الفلسطينيين في المنفى بعد أن تركوا ديارهم إثر إعلان اسرائيل عام ١٩٤٨ .والقواد الأكراد مدركون لعِبرة الهجرة الجماعية الفلسطينية وهذا ما يبّرر حقيقة أنهم يشجّعون بشكل دائم للعودة إلى ديارهم - رغم كل المخاطر - كلما طُردوا منها وإلا فـإنهم سيخسرون أرضهم إلى الأبد.

إن نجاح (م.ت.ف) يعتمد على عدة عوامل :أولى هـذه العوامـل هـو وجـود عـدو واحـد ذو شخصية سياسية وجغرافية وعرقية ودينية، وثانياً بسبب الدعم والمسـاندة مـن دول إقليميـة قويـة، ثالثـاً وجود قاعدة مثقفة ومحكنة وقادرة على التعبير عن مشاعرها وأفكارهـا بوضـوح، رابعـاً بسـبب وجـود قائد قادر على توحيد جماعات وأفراد ذوي أهداف ومُثُل وأساليب مختلفـة بـل متضاربـة غالبـاً. وبجعـل (م.ت.ف) قادرة على التوفيق بين زعماء مختلفين بإفراط مثل الماركسي جـورج حبـش واليميـني خـالد حسن،وبتمثيل الوجهاء البورجوازيين من الضفة الغربية و[الفقـراء] المحرومـين في قطـاع غـزة، اسـتطاع ياسر عرفات أن يفعل أكثر من أي شخص آخر في إبقاء فلسطين على لائحة الاهتمامات الدولية. لقـد وفرتّ (م.ت.ف) المظلة التي يجتمع تحتها الفلسطينيون من كل الاتجاهـات للنضـال مـن أجـل أهدافهـم كل حسب منهاجه وأسلوبه.

لكن ياسر عرفات فَقَدَ هذه الميزة السياسية الـتي اكتسـبها خاصـة بعـد الغـزو الاسـرائيلي لـ (لبنان) وفي أثناء حرب الخليج. لكنه استطاع دائماً أن يوّحد كل الفلسطينيين تقريبا،ً على الأقـل، بمـا فيه الكفاية لجعل صوتهم مسموعاً.

إن الأكراد ليس لديهم رئيس كهذا وإذا كان ملا مصطفى الأقرب بين الأكـراد مـن عرفـات فإنه كان يفتقرإلى الحسّ السياسي القوي لدى القائد الفلسطيني أو عزمه الوطيد أو قدرته على التكّيـف بتوجهاته كما يستدعي الموقف. صحيحٌ أن الملا مصطفى كان بطـلاً كردياً أسـطورياً،ً لكنـه لم يكـن ديبلوماسياً ولا حتى سياسياً جيداً، ولم يكن حوله أحد يستطيع مساعدته. وإذا استطاع ملامصطفى أن يحشد القبائل فإنه لم يستطع أبداً أن يسـتحوذ على اعجـاب الأكـراد الذيـن انتقلـوا تدريجيـاً إلى المـدن والذين تزايد دورهم أهمية أكثر فأكثر. لقد كان يطالب بالحد الأقصى عندما يشعر بأنه في موقع قـوة، ويقبل التسوية عندما يتغلب عليه العراقيون.

لقد فهِمَ ملا مصطفـى الأسـاليب السياسـية القبليـة، ولكـن ليـس التفـاعل بـين الشـخصيات ومصالحها والتي هيمنت على سير الأمور في بغداد، ولم يحاول تأليب جماعة ضد أخـرى وذلـك بـالتودد

إلى الجيش أو استغلال ضعف حزب البعث. لقد كان قائداً ذو أساليب بالية، وكان [شعاره] كل شيء أو لا شيء على الأطلاق فانتهى دون أن يحقق شيئاً. ويبدو ملا مصطفى وهو سيد ريفي بالدرجة الأولى جعلته ميوله السياسة الفتية الآخرينَ أن يدفعوه للعب دور لم يكن يرغب به حقاً، دور أعظم وأكثر سحراً للجماهير وأكثر دهاءً على الضد مما كان عليه في وقته بالفعل.

لكن الملا مصطفى كان صلة الوصل بين العناصر التقليدية والعناصر المجددة فقد كان زعيماً قبلياً وأصبح، وفق المصطلحات الحديثة قائداً لنضال التحرر القومي. إن هذه العناصرَ المزدوجة [التقليدية والمجددة] لا تزال حليفة بين الأكراد، ولكن عبر السنين أصبح للمثقفين والانتلجنسيا[1] المتمركزة في المدن نفوذاً متزايداً باطّراد في الحركة القومية. فالحزب الديمقراطي الكردستاني في العراق، مثلاً، ورغم إنه يرتبط ب(ملا مصطفى) واسرته فإنه في الحقيقة يسير على مناهج حديثة من قِبل قيادة غير عشائرية ومدنية غالباً.

لكن صعود المثقفين اللاقبليين أصبح ممكناً فقط بسبب العرف القبلي الواضح والقوي والذي أبقى فكرة القومية الكردية متقدة، وإلا لإنحلّ الأكراد في مجتمعات الدول التي يعيشون فيها. وقد كان القوميون المدنيون، وخاصة في العراق، هم الذين تمكنوا من لجم قوة الحركة القبلية وإبعادها عن النزاعات الطائفية ومن ثم توجيهها نحو الأهداف القومية. ولم تكن الانتلجنسيا المدنية نشطةً على الجبهة السياسية فحسب، بل لعبت أيضاً دوراً هاماً في خلق ثقافة كردية في ميادين الأدب والشعر والسينما والتي ساهمت في إقامة إطار ثقافي لأمة عصرية أكثر من أن تكون مجرد أمة متمسكة بالتقاليد.

ولكن تبقى النشاطات السياسية الوطنية محصورة ـ رغم انبثاق تدريجي لثقافة شاملة لكل الأكراد ـ بشكلٍ صارم ضمن الحدود القومية للدول الأقليمية [التي تقتسم كردستان]. إن الحاجة إلى التعامل مع العدو الداخلي، مُمثلاً بالسلطة المركزية ـ صدام حسين في حالة العراق ــ قد أدى إلى عدم انبثاق حركة سياسية شاملة لكل الأكراد. وهذا نقص يُمكن إدراك أسبابه: فبسبب انعدام حلفاء موثوقين يمكن الاعتماد عليهم،وجد الأكراد أنفسهم ملزمين بالقتال والنضال بالتدريج ضد مضطهديهم. وعندما تخفق ثوراتهم، كما في كردستان العراق عام ١٩٩١ ،لا يمكنهم التطّلع إلى الخارج من أجل الدعم والمساندة ولهذا يُجبرون على التفاوض والتسوية مع الدولة. ولكن هذا النقص

---

(١) الانتلجنسيا: فئة اجتماعية تتألف من أناس يمارسون نشاطاً فكرياً، بحكم مهنهم. ومنهم رجال العلم والفن والمهندسون والمحامون والأطباء والمعلمون. المترجم

المحتوم تسببّ في ضعف سياسي آخر ألا وهو ميل القوميين الأكـراد نحـو رؤيـة مسـتقبلهم السياسـي في إطار الدول التي يعيشون فيها وليس في إطار الدولة الكردية. وهكذا فإن القادة السياسيين في كردسـتان العراق راغبون جداً بتقديم مطالبِهم إلى الحكومة التي تنحصر في منـح منـاصب وزاريـة معينـة للأكـراد أثناء استمرارهم في مطالبتهم بالحكم الذاتي.

وبرفض فكرة الاستقلال التام، لأسباب براغماتية مفهومة تمامـاً، يقبـل القـادة القوميـون بـأن الأكراد سيبقون أقلية في ـ المستقبل المنظور ـ في الدول التي يقيمون فيها، وسيكّون الأكراد إذا ما كانوا مستقلين ومتحدين دولة أكبر من معظم جيرانها.

إنها رؤية مستقبلية أُجبر الأكراد على تبنيها نتيجة التجربة المرّة. ففي العصور الماضية اسـتعمل كل من العثمانيين والصفويين والعرب والبريطانيين، الأكرادَ كأداة لهـم [وقتمـا يشـاءون] في دولـة تلـو الأخرى عندما كانت الحاجة تقتضـي تمـرداً هنـا، أو خلافـاً عشـائرياً هنـاك أو قلاقـل مدنيـة في مكـان آخر.وقد كان الأكراد يصّدقون أحياناً عهود الفاتحين والمحتلين ويشعرون بالحزن والاستياء كلما خُدعوا وهو ما كان يحدث دائماً.

إن رد الفعل الدولي تجاه محنة الأكراد الذين فرّوا من صدام حسين في ربيع ١٩٩١ يجعـل مـن غير المحتمل أن تتم مهاجمتهم بدون رحمة مرة أخرى، أو أن يقعوا ضحايا لذلك النوع الذي تجنب العالم بحذر رؤيته في حلبجة[1]، كما أنه من غير المحتمل أن تقوم الولايـات المتحـدة وحلفائهـا بعمليـة كتلـك التي أقامت ملا ذات آمنة في شماليّ العـراق ومنعـت الجيـش العراقـي مـن ممارسـة سـلطته ضمـن حـدود دولته.وربما لن يحتاج صدام حسين إلى الحرس الجمهوري لاخضـاع الأكـراد مـرة أخـرى فالاغتيـالات المنظّمة والاعتقالات والمضايقات المستمرة والتمييز الاقتصادي يمكن أن تكون فعّالة مثل كتائب الجنـود كما أنها لن تثير تدخلاً خارجياً أو حتى لفت الأنظار. وعندما كـان الحلفـاء يعطـون العهـود للأكـراد بالاستمرار في حمايتهم لدى انسـحابهم مـن العـراق في شـهر حزيـران ١٩٩١ كـان هـؤلاء [الأكـراد] يتساءلون ما الذي سيجعل الحلفاء يشـنون هجومـاً بقـوة الـردع الموجـودة في سـلوبي؟ مقتـل شـخص واحد؟أم مقتل دزنية؟ الاستيلاء على قرية كردية واحدة من قِبل العرب؟ قريتان؟ بالطبع لم يكـن هنـاك جواب، ولم يكن مقّدراً له أن يُوجد.و قد أدرك الأكرادُ ذلك جيداً وفهِموا أيضاً بأن اتفاقية

(١) مبالغة في تأثير الرأي العام الدولي يتمسك بها الاعلام الغربي وتؤثر سلباً على نضال الأكراد (هـ .ع)

بضمانات [دولية] مع صدام حسين هي السبيل الوحيد لضمان مستقبل آمن.

لم تجلب حرب الحلفاء معها سوى القليل من الفائدة للأكراد سواء في العراق أو في أماكن أخرى. ففي تركيا أصبح الوضع أسوء بوجود الحلفاء إذ كانت هناك مزاعمَ من pkk بأن قوات الحلفاء تساعد الأتراك،ورغم أنه لم يكن هناك أي دليل على ذلك فإن بجرد وجود الحلفاء قد أغلق بشكل طبيعي مناطق معينة في وجه قوات pkk وخلقت مصاعب لتنفيذ عملياتهم. وكانت هناك أيضاً أسئلة حول دوافع الرئيس أوزال من إصدار الأوامر بانضمام الجنود الأتراك إلى قوة الردّ السريع إذ بدا الزعيم التركي، الذي كان لايزال يدير الأمور بمفرده، رغم ضعف شعبيته السياسية، مصمماً على وضع تركيا في موقع، يستطيع منه أن يمدّ نفوذها إلى شمالي العراق تماماً كما فعل في بداية الأزمة.

وبسبب صدّ الحلفاء له للمرة الثانية أخذ أوزال صفحةً من الكتاب الاسرائيلي فأعلن عن عزمه إقامة ((منطقة آمنة)) على طول الحدود ـ على الجانب العراقي بالطبع. إن إجراءً دفاعياً إضافياً كهذا سيجعل الأمور أكثر صعوبة لقوات pkk لكنه لن يحل المشكلة أكثر من المنطقة الاسرائيلية العازلة في جنوبي لبنان لمنع الفلسطينيين من شنّ الهجمات على اسرائيل. ويبدو أن الشيء المؤكد الوحيد هو أنه سيخلق مشكلةً في المستقبل :فلن يبقى العراقيون طويلاً أمةً مروّعة مستعبَدة ومنزوعة السلاح،والعراق المستقل القادر على التطور اقتصادياً لن يسمح باحتلال حتى جزء صغير من أراضيه من قِبل تركيا. وقد يتسبب هذا الاجراء الصغير الذي اتخذه الرئيس أوزال بمشكلة كبيرة رئيسية في المستقبل.

وفي إيران بقي النظام الإيراني بعد انتهاء الحرب مصَمماً على إرباك العراقيين والتخفيض التدريجي للقوة العراقية المتبقية حتى تتأكد [إيران] من أنها لن تشكلّ خطراً على طهران. وبنتيجة ذلك كان هناك تعاون عبر الحدود مع الأكراد العراقيين،لكن الإيرانيين ركزوا غالباً على إثارة المشاكل في جنوبي العراق وذلك بدعم الشيعة هناك حيث بقي حوالي ثلاثين ألفاً منهم في منطقة الأهوار بعد إنهاء التمرد.

وبخلاف العادة كان هناك صمت من جانب سورية. فبعد سنوات مخَيبة للآمال كزبون للاتحاد السوفيتي،اختار الرئيس حافظ الأسد اللحظة المناسبة لتغير أحصنته [كما في لعبة الشطرنج] وأيد بإخلاص الأمريكيين ضد العراق،خصمه القديم، ولمدة عدة أسابيع، عندما شجّع الحلفاء تقديم المساعدة للأكراد في العراق،سُمِح لإخوانهم في سورية بتقديم المساعدة المادية والمعنوية، فكانوا يساعدون أكراد

العراق عبر خطوط الاتصال الصعبة،مرسلين المساعدات ومستضيفين كل القادة الأكراد الذين ذهبوا إلى مسقط رأسهم عن طريق سورية لكنه كان ربيعاً قصيراً،والأفكار التي راودت أكراد سورية بالطموح إلى نوع من الحكم الذاتي لأنفسهم تلاشت بسرعة إذْ كان يكفي تحذيرهم من مغبة إثارة القلاقل والمشاكل فسمِعوا وفهموا ولم يحصل شيء.

وهذا مثال آخر عن المصاعب التي تواجه الأكراد بسبب تشتتهم بين خمس دول، فلو كانوا متجمعين في دولة واحدة لربما حصلوا على الاستقلال في مثل هذا الوقت. ولكن في نظر غالبية سكان الدول التي يعيشون فيها يعتبر الأكراد مواطنين من الدرجة الثانية:في تركيا لأنهم يعدّون رحعيين ومن أنباء منطقة نائية وقاحلة، وفي إيران لأنهم جزء من الأمة الإيرانية، وفي العراق وسورية بسبب أقبح الجرائم على الإطلاق :كونهم ليسوا عرباً. ورغم كل ما ورد في القرآن حول التسامح لم يُعامَل المواطنون من غير العرب في الدول العربية على قدم المساواة مع السكان العرب(١).

وقد استنبطت القومية العربية، التي برزت أثناء [حكم] الامبراطورية العثمانية بعد انقلاب (تركيا الفتاة) مذهباً مقصوراً على العرب ويميل إلى رفض حقوق الأقليات من غير العرب في الشرق الأوسط. ففي المذهب الفريد من نوعه لحزب البعث، أكثر الجماعات تطرفاً في القومية العربية، تُعدّ المناطق الكردية في سورية والعراق أراضٍ عربية رغم أن الحقيقة تقول أنها لم تشهد في التاريخ استيطاناً وثقافة عربية. ومن السخرية بمكان أن القوى الخارجية تميل إلى هذا الرأي العروبي المركزي فتعتبر هذه المناطق حكراً على العرب، والتي يعيش فيها قوميات أخرى، بغّض النظر عن حجمها، ولها وضع أقليات غريبة في أوطانها. وهذا يعني أن الفلسطينيين بكل دعواتهم التي لاجدال فيها ليتم التعامل معهم بإنصاف قد هيمنوا على جدول أعمال [السياسة] الدولية بشأن الشرق الأوسط مما ألحق الضرر بالجاليات اللاعربية وفي مقدمتهم الأكراد.

ويميل القوميون العرب أيضاً إلى التغاضي(٢) عن الدور الذي لعبه غير العرب في تاريخهم

---

(١) سوء فهم مألوف عند الغربيين. إن التمييز في البلدان العربية أكثر ما يكون ضد الأقليات الدينية. والمسلم العربي أقرب إلى المسلم الكردي منه إلى المسيحي العربي في الغالب (هـ ـ ع)

(٢) لايتغاضى القوميون عن دور غير العرب في التاريخ انما يسعون لتعريبهم بادعاء انساب عربية لهم، فصلاح الدين بطل عربي وابن عساكر مؤرخ عربي! (هـ ـ ع)

وثقافتهم،سواء أكانوا قواداً عظاماً من أمثال صلاح الدين أو كاتب سيَر ومؤرخ قروسطيّ كبير مثل ابن خلكان الكردي الأصل أيضاً. وفي العصور الحديثة أيضاً برز الأكراد في الاتجاه السائد بالشرق الأوسط. فأول انقلاب في العالم العربي الحديث كان العراق مسرحاً له وقام به شخص كردي هو بكر صدقي في عام ١٩٣٦. وفي القرن العشرين كانت بعض أكبر الأسر المالكة للأرض في سورية من أغنياء الأكراد، وقد قدّم البرازيون للدولة السورية المستقلة حديثاً رئيسين للوزراء. وفي لبنان يُقال أن سلالة الجنبلاطيين الدرزية الكبيرة الحاكمة من أصل كردي(١).

والشيء اللافت في ضوء كل ما جرى هو أن الأكراد لم يلجأوا إلى أسلحة حرب العصابات الحديثة من اختطاف للطائرات أو أخذ رهائن أو تفجير القنابل [في أماكن عامة]. وهذا بالتأكيد ليس نتيجة الافتقار إلى المعرفة بتلك الأساليب أو الفرصة المناسبة للقيام بذلك، فبإنضمام الأكراد إلى الجيوش النظامية ضمنِت كل الدول المعنية بمجموعة من المقاتلين الأقوياء المَهَرَة، والكثير منهم خبراء في استعمال المتفجرات. ويعود ذلك في جزء منه إلى قرار سياسي: فالزعماء الأكراد، رغم الخلافات السياسية فيما بينهم مدركون تماماً بأنهم سوف يخسرون الأرتياح العالمي [لهم] إذا ما لجأوا إلى الإرهاب(٢). فلم يكن ممكناً حتى مجرد التفكير بعملية الانقاذ الضنينة والمتأخرة التي قام بها الأمريكيون إذا ما كان الأكراد متورطين في حوادث اختطاف الرهائن والطائرات. لكنها تعود أيضاً إلى النفسية الكردية : فتاريخهم حافل بالمواجهات المكشوفة مع أعدائهم في معارك ضارية، وبالحروب المفتوحة،ولكن ليس بالعمليات السرية بين المدنيين.

وإذا حدث تغيير ـ وهذا ممكن ـ لن يكون هناك نقص في عدد المتطوعين لأن القضية ستأخذ الأسبقية على المعارضة الداخلية لإستخدام هكذا أساليب. لكن العشرات من الأكراد الذين تحدثنا(٣) معهم أبلغونا بأنهم سيشعرون بحزن شديد إذا ما حدث تطور كهذا .إنهم يفهمون ذلك، ولكنهم غير سعداء، وبنتيجة ذلك فإن القادة والساسة يبذلون قصارى جهدهم لتجنب وضع كهذا الذي قد يجعل الجيل الشاب يقرر بأن المواجهة المباشرة فقط على الطريقة الفلسطينية يمكن أن تعطي ثماراً.

---

(١) لا يُقال انما هو مؤكد. وأصل الاسم جان بولاد وهو اسم كردي (هـ .ع)

(٢) ارهاب نفسي ضد الأكراد يؤدي إلى تضييق أبواب العمل أمامهم (هـ .ع)

(٣) الأكراد الذين يتحدث معهم الصحفيون الغربيون هم المثقفون وهؤلاء لا يعبرون تماماً عن أحاسيس الشعب الكردي (هـ ـ ع)

ربما تكون واحدةً من أهم التطورات بالنسبة للأكراد هو الارتفاع المفاجيء في الشعور القومي الذي رافق تحرر أوروبا الشرقية[1] وإنهيار الاتحاد السوفيتي. فبعض الأقليات المنسية طويلاً والتي لم يُسمع بها تطالب الآن بحقها في الاستقلال على أسس تبدو أضعف من تلك التي ترتكز عليها المطالب الكردية من أجل الحكم الذاتي. وفي الحقيقة لا يتمتع الأكراد حتى الآن بصفة مراقب في الأمم المتحدة، وهو حق مُنح للأمة الفلسطينية الأصغر حجماً بكثير وبعد أن أخذ الرعايا السابقين للامبراطورية السوفيتية مكانهم في الأمم المتحدة لا بد وأن الأكراد يتساءلون: إذا كانت هناك كازاخستان مستقلة أو أذربيجان مستقلة فلماذا لاتكون هناك كردستان مستقلة؟ ومن السخريات أن الكثير من الأكراد قد أُجبروا على الفرار من أرمينية وأوزبكستان لطلب اللجوء في الجمهورية الروسية بسبب اضطهاد القوميين المحليين لهم وحتى عندما سعى الآخرون لتعزيز مطالبهم بإقامة دولتهم كان الأكراد يعانون. في ظل الأضطراب الذي يسود الإتحاد السوفييتي، ربما تكون هناك فرصة لإقامة منطقة (ليشين)Lechin الكردية المتمتعة بالحكم الذاتي، والتي دامت ستّ سنوات بعد أن أسسها لينين. وربما تنفع [تلك المنطقة] نموذجاً للحركة الكردية في أماكن أخرى رغم إن إعادة بنائها يبقى حلماً بعيد المنال.

ففي الوقت الذي قد تكون فيه دول العالم[2] قادرة على القبول بنهاية الإتحاد السوفيتي واستبداله بمجموعة من الدول المستقلة المتباينة في كبرها أو صغرها يصعب الاعتراف بإمكانية وجود كردستان مستقلة وموحدة. فقد ضعفَ العراق لكنه لم يُدّمر، وسوف يواجه خطوة كهذه باعتبارها تهديداً لوجوده القومي، وتركيا قويةً وحليفةً للغرب ولها مصالحها الخاصة المرتبطة بشكل أساسي بالتغيرات التي طرأت على الإتحاد السوفيتي، وتحلم بدولة طورانية تتكلم التركية وتمتد حتى هيليسبونت Hellespont في آسيا الوسطى، وهذه الدولة لم تعُد بعيدة الاحتمال كما كانت في السابق. ولن يكون للأكراد نصيب في هذا المشروع بل سيستمرون بالبقاء كعقبة ومصدر إزعاج وأرض غير تركية في الفيدرالية التركية الواسعة الأرجاء.

والسبب الوحيد لتفاؤل الأكراد هو أن قضيتهم تصل على الأقل إلى العالم الخارجي، خاصةً بسبب الآلام التي أصابتهم بعد حرب الكويت. وقد فاق الهزيمة العسكرية أهميةً إلى حدٍ ما، تغييرٌ في

---

(١) تحررها من الشيوعية ووقوعها في قبضة انظمة المافيا الغربية (هـ . ع)

(٢) دول العالم يقصدان دول أوربا وأمريكا الشمالية. ومن المعتاد أن يتكلم الغربيون عن العالم بهذا الاطار .. (هـ.ع)

فهم العالم الخارجي للقضية الكردية. حيث يوجد الآن عدد ضخم من الجاليات الكردية الرفيعة الثقافة والمتمدنة في الولايات المتحدة وأوروبا الغربية وفي أماكن أخرى والتي تتعلم شيئاً فشيئاً أساليب لفت أنظار العالم إلى مطالبهم القومية.

بعد أيام من موت ستالين، سافر المنفيّ ملا مصطفى - الذي عَمِلَ خلال فترة منفاه في مزرعة للفواكه - إلى موسكو فذهب إلى مكتب استعلامات الكرملين، وطرق بشدة على الباب وعندما سأله أحد الحرّاس عمَّ يريد؟

أجاب البرزاني:

((لستُ أنا من طرق، إنها الثورة الكردية تطرق على باب الكرملين))

لايزال الأكراد يطرقون على الباب ولكن طرقهم الآن أقوى وأعلى.

* * *

دمشق

٩٦/٦/١٣

الفهرست

المؤلفان في سطور VI

كلمة شكر من المؤلفين VII

كلمة شكر من المترجم VIII

ملاحظات المترجم IX

الأهداء X

تقديم XIII

الفصل الأول:الأنتفاضة ٣

الفصل الثاني:الملاذ الآمن ٢٥

الفصل الثالث:أصل الكرد ومنشؤهم ٤٥

الفصل الرابع:الخديعة الكبرى ٦٧

الفصل الخامس:جمهورية مهاباد ٩١

الفصل السادس:النضال من أجل الحكم الذاتي ١١١

الفصل السابع:حلبجة ١٣٣

الفصل الثامن:أتراك الجبال ١٥٧

الفصل التاسع:جريمة في فيينا ١٧٧

الفصل العاشر:الأمة والقبيلة ١٠٢

الخطأ	الصواب	الصفحة
يبدوا	يبدو	XV
لقف	لوقف	٣
أكثر من اربع ملايين	أكثر من أربعة ملايين	
خمس ملايين	خمسة ملايين	٦
و عشر ملايين	عشرة ملايين	
إذا ما هُجِمَ	إذا ما هوجم	١٠
دائرة ستخبارات ممتازة على–	دائرة استخبارات ممتازة عن –	١١
وفإذا	فإذا	١٢
إدارة مدينة	إدارة مدنية	٢٥
لم يبدو	لم يبدُ	٣١
لم تستطع	لم تستطع	٣١
كما استغلوا الوضع السابق	كما استغلنا	٤٤
لهذا اختطفوا	لهذا احتفظوا	٥٢
و كان معركة يحكم النصف الشرقي	وكان يحكم النصف الشرقي	٥٦
مجدها	يحدها	٥٧
المقاطعات عملياً(مكررة مرتين)		٥٧
كقوتين متنافستين(تداخل مع الهامش)		٦٣
بمساعدة من	بمساعدة – –من	٦٦
كانت عادة	كانت العشائر تقترن عادة	٦٩
و بسبب	بسبب	٧١
مندوببين	مندوبين	٧٣
مما جعلوا حلفاءه	مما جعل حلفاءه	٧٤
و قد أعلن عن الاهتمام الأمريكي	لقد أُعلن	٨١
الجنرال باشا	الجنرال شريف باشا(هامش)	٨٧
و إذا كان هناك ذكرى	و إذا كانت هناك	٨٩
لم يكن هناك حاجة	لم تكن هناك حاجة	٩٢
لم يبدو	لم يبدُ	٩٥
بسبب إهمالهم	بسبب إهمالها	٩٧
بعد أن صدَّ السوفييتين	السوفييت	٩٨

الخطـأ	الصـواب	الصفحـة
من أجل إمكانية الحصول	مقابل الحصول	٩٩
ضمانان	ضمانات	١٠٦
حكم الاعدام بـ	حكم الاعدام شنقاً بـ ( )	١٠٧
بوابل من القبائل	بوابل من القنابل	١١٣
الزعماء القبليين من قوم البرزاني	الزعماء القبليين الأكراد	١١٣
كما فعل بعد ثلاثين عام	كما فعل بعد ثلاثين عاماً	١١٧
فرحة بما اعتبرته نهاية النزاع	فرحة	١٢٢
كاننصيب	كان نصيب	١٢٣
بين العراق الأكراد	بين العراق و الأكراد	١٢٦
الآمـنين في جبالهم	آمنين في جبالهم	١٢٦
سوف يتم التخلي عنهم	سوف لن يتم التخلي عنهم	١٣٠
القاضي	القاصي (هامش)	١٣٥
تم اختباره	تم اختياره	١٤٣
التواصل	التوصـل	١٤٧
أحد و عشرين شخص	واحد و عشرين شخصـاً	١٤٨
بادنيان	بادينان	١٥٠
إلى مزيد في المعاناة	إلى مزيد من المعاناة	١٥٢
إن إلقاء	إن إلغاء	١٥٧
كل ما حرى	كل ما جرى	١٥٨
عدوات	عداوات	١٦١
يمكن أن يكون لها تخريبي	يمكن أن يكون لها أثر تخريبي	١٦٤
الطرق الثوري	الطريق الثوري	١٦٥
و كان الجيش معلماً مفيد	و كان الجيش معلماً مفيداً	١٦٥
دباربكر	ديار بكر	١٦٦
ليس هناك مشكلة	ليست هناك	١٦٨
سهروردي	سهرودي	١٧٨-١٧٩
المعارضيين	المعارضين	١٨٠
بإيجاء سوري	بإيحاء سوري	١٨٢
أوروبية	أوربية	١٨٢

الخطأ	الصواب	الصفحة
محتفظين	محتفظين	١٨٣
كانت للجرب	كانت للحرب	١٨٣
يتوددان إلى القائل	يتوددان إلىالقبائل	١٨٤
عادروا	غادروا	١٨٦
بأكماها	بأكملها	١٨٨
كان ستؤثر على نفسية	كانت ستؤثر	١٩١
كونهم مذنبيين	كونهم مذنبين	١٩١
صور مفرغة	صور مفزعة	١٩١
سنحار	سنجار	١٩٥
شعب بلا حضارة	بلا حضارة	١٩٦
سياسه التحهيل	سياسة التجهيل (هامش)	١٩٦
المشاعر الأكراد	لمشاعر الأكراد	١٩٨
إن الأكراد	الأكراد	٢٠١
عما جرى	عمّ جرى	٢٠٢
و إذا كان ثمة سياسة	و إذا كانت ثمة سياسة	٢٠٣
تمتد حتى هيلسبونت في آسيا الوسطى	تمتد من آسيا الوسطىحتى الدردنيل	٢٢١
لست أنا من طرق	لست أنا من يطرق	٢٢٢